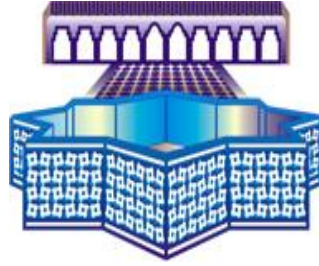


جامعة سيدي محمد بن عبد الله

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ظهر المهرز - فاس -



مركز الدكتوراه: الجماليات وعلوم الإنسان

تكوين الدكتوراه: التعبير والأشكال الرمزية

التخصص: اللغة العربية وآدبها

كتاب

"La teoría de la comunicación La comunicación, La vida y la sociedad"

لمؤلفه

Manuel Martín Serrano

_ ترجمة وتعليق _

(الجزء الأول)

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب

إشراف الأستاذ الدكتور

كمال الناجي

إعداد الطالب الباحث

جلال مبسوط

ر.و.ط 05/22744675

السنة الجامعية

2018-2017

كلمة شكر و عرفان

الحمد لله والصلاة و السلام على رسول الله أشرف الخلق والمرسلين.

الشكر أوله و آخره للمنعم الباري الذي منّ علي ويسر لي إتمام هذا العمل.

الشكر الجزيل للأستاذ الفاضل الدكتور كمال الناجي على ما أسداه لي من توجيهات نيرة و نصائح

قيمة ساهمت في إنارة درب البحث، وتدليل الصعاب.

والشكر موصول أيضا لكل أساتذتي الأفاضل على دعمهم و تشجيعهم المستمر، و لكل من ساهم

من بعيد أو قريب لإخراج هذا العمل.

مدخل

من المعلوم أن الشعوب لا يمكنها أن تعيش بمعزل عن بعضها بعض، نظرا لوجود مجموعة من العوامل المختلفة التي تتدخل وتساهم في تقاربها وتعايشها - سواء كانت هذه العوامل اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو ثقافية - وتتحكم في طبيعة هذا التعايش ومدى تداخله؛ ولعل عملية الترجمة في شموليتها تعتبر واحدة من بين هذه العوامل الثقافية والفكرية التي تحمل أبعادا تتجلى أساسا في إثراء التراث الإنساني ورفع العزلة الثقافية بين الحضارات والأمم، حيث كان كل شعب يتعرف من خلالها على آداب الشعوب الأخرى، فيستفيد ويأخذ منها معلومات وفيرة حول الواقع الاجتماعي والحضاري لتلك الشعوب.

لذلك ارتأينا في هذا المقام أن نعالج إشكالية الترجمة ومساهمتها في مد جسور التواصل والتفاعل بين الحضارات، وذلك من خلال الإجابة عن بعض الأسئلة التي طرحناها في هذا السياق من قبيل: هل تعتبر الترجمة وسيلة من وسائل التواصل الثقافي؟ وبأي صيغة من الصيغ تساهم في تلاحق الثقافات وخلق الجسور التواصلية بين الحضارات؟ وكيف يمكنها أن تحقق هذه الوظيفة بين الثقافات رغم اختلاف مشاربيها؟

يمكننا من خلال هذه الأسئلة وغيرها أن نفتح ونشير إلى الدور الطلائعي الذي تؤديه الترجمة وعلاقتها بالتداخل الثقافي بين الحضارات وكذا الوظيفة التواصلية التي هي جوهرها الأساسي.

مما لا شك فيه أن عملية الترجمة ليست بنشاط ثانوي يقتصر على معيار لساني يتجلى في كونها عبارة عن عملية نقل من لغة إلى لغة أخرى، كما هو متداول، بل تجاوزت جوهرها التقني الكلاسيكي إلى ممارسة مركزية تستدعي ما هو نظري وثقافي واقتصادي وكذا اجتماعي، وأصبحت آلية من الآليات المسخرة من القدم لتعايش الأمم والشعوب، لاسيما وأنها تحظى بمكانة متميزة بفضل إسهامها الفعال والكبير في معرفة الآخر والانفتاح عليه وعلى ثقافته، ثم الدخول معه في حوار، ولعل هذا ما أكده أنطوان برمان حينما قال إن "عملية الترجمة هي بمنزلة اكتشاف للآخر، أي للغته ولثقافته، أو هي بسط لثنايا أفكاره وتفسيرها وتأويلها وإعادة صياغتها"¹.

لذلك تعتبر الترجمة من أهم الوسائل المستخدمة في خلق هذا التفاعل الثقافي والحضاري الذي يمكن الشعوب من الاستفادة من بعضها البعض، حيث إنها عبارة عن "طاقة منبع للخلق والإبداع ... ، وأيضا

¹ أنطوان برمان، الترجمة والحرف أو مقام البعد، تر. عز الدين الخطابي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ط. 1، 2010، ص. 18.

انفتاح وإنصات وتجاوز وتفاعل مع الآخر²، فهذا كلما تزايدت حركة الترجمة من لغة ما إلى اللغات الأخرى تزايد بذلك الثراء الثقافي في الحضارة الإنسانية عموماً، لأن بواسطتها يتم شق السبل لمعرفة الثقافات الأخرى والاطلاع على أعرافها وتقاليدها ثم الاستفادة منها ومن تجاربها على مستوى جميع المجالات.

والواقع أن حضورها مرتبط بهذا التعايش والتفاعل بين الحضارات، لأنها تسهم في ربط أشكال التواصل بين جموع البشرية في مختلف بقاع العالم رغم اختلاف لغاتها، حيث جاء على لسان أنطوان برمان "الن تكون منهجية، إلا إذا كانت عملية تواصلية وناقلة (لرسائل) لغة الانطلاق ... إلى لغة الوصول ..."³، مما يعني أن دورها الأساسي الذي تقوم به يتجلى في تحقيقها التواصل الذي يعد من وظائفها الجوهرية التي تراهن عليها، ومن ثم لا يمكننا الحديث عنها دون استحضار هذا البعد التواصلية الذي تمثله، فلا طائل من وراء ترجمة لا تحقق توصالاً فعالاً بين الثقافات، لأن هذا التواصل إذا تحقق تكون لا محالة استفادة متبادلة بين الثقافات، وهذا ما أثبتته المصطفى عمراني في مقاله الترجمة بين المثاقفة والعولمة حينما ذهب "... إلى أن الترجمة - باعتبارها جسر التواصل بين اللغات المتعددة والثقافات المختلفة والحضارات المتميزة - من الآليات التي اعتمدها المجتمعات منذ بداية تشكيلاتها الأولى وحتى هذه اللحظة، في التعريف بنمط عيشها وآدابها وفلسفتها وتقاليدها وثقافتها..."⁴

من هنا أضحت الترجمة والتواصل وجهين لعملة واحدة، بحيث تربطهما علاقة وطيدة تختزل في عمقها واقع تعايش الحضارات المختلفة في ظل التنوع الثقافي، لاسيما وأن الوجه الأول (الترجمة) يلعب دوراً طلائعياً كبيراً لتحقيق ذلك الوجه الثاني (التواصل) بين الحضارات، كما أنه السبيل الأقوى والأهم في الاطلاع على المنجزات العلمية والثقافية وتبادل المعارف، مما يتيح كذلك التعرف على ثقافات وعلوم الأمم الأخرى وكذا تجديد قدرات العقل وانفتاحه على الحركة الثقافية العالمية التي تثري التجربة الإنسانية بأشكال مختلفة.

وربما قد تكون عملية الترجمة قياساً للدرجة الحضارية والثقافية التي وصلتها الشعوب المختلفة، فالأمم التي لا تقوم بترجمة أعمال من لغات أخرى للغتها الأم، سواء كانت علمية أو ثقافية أو اقتصادية أو

² المرجع نفسه ص. 10

³ المرجع نفسه ص. 96

⁴ المصطفى عمراني، الترجمة بين المثاقفة والعولمة، مجلة فكر ونقد السنة 10 العدد 95، فبراير 2008، دار النشر المغربية، البيضاء، ص.

الاجتماعية أو فنية وتبقى حبيسة ثقافتها الخاصة، فتكون منعزلة مقطوعة عن سير الحضارة الإنسانية المعاصرة، لأن الهدف الأسمى والأساسي للترجمة حسب أنطوان برمان هو " إقامة علاقة مع الآخر [المختلف والغريب] على مستوى المكتوب وإخصاب الثقافة الخاصة عبر تلاقحها مع الثقافة الأجنبية..."⁵.

بناء على هذا يتبين جليا الدور الأساسي والهام للوساطة، والذي تلعبه عملية الترجمة في شكلها التقليدي، حيث تحقق ذلك التواصل الثقافي والفكري بين الشعوب والحضارات المختلفة، والأمر نفسه أكده المصطفى عمراني بقوله "... كنتيجة حتمية لهذا التواصل الكوني، أصبح التفاعل بين الثقافات القومية والحضارات المختلفة يعتمد على الترجمة ليس باعتبارها ترفا فكريا بل ضرورة إنسانية أملتتها شروط الاختلاف والقائمة بين الأمم، لأنه لولا هذا الاختلاف والتعدد لما كانت الترجمة ضرورية ولا حتى ممكنة"⁶، بمعنى أن من خلالها يتم إتاحة فرصة أكبر لتبادل وتلاقح ثم تولد أفكار جديدة تدعم بنية الحضارة الإنسانية عموما رغم اختلاف مشاربيها، وكذا تشكيل فضاء ملائم للحوار والمثاقفة، لأنها تعد من المحركات الأساسية والفعالة في إنتاج هذا التفاعل والتعايش التي تربط بين تلك الثقافات الإنسانية، أو بالأحرى ضرورة قصوى للتطور والنمو وتبادل الأفكار والإنجازات فما من حضارة في التاريخ إلا واغترفت من حضارات أخرى.

وإذا كانت الترجمة تحمل في طياتها فكرة التقارب والتعايش مع الآخر والإنصات إليه وإفادته والاستفادة منه، وعبرة عن جسر تواصل عظيم يربط بين مختلف الثقافات، أو بالأحرى، القناة التواصلية التي تحرص على تقليص المسافة بين الأمم عن طريق الاطلاع على أعمالها الأدبية والإبداعية ومنجزاتها وخبراتها، وكذا مساهمتها في خلق حوار ضمني بين تجارب الشعوب، عبر تفاعل وتبادل الثقافات، وتقل من حدة التباعد والتنافر فيما بينها، فإن هذا لا يتأتى بطبيعة الحال إلا إذا كانت هذه العملية التطبيقية تخضع إلى قواعد وأسس تراعي خصوصيات اللغتين (اللغة الأصل واللغة الهدف)، بحيث إن اللغة في جوهرها هي بمثابة الوسيلة الأساسية التي يعتمد عليها أطراف عملية التواصل في منظومة الترجمة، فبدون إدراك المترجم لخصائص اللغتين وقلة معرفته بالتراث الثقافي واللغوي وعدم إلمامه بخصائص أساليبه وبناءه النحوي سواء كانت لغة (الأصل أو الهدف)، بحيث إن سلاحه هو المعرفة بخبايا اللغة ودقائقها والفهم العميق للسياق الذي يترجم فيه بالإضافة إلى النص الذي هو بصدد ترجمته، فقد يجد

⁵ أنطوان برمان، ص 14
⁶ مصطفى عمراني، ص. 26.

نفسه أمام عقبات لغوية وثقافية يجب أن يتغلب عليها ويذللها حتى يتمكن من إيجاد توازن مقبول بين النصين دون أن يلحق بهما إجحافاً، ويضمن نجاح عملية التواصل بين كاتب النص باللغة الأصل والمتلقي في اللغة الهدف وحتى لا يساهم في تشويه العمل المترجم على المستويين الثقافي واللغوي معاً، لأن كل لغة تتوفر على نظام خاص بها من حيث بنية كلامها، وتركيب جملها وعباراتها فإذا اختلف هذا النظام في ناحية من نواحيه لن يتحقق الفهم والتواصل المرجو، لذا يقول الدكتور حميد لحميداني في هذا الصدد "... ويقصدون بذلك أن لا يحدث أي نوع من التنافر بين تلك المعطيات والبنية اللغوية الجديدة، على اعتبار أن هاته البنية تمثل ثقافة أخرى بل حضارة لها خصوصياتها المتميزة عن حضارة النص المنبع"⁷، بمعنى أن يكون النص المترجم في مستوى لغوي وصياغاتي تراعي خصوصية اللغة الهدف وقواعدها وكذا ضوابطها حتى لا يتيه المتلقي وينزلق بعيداً عن أسلوب ومضمون النص الأصلي وتستعصي عليه عملية الفهم والإفهام، لذلك يجب الحرص كل الحرص من قبل المترجم على ضبط كل هذه القواعد والأسس التي تساهم بنسبة كبيرة في إخراج نص في قالب جديد وفي لغة جديدة يراعي معاييرها اللغوية، والتركيبية، والدلالية، والصرفية، والنحوية والصوتية، وكذا الجانب الثقافي للغتين حتى لا تبقى عملية الترجمة مجرد عمل تقني صرف منفصل عن النسق الثقافي والسياق التاريخي للأمم والحضارات، بل عملاً منخرطاً في صلب العملية التنموية وترسيخ القيم الكونية المشتركة، واختياراً حضارياً تؤطره رؤية استراتيجية تتصل بالمترجم وبصميم فعل الترجمة الذي يزاوله، من حيث الموضوع والصياغة والغاية والهدف، من أجل بناء فضاء مشترك يمجّد الاختلاف ويترجم التعدد إلى تداول للأساليب والأدوات وتفاعل وتلاقح للمعارف والخبرات، وكذلك إعادة بناء الهويات وتحريرها من هيمنة الخطابات المتشعبة بالأنا والخصوصية التي لا تقوى على الانفتاح والنقد والمساءلة، لأن جوهرها حسب برمان هو "الانفتاح والحوار والتهجين واللاتمركز"⁸.

لعل ما يؤكد هذه الوظيفة التواصلية التي تقوم بها الترجمة هو أن الحضارات الإنسانية قد عرفت على مر التاريخ أشكالاً مختلفة من التلاقح والتواصل، وذلك بتبادل المعارف والخبرات في ظل الاعتراف بالتنوع الثقافي، إذ تفاعلت فيما بينها واغترفت من بعضها البعض في مجالات متعددة كالأدب والفلسفة والطب، وسخرت كل مجهوداتها في دراستها وتفسيرها، من أجل بناء مسارها العلمي؛ لذا شكلت الترجمة

⁷ حميد لحميداني، الترجمة الأدبية التحليلية - ترجمة شعر بودلير نموذجاً - مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة، ط. الأولى، 2005، ص.

⁹.

⁸ Antoine Berman, L'épreuve de L'étranger, culture et traduction dans l'Allemagne Romantique, Gallimard, 1984, p. 16.

قنطرة عبور الأفكار وتشكيل الرؤى وتمكين الذات من الانفتاح على الآخر والتواصل معه، حيث يقول المصطفى عمراني في هذا الصدد: "ولنا في الحوار بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية على مر التاريخ شاهداً على دور الترجمة في هذا التلاحق والتواصل ... فالحضارة العربية الإسلامية في لحظة من لحظات بناء صرحها الكبير لم تتفوق على نفسها، بل حاولت في إطار المثاقفة وعبر حركية الترجمة أن تتفاعل مع الحضارات الأخرى وأن تغترف من منابعها في ميادين الفلسفة والمنطق والأدب والنقد والهندسة والكيمياء والطب وغيرها من المجالات..."⁹، والشاهد على هذا هو استفادة الحضارة اليونانية من الحضارات الأخرى القديمة التي جاورتهم كالحضارة الفارسية والمصرية القديمة وترجمت عنهم كنوز العلم والتنجيم والفن والرياضيات، والتي اقتبست عنها ضروباً من العلوم والمعارف، والأمر نفسه بالنسبة إلى الثقافة العربية حيث عرفت فضل الترجمة حتى أنهم أخذوا بنقل العديد من المعارف كانوا بحاجة إليها عن الشعوب التي كانت تحيط بها وانتعشت واحتكت بها، كالروم في الشمال والفرس في الشرق والأحباش في الجنوب، وأخذت منها فرضيات وقواعد أعادت صياغتها وبنائها في قالب آخر على يد علماء عرب تطوروا بواسطة ما حصلوا عليه من معارف وعلوم عن طريق ترجمة مجموعة من المؤلفات عن التراث الهندي والفارسي واليوناني القديم، على سبيل المثال لا الحصر، مؤلفات أرسطو "كالأخلاق"، وكتاب "الطبيعة" الذي ترجمهما حنين بن اسحق، وابن المقفع الذي نقل مؤلف "كليلاً ودمناً" من اللغة الفارسية إلى العربية في عهد الخليفة ابن جعفر، لذلك يقول محمد الديدواوي في هذا الصدد "وبخصوص العربية، فإن ما ترجم إليها قديماً خارج نطاق اللغة التخصصية، أي لغة الفلسفة والعلوم آنذاك، وعدده قليل لا يكاد يذكر، إلا أنه ظل شهوراً مذكوراً، ومن ذلك كتاب كليلاً ودمناً، الذي نقله ابن المقفع نقل المبدع، إذ أدخل به الوسائل الجمالية للغة الفارسية لأسلوب الجاحظ وبيانه الذي تأثر به، وكتاب ألف ليلة وليلة، الذي كيفه العرب مع بيئتهم وثقافتهم ومجتمعهم"¹⁰.

وعليه، إذا كان هدف عملية الترجمة التداخل الثقافي وتوطين المعرفة بين الشعوب، كما جاء من قبل، فقد يكون ذلك في حال أن المترجم، بطبيعة الحال، يقوم بالدور الملقى على عاتقه بمسؤولية واحترافية أثناء ممارسة مهنته الترجمة، لأنه يعتبر العنصر المحوري حيث بواسطته يتم إنشاء علاقة تأثير وتأثر؛ لذلك يعد دوره محورياً بالنسبة للمبادئ والمناهج الأساسية في عملية الترجمة؛ إذ من الضروري أن يكون أميناً وفيها خلال قيامه بالترجمة، ليس فقط في نقل الكلمات، بينما في نقل الحمولة الثقافية والمعرفية للنص

⁹ المصطفى عمراني، ص. 27.

¹⁰ محمد الديدواوي، مفاهيم الترجمة، المركز الثقافي العربي، البيضاء، 2007، ص. 72.

الأصلي لعل هذا ما يشير إليه الأستاذ الدكتور أحمد بن رمضان بقوله " ... يجب على المترجم الأخذ بعين الاعتبار القيمة الثقافية"¹¹، بمعنى يجب عليه فهم النص والتعبير عما فهمه آخذا بعين الاعتبار نوعية أسلوب المؤلف وتعبيراته ودلالات عصره، واستحضار الجمهور الذي سيترجم له مراعيًا ظروفه حتى تكون الترجمة أمينة، خصوصًا وإن المراد بالأمانة في هذا المضمار هو نقل مضمون النص الأصلي بدون تحريف فيه، ولكن بدون تشويه في شكل اللغة التي ينقل إليها، وهذا ما اشترطه الدكتور سعيد علوش حينما قال "يشترط في الترجمة خفة الروح وحضور البال، واتساع مجاري الخيال، مع القدرة على السبك والحبك والتعبير الفصيح والسليم، والمطالعة المستمرة، والمران الذي لا يعرف الكلال ولا الملل، ويجب أن تكون الترجمة أمينة التأدية..."¹²، لهذا يتضح من خلال هذه المبادئ الأساسية ضرورة الأخذ بعين الاعتبار قضية الأمانة والوفاء التي تعد من القضايا الأساسية التي تساهم في تحقيق الهدف المنشود من عملية الترجمة في شقها التطبيقي لأنها تعتبر من أخلاقيات المترجم، لاسيما وأن هذه الأخلاق تهدف إلى تحقيق كل ما يرجوا المرء الوصول إليه بطرق تجعله يقترب من الآخر ومن ثقافته، لذا فأمانة المترجم التي نتحدث عنها هنا لا تقتصر على تعليم العلم والأمانة في نقله، بل تتجلى في الدقة وتحري الفهم الصحيح والأمين للمعنى بما يضمن إحداث نفس الأثر الذي يتضمنه النص الأصلي على مستوى المضمون والمحتوى الثقافي، لأن بواسطة وفائه وأمانته يساهم في تطوير ثقافة المجتمع من خلال ما ينقله إلى ثقافة اللغة التي يترجم إليها، ذلك من أجل أن يتحقق الدور الذي تراهن عليه الترجمة بين الثقافات، حيث يعتبر دورا حيويًا في بناء صرح حضارات الشعوب من خلال مساهمتها في إرساء قواعد التداخل الثقافي بين الحضارات ويتفادى الصدام الذي قد ينشأ بين الثقافات عن طريق عدم أمانته واحترامه للأفكار والخصائص الثقافية للنص الأصلي؛ وكما يجب عليه أيضا أن يكون ملما إماما تاما بالحقل الذي يشتغل فيه من أجل أن يحدث تأثيرا مماثلا ومطابقا للتأثير الذي يتضمنه النص الأصلي كي لا يتم تشويبه وعدم تحقيق الغاية من العمل المترجم بالنسبة إلى المتلقي، لهذا تطرق الأديب والكاتب الجاحظ في كتابه الحيوان إلى هذا الموضوع رغم أنه لم يكن مترجما " ... لذلك كانت غاية صلته بالأمر أنه كان غزير الاطلاع على ما جرت ترجمته في عصره من العلوم والآداب من لغاته المختلفة كالفارسية واليونانية والهندية ..."¹³، بينما كان ذا اهتمام واسع بالترجمات العربية المنجزة، إذ إنه قام بتعديل عدة نسخ عربية حيث استطاع بموسوعيته تحديد دور المترجم وشروطه من خلال نصه الشهير "ولابد للترجمان من أن

¹¹ Ahmed BENRAMDAE , problemas de la didactica de la traduccion la tarea de traducir del español al arabe y viceversa, Mgriberia, año 3. 2009, Facultad de Letras y Ciencias Humanas Dhar el Mahraz, féz, p. 194.

¹² سعيد علوش، شعرية الترجمات المغربية للأدبيات الفرنسية، منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة، طنجة، ص. 27.

¹³ حسن بحراوي، أبراج بابل، شعرية الترجمة: من التاريخ إلى النظرية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ط. 1. 2010. ص. 65

يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها حتى يكون فيهما سواء وغاية. متى وجدناه أيضا قد تكلم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما لأن كل واحدة من اللغتين تجتذب الأخرى وتأخذ منها وتعترض عليها...¹⁴.

من هنا يمكننا أن نستشف الشروط الأساسية والضرورية التي سطرها الجاحظ والتي يجب توفرها في المترجم من أجل الحصول على ترجمة ملائمة ومرضية تراعي ذلك التبادل والتداخل الثقافي بين الشعوب وتدحض الصدام وفك العزلة، وتدعم الحوار والتلاقح بين أمم الأرض فتسهل التواصل بينها وتفتح النوافذ على الثقافات الأخرى، وكل هذا يتطلب من المترجم اكتساب مهارات متعددة تتعلق بما هو معرفي، وثقافي، ولغوي، وتنظيمي ثم تواصلية، حتى يتمكن من الوصول إلى جوهر مضمون النص الأصلي ونقله وإيصال أفكاره بكل ما تحويه من مكونات لغوية ودلالية وثقافية إلى نص بلغة الهدف بكفاءة وأمانة عالية، لأن الترجمة تعد من أهم الروافد التي تصب في الثقافة الإنسانية وتعمل على تطويرها، لذلك فإطلاع المترجم والممامه بثقافة أهل اللغة التي ينقل منها أو إليها يكون الوسيلة الفعالة في إنتاج وخلق وتوسيع دائرة الحوار التواصلية الحضري والمثاقفة، لأن هذا ما ذهب إليه عبد السلام بنعبد العالي، عندما قال "فليست الترجمة إذن هي ما يضمن حياة للنص المترجم ونموه وتكاثره فحسب، وإنما هي ما يضمن أيضا حياة اللغة والفكر ونموهما. وربما لهذا السبب فإن أزهى عصور الفكر غالبا ما تقترن بازدهار حركة الترجمة. بهذا المعنى تكون الترجمة، لا علامة على تبعية ونقل وتجمد وموت، وإنما على انفتاح وغلجان وتلاقح وحياة"¹⁵

نتوصل مما سبق إلى أن عملية الترجمة عبارة عن الخيط الناظم الذي يربط بين المجتمعات بعضها البعض من أجل التعبير عن أفكارها ومشاعرها، وكذا الوسيلة الدالة على عظمة الاختلاف وسيبلا هادفا إلى الثراء والاعتناء ودعم نسيج الحضارة الإنسانية، ثم الفنطرة التي تتواصل وتتفاهم بها الحضارات المتباينة المتباعدة، لأن بواسطتها يتم تقريب ذلك التباعد وتزدهر النهضة الفكرية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية للشعوب، لأنها تعبر عن أبعاد حضارية قابلة للتعميم والانتشار عن طريق تفاعل الثقافات في إطار العلاقات المبنية على التمازج والتبادل الثقافي الحر، والإبداع بين مختلف الشعوب الثقافية عبر الكلمة الفاعلة؛ لذلك كلما تجنبت هذه العملية الاستعلاء الثقافي إلا ونجحت في نشر ثقافة التلاقح

¹⁴ الجاحظ، أبو عثمان: الحيوان، ج. 1، تح. عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969، ص 76.
¹⁵ عبد السلام بنعبد العالي، الترجمة والمثاقفة، مجلة الوحدة، السنة 6، العدد 61-62، أكتوبر/نوفمبر 1989، ص 8.

والتمازج والمتقافة، وتلبية الحاجة التواصلية بين الإنسان، سواء كانوا فرادى أو جماعات، وفي كل الحقب والأماكن، ذلك بتأثيرها الإيجابي العميق في وجدان المتلقي لتصبح جزءا من تراثه الثقافي. فهي، بالدرجة الأولى، من الجانب الثقافي والحضاري، نشاط إنساني ثقافي حي قادر على تحويل موارد المجتمع إلى قوى محرّكة للطاقت الإبداعية فيه، ولديها القدرة على تحول الثقافة إلى فعل حضاري، ثم دينامية قوية لتغيير المجتمع، بعد أن أصبح العالم كله مساحة ثقافية واحدة في عصر العولمة، يعيش نوعا من التفاعل اليومي والمباشر بين مختلف أشكال الثقافات واللغات والشعوب.

خلاصة القول تبقى الترجمة عملية لا غنى عنها في عصرنا الراهن، ذلك أنها السبيل الثقافي الناجع للاتصال بين الثقافات الإنسانية بتبادل الأفكار والمعارف والآراء في شتى الحقول الفكرية بذلك يقول لادميرال إن "الترجمة هي نشاط إنساني عالمي أصبحت ضرورية، في كل الحقب وفي جميع أنحاء العالم، بالنسبة إلى الاتصالات بين المجتمعات الناطقة بلغات مختلفة، سواء كانت هذه الاتصالات فردية أو جماعية، آنية أو مستمرة، مرتبطة بتيارات التبادلات الاقتصادية أو تظهر في مناسبات السفر أو تقوم بهدف تقنين المؤسسات¹⁶".

¹⁶ Jean-René, LADMIRAL , traduir : théorèmes pour la traduction, Gallimard, Paris, 1994, p. 11.

مقدمة

عندما نتحدث عن الترجمة فإننا نستحضر سؤالاً من أهم الأسئلة المعرفية، وأكثرها إثارة لاهتمام الدرس اللساني والأدبي والفكري والعلمي على السواء، لذلك تعتبر عملية متعددة الأبعاد ومتنوعة الزوايا، حيث ظلت ردحا من الزمن تخضع لمقاربات متعددة ومنهجيات متنوعة، تتجاذبها فروع شتى من فروع المعرفة الإنسانية التي حاولت كلها أن تتناولها من منظورها الخاص، وأسهمت في ظهور بعض الجوانب والأبعاد المتصلة بهذا النشاط، ووضع بعض الأسس النظرية لتمظهراته، كل وفق منهجه وبرنامجه النظري، فهي نشاط قديم قدم الإنتاج البشري والتفاعل الثقافي والحضاري، وراسخ الجذور، عرفه الإنسان ومارسه - سواء عن طريق الإيماء أو الإشارة أو الكلام أو الكتابة - منذ قدم العصور والثقافات الإنسانية، حيث استطاع من خلاله أن يخرج الشعوب من حدودها الجغرافية لتتفاعل مع شعوب أخرى في العديد من الأنشطة كالتجارة، والاقتصاد، والثقافة، والسياسة ثم المعاهدات والاتفاقيات التي كانت تظهر آنذاك؛ من ثم فإن أي تعريف لمفهوم الترجمة لا بد أن يستحضر هذا التنوع المعرفي الذي يبدو أثره واضحا على التعدد الدلالي للمفهوم.

عموما يدل مصطلح الترجمة من الناحية اللغوية حسب صاحب اللسان، باعتباره معجما مرجعيا أساسيا، في مادة "رجم" عندما قال في شرح كلمة ترجمان: " التَّرْجُمَانُ والتَّرْجَمَانُ المفسر للسان ... الترجمان بالضم والفتح هو الذي يترجم الكلام، أي ينقله من لغة إلى لغة أخرى والجمع التراجم"¹⁷، ولعل المعنى نفسه يقدمه لنا الزبيدي في قاموسه تاج العروس في باب "ترجم": "ترجمه وترجم عنه إذا فسر كلامه بلسان آخر... وقيل: نقله من لغة إلى أخرى"¹⁸.

أما المعجم اللساني لـ Jean Dubois فقد حدد الترجمة في تلك العملية التي "تحاول تمرير رسالة لغة الانطلاق (اللغة الأصل) داخل لغة الوصول (اللغة الهدف)"¹⁹.

وقد حاول عبد الكبير الشرقاوي حصر وتحديد مفهوم الترجمة، قائلاً، "إن لفظ ترجمة - اصطلاحاً ومفهوماً - متعدد الدلالة بتعدد المنظور والموقع في السيرورة الترجمية، فاللفظ يعني النص المترجم الناتج عن عملية الترجمة، ويعني كذلك حقلاً ثقافياً خاصاً خلقه الواقع اللساني البشري المحكوم بتعدد اللغات

¹⁷ ابن منظور، لسان العرب، تحقيق مجموعة من الأساتذة، دار المعارف، القاهرة. (د.ت)، المجلد الثالث، باب الرء، مادة رجم، ص 1604.

¹⁸ محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد العليم الطحاوي، التراث العربي الكويت، 2000 ط 1، باب ترجم، ج 31، ص 327.

¹⁹ Jean Dubois, et autre, Dictionnaire de linguistique, Larousse. Bordas, ed. 1, 1994, p. 486.

واختلافها وتباينها، وفي اللون ذاته بضرورة التواصل والتبليغ،... ويعني اللفظ حقلا نظريا يبحث في مفهوم الترجمة وممارستها ومناهجها ويجعل هدفا له إقامة نظرية الترجمة، كما إنه لفظ قد يعني الفعل وقد يعني النص وقد يعني التفكير النقدي أو النظري باختلاف المنظور الذي تنتظر منه الممارسة الترجمية الفعلية²⁰

فمن خلال هذه التحديدات اللغوية والاصطلاحية يتضح لنا أن لفظ الترجمة مرتبط بالتفسير والبيان من جهة، وينقل وتحويل معنى كلام من لغة بكلام آخر في لغة أخرى مع النقل الأمين لجميع معانيه ومقاصده، بمعنى تفسير كلام بغير لغته، أو نقل كلام نص من ثقافة إلى ثقافة أخرى مع الاشتغال على تحويل لغته، أو بالأحرى نقل كل ما يتضمنه النص من أبعاد أسلوبية، وجمالية، وثقافية، واجتماعية ثم نفسية من سياق إلى سياق آخر مختلف عنه؛ فقولنا مثلا ترجمت نصا من الإسبانية إلى العربية، أي نقلنا كلام النص من اللغة الإسبانية إلى اللغة العربية، ليس فقط نقل كل كلمة بما يقابلها في اللغة الأخرى، ولكن نقلا، في الوقت نفسه، لقواعد وثقافة اللغة التي تساعد على إيصال - قدر المستطاع - المعلومة والمضمون كما وضعهما صاحب النص الأصلي، إلى درجة يشعر فيها المتلقي كما لو أنه إزاء نص قريب جدا من النص الأصلي، أي أن يكون النص المترجم حاملا لثقافة الكاتب وفكره بطريقة تتناسب مع قواعد، وثقافة وجمالية اللغة المنقول إليها، وهذا ما أشار إليه محمد عناني حينما قال: "وأما عملية الترجمة بين لغتين مختلفتين فتعني أن يقوم المترجم بتحويل نص مكتوب أصلي وهو يسمى بالنص المصدر في اللغة اللفظية الأصلية إلى نص مكتوب يسمى النص المستهدف"²¹. في الأخير لا بد من الإشارة إلى أن هذه التعريفات التي سقنها لا تخرج عن كونها مقاربات فقط، ويرجع ذلك لسبب بسيط وهو أن موضوع الترجمة مازال محل سجال بين المنظرين والمترجمين من جهة، والقراء والمتدوقين من جهة أخرى.

بناء على هذا الأساس، يمكننا القول إن عملية ترجمة النصوص ليست مجرد ممارسة بسيطة سهلة المنال، بل دريها صعب ومليء بالصعوبات، الشيء الذي أكده محمد الديدواوي بقوله "درب الترجمة وعر متعدد المسالك حافل بالمطبات، وميدانها متداخل العناصر متشابك الأركان"²² لأن القيام بها ليس بالأمر الهين فهي تصنف من بين الأعمال المضنية والصعبة، ومن الظواهر اللغوية التي تشملها عناية العديد

²⁰ عبد الكبير الشرفاوي، شعرية الترجمة، الملحمة اليونانية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، البيضاء، 2007، ص. 17.

²¹ محمد عناني، نظرية الترجمة الحديثة، مدخل إلى مبحث دراسات الترجمة، لونجمان، مصر، ط. 1، 2003، ص. 5.

²² محمد الديدواوي، الترجمة والتواصل، دراسات تحليلية عملية لإشكال الاصطلاح ودور المترجم، المركز الثقافي العربي، البيضاء ط. 2، 2009، ص 5.

من المجالات المعرفية، التي أولتها اهتماما في السنوات الأخيرة حتى أصبحت علما يتضمن مبادئ ونظريات تحكمه، جعلت منه تقنية ذات إستراتيجية خاصة وحقلًا معرفياً قائماً بذاته، يتمثل أولاً في تحليل ثم فهم النص الأصلي من كل نواحيه وتحديد الهدف الذي تم من خلاله كتابة النص، وذلك ما ذهب إليه الكاتب الإسباني فالينتين غارسيا يبرا (Valentín Garcia Yebra) حينما تحدث عن الفهم والتعبير، اللذين اعتبرهما من مراحل الترجمة وقال: "تتكون عملية الترجمة دائماً من مرحلتين: مرحلة فهم النص الأصلي، ومرحلة التعبير عن رسالته ومضمونه في اللغة الهدف"²³ مما يدل على أن المترجم هنا يقوم بعمل على مستوى النصين، وذلك ببحث عن المعنى والمضمون في النص الأصلي، وعن الكلمات والتعبير في اللغة الهدف، كل هذا من أجل إنتاج ذلك المضمون في اللغة الهدف، فهذه عملية صعبة تتطلب منه الجهد والوقت من أجل التوفيق بينهما حتى يتم إخراج نص في المتناول يراعي خصوصيات اللغتين، لاسيما وأن الكاتب موسى يونان مراد غزال أكد بخصوص هذا الأمر في كتابه حركة الترجمة والنقل في العصر العباسي، على مدى صعوبة عملية الترجمة بقوله "... إن الترجمة والنقل أصعب من التأليف، وليست من الهنات الهيئات كما يتبادر إلى ذهن البعض ، فالمترجم والناقل مقيدان بمعاني النص المنقول وألفاظه"²⁴.

لا تخفى علينا مدى صعوبة عملية الترجمة، ذلك لوجوب تحقيق المعاني المقصودة بصورة تامة وصادقة، لأن أي تحريف أو خروج عن معنى النص المترجم، قد يؤدي لمعاني مختلفة تماماً ومغايرة لمعاني النص الأصلي، حيث إنها "تنتج في لغة الوصول المكافئ الطبيعي والأقرب لرسالة لغة الانطلاق، أولاً من حيث المعنى ثم من حيث الأسلوب"²⁵ لذلك يتطلب هذا الأمر مساندة وتدخل الكثير من الميزات والملكات التي يتوفر عليها الإنسان، لأن التفكير في الترجمة هو تفكير إشكالي خصوصاً وأنها فعل معرفي وفكري وثقافي ولساني مركب ومعقد، والدليل على هذا هي نعوت بعض المنظرين في هذا المجال، الذين ربطوا فعل الترجمة بأوصاف تحيل على هذه الصعوبة من قبيل التحدي والسعادة من لدن بول ريكور، الذي وصفها في هذا المحور من كتابه "عن الترجمة" بالمقاومة في مجموعة من المراحل التي قد يصادفها المترجم أثناء قيامه بالعملية، والرهان الصعب الذي من الضروري عليه أن يربحه، وذلك بقوله "لكن مقاومة الترجمة تكتسي شكلاً أقل تهويلاً عندما يبدأ عمل الترجمة. هناك أصعدة غير قابلة للترجمة

²³ Valentín Garcia Yebra, Teoría y practica de la traducción, tomo 1, edición 2, Gredos, Madrid, 1989, p 30.

²⁴ موسى يونان مراد غزال، حركة الترجمة والنقل في العصر العباسي، مار أفرام، عطشانة، 1973، ص. 12.

²⁵ Georges Mounin, les problemes théorique de la traduction, Gallimard, Paris, 1963, p. XII

مزروعة في النص والتي تجعل من الترجمة مأساة حقيقية ومن تمنى إنجاز ترجمة جيدة رهانا يجب كسبه²⁶؛ وأما الفيلسوف والمترجم المنظر أنطوان برمان فقد وصفها بالمحنة التي شرحها ووصفها بول ريكور في تحليله لهذا المصطلح بأنها عملية معقدة وشائكة حافلة بالصعوبات التي قد يواجهها المترجم، والتي حددها في معنيين "المأساة المستديمة" و"الامتحان"²⁷.

بالرغم من صعوبة فعل الترجمة، والمخاطر المحفوفة بها التي ترجع إلى أسباب عدة منها ما هو ذاتي داخلي يتعلق بجوهر اللغات وتكوينها والتفاوت القائم بينها، وما هو خارجي متعلق أساسا بدوافعها وأمانة المترجمين من عدمها، فإنه استطاع أن يكتسي هوية معرفية عميقة في سيرورة الفعل الثقافي حيث واكب تاريخ الأمم والحضارات منذ عصور قديمة، خاصة وأن جورج ستينر ذهب إلى أنها عملية قديمة قدم الزمن بقوله "فهي ترجع على الأقل إلى قدماء البلاغيين والأخلاقين والنحويين الذين كانوا مهتمين بالترجمة إلى اللاتينية لمن سبقوهم من اليونان"²⁸، إن دل هذا فإنما يدل على أن الثقافة العربية عرفت حركة ترجمية ولو بشكل ابتدائي منذ أقدم عصورها نتيجة احتكاكها بالشعوب التي كانت مجاورة لها؛ فكانت عبارة عن حرفة تركز على الأدوار التي نهضت بها في التقريب بين الشعوب، وفي إحداث الانعطافات السياسية والاجتماعية الكبرى، وفك العزلة عن الأمم الصغيرة أو البعيدة أو المنعزلة، فقد ظهرت كنتيجة للأنشطة الإنسانية، وما تضمنه من نشاطات دينية، واقتصادية وعسكرية، لكن لم تبلغ ذروتها وازدهارها إلا في العصر العباسي حيث قال موسى يونان "ولكي تتعرف على فضل الترجمة وتحقق من ذلك تاريخيا، فعد إلى العصر العباسي"²⁹ عصر الخليفة هارون الرشيد وابنه المأمون الذي أسس مكتبة بيت الحكمة في بغداد بهدف تنشيط عمل الترجمة، والتي جلب إليها نخبة من المترجمين قصد الاشتغال على هذا التخصص - رغم مواجهتهم لمعضلاته وصعوباته التي تعترض مهامهم - ونقل مجموعة من الكتب في شتى التخصصات إلى لغتهم، حيث كان يمنحهم ما يساوي وزن الكتب التي ترجمت إلى العربية ذهابا، فهذا يدل على الاهتمام الكبير الذي كان يولييه العرب قديما لعملية الترجمة رغم المشاكل التي كانت تعترئها.

على كل حال تبقى عملية الترجمة من بين الأنشطة المعرفية التي لا تخلو من الصعوبات والمشاكل التي يواجهها المترجمون أثناء ممارستهم، والتي تعترضهم كعقبات تمثل تحديا لقدراتهم ومهارتهم، لاسيما

²⁶ بول ريكور، عن الترجمة، تر. حسين خمري، منشورات الاختلاف، الجزائر. ط. 1، 2008، ص. 18.

²⁷ المرجع السابق، ص. 15.

²⁸ مجموعة من المؤلفين، علم الترجمة، دراسات في فلسفته وتطبيقاته، تر. حميد العواضي، دار الزمان، دمشق، ط. 1، 2009، ص. 19.

²⁹ موسى يونان مراد غزال، حركة الترجمة والنقل في العصر العباسي، ص. 4.

وأن طبيعتها القائمة على الممارسة تختلف عن أي نوع آخر، بيد أنها تتشابه مع الحرف التي تتطلب من صاحبها التجربة والدربة والممارسة، لذلك وصفها محمد عناني "بالحرفة التي لا تتأتى إلا بالدربة والمران والممارسة استنادا إلى الموهبة"³⁰، من هنا يتضح أن عملية الترجمة وممارستها محفوفة بالمشاكل، ويكتنفها الغموض والتناقض، ومهمة في غاية الصعوبة، إذ لا يكاد يخلو مسارها من المطبات، ولعل السبب في ذلك يكمن في كونها عملية مقارنة بين طرائق وأساليب لغوية ومفاهيمية ثقافية متباينة؛ فهي بقدر ما تسعى إلى إعادة صياغة المعنى، تتوخى إعادة سبك الأساليب في اللغة الهدف لخلق الأثر الجمالي ذاته الذي تخلقه قراءة النص الأصل، لذلك تتجلى أعظم مشاكلها حسب مجموعة من الدارسين والمنظرين في توصيل المعنى الدقيق لأي مصطلح في النص الذي يراد نقله إلى لغة أخرى، ذلك لصعوبة ترجمته، لأن العملية ليست محصورة فقط في ابتكاره، وإنما أيضا في تعدد المصطلحات للمرجع الواحد، فهذا الأمر أكده اللساني جورج موانان في كتابه المشهور حول الترجمة "المشاكل النظرية للترجمة" حينما قال "يصنف نيدا المشاكل التي يطرحها البحث عن التكافؤات - عند الانتقال من عالم ثقافي عن طريق الترجمة - في خمسة مجالات، البيئة، والثقافة المادية، [.....] والثقافة الاجتماعية والدينية ثم اللغوية"³¹، من هنا يمكننا أن نذكر بعض هذه المشاكل على مستويات مختلفة المشارب بخصوص ما هو ثقافي، ولغوي، وبيئي، وتركيبى، وسياقي وأسلوبى.

فيما يتعلق بالصعوبات الثقافية، نجد أن العنصر الثقافي يعد مكونا من مكونات كل مجتمع وأهم العوامل المتدخلة في الفعل الترجمي، لذلك فإن كل لغة تنتمي إلى ثقافة معينة وذات خصوصيات ثقافية لا يعرفها إلا أهلها، لهذا السبب يجد المترجم نفسه يتعامل مع شحنات وأبعاد حضارية تختلف كلياً أو نسبياً عن شحنات ثقافته ودلالاتها، فمن ثم يمكنه أن يترجم الكلمة إلى لغة أخرى، بيد أنه لن يستطيع أن ينقل ثقافة هذه الكلمة، من هنا نجد أن البعد الثقافي يلعب دوراً رئيسياً في حقل الترجمة ومازال محل جدل كبير لدى الباحثين والمنظرين، لأن أي لفظ في النص يحمل دلالات ذات معنى محدد وفق ثقافة معينة، وبالتالي تكمن الصعوبة هنا في إيجاد معاني بعض الكلمات التي لا تتواجد في ثقافة أو بيئة معينة؛ أما بالنسبة إلى المشاكل اللغوية تتجلى في غياب أو عدم توافر تعدد المكافئ اللفظي بين اللغتين التي تتم بينهما عملية الترجمة، لأن لكل لغة قواعدها الخاصة في خلق وصياغة الألفاظ التي يستخدمها أهل هذه اللغة والتي تختلف في معانيها؛ أما فيما يتعلق بالصعوبات التركيبية نجد أن كل لغة تتميز بطابع خاص في

³⁰ محمد عناني، فن الترجمة، لونجمان، مصر، ط. 5، 2000، ص، 2.

³¹ Georges Mounin, les problemes théorique de la traduction, p. 61, 62.

تركيب جملها وترتيب مفرداتها، فالأمر يتعلق هنا باختلاف التراكيب القواعدية النحوية والبنائية والصرفية التي تجعل المترجم أمام صعوبة ليست بالسهولة الممكن، تجاوزها لأنها تحتاج منه إعادة هيكلة مكونات الجملة في اللغة المصدر وفق الصيغة البنوية في اللغة الهدف، حتى يصل معنى النص المترجم إلى المتلقي صحيحا دقيقا وسليما؛ أما على مستوى السياقي فقد تتجلى في غياب المعرفة الدقيقة لقضايا المقترنة بالسياق الذي نشأ فيه النص المراد ترجمته، الذي من شأنه أن يخلق ارتباكا لدى المترجم، ويصعب عليه الوصول إلى ترجمة صحيحة، فهنا تتركز الصعوبة في ضرورة إدراك السياق الأصلي الذي يدور فيه النص كي يصل المترجم إلى صيغة الترجمة المكافئة.

رغم كل هذه الصعوبات والمشاكل التي تعرفها عملية الترجمة، لم تثبط من عزيمتنا ورغبتنا في السعي وراء مراكمة معارفنا حول هذا المجال، وفي سبر أغواره ومواجهة هذه المثبطات عن قرب من خلال الاشتغال على ترجمة كتاب - من اللغة الإسبانية إلى اللغة العربية - المعنون بـ "Teoria de la Comunicacion, La Comunicacion, la Vida y la Sociedad" للكاتب "Manuel Martin Serrano" "نظرية التواصل، التواصل حياة ومجتمع" لـ "مانويل مارتين سيرانو، والذي تم نشره من قبل دار النشر McGraw-Hill Interamericana de España سنة 2007 في إسبانيا، حيث يتألف من تقديم وأربعة أجزاء تشكل بتسلسلها نسقا في تصور هذه النظرية حيث ينطوي تحت كل جزء مجموعة من الفصول ثم ببليوغرافية تتألف من منشورات الكاتب المرتبطة بمضمون الكتاب، والأعمال التي اعتمدها، كل هذا ألفه في ثلاثة مائة وستة وخمسين صفحة. من هنا سنحاول إعطاء لمحة عن الكاتب ومساره العلمي وعن الإطار العام لموضوع الكتاب المزمع ترجمته.

إن مانويل مارتين سيرانو صاحب الكتاب الذي نحن بصدد ترجمته، يعد من أهم السوسولوجيين الإسبان في النصف الأخير من القرن العشرين؛ ولد سنة 1940 في مدريد حيث كان تحصيله العلمي الأولي والثانوي، بالرغم من هجرة أسرته إلى قرطبة تشبث بمسقط رأسه لإتمام مساره الدراسي لذلك خصصت له أسرته منحة اعتبرها غير كافية لتلبية مصاريفه الدراسية، ذلك ما دفعه للبحث عن عمل من أجل تغطية هذه المصاريف، فقد اشتغل كمراسل صفحي وهو لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره؛ وبعدما أنهى دروسه سنة 1954 التحق بالمكتبة العمومية، لأن شغفه بالقراءة هو السبب وراء التحاقه بها، فقد كان يقرأ كثيرا رغم صغر سنه لمجموعة من الكتاب كدروين، وفولتير، ولوركا، وماركس، اسبينوزا، وغوته، ورسو، وانكلان وآخرون رغم أنه لم يكن أحيانا يفهمها.

وبموازاة ذلك، حصل على شهادة البكالوريا سنة 1956 من المعهد العمومي الذي اكتسب فيه كما يقول مجموعة من المهارات والمواقف التي تسببت له في الكثير من المتاعب داخل المدرسة، بعد ذلك التحق بمدرسة المهندسين لكن سرعان ما تخلى عنها والتحق بالجامعة التي اعتبرها الفضاء الوحيد الذي يمكن من خلاله اكتساب معارف يمكنها أن تغني الفكر الإنساني، وهذا ما دفعه ليستمر في تحصيل مساره العلمي في العديد من التكوينات المختلفة التخصصات، بالتحاقه بكلية الفلسفة والآداب بجامعة كومبلوتنسي بمدريد حيث درس الفلسفة وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلوم السياسة، والتحق، في الوقت نفسه، بالمرح الجامعي الذي تكون فيه حيث عرضت له بعض الأعمال المسرحية من بينها "دائرة الطباشير" و"في انتظار غودوت" ثم "الشريط الأخير لكراب"، بعد ذلك سافر إلى فرنسا لدراسة الفينومينولوجيا، والمنطق بجامعة السوربون فحصل على شهادة التخرج في هذين المسلكين، فعاد مرة أخرى إلى أسبانيا ليدرس شعبة الطب الذي لم تكن ممارستها كمهنة من أوليته، لكن حرصه الشديد تجاه هذه الشعبة كان يتجلى في معرفة معايير التخطيط والاختبار المستعملة في التجارب التي تتحكم في الجينات والأنسجة.

تأثر كثيرا بفكر مدرسة عصور الوسطى لأن هذه الحقبة في نظره هي التي استمر فيها الفكر الإنساني للحصول على التوافق بين حركة الأفكار والطبيعة، كما تأثر أيضا بالنظرية الماركسية التي شرحها من خلال نقد العقل الجدلي حيث برر ذلك بأن الحاجة كانت لتغيير المجتمع بحرية الموضوع، مستعملا في ذلك المصادر الأصلية ومستحضرا بدقة بعض المصطلحات المنحوتة التي كانت تميز ماركس، بالإضافة إلى اهتمامه بنظريات دوركايم والوجودية وكذا التحليل النفسي والبنوية.

حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة حول "العلاقات بين الأصل الاجتماعي، ومهارات ثم مواقف الشباب الإسباني"، وشهادة في علم النفس ثم شهادة دكتوراه الدولة في ستراسبورغ سنة 1974 حول "نظام العالم عبر التلفاز" التي أتاحت له الفرصة للاشتغال أستاذ جامعا بنفس الجامعة والاستقرار بصفة رسمية في فرنسا، لكن فضل العودة إلى بلده الأم بعدما عرفت تحولا ديمقراطيا، الأمر الذي دفعه إلى عدم الاستقرار بفرنسا. فقد تم استدعاؤه سنة 1976 لاجتياز مباراة لشغل منصب أستاذ جامعي لنظرية التواصل فنجح وحصل عليه، حيث بفضل أتيحت له الفرصة لوضع أهداف البحث والابتكار النظري على مدى طويل؛ فمنذ ذلك الحين وهو يزاول مهنته كأستاذ جامعي بجامعة كومبلوتنسي بمدريد، إنه يتمتع

باعتراف دولي واسع لأن عمله العلمي يتميز بطابع ابتكاري يربط بين الإبداع النظري والاختراع المنهجي وتطبيقهما في دراسات الظواهر البارزة ذات الأبعاد الفلسفية والعلمية والاجتماعية.

كما سبق أن ذكرنا آنفاً، فالكاتب من كبار المؤلفين في إسبانيا، والذي شهد له العالم بتخصصه في الكتابة والتأليف حول نظرية التواصل، فقد صدرت منه عدة كتب في هذا المجال أو غيره من العلوم الإنسانية التي تواجه القضايا العامة في المجتمع الإسباني، التي شكلت مرجعا أساسيا ليس فقط بالنسبة إلى المهتمين بهذا الحقل بل أيضا بالنسبة إلى المفكرين والباحثين في حقول الفلسفة واللسانيات والأدب ثم الأنثروبولوجيا، فينحصر إنتاجه العلمي والأكاديمي بين مقالات وكتب في مجالات عدة منها ما هو سوسيو-تاريخي، وما هو فلسفي وما هو معرفي، مثل، الوساطة الاجتماعية الذي يعتبر من مبتكري نموذج الوساطات التي ترتبط بالتطابق من عدمه بين المعلومة، والتنظيم والممارسات الاجتماعية، وكذا مجال التواصل الذي اعتبره ضروريا في تطور المجتمعات، حيث حث أن يكون له فضاء مهم في دراسة العلوم الاجتماعية لأن معالجته وفهمه ودراسته ضروري للمجتمعات من أجل أن تتكاثر وتتفاعل، فيعتبر مرجعا وأحد مفكري علوم التواصل وفي مجالات معرفية أخرى لذا "يعتبر مانويل مارتين سيرانو من بين آباء التواصل باعتباره علما اجتماعيا، لذلك حدد الكاتب من خلال بنائه الابيستيمولوجي محيط التحليل والتطبيق على مستوى الواقع انطلاقا مما هو عام إلى ما هو خاص"³² لذلك سنعرض بعض الكتب التي ألفها في هذا المجال؛ وهذه قائمة إصدارته:

السنة	العنوان باللغة العربية	عنوان الكتاب باللغة الإسبانية	المؤلف
1970	الإشهار والمجتمع الاستهلاكي في إسبانيا	"Publicidad y sociedad de consumo en España "	مانويل مارتين سيرانو
1971	"سوسيولوجية المعجزة. وجوه بيلمير"	"Sociología del Milagro. Las caras de Belmez"	مانويل مارتين سيرانو
1976		"Comte, el padre negado.	مانويل مارتين

³² Chasqui, Revista Latinoamericana de Comunicacion, p. 62.

		Orígenes de la deshumanización en las ciencias sociales”	سيرانو
1976	"النظام العالمي عبر التلفاز. بنية الخطاب الإلكتروني"	“ L’Ordre du Monde a travers la T.V. Structure du discours électronique”	مانويل مارتن سيرانو
1977	"الوساطة الاجتماعية"	“La mediación social”	مانويل مارتن سيرانو
1977	"مهنيو المجتمع الرأسمالي"	“Los profesionales en la sociedad capitalista”	مانويل مارتن سيرانو
1978	"المناهج الحالية للبحث الاجتماعي"	“Métodos actuales de la Investigación Social”	مانويل مارتن سيرانو
1981	"نظرية التواصل. ابستمولوجية التواصل وتحليل المرجع"	“Teoría de la Comunicación. (Epistemología de la comunicación y análisis de la referencia) ”	مانويل مارتن سيرانو
1981	"نظرية التواصل"	“Teoría de la Comunicación”	مانويل مارتن سيرانو
1982	"استعمالات التواصل الاجتماعي من قبل الإسبانين"	“Los usos de la comunicación social por los españoles”	مانويل مارتن سيرانو
1982	"الجامعات المدريدية، حياة، حماس وابتكارات بعد الديكتاتورية"	“Los universitarios madrileños Vida, afanes y creencias después	مانويل مارتن سيرانو

		de la dictadura”	
1985	إنتاج التواصل الاجتماعي: الأسلوب المنهجي	“La producción de comunicación social: Planteamiento metodológico”	مانويل مارتين سيرانو
1986	"الإنتاج الاجتماعي للتواصل"	“La producción social de comunicación”	مانويل مارتين سيرانو
1991	"القيم الحالية للشباب في إسبانيا"	“Los valores actuales de la Juventud en España”	مانويل مارتين سيرانو
1994	"تاريخ تغييرات مواقف الشباب ما بين 1960-1980"	“Historia de los cambios de mentalidades de los jóvenes entre 1960-1980”	مانويل مارتين سيرانو
1995	"النساء والإشهار: نحن وأنتم حسب ما يبدو لنا في التلفاز"	“ Las mujeres y la publicidad: Nosotras y vosotros, según nos ve la televisión”	مانويل مارتين سيرانو
1995	"شباب فالنسيا 1994"	“Juventud Valenciana 1994”.	مانويل مارتين سيرانو
1996	"مصير الشباب في إسبانيا 1996"	“Informe de la juventud en España, 1996 ”	مانويل مارتين سيرانو
1996	"الشباب في أرقام 1996"	“La juventud en cifras, 1996”	مانويل مارتين سيرانو

1998	"الشباب والاستهلاك"	"Juventud y Consumo"	مانويل مارتن سيرانو
1999	"العنف اليومي عندما يكون الضحايا نساء"	"Las violencias cotidianas cuando las víctimas son las mujeres"	مانويل مارتن سيرانو
2000	"مصير الشباب في 2000"	"Informe Juventud en España 2000"	مانويل مارتن سيرانو
2000	"العصر الثالث والاستهلاك"	"La Tercera edad y el Consumo"	مانويل مارتن سيرانو
2000	"الأشخاص الكبار وأماكن الإقامة. النموذج المحتمل لتقييم أماكن الإقامة"	"Las personas mayores y las residencias. Un modelo prospectivo para evaluar las residencias"	مانويل مارتن سيرانو
2002	"المرأة في مجتمع مدريد. معطيات لفتح مسارات نحو المساواة"	"Las mujeres en la Comunidad de Madrid. Datos para abrir caminos hacia la igualdad"	مانويل مارتن سيرانو
2002	"الشباب في أرقام 2001-2000"	"La juventud en cifras 2000-2001"	مانويل مارتن سيرانو
2004	"الوضع المهني للنساء في الإدارات العمومية"	"La situación profesional de las mujeres en las"	مانويل مارتن سيرانو

		administraciones publicas”	
2007	"نظرية التواصل. التواصل، حياة ومجتمع"	“Teoría de la Comunicación. La comunicación la vida y la sociedad”	مانويل مارتن سيرانو

أما بالنسبة إلى موضوع الكتاب الذي نشغل على ترجمته فيعالج فيه الكاتب مجموعة من القضايا المرتبطة بنظرية التواصل من وجهة نظر سوسيو-تاريخية، لأن ما يؤكد هذا التوجه السوسولوجي في مقارنته لهذا الكتاب راجع بالأساس إلى تخصصه في علم الاجتماع والمؤلفات التي أصدرها، حيث تتطرق إلى مجموعة من المواضيع المرتبطة بالقضايا الاجتماعية، كما يتضح الأمر نفسه أيضا من خلال العنوان الفرعي للكتاب "التواصل، حياة ومجتمع" الذي يشير ويوضح من خلاله العلاقة التي تربط الحياة والمجتمع بظاهرة التواصل، كذلك لمسنا هذا الميول عن طريق تلك الترسانة من الأمثلة التي أدرجها كشرح تطبيقي مبرهنا بها على الأفكار التي ناقشها وفق هذه الطروحات السوسولوجية، التي تؤكد على أن الفعل التواصل من أنواع التفاعلات التي جاءت في البداية لخدمة الاحتياجات البيولوجية التي تعمل وفق التعليمات الحيوانية، وذو البعد الاجتماعي المحض، لأنه يخلق شرطا أساسيا داخله، هو وجود طرفين فما فوق لتستقيم هذه العملية، رغم أنه نابع عن ذوات فردية، وبالتالي فهو "في مبدئه، يفيد الانتقال من الفردي إلى الجماعي. وبذلك يغدو شرطا مؤسسا لكل حياة اجتماعية"³³.

كما يؤكد أيضا من خلال هذا الكتاب على أن عملية التواصل - بالإضافة إلى أنها عمق اجتماعي تشير إلى العلاقة التي تحدث داخل نسق اجتماعي معين، أو بين مجموعة أنساق - تتم بشكل مباشر من خلال اللقاءات الشخصية بين الأفراد والجماعات، أو بشكل غير مباشر بواسطة الكلمة المسموعة أو المطبوعة أو المرئية أو عن طريق الصور أو غيرها من الوسائل والأنشطة الأخرى عند الإنسان، أو بواسطة العلامات والمحفزات عند الحيوان، ولعل نفس التصور أكدته الكاتب محمد نور الذين أفايه حينما

³³ محمد نورالذين أفايه، المتخيل والتواصل، مفارقات العرب والغرب، دار المنتخب العربي، بيروت، ط. 1. 1993، ص. 164.

اعتبر التواصل "تبادلا بين رموز وعلامات وأشياء يدخل ضمن عملية التنشئة الاجتماعية ويلعب بذلك، دورا أساسيا في تكوين الفرد وتشكيل إدراكه ووعيه بذاته وبالعالم المحيط به"³⁴.

وبالإضافة إلى كل هذا حاول من خلاله توسيع دراسته بخصوص هذا المجال وتأسيس نظرية خاصة قادرة على شرح وإثراء بشكل من الأشكال التفاعلات التواصلية الإنسانية والحيوانية، وتوضيح الطريقة التي يشارك بها التواصل في ظهور الأصناف الإنسانية بشكل مفصل وأساسي، والتحولات البيولوجية والاجتماعية التي حدثت حتى اللحظة الحالية، وكذا الوسائل التي تستعملها المجموعات البشرية والحيوانية في التواصل الاجتماعي وإعادة إنتاج التنظيمات الاجتماعية وهويتها ذلك بهدف ابتكار علاقة جدلية بين الطبيعة والمجتمع، لعل هذا ما تم تطويره والتطرق إليه في هذا العمل عندما أكد الكاتب فيه على أن هذه العملية الانتقالية من التواصل الحيواني إلى الإنساني مرتبطة بتطبيق المنهج الجدلي من أجل فهم الاختلافات بين الأدوار التواصلية لكلا الطرفين، ثم التحولات التطورية والإجراءات التواصلية والسوسيو- تاريخية، التي قامت بتحويل المواد العضوية والقدرات التواصلية وساهمت في الإنتاج الاجتماعي للتواصل، فالأنسنة، وكذا التنظيمات الإنسانية في المجتمعات ثم تكوين المعرفة للقيم والثقافة، لاسيما وأن هذا الانتقال حسب المؤلف يؤدي إلى التعارض بين قوانين التطور الطبيعي والتنظيم الاجتماعي، الذي حاول من خلاله المقارنة بين مفهومين متعارضين لدور التواصل في وجود الإنسانية ومجتمعاتها قديما وحديثا، يتجسدان في التواصل الذي تتجاوزه الطبيعة والمجتمع من جهة، وفي التواصل الذي يسيطر فيه المجتمع على الطبيعة من جهة أخرى، ذلك بحديثه عن الأصول التطورية للتواصل الذي يعد من بين أنواع التفاعلات التي جاءت في البداية لخدمة الاحتياجات البيولوجية التي كانت تعمل وفق التعليمات الحيوانية، والكيفية التي شارك بها في التطور الحيواني الذي أدى إلى ظهور التواصل الإنساني مؤكدا في هذا المجال على أن الأنسنة وتحول التواصل الحيواني إلى التواصل الإنسان أمران لا ينفصلان، لأن مرونة الأنماط التواصلية التي ورثها الإنسان من الحيوانات السابقة ساهمت في دمج الموارد وتنظيم المجتمعات إلى الإنتاج التواصلية مستعملا في ذلك مجموعة من المفاهيم والتحليلات والأمثلة المهمة حول تاريخ علم تطور السلالات والتطور الإنساني والأنسنة، والمكانة التي تحتلها نظرية التواصل بين العلوم، إضافة إلى مواضيع ذات صلة بموضوع التواصل وأنواع التفاعلات الإنسانية، كطبيعته واشتغاله وتحليل بنيته ووظيفته على مستوى طريقة استعمال الإشارات التواصلية وغير التواصلية التي تتوافق مع

³⁴ نفسه.

طريقة تبادل المعلومة واستعمالها التواصلية أثناء التفاعلات، ثم أصوله وتحولاته التطورية والدور الذي يلعبه في الأئسنة والتشئة الاجتماعية.

من جهة أخرى، يجب أن نشير إلى أنه رغم وجود العديد من الدراسات التي تناولت أنواع الترجمة وطرقها المختلفة، إلا أن بعضها فقط هو الذي أشار إلى حقيقة أن العرب كان لهم السبق في تقسيم الترجمة وأقاموا تقسيمهم تبعاً للطريقة التي تتم بها الترجمة وجعلوها على وجهين رئيسيين هما: طريقة يوحنا ابن البطريق وابن ناعمة الحمصي وغيرهما ثم طريقة حنين بن إسحاق والجوهري وغيرهما، حيث تتميز كل واحدة بخصائص وقواعد خاصة بها، لهذا تطرق سعيد علوش لهذين الطريقتين حيث قال إن " للترجمة في النقل طريقتان، أحدهما طريق يوحنا البطريق وابن ناعمة الحمصي وغيرهما، وهو أن يتطرق إلى كل مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى، فيأتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى"³⁵ وهي ما يطلق عليها في الدراسات الحديثة بالترجمة الحرفية التي تعتمد على صياغة جمل صحيحة وسلسلة منسوجة على منوال اللغة الأصل ومتطابقة معها في أجزائها، حيث تقوم على استبدال التراكيب النحوية أو القواعد الموجودة في اللغة المصدر بما يوافقها من تراكيب على مستوى لغة الهدف، ذلك كي لا يتأثر المعنى ولا يختل التركيب بالإضافة إلى المحافظة على شكل و أسلوب الكاتب، هذا فيما يخص الطريقة الأولى؛ أما الطريقة الثانية فهي "طريق حنين بن إسحاق والجوهري وغيرهما، وهو أن يأتي بالجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الألفاظ أم خالفها"³⁶، فهذه الطريقة تسمى بالترجمة الحرة حيث تعطي الأولوية لمضمون ومعنى النص الأصل بما يتماشى مع المستلزمات اللغوية، والأسلوبية، والتركيبية وكذا الثقافية التي يترجم إليها النص عن طريق تدخل المترجم على مستوى إعادة صياغة النص وفق أسلوب يتماشى مع الخصائص اللغوية والثقافية للغة الهدف.

وكما هو معلوم فإن العمل على ترجمة كتاب تتطلب تحديد الطريقة التي تمت بها الترجمة سواء من خلال الاعتماد على الترجمة الحرفية أو الحرة أو المزج بين الاثنتين إذا ما اضطر المترجم إلى هذا الأسلوب أو ذلك، من أجل المحافظة على المعنى أو على الشكل، لذلك ارتأينا في هذا المقام الاعتماد على الطريقة الثانية التي تعنى وتحافظ على مضمون رسالة النص الذي يريد إيصالها إلى القارئ في

³⁵ سعيد علوش، خطاب الترجمة الأدبية، من الأزوجية إلى المثاقفة، منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة، طنجة، ط. 1، 1990، ص.

78
³⁶ نفسه.

اللغة الهدف، إذ كنا نأتي بالفقرة ونفككها إلى جمل يحصل معناها في ذهننا ونترجمها بجمل تطابقها حتى تكتمل لنا الصورة الإجمالية للفقرة ثم نعبر عنها في اللغة الهدف محافظين - بطبيعة الحال - على قواعد وثقافة هذه اللغة الأخيرة، كل هذا من أجل الوصول إلى الهدف المنشود من العملية، الذي يتجلى في الخروج بنص مقروء أقرب ما يكون إلى النص الأصل.

أما بالنسبة لدواعي الاشتغال على موضوع ترجمة كتاب والتعليق عليه فهي تعود إلى الاعتبارات الآتية:

➤ شغف الخوض في تخوم إحدى الثقافات الإنسانية العريقة، والغوص في عمق التجربة الترجمانية المرتبطة باللغة، والترجمة والتواصل المبرمجة ضمن مستوى الماستر، وتماشيا مع أهداف مختبر "العلوم المعرفية" المدرج على مستوى سلك الدكتوراه.

➤ ما شجعنا كذلك في الاستقرار على ترجمة هذا الكتاب هو أنه لم يتم ترجمته من قبل.

➤ كون هذا الحقل المعرفي والتطبيقي الصرف لم يحظ بالاهتمام اللازم بالرغم من عراقه جذوره الثقافية وخصوبة إنتاجه وتراكماته الإبداعية، خصوصا من الناحية النقدية والدراسات البحثية.

➤ انتماؤنا إلى شعبتين مختلفتين إبان تحصيلنا الدراسي الجامعي، وهما شعبة الدراسات الإسبانية خلال سنوات الإجازة ثم شعبة اللغة العربية وآدابها خلال سنوات الماستر.

وبخصوص منهجية هذا البحث فقد اعتمدنا على مقاربة تنبني على تصميم يحدد مجال اشتغالنا ويسهل عرض المادة المدروسة وتدعيمها بواسطة براهين وأدلة علمية، لذلك قسمنا هذا العمل إلى قسمين وهما كالاتي:

الباب الأول: يتضمن ترجمة الكتاب من اللغة الإسبانية إلى العربية، حيث حاولنا من خلال ترجمته أن نخرج نصا مقبولا يراعي مقومات الترجمة وخصوصيات اللغة الأصل والهدف، لأن في هذه العملية يكون دور المترجم منصبا في السهر على احترام رسالة النص الأصل حتى تكون مفهومة لدى القراء في اللغة الهدف.

الباب الثاني: خصصناه للتعليق على الترجمة مع التركيز على دراسة بعض الجوانب المرتبطة بعملية الترجمة. وقد اعتمدنا في ذلك على مجموعة من القضايا والصور المأخوذة من النص الأصلي قصد التعليق عليها ومناقشتها وتحليلها.

الباب الأول: مراجعة الكتاب

تقديم 34

34 مكانة نظرية التواصل بين المعارف

34 1. علمنة نشأة الكون والدراسة العلمية للتواصل الإنساني

36 2. انقسام الدراسات التواصلية وتطور النظرية

38 3. موضوع ونظرية علوم التواصل

40 4. مجال نظرية التواصل

41 5. مناهج ومضامين نظرية التواصل

43 6. كيف تمت كتابة هذا الكتاب

الجزء الأول 46

47 تقديم: تصميم ومضمون دراسات أصول التواصل

50 1. أصل التواصل

70 استعمالات المعلومة في مرحلة ما قبل التواصل

70 1. ظهور الدلالة في التفاعلات

72 2. الاعتماد على أخبار تحمل معان

75 3. أصل التفاعلات ذات معنى ووظيفتها

79 4. دور المرسلين والمتلقين في إنتاج المعنى

84 5. الأسس الطبيعية للدلالة

85 6. نموذج عام للتفاعلات التي تشمل علامات ذات معنى

89 الاستعمالات التواصلية للمعلومة

89 1. المعلومة والتواصل

90 2. الأفعال التعبيرية والتنفيذية

94	3. الخصائص التي تميز التفاعلات التواصلية
96	4. ظهور المؤشرات
99	5. السلوكيات المثبتة وظهور ازدواجية المرجع
104	علم حفريات التواصل
123	الجزء الثاني
126	الفاعلون في التواصل
126	1. تحديد الفاعلين في التواصل
131	2. الأشياء التي يقوم بها الفاعلون: الأعمال التواصلية
133	الأعمال التعبيرية
133	1. المواد التعبيرية للتواصل
134	2. الأعمال التعبيرية: المفهوم والخصائص
136	3. الشروط التي تتطلبها الأعمال التعبيرية
139	4. مفهوم "التعابير"
140	5. الاستعمالات الملائمة للمواد التعبيرية
141	6. أنواع الأعمال التعبيرية
147	7. يعتبر التعبير سلوكا محفورا بالمخاطر
149	العلامات في التواصل
149	1. الاستعمال التواصلية للعلامات
149	2. مفهوم وأنواع العلامة
152	3. أوجه التشابه بين أنماط السلوك التعبيري والعلامات
153	4. الانتلافات والاختلافات بين التعابير، والعلامات والإشارات
154	5. وظائف العلامات في التواصل

النظم الإيكولوجية، التحول والاختصاص التواصلي	155
1. النظم الإيكولوجية في التغيرات التطورية للتواصل	156
2. الاختيارات التي توفرها القنوات والعلامات لاستعمالها التواصلي	158
3. الاستعمالات التي تقوم بها الأصناف انطلاقاً من قدراتها التواصلية للنظم الإيكولوجية	161
4. تحولات الوسط وتطور الأصناف المتواصلة	162
5. تخصصات الطاقات المستعملة لإنتاج العلامات	164
6. التخصص من خلال دور العتبات الإدراكية	170
7. التخصص من خلال استعمال رموز مجموعة من العلامات	171
الأعمال الإدراكية	174
1. تطابق العلامات مع العمليات الحسية	174
2. العلامات القابلة للإدراك والاستقبال التواصلي	174
3. العلامات المعروفة كمؤشرات تواصلية	176
4. العلامات التواصلية وتفسيرها	178
5. تطبيق المؤشرات التواصلية	179
6. الأعمال الإدراكية	181
نظم وسائل التواصل	182
1. مهمة نظم وسائل التواصل	182
2. تكيفات الأعضاء للعمل باعتبارها وسائل للتواصل	183
3. نماذج من نظم وسائل التواصل	184
4. المعلومة وتغيير نظم وسائل التواصل	185
5. الإنتاج التقني لوسائل التواصل	187
الإشارات ومرجعها: العلاقات	190

190	1. الأشياء المرجعية في التفاعلات التواصلية.....
194	2. إنتاج عالم الأشياء المرجعية المحددة للتواصل.....
197	3. التوافقات بين عالمي الإشارة والمرجع.....
201	الإشارات ومرجعها. المراحل التطورية.....
201	1. تطور الأنماط الدالة وإنتاج عوالم المرجع.....
206	2. المراحل التطورية للإشارة.....
211	3. تصنيف المواضيع المرجعية.....
214	4. القدرات الدالة والمرجعية للحيوان والإنسان.....
219	بنية عملية التواصل وعناصره.....
219	1. مكونات التفاعلات التواصلية.....
222	2. نظم التواصل.....
226	3. عمليات التواصل.....
233	الجزء الثالث.....
234	تقديم: تطور وتاريخ التواصل الإنساني.....
238	التواصل، والتطور الإنساني والأنسنة.....
238	1. التطور المشترك للأعضاء والتقنيات.....
240	2. التغيرات الجسدية والتفاعلات التواصلية.....
243	3. التغيرات العضوية التي تتوافق مع القدرات الخاصة للتواصل الإنساني.....
246	4. التقنيات ذات التأثيرات التكيفية للتغيرات الجينية للأعضاء التعبيرية.....
250	5. إنتاج الأدوات من أجل التواصل.....
251	6. الأدوات التواصلية، إنتاج وإعادة إنتاج المجتمعات.....
253	7. المضخات التواصلية واللغات الاصطناعية.....

254	8. المضخّمات في الوقت المحدد
257	9. وسائل المترجمين والأنسنة
258	إنتاج المواضيع الرمزية
258	1. التحولات التي تتيح الاستعمالات التواصلية الخاصة بالإنسان
260	2. التواصل الإنساني وأصل مركزية الإنسان
261	3. العمل التعبيري لكل الكيانات المادية
265	4. التواصل باعتباره ارتباطا وانفصالا
267	التواصل في السلوكات الإنسانية
267	1. تخصص التفاعلات الإنسانية في الإشارة
272	2. المزايا التي تضع التواصل في مكان التنفيذ
275	3. الطريقتان الممكنتان للتفاعل
277	4. تحليل الفعل. النموذج الذي يدمج التواصل والتنفيذ
280	الاستبدالات بين الإجراءات الاجبارية والتواصلية
280	1. التحليل المنهجي للتفاعلات
283	2. استراتيجيات الفعل
284	3. الاستبدالات بين الإجراءات الاجبارية والتواصلية
288	4. التواصل والإنجاز
292	5. نموذج تحليل الفعل وقابلية تطبيق السلوكات
293	تركيبات التنفيذ بالإشارة
293	1. التسلسل في جمع الأفعال التنفيذية بالتعبير
294	2. وظائف الأفعال التعبيرية والتنفيذية عندما تجتمع في التفاعل
297	3. التعبير الأساسية والمتعلقة بالتأثيرات. الاختلافات

298	4. التطبيقات الوجودية للتواصل
300	التواصل المرتبط بالتأثيرات
301	1. المؤشرات المرتبطة بالإنجاز
302	2. المؤشرات المرتبطة بالعلاقة
306	3. الاستعمالات التواصلية الإنسانية المرتبطة بالتأثيرات
307	4. إدراج القيم في التواصل الإنسانية
311	5. التفاعلات الإنسانية التي تتطلب مشاركة التواصل
316	6. التفاعلات الإنسانية التي لا تكون فيها مشاركة التواصل ضرورية
317	7. الخلط بين الإخبار والتواصل
320	مراجع التواصل الإنساني
320	1. العالم المرجعي للتواصل الإنساني
324	2. الكيانات التي يمكن إنشاء علاقات مرجعية وغير مرجعية معها
335	3. مواضيع الاختبار التي تعتبر مراجع حاضرة والنائبة عنها
339	الحقيقة والكذب في التواصل الإنساني
339	1. موضوعية، ومدلولية وصلاحيّة المعطيات المرجعية
340	2. تحليل الموضوعية
342	3. تحليل المدلولية
344	4. تحليل الصلاحيّة
351	5. مفهوم التواصل الحقيقي
355	ما يخص الإنسان في التواصل الإنساني
356	1. استعمال المنهج الجدلي في نظرية التواصل
356	2. الآلية التطورية التي تشكل أصل التواصل الإنساني

358	3. التحولات التطورية للتقاربات في الهويات
361	4. الاختلاف بين التقاربات والآليات الشاملة للاختيار الطبيعي
362	5. بداية الأنسنة
363	6. ما يتوفر عليه التواصل الإنساني بخصوص الإنسان
370	7. التواصل، الحياة والمجتمع
372	الجزء 4
373	التقديم: الإنتاج القابل للفحص في نظرية التواصل
377	البناء النظري للتواصل
377	1. منهج بناء نظرية التواصل
381	2. الحقل العلمي الذي تنتمي إليه الظواهر التواصلية
383	3. التحليلات النسقية للتواصل
390	4. المعيار الذي يدمج دراسة التواصل
391	5. النماذج التي تقدم أشكال التواصل
393	التواصل في دراسة الحياة والمجتمع
393	1. مستويات تحليل التواصل
398	2. انفتاح التواصل على نظم أخرى
406	3. نظم التواصل، والنظم الإيكولوجية ثم النظم المرجعية
408	4. الجدلية، والتواصل ثم الوسيط
418	لائحة مصادر ومراجع الكتاب

مكانة نظرية التواصل بين المعارف

تمتلك فصائل الحيوانات التي سبقت الإنسان بمئات ملايين السنين القدرة على التواصل. وطبيعتنا كمتواصلين قد أخذت بعين الاعتبار في أساطير كل الثقافات التي نعلمها، من أجل تطوير التأمّلات الأولى حول طبيعة الإنسان. لقد تم الوعي بأن الاعتقادات حول أصول القدرة التواصلية كانت تشكل جزءاً من المعرفة بالكون، أي أنها كانت شيئاً مقدساً لأنها تحيل على كيفية تطور الحياة وتشكل المجتمعات البشرية.

على الرغم من ذلك - أو بسبب ذلك على الأصح - فإن الدراسات العلمية للتواصل قد عرفت تأخراً. فقد بدأت منذ حوالي قرن ومازالت في بدايتها. وهذا التأخر الكبير يدل على أن بعض التحولات الجذرية على مستوى الفكر، والمرتبطة بطبيعة التواصل، كانت ضرورية كي يتم الانتباه تحديداً إلى أن العلوم مؤهلة لتحليل التواصل كأى موضوع آخر للدراسة.

كان من الضروري الانتظار إلى حين، ترسيخ النظريات حول علمنة نشأة الكون، وانقسام الانثروبولوجيات. وسأشير باختصار إلى إعادة النظر في هذه المعارف نظراً لأهميتها في تطور علوم التواصل.

1. علمنة نشأة الكون والدراسة العلمية للتواصل الإنساني

يقتضي علمنة نشأة الكون دراسة الأشياء المقدسة، بما فيها السمات المميزة بشكل حصري للإنسانية، على ضوء الفكر العقلاني، بنفس طريقة معالجة المواضيع المدنسة؛ ومن بين هذه السمات المقدسة هناك التواصل الإنساني. فالطابوهات وغيرها من الموانع كانت تفادت التدنيس الذي كان يقتضيه البحث في الأصول الطبيعية للقدرات التواصلية، لأنها كانت تعتبر من المواهب التي جُبلنا عليها من الإله. هكذا، يحكى في العديد من الأساطير بأن هبة الكلام يمنحها بانتوكراتور نرجيسي، مدفوعاً بعشقه للحيوان العاقل الذي خلقه متخذاً نفسه كنموذج.

إن تدنيس التواصل الإنساني يفضي إلى أنسنته، كما حدث من قبل بالنسبة إلى الجسد والعقل المدنسين. في الواقع، لم يكن التواصل - النصف مقدس - يُتصور كقدرة إنسانية، حتى اللحظة التي انتزعه فيها الفكر العلمي من الفكر الأسطوري.

فقد رأى كل من جيمباتيستا فيكو* (Gimbattista Vico) وكتّاب آخرون في مرحلة ما بعد النهضة أن هناك إمكانية للبحث في أصول التواصل الإنساني باستعمال طرق تجريبية³⁷، لكن هذه الفكرة لم تعرف طريقها إلى التطبيق حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لما كانت نظرية التطور قد وجدت المنهج والمعايير الأساسية لمعرفة كيفية تغير الحياة، مما شجع على البحث عن الدور الذي يمكن أن يكون قد لعبه التواصل في ظهور واختفاء الأجناس. هكذا انتهت المدرسة السلوكية إلى وجود علاقات بين الحوافز، والعلامات والسلوكيات³⁸.

لكن لا نظرية التطور ولا المدرسة السلوكية، طورتا هذه الملاحظات في حقل التواصل. ولم تستطعا ذلك، من جهة، بسبب نواقص علمية لم يكن ممكنا تجاوزها آنذاك؛ ومن جهة أخرى نظرا لدوافع فلسفية. وهذان السببان يعكسان إنجازات وحدود دراسات التواصل في الوقت الراهن؛ لهذا سأخصص لهما بضعة أسطر لأنهما جديران بالمعرفة.

___ كانت دراسة أصول وتحولات التواصل تقتضي مقارنة علوم الحياة والسلوك بالنتائج العلمية للثورة المعرفية التي أحدثتها بنفسها. فمنذ نهاية القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا، انضاف إلى البحث في الظواهر التطورية والسلوكية علم الأحياء، وعلوم الحيوان الوراثة، وعلم البيئة، وعلم الأخلاق، وعلم النفس الوراثي والمعرفي، وعلم الحفريات، والأنتروبولوجيا الثقافية، والسيميولوجيا، والنظرية الرياضية للتواصل والسبيرينيتيقا، وقد اتجه اشتغال هذه العلوم خلال القرن العشرين بشكل كبير إلى مقارنة براديجمات التطور والسلوك مع المعطيات التي توفرها المناهج الجديدة؛ ولازال البحث ساريا في هذا الميدان. ونعلم الآن أن وجود نظرية التواصل لم يكن ممكنا قبل أن تبحث هذه العلوم في ما تُحدثه المعلومة في حقل الدراسة المتعلقة بها. إنه عمل طويل ومعقد لم ينته إطلاقا، لكنه أتى ببعض المفاتيح النظرية والأدلة

* ملحوظة: تدل علامة النجمة بعد اسم كاتب أو كتاب على وجودها في البيبليوغرافية.
³⁷ كتب جيمباتيستا فيكو (1668 - 1744) أن الإنسانية يتم تحديدها لأنها تتوفر على عقل ابتكاري يحول أعماله إلى عقول أخرى، لذلك فهذه القدرة لا تعارض قوانين الطبيعة، بينما تحققها بمستوى آخر، إذن فهذه النزعة الإنسانية ظهرت بشكل ضمني لدحض العقلايين الذين حددوا أن الناس بعقلانية، ووضعوا قطيعة بين ما هو إنساني وما هو حيواني.
³⁸ نشر شارل داروين (1809 - 1882) "أصل الأجناس" سنة 1858، وألف ويلهيم ووندت (1832 - 1929) سنة 1880 مؤلفه "علم النفس الفيزيولوجي". وفي العشرين عاما التي مرت بين المؤلف الأساسي لأب نظرية التطور، ومبادئ علم النفس التجريبي، تم إنتاج علمنة المعرفة التي أدت إلى أصل العلوم المعاصرة: "الحياة" وتمظهراتها (انطلاقا من نظرية التطور)؛ ثم للروح وقدراته (بفضل النظرية البنوية للسلوك).

التجريبية الضرورية. فحاليا يمكن الاشتغال في حقل نظرية وعلم التواصل قرنا ونصف تقريبا بعد أن تصوره كلا من داروين (Darwin) ووندت (Wundt).

__ كانت هناك في مطلع القرن التاسع عشر أسباب كثيرة أخرى لإدراك مكانة التواصل، في علاقته بالمعرفة، والثقافة والمجتمع. ولقد ساهمت كل من الأنثروبولوجيات الفلسفية والعلوم الاجتماعية في هذا الاكتشاف، لكن في مستويات مختلفة وأحيانا متعارضة. فقد استمر الفلاسفة في الحركة الفكرية التي بدأت مع الرومانسية، والتي تعترف بوجود ما هو أكثر إنسانية في التواصل. وهذا طرح جيد للوصول إلى الدور الذي لعبه التواصل في بعدين اثنين في نشأة الإنسان هما: التطور الإنساني (بمعنى تحول القردة الأوائل إلى كائنات بشرية) والأنسنة (أي تغير المجتمع حسب الطبيعة إلى مجتمع حسب الثقافة). هذا لأن التواصل مُتضمَّن في هذابين البعدين معاً، لكن بشكل مختلف وبمسارات غير متطابقة. وهذا هو السبب الذي دفعني إلى إقامة هذا التمييز الذي أعتمده في هذا الكتاب.

عموما، تجاهلت الأنثروبولوجيات الفلسفية المكونات التواصلية للتطور الإنساني. وعلى العكس من ذلك، أعارت اهتماما كبيرا للأنسنة من خلال التواصل؛ والأكد أنهما مساران مختلفان متعلقان بأصل الإنسان؛ لكنه من المؤكد أنه إذا تم الفصل بينهما، لن يمكن التعرف على ذواتنا في أي واحد منهما. وبعبارة أخرى يمكن محاولة تأسيس طبيعة الإنسان على قدراته التواصلية، رغم أنني أعتقد شخصيا أنه مسعى مبالغ فيه شيئا ما. لكن في هذه الحالة سيتوجب الاعتراف بأن هذه القدرات التواصلية، التي يقال بأنها أنتجت ما هو أكثر إنسانية - أي الثقافة - لها أصول ما قبل الإنسان. وإذا أردنا القول، فإن عالم الرموز انبثق بصيغة ما من عالم الحوافز الحيوانية. ويتعلق الأمر هنا بسلسلة مخرجة جدا بالنسبة إلى معظم الأنثروبولوجيات المعاصرة.

2. انقسام الدراسات التواصلية وتطور النظرية

إنه لمن المفارقات أن تكون التفسيرات المتعلقة بطبيعة الإنسان التواصلية، والتي اقترحها الفلاسفة أبرز الارتباط بالتواصل الجزء المهم الذي مازالت تحتفظ به الفلسفة.

وتتجلى المفارقة التي ذُكرت في ما يلي: اصطدام النظم الفلسفية المعاصرة، على العموم، بنظرية الخلق، لكنها لم تتصد لها في المستوى الذي كان من الضروري أن تتعارض معها الأصول التي يفترض أنها غير طبيعية للقدرات الرمزية، بل ويمكن أن نلاحظ في الجدل بين فلاسفة غير الخلق ولاهوتيي الخلق

وجود اتفاق في العمق وليس في شكل الاتفاق، فهم يلتقون في تفسير القفزة بين ما هو بيولوجي وما هو رمزي. كلا الطرفين يقولان بالاستحالة (المفترضة) لربط الاستعمالات الثقافية للتواصل الإنساني بالاستعمالات الطبيعية للتواصل الحيواني.

ويوجد عمق هذا الاتفاق الضمني في مركزية الإنسان، بحيث إن هذه الأخيرة تؤدي إلى قطيعة نوعية بين المعرفة المرتبطة بالإنسان وتلك المرتبطة بالحيوان. وقد ظهرت هذه القطيعة في العقلانية، وكان ذلك بالتحديد من أجل التمييز، في مستويين ابستمولوجيين منفصلين، بين دراسة الطبيعة الإنسانية والحيوانية بمعنى وضعهما. إن عودة ظهور مركزية الإنسان حدثت قرنين بعد وفاة ديكارت، ويتم العمل بها - وهذا ليس من قبيل الصدفة - في حقل التواصل. ويحدث هذا في مرحلة تاريخية فيها الكائن العاقل - "الوحيد"، "الكائن الإنساني" - من مركز الكون، أو على الأقل أصبح لزاما عليه أن يتقاسم هذا المركز مع كائنات غير عاقلة. وفقدان المركز هذا استغرق وقتا وجيزا وحدث بشكل عام. فقد أخرجت أعمال داروين جنسنا من مركز الطبيعة. أما أعمال دوركايم فقد أخرجته من مركز المجتمع، وأخيرا أخرجته أعمال فرويد من مركز العقلانية.

وقد يبدو أن فقدان المركز هذا قد ترك كلا من نظرية الخلق والفلسفة دون أسلحة. وسيتم البحث في كلتا الحالتين عن منفذ في مركزية الإنسان التواصلية، ولو كان ذلك من أجل الحفاظ على رؤى متعارضة للعالم:

يُفهم من هذا أنه بالنسبة إلى أن لاهوتيي الخلق تعتبر مركزية الإنسان من بين المجالات التي بقيت لها من أجل الاستمرار في إعطاء صورة فوق الطبيعة للإنسانية، بمعنى صورة على هامش وفوق الطبيعة.

تتصور الأنثروبولوجيا الفلسفية كرامة الإنسان من خلال ما هو إنساني. لكن هذا التمييز يضعها في مكانة غير مريحة أثناء معالجة فقدان المركز الذي أشرت إليه، ويفرض عليها أن تعترف بأن التواصل الإنساني هو الشيء الوحيد الذي يبقى للإنسانية كجنس غير قابل للمقارنة. وتعتمد الأنثروبولوجيا الفلسفية في هذه القيمة المرتبطة بالتواصل على الطابع الأصلي (المفترض)، والثابت وغير القابل للتحويل الذي يتوفر عليه التواصل الإنساني.

وقد حلت الأنثروبولوجيا الفلسفية بطريقة غير موفقة مسألة تغير البعد فيما يتعلق بالمكانة التي تحتلها الإنسانية في العالم. لهذا أنجزت نظرية التواصل وزاغت عن مسارها خلال الجزء الأكبر من القرن

الماضي بسبب هذه الأزمة. بالفعل، مازالت مركزية الإنسان التواصلية حاضرة، مما يعني وجود تأخر كبير للنظرية في حقل التواصل مقارنة بالمعارف العلمية المتوفرة.

يتجلى هذا الاضطراب في النصوص المرتبطة بالتواصل والتي مازالت تشير إلى السمات التي تميز التواصل بالاختصار على الوظائف الثقافية التي يؤديها هذا الأخير بين الإنسان. وليس من المألوف أن تؤخذ بعين الاعتبار الاستعمالات الأصلية للتواصل بين الأصناف الحيوانية، بالرغم من وجود متواصلين قبل خمسمائة مليون سنة على الأقل عن ظهور الإنسان أو أي إرهاب للثقافة. ومازال البحث عن الاستمرار والقطيعة بين الأنشطة التواصلية التي تقوم بها الحيوانات في الطبيعة وبحققها الإنسان في المجتمع يعتبر أمرا استثنائيا.

إن التمييز القبلي بين القدرات والممارسات التواصلية لما يسمى بالحيوانات وما يعرف بالكائنات العاقلة يتضمن تحليلا ناقصا، وخاطئا في بعض الأبعاد. كما أنه يضع علوم التواصل بدون جدوى على هامش التطورات التي تحدث في دراسة التطور والأنسنة. وفي الأخير، له نتائج سلبية على معرفة وتقييم ما يجعلنا كائنات بشرية:

استغرق التطور خمسة ملايين قرنا لكي يتم اختبار الخيارات التواصلية التي شكلت، في نهاية المطاف، القدرات التواصلية للإنسان. وهذا التطور جعل جسمنا مُعبرا ومستقبلا، وسلوكنا رمزيا، وعقلنا منطقيًا، وعالمنا مليئا وذا معنى؛ أي أن تغيرات تطور التواصل ساهمت بشكل ضروري وأساسي في خصوصية الشرط الإنساني.

إن معرفة اصل القدرات والسلوكات التواصلية التي تميزنا كأنا متواصلين عن غيرنا من المتواصلين تعرف أفضل الإنسانية مقارنة، بالتفسيرات التي تتجه إلى الإنكار أو التقليل من أهمية هذا الأصل، سواء شكلت جزءا من الأساطير الدينية أو من نظريات مركزية الإنسان. لكن معرفة هذا الأصل تسمح لنا باستعادة الشرف الذي يتمتع به الإنسان في العالم، والذي ضاع لما تم تدنيس أصولنا. وهو شرف ناتج عن نزوات غامضة للآلهة، ولا عن نفي طبيعتنا الحيوانية الرائعة والتمتيز.

3. موضوع ونظرية علوم التواصل

لم تمنع مركزية الإنسان التواصلية من تقدم الدراسات التطورية المتعلقة بالتواصل، ما حدث هو أنها استغنت عنها لإنشاء نظرية. فالمواد الكافية للتفكير حول أصول ووظائف التواصل الإنساني والتواصل

الحيواني، وكذا حول العلاقات والاختلافات بينهما المتوفرة. ولا يعقل أن تستمر نظرية التواصل في إعادة إنتاج قطائع مصنعة.

يتيح تحليل المعلومات المتوفرة إمكانية القيام بمهمة معقدة ومستعجلة : إنشاء الإطار نظري الذي تحتاجه دراسات التواصل لتكون في نفس مستوى العلوم. إن هذه النظرية ضرورية للبحث حول الإنسان والتواصل، والأنسنة والتواصل، والتواصل وأصول الجهاز البشري، والتواصل وتنظيم الإنسان في مجتمعات، وكذا التواصل وتكوين المعرفة، والقيم والثقافة.

إن الجرد السابق يصف الحقول الرئيسية التي تشملها الدراسات النظرية للتواصل، ويبرز خاصية تميزها: فهي تهتم بنشاط ساهم ومازال يساهم في كل من التطور الطبيعي كما في التغيرات التاريخية. لهذا، فإن موضوع دراسة علوم التواصل هو الطبيعة والثقافة، فالجنس البشري يتوفر فيه هذان الأمران في الوقت نفسه. سأضع بعض الأمثلة:

__ إن المتخصص في الأبعاد الطبيعية للتواصل سيجد أن محددات المجتمع والثقافة تحولت إلى مجالات للتغيرات التطورية عندما حلت الأجناس البشرية في العالم. كما أن لهذه المحددات وظيفة في التطور العضوي، والفكري والاجتماعي للأشخاص (في النشأة).

__ إن المتخصص في المظاهر الاجتماعية للتواصل سيجد في هذا النشاط المحددات التي تفرزها الطبيعة، على سبيل المثال، عندما يدرس النظم المختلفة للتواصل التي خلقتها الإنسانية منذ بداية التاريخ حتى الوقت الحالي. وذلك لأن خصائص وتغيرات النظم التي تحكم التواصل يجب أن تقوم أيضا بسد، أو عدم سد، أو تغيير نفس الحاجيات المرتبطة بالتواصل في الطبيعة، وهي حاجيات بيولوجية، وعلائقية ومعرفية، كما تعتبر جزءا لا يتجزأ من الخاصيات الجديدة التي يخلقها المجتمع والتي تمتزج في ما بينها.

ومن أجل فهم طبيعة مادة بهذه الخصائص ليس من الضروري أن يكون القارئ، أو القارئة، متخصصا في العلوم الطبيعية، والإنسانية والاجتماعية في نفس الوقت، رغم أن توفرهم - لحسن الحظ - على هذه المعارف لن يحد من إمكانياتهم. لهذا فيجب أن تُؤسَس معارف التواصل، كغيره من المجالات، على النظرية التي تتناسب معه، وهي في هذه الحالة نظرية التواصل. وتؤدي النظرية في حقل التواصل هذه الوظيفة الابستيمولوجية، وذلك حين تشرح تشرح كيف يرتبط في التواصل العالم الطبيعي بالاجتماعي، وكلاهما بعالم الرموز. ويعتبر استعمال النظرية هذا إسهما في المعرفة التطبيقية الموجودة. و يحتاجها

من يَدْرُسها لإدراك ما يدرسه ولماذا درسه، ويحتاجها الأساتذة والأستاذات لتنظيم المعارف التي يمتلكونها ويلقونها، وكذلك الباحثات والباحثون من أجل توجيه إسهاماتهم الخاصة والعمل رفقة زملاء في مجالات أخرى.

4. مجال نظرية التواصل

يعد التواصل نوعا من التفاعل الذي يخدم بالأساس الحاجيات البيولوجية ويشغل وفق قواعد حيوانية. كما أن امتداد تطوره المفاجئ تم اكتشافه في وقت لاحق، وذلك لما تمكن الجنس البشري من وضع التواصل في خدمة المعرفة، ولما تم دمج الموارد وتنظيم المجتمعات في الإنتاج التواصلي، وأيضا عندما أصبح استخدام التواصل خاضعا ليس فقط للحاجيات، بل كذلك للعناصر التي لها أهمية قيمة.

لقد أصبح التواصل حاملا للثقافة، لكنه لم يبتدئ معها، ومع التطور الإنساني غدا مظهرا للقيم، لكنه لم يُخلق من أجلها. لهذا السبب أقول بأن طبيعة التواصل توجد في قدرته على أن يكون واسطة لإحداث هذه التغيرات، ويتضمن التغيير في كينونته، لأن القدرات التوافقية تتشكل وتعاود التشكل كلما حدثت التغيرات المذكورة. إنه عملية تنعكس باستمرار، أولا، في أوساط طبيعية، ثم تستمر في الأوساط الاجتماعية.

ومن ثم، فإن دراسة التواصل يجب أن تبدأ من الوقت الذي لم تكن هناك لا ثقافة، ولا مجتمع ولا قيم، ولا تنتهي إلا عندما تتضح كيفية مساهمة التواصل في خصائص الإنسان ومجتمعاته: أي في وجود عالم مجرد وقيمي.

إن النظريات تؤدي هذه الوظائف قد تم التفكير فيها من أجل العثور على تفسيرات تعتمد على معطيات ذات قيمة علمية. وعلى ضوء ما كتب، من الأنسب أن تقوم التفسيرات النظرية في حقل التواصل على التغيرات التي شهدتها التواصل منذ ظهوره. ويجب أن تكون هذه التفسيرات قابلة للبحث والمقارنة بطرق علمية.

ويضع هذا الهدف الإسهامات النظرية حول التواصل في قلب مجالات المعرفة. أقصد بهذا أن هذه الإسهامات توسع وتعيد تنظيم هذه المجالات لتشمل معارف جديدة. وتحديدًا، نظرية التواصل توفر بشكل مكافئ لقوانين التطور من أجل فهم الثقافة، ولحدود الثقافة من أجل استيعاب التطور؛ إنه ربط بين مستويين للعالم لا يمكن أن يحدث إلا بوضع شيء في الوسط. ويتم هذا، في هذه الحالة، عن طريق الاستعمالات التوافقية للمعلومة.

ومجمل القول، إن دراسة نشأة التواصل، وتغيرات تطوره ومساهمته في مركزية الإنسان تشكل حاليا أحد حدود المعرفة، التي ستصبح مرجعا أساسيا للعلوم الطبيعية، من بينها علم الحيوان وعلم الأخلاق، وأيضا لعلوم المعرفة كعلم النفس التطوري واللغة، وكذلك بالنسبة إلى العلوم الاجتماعية والثقافية، من بينها علم الحفريات، والأنثروبولوجيا الثقافية وتاريخ الحضارات.

وأعتقد أيضا أن توضيح نظرية التواصل يمكن أن يؤدي إلى نتائج نتائج علمية على المدى البعيد. ويمكن أن يكون له، على وجه التحديد، دور هام في إعادة النظر المستمرة في نظرية التطور، كلما ازدادت معرفة آليات تغير الأجناس بطريقة أفضل. إن التواصل هو إحدى هذه الآليات، لكن دورها في التطور لم يحظ باهتمام كاف حتى الآن³⁹.

5. مناهج ومضامين نظرية التواصل

إن دراسة أحد المواضيع التي ترتبط تحولاته، أولا، بالتطور الطبيعي، ثم بالتنشئة الاجتماعية، تطرح بعض الشروط المنهجية. وينصح بتطبيق قاعدة مورغان الذي يقول:

"لا يمكن بأي حال من الأحوال تفسير حدث كنتيجة لممارسة ملكة نفسية عالية لما تكون هناك إمكانية تفسيرها كنتيجة لممارسة ملكة أخرى توجد في مستوى أقل منها".

ويتم تطبيق هذه المنهجية في حقل التواصل بشتى المعايير التالية:

- يؤخذ بعين الاعتبار، أثناء شرح القدرات التواصلية المختلفة، الجهاز العضوي الذي يتوفر عليه كل جنس والخصائص الوظيفية لكل عضو.

- من أجل فهم الاختلافات بين الأدوار التواصلية الإنسانية والحيوانية، يُنظر أولا إلى تلك الجوانب التي تلتبظ فيها هذه الاختلافات، بتغيير التطورات التي حولت الأجهزة العضوية والقدرات الوظيفية.

- عند تحليل الاستعمالات الاجتماعية الخاصة بالتواصل الإنساني يتم التحقق من كيفية تشكلها خلال تطور التواصل الحيواني.

³⁹ لقد أشار داروين إلى الإيجابيات التي تقدمها القدرة على التواصل من أجل إعادة إنتاج الأصناف (التعبير عن العواطف لدى الإنسان والحيوان). ويوضح أن أصل الحيوان من التظاهرات العاطفية وقيمه التكيفية، كما يبين العديد من التكافؤات بين أشكال التعبير العاطفي الحيواني والإنساني؛ لكن في أي مؤلف هذا الكاتب الذي أعرفه، تجعل ضمنا أن النتائج التطورية التي تتوفر عليها، وتكيفات التغيرات في تحولات المحيط، يتم حلها بواسطة تعديلات الأجهزة العضوية والسلوكيات التواصلية.

ويمكن تلخيص هذه الملاحظات المنهجية في الفكرة التالية:

حين الاشتغال داخل نظرية التواصل لا يمكن الشرح ثقافيا ما يمكن شرحه تطوريا.

ومن أجل الخضوع لهذه المعايير، من الضروري أن تطرح نظرية التواصل الأسئلة الهامة وفق ترتيب مناسب:

أولاً، ما هو أصل كلمة التواصل؟ وما السبب وراء توحيد العلامات من أجل تبادل المعلومات في عالم من المواد والطاقات والحوافز والإجابات؟ وما هي المميزات التي تسمح بتمييز المتواصلين الأوائل وكيف كان هؤلاء المتواصلون؟

ثانياً، ما هي مزايا التطور التي مكنت من استخدام التواصل في التفاعلات الحيوانية والإنسانية؟ وكيف تشكلت العناصر التي تسمح بالتعبير والإشارة إلى أشياء أخرى؟ وكيف تغيرت طرق واستعمالات التواصل والمتواصلين أنفسهم؟

وبالتالي، ما هي تغيرات التطور التي حولت التواصل الحيواني إلى تواصل إنساني؟ وما هي الخصائص التي تميز المتواصل البشري عن المتواصل الحيوان؟ وكيف يمكن ملاحظة هذه الاختلافات في الأجهزة، والسلوكات والاستعمالات الإنسانية والحيوانية للتواصل؟ وكيف يجتمع الموروث والثقافة في تطور التواصل الإنساني؟ وكيف لشيء لم يظهر في الأول من أجل استعمالات اجتماعية وقيمية، أن يصبح عنصراً أساسياً لبناء، ونقل والحفاظ على الثقافة والنظام الاجتماعي؟

هذا هو الترتيب والمعيار اللذان اتبعتهما لكتابة هذا الكتاب الذي ينقسم إلى الأجزاء التالية:

الجزء الأول: أصول التواصل

الجزء الثاني: طبيعة التواصل

الجزء الثالث: التواصل الإنساني.

وينتهي الكتاب بالمناهج التي تم استعمالها من أجل إنشاء نظرية للتواصل يمكن التحقق منها، وهي التي تعد ضرورية كي يكون العمل ذا قيمة علمية. كما أقدم بتفصيل في حقول المعرفة المرتبطة بالحياة والمجتمع، حيث تتطور وتُطبَّق دراسات التواصل. كل هذا يشكل الجزء الأخير.

الجزء الرابع: مناهج نظرية التواصل.

6. كيف تمت كتابة هذا الكتاب

هناك مفارقة ملفتة للنظر بين أهمية الظواهر التواصلية للعلوم الطبيعية والمعرفية والسوسيوثقافية، والتطور ما قبل العلمي الذي وصلت إليه دراسات التواصل. ويمكن لهذا الوضع أن يتغير، لكن ذلك لن يحدث قبل أن تقدم نظرية التواصل معايير، وتصنيفات وتفسيرات، قابلة للبحث والمقارنة. وقد كان إنشاء هذه النظرية أول عمل قمنا به في حقل التواصل، بعد أن نشرت "الوساطة الاجتماعية". وربما نظرا لكون هذا المشروع طموحا جدا، فإن آخر عمل لي إلى حد الآن هو "نظرية التواصل. التواصل، حياة ومجتمع".

وتوجد في عصرنا أنشطة مهنية قليلة مناسبة لإنشاء نظرية، والتي تعتبر ولادة فكرية بالغة الخطورة. لأن تصورنا يحدث على المدى البعيد دون أجل محدد. لذا سنتوقف وخلال مسارها قد تكون هناك قطيعة بسبب أولويات أخرى تقتضيها الحياة، وتعد وظيفة الأستاذ الجامعي التي أمتنها واحدة من الوظائف الملائمة للجهد النظري. فمازالت الجامعة العمومية الإسبانية توفر المداخل والوقت للذين يسمحان بإعداد أعمال بمهمل. وتوفر كذلك، على الخصوص، الحوافز المطلوب التعليمية والوسط الأكاديمي ليتم تدريس النظرية ومقارنتها.

بالفعل، فكرة إنشاء نظرية تشرح طبيعة، وأصول وتحولات التواصل، خطرت ببالي لأنني كنت أزال هذه المهنة. وحدث هذا سنة 1976، لما بدأت تدريس نظرية التواصل التي تمت برمجتها لأول مرة في الجامعة العمومية ببلادي، آنذاك وجدت نفسي أمام مسؤولية تصميم المقررات والمضامين التي من شأنها أن تكون في مستوى هذه المهمة. بدأت العمل، وبما أنني كنت شابا لم أبال بجسامة مشروع كهذا، ولم أضع، في الحسبان المدة الزمنية لهذا العمل. وقد أخذت مني أول صياغة كاملة للنظرية ست سنوات: إلى غاية 1981. وتوجد في فصول كتاب " نظرية التواصل، الاستمولوجيا وتحليل المرجع". وكنت اهتم في لك الأثناء بالتعريف بتطورات هذه النظرية في إصدارات ترد في لائحة المراجع لدى أساتذة وطلبة شعبي.

منذ ذلك الحين وحتى الآن، استعمل كتاب " نظرية التواصل، الاستمولوجيا وتحليل المرجع" بمثابة كتاب للنصوص في العديد من جامعات إسبانيا وأمريكا اللاتينية. لهذا كان يتم إعادة إصداره من جديد كي

يستفيد منه مئات الطلبة. لذلك فهو المؤلف الأكثر شيوعا لنظرية التواصل باللغة الإسبانية. وقد استمر وقتا طويلا إلى أن ظهر هذا الكتاب الذي تقرأه الآن، أيها القارئ أو القارئة.

يبدو لي، وباستحضار البعد الناتج عن الانتهاء من مشروع شاسع، أنه كان من الضروري أن يحين وقت هذا الكتاب، وهذه اللحظة هي التي نحن بصدها الآن، حيث تم تحويل تلك الصياغة الأولى للنظرية إلى " نظرية التواصل. التواصل، الحياة والمجتمع". وكان من اللازم أن تتوفر العلوم التي تشتغل على قضايا تطويرية للحيوان والإنسان، على تقنيات حديثة التطبيق. وبفضل هذه الأخيرة تمكنت هذه العلوم من الحصول على بعض المعطيات الضرورية لإدراك الدور الذي يلعبه التواصل في الأنسنة. وكان كذلك من الضروري بالنسبة لي أن أقارن نتائج هذه النظرية المقترحة في حقول معينة، وخصوصا في المظاهر الاجتماعية للتواصل.

في غضون ذلك، وموازة مع النتائج التي كنا نتوصل إليها، كنت أضعها رهن إشارة المؤسسة الجامعية. كما أن عملية تأليف هذا الكتاب كانت مفتوحة على زملائي في العمل والطلبة. فالأجزاء المحررة من المواضيع كانت توزع وتستهمل في فصول الإجازة والدكتوراه. لقد كان مائتا طالب دكتوراه الذين يحضرون بكثرة دروسي خلال كل تلك السنوات، يشتغلون بهذه الصياغات، بحيث إن الكثير منهم استعملوها في أطاريحهم، والبعض منهم ممن أصبحوا زملاء بارزين، يدرسون في جميع أنحاء البلدان الناطقة باللغة الإسبانية، يشرفونني باستعمال وينشر هاته الأدوات.

لقد أسهمت هذه القنوات المفتوحة في انتشار مضامين ومناهج هذه النظرية في المراكز الأكاديمية والبحثية، وهو الانفتاح الذي استغله أيضا أصدقاء أجانب ضمن الأساتذة والأساتذات الجامعيين. إنهم "مقتبسون"، هذا يسمى الآن أولئك الذين يخفون مصدر النصوص التي يستعملونها، وذلك كي لا يتم اكتشاف معالم طبيعتهم كسارقين أدبيين. لنسمح بسرقة هؤلاء الأشخاص المثيري للشفقة مقابل أن يصيروا أساتذة وأستاذات، في شعبي، وفي مراكز أخرى، والذين التزموا بهذا التوجه النظري على طول هذه السنوات وأسهموا في نشره في من خلال مباريتهم المهنية، ودروسهم وإصداراتهم. لن أستطيع أن أذكرهم جميعا، إلا أنني أؤكد أن هذا يعني تعويضا جيدا لي عن الذي قمت به. وأتمنى أن يستجيب كتاب " نظرية التواصل. التواصل، الحياة والمجتمع" لانتظاراتهم، وأن يكون محفزا جديدا لعملهم الخاص.

ويتضمن الكتاب جداول ورسومات بيانية قمت بإعدادها لتسهيل العرض والتدريس. وقد تم تجويد هذه المادة بفضل عمل الأستاذ الدكتور فيسينتي باكا لاغوس (Vicente Baca Lagos)؛ لهذا أقدم له أعظم شكري على كفاءته وصدافته.

أصول التواصل

مقدمة: تصميم ومضمون الدراسات حول أصول التواصل

الفصل 1 أصل التواصل

الفصل 2 الاستعمالات ما قبل التواصلية للمعلومة

الفصل 3 الاستعمالات التواصلية للمعلومة

الفصل 4 علم حفريات التواصل

تقديم: تصميم ومضمون دراسات أصول التواصل

تتطور السلوكيات التواصلية انطلاقاً من تفاعلات غير تواصلية. فذكر هذا الأصل يعد مسلمة، غير أن هذه الأخيرة لم يتم توضيحها بعد، فما لم يكن تواصلًا وأضحى تواصلًا لا يزال يحتاج إلى معرفة، إذ يجب تفسير كيف، ومتى، ولماذا تم هذا التحول. بهذا الشكل نكون قد قدمنا محتوى هذا الجزء من الكتاب.

إن تحول اللاتواصل إلى تواصل يعتبر على مستوى الكون الشكل الأكثر تعقيداً الذي تتصل به الحياة بذاتها. سواء تعلق الأمر بحدث منفرد أو متواتر، يعيد التواصل ترتيب العلاقات بين المادة، والطاقة والمعلومة لما تظهر، بحيث إن الحياة تعطي دوراً لما يشغل بدون أي دور وتجعله يختبر علاقاته الخاصة باستعمال المعلومة لتتجاوز الحياة نفسها .

وفي الحالة التي توجد عليها المعارف المتعلقة بما هو تواصل يبغي الانطلاق من البداية. ففي البدايات الأولى للحياة لم يكن هناك تواصل، ومع ذلك كان. وهذا الأمر يثير التساؤل التالي: ما الذي يجعل من الممكن أو من المستحيل أن يوجد التواصل؟ وهي المسألة هي التي جعلتها سؤالاً أساسياً لنظرية التواصل⁴⁰. ويمكن صياغتها على نحو أكثر دقة، كي تكون إجرائية:

"كيف يمكن للتواصل (أحياناً) أن يكون ممكناً؟" أو بدلاً من ذلك: "كيف يمكن للتواصل (أحياناً) أن يكون غير ممكن؟".

يتعلق الأمر بنوع من الأسئلة الأنطولوجية التي تفرعت عنها كل العلوم، عندما ظهرت لتفسر لماذا توجد الأشياء التي تدرسها الحالة التي هي عليها.⁴¹ فمنذ سقراط ونحن نعلم أن القدرة العلمية تقتضي موقفاً

⁴⁰ لقد تم تشكيل وتطوير السؤال الجوهري لنظرية التواصل سنة 1981، بحيث تم تطبيق منهج الفينومينولوجي في بناء المعرفة (مانويل مارتين سيرانو، في "نظرية التواصل، إبستمولوجيا وتحليل المرجع".

⁴¹ هناك أسئلة أخرى موازية قد ساهمت في التأسيس النظري لعلوم أخرى، مثلاً:

_ في الفيزياء: كيف من الممكن للحركة (لا) تكون ممكنة؟

_ في البيولوجيا: كيف من الممكن للحياة (لا) تكون ممكنة؟

_ في التحليل النفسي: كيف من الممكن للمتعة (لا) تكون ممكنة؟

هكذا تم تشكيل نظرية الجاذبية لما اقترح نيوتن (Newton) أنه تم تفسير لماذا يتساقط التفاح من الأشجار، وفي المقابل لم تسقط بعض النجوم على أخرى، لهذا من المحتمل أن العديد من المعاصرين لهذا البحث قد يتساءلوا لماذا بعض الأعمال الواضحة والمعروفة كان عليها أن تكون مشروحة، وأن ما يزال عدد كبير من المجموعة الذين ارتأوا انطلاقاً من بعض الأسئلة الأساسية أنه قد يكون من المستحيل اشتقاق أي نظرية علمية.

من الاستغراب، إذ أن الفضول المعرفي يميز بين العالم (ذلك الذي يعتقد أنه لا يعرف، وهو ما يتيح له صياغة كل الأسئلة)، والمنقف (ذلك الذي يعتقد أنه يمتلك كل الإجابات، وهو ما يمنعه من صياغة أي سؤال).

وهذا الإجراء الفينومينولوجي مناسب أيضا لإنشاء نظرية التواصل، بل وهو ضروري لتحليل أصول التواصل. والأهم من هذا هو البدء في معرفة الإجابات. فمن جهة، التطور النظري الذي بلغته دراسات المعلومة و، من جهة أخرى، المعلومة الإمبريقية التي يحصل عليها الباحثون في ظواهر التطور يعتبران الإنجازين هامين جدا. فهما يساعدان على فهم المسارات التي قطعها التطور إلى أن ظهرت الكائنات المتواصلة. وأعتقد أنها تطورات كافية للبدء في إيجاد بعض القوانين التي تحكم أصول وتحولات القدرات التواصلية.

وأدرس بشكل منهجي في هذا الجزء من الكتاب هاته التحليلات حول سبب وكيفية حدوث هذه التحولات.

_ يتعلق الفصل الأول بأصل التواصل، فهو يحدد ويصف الخطوات المتعاقبة منذ الأشكال الأولى للتفاعل بين الحيوانات، حتى ظهور التفاعلات التواصلية. ومسار التطور هذا يحيل على مجموعة متوالية من التخصصات في استعمال الطاقات التي تتدخل في التفاعلات بين الحيوانات. كما يوضح أيضا متى تتدرج العلامات في التفاعلات. وأصف التغيرات التي تطرأ على مستوى الموروثات القديمة والسلوكات التي تجعل ممكن استعمال هذه العلامات كحامل للمعلومة. ويتم التمييز بين مختلف استعمالات العلامات من أجل المعلومة قبل استعمالها في التفاعلات التواصلية.

_ أما في الفصل الثاني فأدرس فيه الاستعمالات ما قبل التواصلية للمعلومة. فأحيانا يتم الوقوع في خطأ في اعتبار "استعمال المعلومة" و "اللجوء إلى التواصل" كمرادفين. في الحقيقة، معظم استعمالات المعلومة في التفاعلات لا تعتبر تواصلية لا بالنسبة إلى الأصناف الحيوانية، ولا بالنسبة إلى الأصناف الإنسانية. وأصف الممارسات الأولى، وكيف ظهرت، ثم بأي طريقة كانت تشتغل، وأي نوع من المهارات تتطلب، وما هي مستجدات التطور التي تساهم بها في التفاعلات.

ففي هذا المثال وغيرها كثير "ما هو معروف" و"ما هو معرف من قبل الجميع" يتزامن على الأقل مع يُفهم وفي وقت لاحق يتم شرحه علميا.

_ أخصص الفصل الثالث للاستعمالات التواصلية للمعلومة. وأحل الخصائص المميزة للتواصل والمتواصلين، والطريقة التي يتم بها دمجها في التفاعلات وما هي وظائفها. كما أعرض كذلك تفسيراً لأحداث التطور التي حولت اللاتواصل إلى تواصل.

_ وأقترح في الفصل الرابع أن يتم البدء بعلم حفريات المعلومة، بحيث يعد تخصص في دراسات التطور يبحث في التغيرات العضوية والسلوكية المرتبطة باستخدام المعلومة في التفاعلات.

ويمكن أن يبحث علم حفريات المعلومة في الانتقال من الاستعمالات ما قبل التواصلية للمعلومة إلى الممارسات التواصلية. ويقوم بوصف الأسس العضوية لهذه القدرة على الاشتغال بالمعلومة. كما يشير إلى نوعية النماذج الأولى للحيوانات القادرة على استعمال المعلومة في التفاعلات ما قبل التواصلية. والإجراء نفسه ينطبق على المتواصلين الأوائل لمعرفة أجهزتهم العضوية وسلوكياتهم. وهذا الأمر يسمح بمعرفة في أية مرحلة من التطور ينبغي البحث عن هؤلاء المتواصلين. ويتم الاستمرار في دراسة مراحل التطور التي توسع القدرة على التواصل، انطلاقاً من النماذج الأصلية للمتواصلين حتى النماذج الأخيرة بين الإنسان.

1. أصل التواصل

1. تحديد تطور التواصل

إن ظهور الكائنات المتواصلة هو نتيجة عظيمة للتطور، لأن القدرة على التواصل لم تكن أبداً ممكنة بدون سلسلة من التحولات السابقة للأجسام والسلوكيات، والتي لم تكن على الإطلاق حتمية. وهي نتيجة عظيمة كذلك لأنها غيرت التاريخ الطبيعي بتوجيه التطور نحو مسارات جديدة.

ويربط هذا الفصل بين القدرة على التواصل وبين باقي القدرات التطورية التي أنتجته. وبهذا الشكل فهو أصول التواصل في المستوى التطوري الذي يناسبه.

لتحديد الزمن الذي بدأت فيه الكائنات المتواصلة في الظهور في العالم، من المجدي معرفة الخصائص التي تجعل التواصل نشاطاً متميزاً عن باقي الأنشطة الأخرى التي سبقته، ويتم عرض هذه الاختلافات وشرحها في الجدول التالي 1.1.

الجدول 1.1 الخصائص التي تميز التواصل عن الأنشطة التي سبقته
1. يشترك في الأنشطة التواصلية عنصران أو أكثر.
2. تتفاعل هذه العناصر في ما بينها.
3. عن طريق العلامات.
4. هذه العلامات تحمل مدلولاً.
5. وتستهملها العناصر لتبادل الإشارات.

في هذا العرض يتم تحديد الخصائص المميزة الآتية :

1. يعد التواصل صنفا من الأنشطة، لكنه لا يُنتج عن أي نشاط محتمل. فهو يُنتج عن أنشطة يتدخل فيها عنصران أو أكثر.

2. البعض من بين هذه الأنشطة المتدخلة، وليس كلها، عبارة عن تفاعلات. فالتواصل عبارة عن شكل تفاعلي.

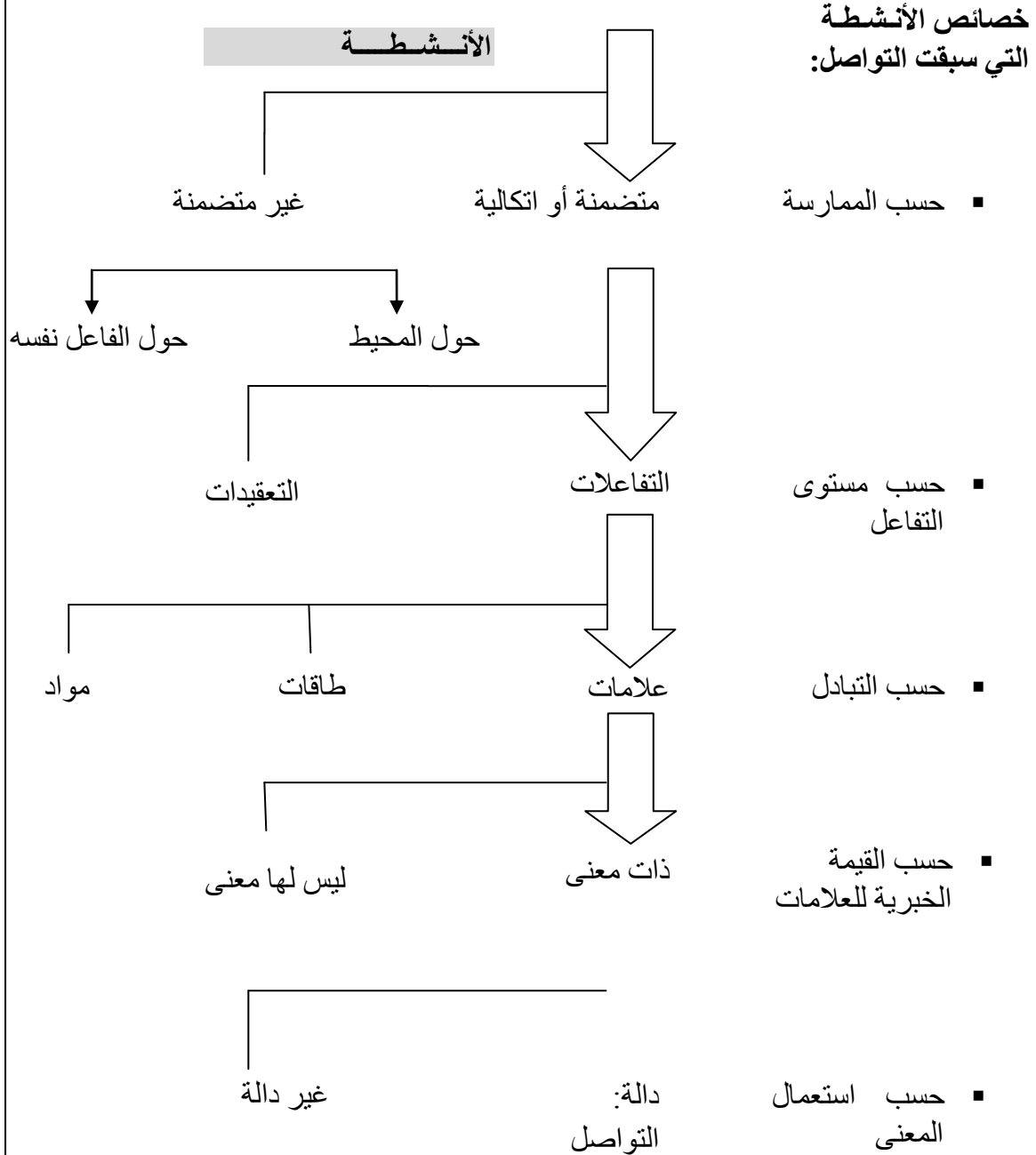
3. تستعمل في بعض هذه التفاعلات، وليس في جميعها، العلامات. بمعنى أن التواصل هو شكل من التفاعل باستخدام العلامات.

4. وبعض هذه العلامات، وليس كلها، يجب أن تكون لها دلالة. فالتواصل شكل من التفاعل بواسطة علامات ذات معنى.

5. ومن بين الاستعمالات الإخبارية الممكنة للعلامات في التفاعلات هناك الاستعمالات الدالة. فعندما تكون العناصر قادرة على هذه الاستعمالات فهي متواصلة.

ويلخص الشكل 1.1 تخصصات هذه الأنشطة التي تجعل من الممكن ظهور التفاعلات التواصلية في مسار التطور، كما أنه يساعد على مواصلة تفسير الخطوات المتتالية التي تجعل من التواصل نشاطا مختلفا عن الأنشطة التي أنتجته.

الشكل 1.1 تحديد تطور التواصل



// من الحدث إلى التفاعلات التي يتغير فيها الإخبار

1) الأحداث هي تأثيرات.

إن جميع الكائنات الحية تعتبر فاعلة. كي تعيش يجب أن تحقق ما تقوم به، وتعيده من جديد ثم تتجاوزه. لذا فإن أنشطتها الحيوية تؤثر عليها بذاتها، وعلى البيئة، ثم على العوامل الأخرى.⁴² فعندما تكون أحداث فاعل أو عدة فاعلين لها تأثير ما على فاعل أو فاعلين آخرين، فالأمر يتعلق هنا بـ "أنشطة تأثيرية".

أ) الفاعلون الذين يؤثرون على فاعلين آخرين

تتطلب الأنشطة التأثيرية مشاركة فاعل يعمل، على الأقل، "كمؤثر"، وعلى الأقل كذلك، فاعل آخر يساهم "كمتأثر".

من الآن فصاعداً يجب الأخذ بعين الاعتبار هذا التمييز. لذلك سيتم تعيين الفاعل الذي سيشارك "كمؤثر" بحرف (أ)، والذي يشارك "كمتأثر" بحرف (ب).

وفي ذات السياق، تم اختيار هذين الاختصارين لأنهما كانا يستخدمان سابقاً للإشارة إلى النموذج الأساسي للتأثير، وهو على النحو التالي:

(أ) ← (ب) *

يتعلق الأمر هنا بالتأثير الذي ينتجه فاعل محفز (أ) ينتج حدثاً يحفز استجابة فاعل متفاعل (ب).⁴³

يعتبر التواصل من بين الأشكال التأثيرية الأخرى الأكثر تعقيداً والتي تحقق فيها التطور. وفي هذا الكتاب سيتم تحليل هذا التطور. من هنا، يجب الإقرار بأن كل هذه الأشياء تتطلب تطويرين:

1. تسلسل التأثيرات

يمكن للتأثيرات أن تشمل سلسلة من الإجراءات التي يشارك فيها أي عدد من الفاعلين وفي أي موقع.

⁴² تعتبر دراسة التأثيرات بين الفاعلين ونظامهم الإيكولوجي، شيئاً خاصاً بالإيكولوجيا، لذا فتحليل التأثيرات بين الفاعلين خاص بالإيكولوجيا.

* تجدر الإشارة هنا إلى أننا اعتمدنا الحرفين (أ) و(ب) مقابلين لـ (E) و(R).
⁴³ يعتبر "الحافز" في معناه العام كل شكل طاقى يصدر من المحيط، بشرط أن يحقق أثراً على حالة أو سلوك الكائن المحفز. لذا ربما قد تكون هذه التأثيرات حوافز بالنسبة إلى (أ) بواسطة طاقة ما التي صدرت عن نشاط لكائن آخر (ب) سواء كان إنسان أو حيوان. يتم تفكيك التضمين البسيط الذي يمكن أن يحدث بين الفاعل المحفز وآخر متفاعل، بواسطة النزعة السلوكية في الأشكال الأكثر الكلاسيكية لـ "محفز- مجيب" التي تم وصفها في علوم السلوك.

يعتبر القناصون فاعلين محفزين (أ) عندما يحرضون كلاب القنص، وتعتبر الكلاب التي تتفاعل مع مطاردة الثعلب فاعلين متفاعلين (ب). كما أن الكلاب تعمل كفاعلين محفزين (أ) إزاء للثعلب، الذي يلعب دور الفاعل المتفاعل (ب) بالنسبة إلى مطاردة الكلاب.

1. التأثيرات التي يتبادل فيها الفاعلون المواقع

من الممكن للفاعلين المؤثرين (أ) أن تشغل المواقع التي تناسب في البداية المتأثرين (ب)، والعكس بالعكس.⁴⁴

يداعب الطفل القط، وهذا الأخير يستجيب بتقويس ظهره. إذن، في هذه الحالة الطفل هو الفاعل المؤثر (أ) على ردة فعل القط (ب). وتأتي اللحظة التي يחדش فيها القط الطفل، فيبكي. في هذه الحالة، يتحول القط إلى فاعل مؤثر (أ) على بكاء الطفل (ب).

تم تبادل المواقع التي يشغلها القط خلال تأثره بمواقع الطفل.

فالتواصل يعد من بين أشكال التأثير الموجودة والمعقدة جدا، حيث يمكنه أن يتم بمشاركة فاعلين فقط أو أكثر. وكل الذين يشاركون فيه لهم القدرة على الفعل سواء كمحفزين (أ) وكمتأثرين (ب). كما أن فاعلين

⁴⁴ يستجيب الشكل أكثر ضرورة لتبادل المواقع إلى النموذج التالي: ← علامة للتحفيز، و≈ علامة للتوازن:

الأزمنة	مواقع الفاعل أو الفاعلين (1)	التأثيرات	مواقع الفاعل أو الفاعلين (2)
الزمن 1	(أ)	←	(ب)
		≈	
الزمن 2	(ب)	→	(أ)

آخرين قادرون عن طريق تطوير الإجراءات التواصلية على تغيير مواقفهم مع غيرهم من العناصر المتأثرة.

ويتوافق المثال الآتي، والمشاركة التواصلية التي يمكنها أن تحقق تغيير المواقع.

(أ)	يسأل الطفل عن الغداء
(ب)	تجيب الأم أنها قد حضرت هامبورجر، وبدورها:
(أ)	تسأل الطفل: كم تريد؟
(ب)	يجيب الطفل: أريد اثنين.
(أ)	ويتدخل الأب ويسأل الأم: يمكنني أيضا أن أكل هامبورجر؟
(ب)	وتجيب الأم هناك فقط قطعتين.
(أ)	ويتدخل الطفل ويقول: أوافق على أكل قطعة واحدة.

ب) مستويات التأثير: "المركبات" و"التفاعلات"

لفهم كيف نشأ التواصل من الضروري معرفة العلاقات التطورية التي يتوفر عليها، وكذا الأنشطة الأخرى التأثيرية التي سبقته في الطبيعة.

يدل التأثير، في معناه الواسع، على ارتباط سلوك بعض الفاعلين المتأثرين (ب)، بطريقة أو بأخرى، بالنشاط الحيوي لفاعلين آخرين مؤثرين (أ). لكن هذه العلاقات التي تجمع المؤثر (أ) والمتأثر (ب) يمكن أن تنتمي إلى مستويات مختلفة من التأثير. وتتشكل التأثيرات، في بعض الحالات، من علاقات آنية وغير ضرورية. وتارة أخرى، تشكل جزءا من بني العلاقات، خصوصا تلك التي تعتبر وراثية وأساسية لوجود أحد الفاعلين أو كلاهما.

وتبين الأمثلة الآتية هذا الاختلاف حسب القيمة الحيوية التي يتمتع بها الفاعلون في التأثيرات:

❖ حالة بعض الغزلان (أ): (عادة، يعبر الصياح عن سلوك تعبيرى للذكور في فترة التزاوج). لنفرض أن هناك مجموعتين من المستمعين يبدو عليهم التأثر بسبب صوت الغزلان:

❖ تخاف بعض الطيور (ب1) وتطير.

❖ والغزلان (ب2) المتحمسة، عندما تسمع النداء، تنتقل إلى المكان الذي يوجد فيه الذكور.

من هنا يبدو جليا الاختلاف الموجود على مستوى مشاركة كل واحد من هذين الفاعلين المتأثرين:

❖ إن ردة فعل الطيور (ب1)، لما تطير، هي بسبب تأثير الصياح، لكن هذا لا يؤثر على نتيجة الغزلان (أ) التي تصدر النداء، إذن فمشاركة العنصر (ب1) مركبة.

❖ إن استجابة الإناث للنداء الذي أصدره الذكور واقترابها، ضروري لنجاح أو فشل الغزلان، بمعنى أن مشاركة العنصر (ب2) عبارة عن تفاعل.

وسنمر الآن في المثال إلى وصف عام للاختلافات بين هذين المستويين للتأثير:

يمكن للفاعل (ب) ان يشارك في الاستجابة للفاعل الآخر (أ) على مستويين اثنين:
▪ على مستوى التركيب: عندما تكون مشاركة الفاعل (ب) غير مطلوبة بالضرورة، فإن الفاعل (أ) يمكن أن يحقق هذا الإنجاز بفضل هذا السلوك.
▪ على مستوى التفاعل: عندما تكون مشاركة الفاعل (ب) أمرا ضروريا، فإن الفاعل (أ) يمكنه أن يصل إلى هذا الإنجاز.

الجدول 1.1 ب . يعرض أمثلة أخرى لكل واحد من هذه النماذج للأنشطة التأثيرية. توجد في العمود الأول "المركبات"، وفي العمود الثاني "التفاعلات".

الجدول 1.1 ب أمثلة حول أنشطة تأثيرية

العمود الثاني: ("التفاعلات")		العمود الأول: ("المركبات")	
أنشطة (أ) التي كانت مرتبطة بردة فعل (ب).	أنشطة (أ) التي لم تكن مرتبطة بردة فعل (ب).		
1.2. عندما تستقر الحيوانات البرية (أ) في منطقة الصيد الخاصة بها، يجب أن تحاول طرد الحيوانات الأخرى التي تنافسها (ب).	1.1. عندما تقتنص القنادس فرائسها (أ)، يمكن أن تطرد حيوانات أخرى (ب) بنت أعشاشها أو جحورها في الأرض وبالقرب من الحافة.	أمثلة من عالم الحيوان	
2.2. يجب على الوقوق استبدال بيضة من عش آخر ببيضته (أ)، لكي تفسسها له طيور أخرى (ب).	2.1. عندما تستقر الطيور البكر في العش (أ)، يمكن أن ترمي من العش بحركاتها إخوانها التي ولدت فيما بعد (ب).		
3.2. يجب على الكنغر أن تحمل رضيعها في كيسها (أ) لأن رضيعها يمكن أن يتحول (ب).	3.1. بعض الحيوانات اللاحمة تبحث عن فريسة، ويمكن لبعض الأسود (أ) أن تتبعها بعض النسور المتعفنة (ب).		
4.2. يجب على الديك أثناء المداعبة أن يدور أمام الدجاجة (أ)، وعلى الدجاجة أن تستجيب بإشارات مناسبة أمام الديك	4.1. عند مداعبة الغزلان (أ)، يكمن للطيور أن تخاف وتطير (ب).		

		(ب).
الأمثلة التي يشارك فيها الإنسان فقط	5.1. يمكن للأم (أ) أن تهدد مهد الطفل حتى ينام (ب).	5.2. يجب على الأم (أ) القيام بعملية المخاض كي يولد الطفل (ب).
	6.1. يمكن للمتجولين (أ) الذين أضرموا النار في الحقل أن يتسبب في حريق يمكنه أن يأتي على أشخاص أخرى (ب).	6.2. يجب على رجال الإطفاء تشغيل جدار الحماية من النار (أ) لحماية الأشخاص القريبين من لهيب النيران (ب).
	7.1. يمكن للآباء الذين يضعوا هدايا ليلة عيد الملوك (أ) انتظار أبنائهم النائمين (ب).	7.2. يجب على الأشخاص الذين يصنعوا أجهزة في سلسلة مركبة (أ) القيام بعملهم بعد من سبقهم وأتاحوه لهم (ب).
	8.1. يمكن للأشخاص الذين يرقصون (أ) أن يطأوا أقدام الآخرين (ب).	8.2. الشخصان اللذان لا يمتلكان أية لغة مشتركة للمحادثة في ما بينها (أ) يجب عليهما أن يستعينا بمترجم (ب).
الأمثلة التي يشارك فيها الإنسان والحيوان	9.1. يمكن للمسافر ان ينقل خطأ من البادية إلى المدينة (أ) الحيوانات التي يحملها في محفظته (ب).	9.2. يجب على رعاة البقر أن ينتقلوا حتى سياج (أ) الخيول البرية (ب) التي تسجل وتسرق سنويا.
	10.1. يمكن للسائق (أ) أن يدهس حيوانا (ب) عبر الطريق.	10.2. يجب على الصياد الذي يعيش من الصيد (أ) أن يتأكد من سقوط الفريسة (ب).

11.1. كى ىنام الـفـل (أ)، لآبـل أن ىنام كلبه فى أسفل السرير (ب).	11.2. لركوب الخيل ىجب على الفارس (أ) أن ىمـطـى الفرس (ب).	
12.1. ىمكن للفلاحين (أ) بعـل، حرثهم للآرض، أن تتبعهم الطيور (ب) الـتى تأتى للاستفـاـة من الحشرات والـىـان.	12.2. ىجب على الصيـاـ (أ) والكلاب المستعملة (ب) أن ىتبادلا الإشارات لإيقاظ القطعان.	

تنتـمى هـذه الأـنـشـطة التـواصـلية إلى مـجمـوعـة من التفاعلات. وتـظـهـر فى الـجـدول 1.1. ب. أمثلة مـخـتـلـفة مـكـتـوبـة بحروف كبيرة، لذا ىمكن ملاحظة وجود تفاعلات تواصلية تخص الحيوانات، وأخرى بين الإنسان، ثم أخيرا تلك الـتى تتطور بين الإنسان والحيوان.

ج) معايير أخرى لتصنيف التفاعلات

ىمكن تمييز التأثيرات وفق وجهات نظر أخرى، لذا ىتضمن الـجـدول 1.1. ج. ثلاثة تصنيفات جديدة مستمدة من معايير أخرى، ستكون لها فائدة فى فصول أخرى.

<p>الجدول 1.1. ج. تصنيفات أخرى للتأثيرات اعتمادا على معايير إضافية.</p> <p>وفق أصناف المؤثرين</p> <p>عندما تنتج التأثيرات بين فاعلين من نفس الصنف تسمى داخل الأصناف، وعندما تتحقق بين أفراد من أصناف مختلفة تسمى بين الأصناف. والجدول 1.1. ب. ىتضمن أمثلة من النوعين:</p> <p>تأثيرات داخل الأصناف:</p> <p>▪ بين الحيوانات: 2.1 ، 3.2 ، 4.2</p>
--

▪ بين الإنسان: من 5.1 إلى 8.1 ، ومن 5.2 إلى 8.2

تأثيرات بين الأصناف:

▪ بين الحيوانات: 1.1 ، 3.1 ، 4.1 ، 1.2 ، 2.2

▪ بين الحيوانات والإنسان: من 9.1 إلى 12.1 ، ومن 9.2 إلى 12.2.

وفق أشكال التأثير

إن قائمة التأثيرات مفتوحة في وجه كل الأشكال الممكنة للتأثير أو التأثير. ويشتمل الجدول 1.1. ب. على تأثيرات نتجت عن فعل صادر عن الآخر أو متوجه إليه (1.1 ، 2.1)، رفقة الآخر أو بدونه (4.1 ، 1.2)، مع الآخر أو ضده (8.2 ، 10.2)، من الآخر أو نحوه (3.2 ، 3.1)، لآخر وما حوله (5.2 ، 11.2)، قبل الآخر أو بعده (7.2 ، 12.1)، أمام الآخر وخلفه (3.3 ، 7.1).

يمكن لحروف الجر النحوية ، كما هو واضح هنا، أن تعمل لتصنيف أشكال التأثير سواء تعلق الأمر بالمركبات أو بالتفاعلات.

وفق نتائج التأثير

يمكن لتصرفات (أ) أن تؤثر بدرجة مختلفة في (ب).

مثلا: يمكن للبستاني، عند عملية السقي، أن يبيل عن غير قصد بعض المارة. وقد يكون هذا التركيب طفيفا بالنسبة إلى الإنسان، لكن يمكن أن يكون خطيرا، بل وأن ينعكس على الحشرات في حالة ما إذا كان الماء يدمر مأواها أو يغرقها.

في الجدول 1.1 ب. الأمثلة 3.1 و 8.1 ، و 11.1 عبارة عن تركيبات طفيفة، وفي المقابل شديدة في الأمثلة 2.1 ، 6.1 ، 10.1.

في تفاعل تواصل ذي أهمية محدودة لمعظم الذين يتواجدون في أوربا، يمكن أن يتم إخبارهم بوجود خطر إعصار في منطقة البحر الكاريبي، إلا أنه أشد خطورة بالنسبة إلى أولئك الذين يتواجدون في مناطق متأثرة.

في الجدول 1.1. ب عادة ما تكون التفاعلات في المثال 2.2 أكثر حدة بالنسبة إلى الفاعل (ب) مقارنة بما هي عليه في المثال 4.2 ، وفي المثال 5.2 أكثر من تلك المشار إليها في 8.2 ، وكذلك سيصبح الفاعل (ب) في تفاعلات المثال 10.2 أكثر تأثراً مما هو عليه في المثال 11.2.

التأثيرات هي "تفاعلات"

أ) طبيعة التفاعلات القائمة على الاتكالية

جميع التفاعلات عبارة عن سلوكيات مشتركة.

المقصود ب "الاتكالي" هو ذلك النجاح الذي يسعى إليه الفاعل "أ"، ولن يكون مرضياً إلا بمشاركة فاعل "ب" أو أكثر.

يندرج ضمن هذه الفئة من السلوكيات الاتكالية مايلي :

- أغلب السلوكيات الموجهة إلى إعادة إنتاج الصنف عند الحيوانات الثنائية الجنس.
 - السلوكيات التي تسعى إلى تلبية الاحتياجات الغذائية عند أصناف الحيوانات المفترسة.
 - السلوكيات التي يوجد فيها أي تقسيم للعمل بين الأصناف الاجتماعية.
- إن التفاعلات التواصلية، من حيث التعريف، تنتمي إلى صنف السلوكيات الاتكالية.

"الاتكالي" يتناقض مع "المستقل"

يعتبر نشاط الفاعل مستقلاً لما يكون المكسب الذي يسعى إليه مرضياً بشكل حصري عن طريق الأعمال التي يقوم بها الموضوع ذاته.

الشكل 2.1 يعكس هذا التمييز.

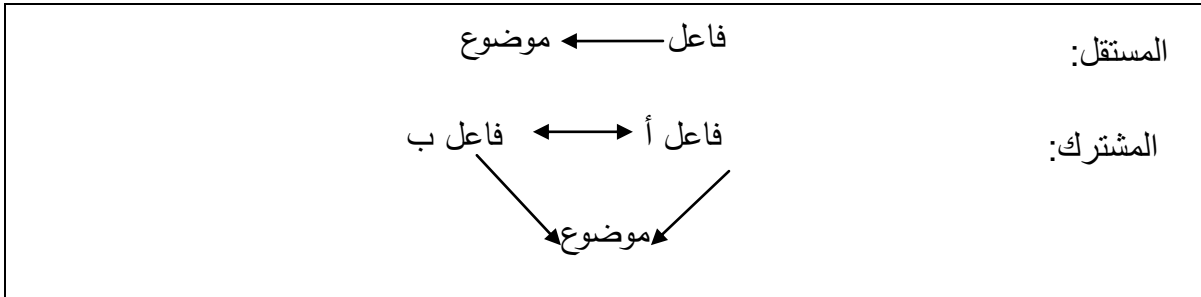
- تندرج ضمن هذه الفئة من السلوكيات المستقلة معظم التصرفات التي يحكمها النظام العصبي المستقل.

كما أن هذه السلوكيات اللاإرادية مستقلة :

- تسعى السلوكيات المتبقية إلى إنجازات جسدية أخرى (مثلا، الحفاظ على صحة الجسم يكون عن طريق التمارين الرياضية).
- سلوكيات خاصة (مثلا، الانتقال إلى مكان معين).
- الأنشطة الحسية (الاختيار أو الانتباه إلى مثيرات معينة).
- الأنشطة المعرفية (تطوير، وردة فعل إزاء أفكار أو أحداث معينة).

هناك إنجازات تسعى إليها بعض الحيوانات بطريقة مستقلة، وأخرى تقوم على الاتكالية، مثلا، بناء العش، والبحث والاصطياد. أثناء عملية التطور يتزايد باستمرار عدد الأنشطة المستقلة التي تتحول إلى أنشطة خاضعة. وسيتم الرجوع إلى هذه المسألة (انظر الفصل 15، العنوان 1).

الشكل 2.1 استقلالية واشتراك السلوكيات



أشكال الأحداث مشتركة

يعمل الفاعل:

- إزاء فاعل آخر رفقة منافسيه أو مع طرف ثالث.
- و/ أو حول الموضوع، مع منافس آخر.

ب (المواقع التي يمكن أن يشغلها الفاعلون المشاركون في التفاعل

يمكن أن يشغل الفاعلون بعض هذه المواقع في التفاعلات:

أ) ضرورة وجود الفاعل في الفعل الذي يؤثر بأي طريقة في الفاعل (ب).

في المثال 3.2 من الجدول 1.1 ب، بالنسبة إلى الكنغر (أ) التي تحمل طفلها (ب) يتحقق حوار ضروري يهدف إلى انتقال الصغير معها.

ب) ضرورة الصبر في الفعل (أ).

هكذا، في المثال 10.2 من نفس الجدول 1.1 ب، يُتطلب في تفاعل الحيوانات المفترسة وجود صياد (أ) وفريسة (ب). يبين هذا المثال أن شرط الصبر يُكتسب خصوصا عند المساس أو ضد العزيمة (ب).

ج) ضرورة الفاعل والصبر.

يتطلب هذا العمل المزدوج جزءا أكبر من التفاعلات لإعادة الإنتاج عند الحيوانات ثنائية الجنس، وفي السلوكات التي يوجد فيها أي تقسيم للعمل بين الأصناف الاجتماعية. لهذا يحتفظ كل الفاعلين المشاركين في التفاعلات التواصلية بهذه العلاقة المزدوجة.

في الجدول 1.1 ب، يشير كل من الديك والدجاجة أحيانا، بسبب تغيير المواقع، وأحيانا يستجيبان إلى الإشارات (المثال 4.2)، وكذلك الأشخاص الذين يعتمدون على مترجم، فهذا الأخير يستمع أحيانا ويتحدث أحيانا أخرى (المثال 8.2)، والصياد والكلب يشيران ويستجيبان إلى التحركات أثناء التفاعل (المثال 12.2).

ج) تخصص التبادلات في التفاعلات

يستعمل الفاعلون في التفاعلات محفزات ذات طبيعة مختلفة، على سبيل المثال، تستخدم الأفاعي ثلاثة أنواع مختلفة من التأثيرات عند اصطيد فرائسها:

أ) الكثير من الثعابين تشل الحيوانات التي تصطادها بواسطة سمها.

ب) وأخرى تقيد الفريسة حتى اختناقها.

ج) والبعض منها يذخ الفريسة بالصفير ويجذبها حتى تصبح تحت تصرفها.

في التفاعل الأول (أ) يقع التحويل بواسطة مادة (السم)، وفي الثاني (ب) يتم التنفيذ بواسطة طاقة (قوة القبض)، ثم في الأخير (ج) يحدث بواسطة علامات (الصفير).

يتضح، من خلال أمثلة جديدة، العديد من المحفزات التي يمكن تبادلها في التفاعلات:

أ) تتفاعل الأم المرضعة ورضيعها من أجل تحويل الحليب، إذن هو مادة.

ب) إن الشخص الذي قد يتعثّر يُمسك به كي لا يسقط، إذن هناك تفاعل عبر تبادل الطاقات التي يولدها الجهد للحفاظ على التوازن.

ج) يمكن توضيح التفاعلات التي تدخل فيها العلامات بمثالين لهما طبيعة مختلفة :

ج 1) العديد من الحيوانات قادرة على رؤية أو شم العلامات التي ينتجها الدم المسفوك لحيوان آخر مجروح. على سبيل المثال، تستعمل كلاب الصيد هذه المؤشرات كمصدر للخبر. فالكلاب تحدد معنى للعلامات الناتجة عن أثر الدم.

ج 2) إن الكلاب التي تظهر أسنانها وتهمهم أثناء تنازعها عن ما تبقى من الصيد، تتفاعل عن طريق العلامات الإيمائية والصوتية، مع تلك التي تعلن مواجهتها، والمستعدة للقتال. إن هذا الاستعمال للمعلومة يعتبر تواملاً.

هناك العديد من الفاعلين القادرين على استخدام المواد أو الطاقات في التفاعلات مع الآخرين، فقط البعض من هؤلاء وليس كلهم، يستعملون العلامات. ويرتكز الاهتمام في هذا الفصل على الفئة الأخيرة من الفاعلين، لأنهم هم الذين وصلوا إلى المرحلة التطورية التي مكنتهم من القيام بالإخبار في التفاعلات. ويتم الآن وصف القدرات المطلوبة لدمج المعلومة الناتجة عن العلامات في التفاعلات. وتوضيح متى تكون هذه الاستعمالات للمعلومة ذات معنى (ج 1)، ومتى تكون دالة (ج 2).

/// التفاعلات التي تعتمد على العلامات

2) أصل العلامات التي تُستعمل في التفاعلات وطبيعتها

أ) مفهوم "العلامات"

ترتبط المعلومة الناتجة عن وسط خارجي بوجود العلامات. ومن ثم، فإن هذه العلامات تعتبر عناصر من الطبيعة التي تجعل من الممكن أن تندمج المعلومة في التفاعلات إلى جانب المواد والطاقات.

لحسن الحظ، تتوالد العلامات كذلك في التفاعلات، كأى نشاط آخر. لهذا، من الممكن استعمالها كي تكون لها قيمة إخبارية. لذا سيتم في هذا الكتاب العمل على تحليل مفصل للأشكال التي يتفاعل فيها الفاعلون، ويستعملون العلامات لإيجاد وإنتاج الخبر. (انظر الفصل 7). والمطلوب الآن هو تخصيص بضعة أسطر لتوضيح مما تتكون العلامات، وإظهار حضورها في التفاعلات:

العلامات عبارة عن بعض الطاقات الناتجة عن تبادل حيوي بين الجسم (فيزيائي أو بيولوجي) وبيئته. ويرجع بروزها إلى هذه الطاقات المتضمنة.

يدل "التضمين" على أن الطاقات تعرف بعض التغييرات العادية بشكل منتظم، أو بشكل متواتر.

إن هذه الخصائص الفيزيائية للعلامات هي التي تسمح بالتواصل بين الفاعلين، وفي الآن نفسه هي مورد لتوفير المعلومة:

▪ يجب تعميم العلامات لتكون هناك طاقات. مما يعني إتاحة إمكانية إرسالها واستقبالها، ونتيجة لذلك يحدث التواصل عبر مسافات طويلة.

▪ ولكي تكون متضمنة، يجب أن تكون مختلفة عن بعضها البعض. وهذه الاختلافات بين العلامات تحتفظ بشكل توافقي بالحالات المختلفة، حيث يوجد كل جسم في البيئة المحيطة به. وذلك لأن التضمينات تعكس حيوية النشاط الذي يتطور كلما أخذ أو أعطى الجسم طاقة. هكذا فإن المتلقين المزودين بأعضاء حسية لتحديد تضمينات العلامات يملكون القدرة على التمييز بين مختلف المصادر، وحالتها وأنشطتها. وفي هذا السياق، فإن المعلومة هي، بالتحديد، تلك المعرفة المكتسبة عن طريق هذه القدرة على التمييز.

ب) وظائف العلامات في التفاعلات

يعتبر كذلك الفاعلون الذين يشاركون في التفاعلات مصادر للعلامات. وهكذا، تقريبا في جميع المناسبات، عندما يستمر الفاعلون في الحركات التي تؤدي إلى إنتاج علامات صوتية. وعندما يقتربون، فالحركات الجسدية تنتج علامات مرئية.

أما في بعض التفاعلات فإن العلامات الصادرة عن الفاعلين تكمل وظيفة المحفزات التي تؤثر في سلوكيات الآخرين. في هذه الحالات، لا تكون العلامات فقط حاضرة في التفاعلات، بل تستعمل أيضا في المعلومة الذي تقدمها.

تمت الإشارة في العنوان (2 ب) إلى أن هناك استعمالين مختلفين للمعلومة من خلال العلامات، وهما: استعمال ذات معنى (ج 1)، وأخرى دالة (ج 2). ثمة مثالان آخران يوضحان هذا الفرق:

❖ في لعبة الغموض، العلامات الصوتية التي يستعملها الأطفال أثناء ركضهم للاختفاء عبارة عن محفزات سمعية يستعملها الطفل لمحاولة اكتشاف مكان اختباء الآخرين. وفي المقابل، ينتبه الأطفال المختبئون إلى اقتراب ذلك الذي يبحث عنهم بواسطة الأصوات التي تكتشف عن حركات الطفل المقبوض عليه. إذن، هذه العلامات ذات معنى.

❖ استمرارا في استعمال نفس التفاعل: عند الاقتراب من المقبوض عليه، يمكن للطفل أن يقوم بعلامات للآخرين من أجل الانحناء، عن طريق حركات باليد تكون مرئية للأطفال الآخرين. هذه العلامات هي دالة.

ج) مرسلو العلامات في التفاعلات ومستقبلها

لما يشكل الفاعلون مصدر العلامات في التفاعلات يعتبرون مرسلين (أ)، وعندما يتأثرون بهذه العلامات تعتبرون مستقبلين (ب). والمقصود هنا هو أن كل فاعل يمكن أن يؤدي كلتا الوظيفتين في سياق التفاعل⁴⁵.

ويجب أن يحصل هذان الموقفان مهما كان استعمال العلامات، كما يجب على الفاعلين أن يحصلوا منها على خبر ذي معنى، كما لو كان خيرا دالا.

إن الفاعلين (أو الفاعل) الذين ينتجون علامات مع أولئك الذين يمكنهم القيام بأي يعتبرون "مرسلين".

⁴⁵ يدل مصطلح "المرسل" (أ) إلى أي جسد سواء كان نشيط أو غير نشيط ينتج علامات، وأما مصطلح "المستقبل" (ب) يفيد أي جسد آخر قادر على تمييز هذه العلامات عن باقي المحفزات الطاقية (مضمنة وغير مضمنة) التي تحفز انطلاقا من المحيط، لذا فالحفاظ على هذين الاسمين بدقة الاستعمال الذي منحه كلود شانون، فإنه يدفع إلى التعرف أفضل على مؤسس النظرية الرياضية للتواصل.

والفاعل (أو الفاعلون) الذي يمكن أن يكون محفزاً بسبب هذه العلامات يسمى "مستقبلاً".

إن المرسلين من منظور شمولي للتأثيرات، هم فاعلون محفزون (أ) تصدر عنهم العلامات، والمستقبلون فاعلون متفاعلون (ب) يستجيبون لمحفز العلامات، لهذا السبب من الممكن الاحتفاظ بالاختصارين المناسبين (أ) و(ب) في اللغة الإسبانية.

3) العلامات باعتبارها حاملاً للمعلومة في التفاعلات

أسفرت سلسلة من تخصصات المحفزات التي تشارك في التفاعلات، على دمج العلامات. وتقود الكفاءة في التعامل مع العلامات التي تتولد في التفاعل، في النهاية، إلى القدرة على التواصل. فهي عملية تطويرية عرفت عبر مراحل.

وحسب اعتقادي، أدت التغييرات التطورية التي جعلت من الممكن استعمال الطاقات كمحفزات في التفاعلات إلى الحصول على الاستعمالات التواصلية، لذا يمكن تمييز ثلاثة أنواع ممثلة ومذكورة في الجدول 4.1، والتي سيتم شرحها في الفصلين القادمين:

الجدول 4.1 تخصصات المحفزات التي تجعل التفاعلات التواصلية ممكنة
<p>1.T تخصص حيوي:</p> <p>في بعض التفاعلات القائمة على النظام:</p> <p>[عمل حيوي ل (أ) - ردة فعل ل (ب)]</p> <p>المحفزات (أ) التي تؤثر في (ب) هي طاقات متضمنة، بمعنى، أنها علامات.</p>
<p>1.1.T تخصص إخباري:</p> <p>تعتبر المحفزات (أ) في بعض التفاعلات علامات لها قيمة إخبارية ل (ب).</p>
<p>1.1.1.T تخصص تواصلية:</p> <p>يستعمل في بعض تفاعلات (أ) و(ب) علامات ذات قيمة إخبارية، ليتم الحصول على استجابات دالة من الآخر.</p>

وقد خلصت وظيفة العلامات كمحفزات في التفاعلات إلى ابتكارين من ابتكارات التاريخ الطبيعي، وهي:
(1) تتمكن بعض الأصناف من الحيوانات من الحصول على المعلومة وتحليلها، والتي يمكن أن
تضبط سلوكياتها الخاصة، من خلال العلامات الصادرة عن حيوانات أخرى. مثلا:

-
- تجعل علامات الحرارة الصادرة عن الكائنات الحية من بعض الحشرات الطفيلية فريسة لها.
 - إن العلامات الصوتية الناتجة عن انتقال الفرائس تحرك الحيوانات المفترسة التي تعرف هذه المحفزات السمعية.

وتتوفر هذه الأصناف على كفاءات إخبارية. والعلامات التي تستعملها في هذا التنظيم ذات معنى.
تتوفر كل الحيوانات التي انتقلت من (T.1 إلى T.1.1) في الجدول 4.1، على كفاءات إخبارية. ومما
لا شك فيه أن الإنسانية قد ورثت هذه المهارات.
(2) إن قدرة بعض الأصناف التي تمتلك هذه الكفاءات الإخبارية، في إنتاج المعلومة وتوفيرها تنظم
سلوكيات حيوانات أخرى تتمتع بنفس هذه الكفاءات.
ولقد استقر هؤلاء الفاعلون على موافقة بين التنظيمات الذاتية والمتجانسة للسلوكيات من خلال تبادل
العلامات. ويتضح هذا في المثالين التاليين:

-
- ❖ تتسق العصافير مع بعضها البعض عند تناول وجبة الغداء بتبادل الحركات والصفير.
 - ❖ يتم التنسيق بين ربابين الطائرات ومراقبي الرحلة عندما يتبادلون الشفرات.

تقوم الأصناف، بالإضافة إلى الحصول على المعلومة ومعالجتها، والتي أنتجتها الفاعلون الآخرون، بإنتاج المعلومة وتوفيرها ليستعملها كذلك فاعلون آخرون يتوفرون على كفاءات تواصلية. والعلامات التي يستعملها البعض منهم في هذا التفاعل هي دالة.

وقد حصلت الأصناف التي تمكنت من الانتقال من "T.1,1" إلى "T.1,1,1" (في الجدول 4.1) على الكفاءات التواصلية. إذن، فالإنسانية تملك هذه القدرات بأكبر قدر، لكنها ليست الصنف الوحيد أو الأول الذي يمتلكها.

4) ملخص التحليلات السابقة وخاتمتها

تتلخص المفاهيم التي تم عرضها في هذا الفصل في مايلي:

- يمتلك كل الفاعلين الذين يستعملون العلامات لتنظيم سلوكياتهم الخاصة أو سلوكيات غيرهم، القدرة على معالجة المعلومة في التفاعلات.
- هناك استعمالين إخباريين للعلامات في التفاعلات: الأول هو من أجل الحصول على معلومة ذي معنى، والثاني للحصول على معلومة دالة وإنتاجها.
- يستلزم التواصل القدرات لمعالجة معلومة ذات معنى، لكنها لا تعادل هذه الكفاءات. وتعتبر تفاعلات لتواصلية فقط تلك التي يحصل فيها الفاعلون على معلومة من علامات الآخرين، وكذلك إنتاج العلامات التي توفر مؤشرات لفاعلين آخرين.

ويواصل هذا الكتاب توضيح كيف تمت الخطوات التطورية التي أدت إلى الاستعمالات المتتالية للمعلومة في التفاعلات. وسيتم عرض مايلي:

___ متى وكيف تظهر قدرة بعض المستقبلين (ب) للحصول على معلومة ذات معنى انطلاقا مما يظهره مرسلون آخرون (أ) هذا في ما يخص الفصل الثاني.

___ أما الفصل الثالث فسنتناول فيه كيف ومتى تظهر إمكانية تبادل المعلومة بين (أ) و (ب) قصد الإشارة إلى شيء ما.

استعمالات المعلومة في مرحلة ما قبل التواصل

يتم في هذا الفصل تحليل الخصائص التي اكتسبتها الحيوانات التي تنتج المعلومة لإعطائه معنى وفق ما يحدث لها؛ أما الفصل التالي فهو دراسة موازية تتعلق بمستعملي المعلومة الذين يمتلكون قدرات تواصلية، بحيث تتوافق هذه الاستمرارية مع التحولات التطورية، كما يبين، أولاً، كيف هي الحيوانات التي تستقبل المعلومة، وبأي طريقة تتصرف، بعد ذلك يصف تلك التي تستطيع التواصل من بين تلك الحيوانات.

1. ظهور الدلالة في التفاعلات

ظهرت مع تطور الزمن تفاعلات تعتمد على المعلومة. لذا فإن الاستعمالات التفاعلية الأولى للمعلومة هي تلك التي يوجه فيها المرسل (أ) علامات ذات معنى إلى متلق ما (ب).

كانت الكفاءة الأخبارية عبارة عن قدرة قبل تواصلية، وهي كذلك لأنها ظهرت قبل التواصل، رغم كونها أساسية من أجل القدرة على تحقيقه، إلا أنها تبقى غير كافية بالنسبة إلى الفاعلين كي يستطيعوا من خلالها إجراء تفاعلاتهم التواصلية، وسيتم توضيح ذلك في الصفحات الموالية⁴⁶.

أ- عدم تكافؤ المرسلين والمتلقين في التفاعلات التي تتضمن المعلومة الذي يحمل معنى

لتحمل العلامات معنى في التفاعلات، ليس ضرورياً أن تكون العلاقة بين المرسل والمتلقي متكافئة. في الواقع، إن الفاعلين الأوائل في التفاعلات الدالة، والذين يتلقون فيها علامات، تكون بينهم علاقات غير متكافئة. وهكذا سيتم المحافظة على هذا الأمر إلى غاية وصول أول منطري التواصل. ومن ثم، الشروع في تحليل هذا اللاتكافؤ بين المرسلين والمتلقين.

يتوفر المرسل (أ) على شرط إصدار علامات لمتلق ما (ب) فقط عندما يكون ظاهراً أمام المتلقي (ب).

⁴⁶ يشمل العمل على فرضية أن المسار التطوري الذي يتبعه التواصل هي غائية، مما يدل على أن التغيرات المتتالية ستعرف توجهها من أجل التغيرات التي حدثت؛ لذا ينتج هذا النهج اختبار كل مستوى ومغاير لمستوى آخر سابق، ذلك دون الإخلال بالوسائل المتخلى عنها، والتراجعات، والانقطاعات ثم القفزات التي عادة ما ترافق الابتكارات التي تُنتجها الطبيعة. لذا فيالنسبة إلى كتابة هذا الكتاب قد تم الوصول إلى العديد من التحليلات الغائية، فمن بينها تلك التي تتعلق بالاستعمالات المتتالية للمعلومة.

يصبح المرسل (أ) ظاهراً أمام المتلقي (ب) عندما يكون حضور أو نشاط المرسل (أ) في المحيط، ويولد علامات تحفز المتلقي (ب). في هذه الحالة، يعتبر المرسل (أ) "مصدر المعلومة" بالنسبة إلى المتلقي (ب) الذي يملك القدرة على تعيين معنى لهاته التظاهرات.

أمثلة حيوانات مرسل (أ) يجعلها نشاطها ظاهرةً أمام حيوانات أخرى متلقية (ب).

❖ تعتبر الحشرات التي تطير في أسراب وقت الغروب مصادر للمعلومة بالنسبة إلى الخفاش. أما أثر المادة اللزجة للحلزون فإنه يجعله مكشوفاً أمام الطائر. والصقر الذي يحلق في المرتفعات يصبح مصدراً للمعلومة بالنسبة إلى الأرنب.

لا يهم أن يكون المرسل الظاهر غير عارف بأنه "مصدر المعلومة"، وليس من الضروري أن يمتلك بنفسه القدرة المطلوبة لاستعمال المعلومة في التفاعلات مع المتلقي؛ فالحيوان المرسل (أ) يمثل مصدراً لمعلومة المتلق (ب)، وفي الاتجاه نفسه، يمكن أن يكون أي جسم، سواء متحركاً أو جامداً، مرسلًا للعلامات. فمن خلال التحول إلى مصدر المعلومة يجب فقط أن يكون المرسل (أ) ضمن المجال الحسي للمتلقي (ب)، وأن تكون العلامات التي يصدرها المرسل (أ) مؤثرة بأي شكل من الأشكال على المتلقي (ب)⁴⁷.

في المقابل، يتوجب على المتلقي (ب) أن يكون قادراً على استخدام ذي معنى للعلامات.

أمثلة للحيوانات المتلقية (ب) التي تُظهر استخداماً ذي معنى للعلامات الناتجة عن نشاط حيوانات أخرى مرسل (أ):

⁴⁷ يمكن لأي جسم مرسل للعلامات، سواء كانت شيئاً أو نباتاً أو حيواناً، أن يكون مستعملاً بوصفه منبعاً للعلامات مع القيمة الإخبارية بالنسبة إلى المستقبل الذي يمكنه أن يدرك ويعطي دلالة للعلامات التي ينتجها؛ مثلاً، العلامات الضوئية التي تأتي من تغير لون الأشياء بين الليل والنهار؛ وكذا العلامات الكيميائية التي تصدر من رائحة الورد؛ ثم العلامات الصوتية التي يتم توليدها عن طريق تنقل الحيوانات. إن كل المواضيع الجامدة والهيئات المتحركة فهي إخبارية بالنسبة إلى الحيوانات عندما تستوفي هاذين الشرطين: إن العلامات التي تنتجها أجسام المرسلين، هي عبارة عن محفزات يمكنها أن تكون "حواس" (نظر، سمع، شم، ولمس...)، بالنسبة إلى المستقبل (ب).

توجد علاقة معينة بين الاستعمال الدال لهذه العلامات وسلوكيات الحيوان المستقبل (ب). يتم معالجة في هذا الكتاب التفاعلات بين الحيوانات، ويتم تحليل فقط العلامات التي تصدر عن الحيوانات.

❖ عندما تميز الخفافيش، وقت الغروب، عن طريق الملكة، من بين كل الإشارات التي تستقبلها من تلك التي تصدرها أسراب الطيور. وعندما يهطل المطر يقوم الطائر بتتبع الأثر الذي خلفه الحلزون من بين كل الآثار التي تشير إلى مرور الحيوانات. وعندما يراقب الأرنب تحركات الصقر الدائرية في الأعلى.

يقوم المتلقي (ب) باستعمال دال للعلامات التي يصدرها المرسل (أ)، وذلك حينما يتطابق سلوكه في التفاعلات مع الخصائص التي يتعرف عليها في هذه العلامات.

يختزل الجدول 2.1 تحليل اللاتكافؤ بين (أ) و(ب) في التفاعلات التي تتضمن معلومة يحمل معنى:

الجدول 2.1 المرسلون والمتلقون في التفاعلات الأولى التي تتضمن معلومة يحمل معنى		
عدم التكافؤ في السلوكات والقدرات		
المرسل (أ)	المتلقي (ب)	
يصدر علامات	يتميز بين العلامات التي تكون دالة.	في السلوكات
يظهر أمام المتلقي (ب)	يستعمل استعمالا دالا للعلامات	في القدرات

2. الاعتماد على أخبار تحمل معان

أ- التفاعلات الأولى التي كانت تحمل فيها المعلومة دلالة

يمكن للباحث أن يميز الطابع الدال لبعض العلامات منذ بداية تطور هذه القدرة، وذلك عندما يلاحظ وجود متلق ما (ب) يتفاعل بطريقة معينة في التفاعلات، كلما بدا فيها مرسل ما (أ) ظاهرا عن طريق

هذه العلامات، لذا قد تم في هذه الحالات إنشاء نموذج تفاعلي يربط بين سلوكيات المتلقي (ب) ومظاهر المرسل (أ)، من خلال الاعتماد على معلومات ذات دلالة⁴⁸.

وكما تمت الإشارة إليه من قبل، من أجل انشغال هذا النموذج ليس من الضروري أن تكون مواقع الفاعلين قابلة للتبادل خلال التفاعل، بل من الضروري فقط أن يكونا في كل لحظة غير متكافئين. في المثال الآتي، يتبين أن مواقع المشتركين في التفاعل تبقى نفسها منذ بدايته حتى نهايته:

❖ إن تحركات يرقات لديد من الحشرات المرسلة (أ) في الماء لما تنفقس البيض تجعلها ظاهرة للحيوانات البرية والمائية المتلقية (ب) التي تتغذى عليها.

ومع ذلك، فإن لا تكافؤ الفاعلين في التفاعلات التي تتضمن معلومة ذات معنى يتوافق مع تبادل المواقع. ويحدث هذا في التفاعلات التي تتطور في مرحلتين أو أكثر. إلا أنه يوجد في كل مرحلة بعض الفاعلين الذين يتصرفون كمرسلين ظاهرين، وآخرين كمتلقين يستعملون المعلومة في العلامات، على الرغم من أنهم ليسوا هم أنفسهم المرسلون.

والمثال الآتي، يبين هذه التبادلية بين المرسل (أ) والمتلقي (ب). فالفاعل الذي كان يحفز في الأول أصبح يحتل موقع أول من يقوم برد الفعل، والعكس كذلك:

❖ حركة رفع الأرنب الرابض على الأرض أذنيه، تجعله مرسلا (أ) ظاهرا، بالنسبة إلى القنّاص المترصد متلقي (ب)، والقنّاص، عندما يتفاعل بإشهار السلاح، يستعمل حركة تجعله مرسلا (أ) ظاهرا بالنسبة إلى الأرنب المتلقي (ب).

⁴⁸ إن العلامات الأولى التي تميزها الحيوانات والتي تتوفر على أجهزة حسية، هي تلك التي تتوفر على فائدة من أجل التكيف معها في المحيط؛ لذا فهذا الاختيار يقع بين العلامات التي تصدر عن نشاط المرسلين غير المتحركين. مثلا، بالنسبة إلى العلامات الضوئية، والحرارية، والضغطية ثم الصوتية، التي بواسطتها يتم تحفيز مرسلين طبيعيين، مثلها مثل الشمس، والشتاء أو الريح؛ وبالتالي فإن العلامات التي تصدر عن مرسلين متحركين تستخدم بنفس الطريقة.

ب- ظهور المرسل والاستخدام الدال الذي يقوم به المتلقي

من أجل أن يكون للعلامات، التي تُظهر وجود أو نشاط المرسل (أ) استخدام يحمل معنى بالنسبة إلى المتلقي (ب) في التفاعلات، يجب أن تستوفي شرطين سيتم تحديدهما في الجدول 2.2⁴⁹.

الجدول 2.2: الشرطان اللذان يجب أن تستوفيهما علامات المرسل من أجل أن تحمل معنى لمتلق ما في التفاعلات
أ) أن تكون إشارة معينة للمرسل (أ) ظاهرة من بين إشارات معينة للعلامات التي تصدر من نفس المرسل.
ب) أن يتم استعمال الإشارة المذكورة من العلامات التي يصدرها المرسل من قبل متلق ما (ب) ، من خلال إشارات المرسل (أ).

عندما يتم استيفاء هذين الشرطين، يمكن ان يقيم المتلقي رابطا بين العلامات والمعاني. والآن يمكن تحديد الحالات والسلوكات التي لها معنى بشكل واضح:

تكون دالة في تفاعل ما
• حالات المرسل (أ) التي تجعله ظاهرا للمتلقي (ب).
• سلوكات المتلقي (ب) التي يقوم بها كرد فعل حسب ما يظهر له من لدن المرسل (أ).

يمكن تسمية "تفاعلات ذات معنى" تلك التي يحافظ فيها المرسل والمتلقي على هذه العلاقات. والخصائص التي تتوفر عليها سلوكات كل واحد منهما تظهر باستمرار.

⁴⁹ تظهر كل أنماط التفاعل، بما فيها تلك التي تم معالجتها الآن، في الحالات التي تكون محددة بالزمان والمكان اللذان يدخلان فيهما الفاعلين في اتصال، فهذه الإشارة من المفترض أن تكون في التحليلات الآتية.

3. أصل التفاعلات ذات معنى ووظيفتها

أ- تجليات حالات المرسل في العلامات

يوجد في كل الأجهزة المرسلة للعلامات، بما فيها الكائنات الحية، توافقات بين بعض الحالات وبعض العلامات التي تصدرها. وتتوافق لدى الحيوانات العلامات مع حالات المرسل، حيث إنها دائما ما تكون نتيجة لديناميكية فيزيولوجية متكررة؛ فوجود هذه العلاقات هو أساس القيمة الإخبارية التي تمكن المتلقين من الحصول على أية علامة يعرفونها؛ والأمثلة التي تظهر في الجدول 2.3 تبين هذه الارتباطات:

الجدول 3.2
<p>الروابط الموجودة بين حالات المرسل وعلاماته، التي تجعل من مظاهر المرسل مصدرا لعلامات ذات معنى بالنسبة إلى المتلقين.</p> <p>في وسط مائي، يرتبط حيوان (أ) كمرسل للعلامات وحيوانات أخرى (ب1) و (ب2) كمتلقين.</p>
<p>1) توافق بين حالات الحيوان المرسل وعلاماته:</p> <p>في هذا المثال ستأخذ بعين الاعتبار حالتين من بين تلك التي يمكن أن يتوفر عليها المرسل (أ). الأولى خاصة بالفترات التي تكون فيها الحيوانات نشيطة جنسيا، والثانية عندما تكون مجروحة. وسيتم تسميتهما: "حالة الخصوبة" و"حالة الضعف". لذا، فإن كل حالة تقدم مظاهر مختلفة:</p> <p>تظهر حالة الخصوبة عندما يفرز المرسل في الماء مواد آتية من الهرمونات الجنسية التي يقوم جسمه بإنتاجها في تلك الأثناء. ويمكن أن تظهر حالة الضعف لنفس الحيوان بسبب جرح ما يريق سوائله الداخلية. سواء كانت الهرمونات أو السوائل، فهي مصادر لعلامات كيميائية.</p>
<p>2) التطبيقات الإخبارية المختلفة التي تقوم بها الحيوانات المتلقية هي صادرة عن المرسل (أ):</p> <p>في هذه الحالة، يؤخذ بعين الاعتبار متلقيان مختلفان، وستتم تسمية الأول (ب1) "مخصَّب"، والثاني (ب2) "مفترس". كلاهما قادران على تمييز علامات محددة صادرة عن المرسل (أ) على أنها ذات معنى. غير أن العلامات التي لها معنى في التفاعلات مع المرسل (أ) هي مختلفة حسب كل واحد منها:</p>

"المخصَّب" (ب 1) يقوم باستعمال ذي معنى للعلامات التي تظهر في حالة الخصوبة من قبل المرسل، أما "المفترس" (ب 2) فيستعمل العلامات التي تظهر في حالة الضعف من قبل المرسل (أ).

توجد في هذا المثال حالتان يمكنهما أن يشيران إلى جسم الحيوان المرسل (أ):

"خصب/ مقابل/مجروح"

تظهر هذه الإشارة إلى الحالات بتوافق مع نوعين من العلامات الكيميائية المميزة:

فيرومونات مخففة / مقابل/ سوائل داخلية مخففة

إن التوافقات التي تحتفظ بعناصر هذه المجموعة من حالات المرسل (أ)، بما يوافقها من عناصر هذه المجموعة من العلامات الصادرة عن المرسل (أ)، هي موضوعية وضرورية. وأظن أنه من الممكن استنتاج خلاصة مهمة من خلال هذه التحليلات:

لا بد من البحث على أساس كل العلاقات الإخبارية التي تم تشكيلها طيلة فترة التطور في هذا النوع من التوافقات الضرورية والمتكررة بين الحالات والعلامات⁵⁰.

وتوجد في الكثير من الحالات أيضا علاقات متبادلة بين "العلامات" التي يصدرها نشاط الحيوان المرسل (أ) وبين "سلوكاته الظاهرة".

⁵⁰ يمكن التفكير في أن الاستعمالات الإخبارية الأولى الممكنة بالنسبة إلى المستقبلين (ب)، والعلاقات بين حالات وعلامات المرسلين، قد تكون مستقرة وثنائية الدلالة.

يتطلب الاستعمال الإخباري البسيط جدا والممكن، أن تكون توافقات بين:

توليد (س) / مقابل / غير توليد (س)، لعلامة معينة.

ظهور (e) / مقابل / غياب (e) لحالة معينة للمرسل.

بعد ذلك سيتم دمج هذه الارتباطات الحتمية ارتباطات أخرى احتمالية، لأن خلال تطور تمظهرات (أ) التي تكون دالة بالنسبة إلى (ب) تظهر على أكثر من مستوى؛ وأما الاستعمالات الإخبارية التي يقوم بها (ب) من العلامات يتم مضاعفتها.

❖ تفرز قنائيات البحر خلال الفترة البيولوجية التي تهيؤها للإخصاب هرمونات تنشط في المحيط الداخلي للحيوان. وتتوفر بعض أنواع القنائيات على هذه الظروف التي تغير مع الوقت شكل الحيوان وسلوكه. فمن جهة، يتغير لونها، ومن جهة أخرى تجعلها نشيطة جنسياً.

❖ تشغل آلية مماثلة عندما يُهاجم شخص من قبل آخر، فينتج الأدرينالين أكثر. ويساهم هذا الأخير في تعزيز قدراته الدفاعية وفي تغيير ملامح وجهه على حد سواء.

تكون العلاقة المتبادلة التي توجد بين مظاهر الحالات وسلوكات المرسلين وطيدة لما تكون أساسية في التفاعل. وهكذا يمكن التحقق من أن التفاعلات الإخبارية الأكثر قدماً هي تلك التي لها علاقة بالحالتين التاليتين:

عدوان /مقابل/ انسحاب

"جاهزية جنسية /مقابل/ لجاهزية جنسية"

ب- الاستعمالات الإخبارية للعلامات من قبل المتلقين

يقوم التوافق بين العلامات والسلوكات بتقريب سلوك حيوان مرسل (أ) من حيوان آخر متلقي (ب)، الذي يمتلك مهارة إخبارية ضرورية⁵¹.

يمكن أن يستقبل متلق (ب)، في وضع معين وفي مكان معين، معلومة من العلامات التي تحفزها، والصادرة عن مرسل آخر (أ). إلا أنه يتطلب من هذا المتلقي أن يمتلك على الأقل المعدات والقدرات التالية:

1° أعضاء الإدراك التي تكون مهياًة:

⁵¹ كي تكون العلامات التي ينتجها المرسل (أ) ذات دلالة بالنسبة إلى أي مستقبل (ب)، لا بد من شرطين:
1. أن تكون متميزة عن العلامات الأخرى داخل قائمة العلامات التي تحفز في هذه اللحظة (ب)؛
2. أنه في كل مرة تظهر هذه العلامات، تكون لتشخيص بعض الحالات (أ) وليست أي حالة أخرى التي يمكن أن يقدمها (أ).
تعتبر العلامات التي يمكنها أن تكون دالة في التفاعلات، تلك التي تؤدي إلى: (1) قابلية التمييز بينها داخل قائمة العلامات؛ و (2) التمييز بين الحالات التي تدل عليها.

- ليحفزها هذا النوع من العلامات الصادرة عن ظهور المرسل (أ).

- لتمييز هذه العلامات من بين الأخرى التي يتم إدراكها.

بعبارة أخرى، لابد للمتلقي (ب) أن يستطيع التمييز بين:

ظهور "علامات معينة صادرة عن المرسل (أ)"	/مقابل/	ظهور "علامات أخرى بديلة" (صادرة عن المرسل أو عن أي مصدر آخر للعلامات) أو عدم ظهور "أي علامة"
---	---------	--

² أن يكون من بين سلوكيات المتلقي (ب) في هذه الأماكن والأوضاع، على الأقل، سلوكيات مترابطة مع هذا التمييز.

بعبارة أخرى، يجب على المتلقي أن يميز حسب شكل ظهور المرسل (أ) بين:

تقديم "استجابة محددة"	/مقابل/	تقديم "استجابة أخرى بديلة" أو عدم تقديم أية استجابة
-----------------------	---------	---

ويتضح ذلك في مثال الجدول 4.2:

الجدول 4.2: الاستعمالات الإخبارية للعلامات من قبل المتلقين. مثال			
استعمال العلامات الصادرة عن مظاهر المرسل (أ):	حيوان (ب) "مخصب"	/مقابل/	حيوان (ب) "مفترس"
علامات المرسل (أ) التي يميزها كل حيوان متلق:	علامات كيميائية صادرة عن فيرومونات مخففة	/مقابل/	علامات كيميائية صادرة عن سوائل داخلية مخففة
سلوكيات كل حيوان متلق (ب) مرتبطة	تقارب جنسي لمتلق	/مقابل/	تقارب افتراضي لمتلق (ب) من المرسل

(أ)	(ب1) من المرسل (أ)	بهذا التمييز:
-----	--------------------	---------------

4. دور المرسلين والمتلقين في إنتاج المعنى

يولد المرسل العلامات التي قد تكون ذات معنى، بينما يولدها المتلقي معنى هذه العلامات التي يبعثها المرسل.

لقد وضع أ. موليس (A.Moles) هذا التمييز ووضحه سنة 1972. تقوم العلامات بإيصال المعلومة وليس المعنى. يُعتبر هذا الأخير معلومة قبلية يمتلكها كل متلق ويستعملها ليتفاعل بها، وليعطيه تطبيقاً ما. إنه مظهر آخر من اللاتكافؤ الذي يوجد بين المرسلين والمتلقين في تفاعل دال.

أ) توليد العلامات دالة من قبل المرسلين

يولد المرسل (أ) علامات يمكن أن تكون ذات معنى في التفاعلات مع المتلقي (ب) عندما تكون متكررة. وتكون العلامات متكررة عندما تستوفي الشروط التالية:

- 1) يتكرر حضور هذه العلامات في الأماكن والمناسبات التي يتواجد فيها المتلقي.
- 2) في كل مرة يظهر فيها المرسل، بحيث إن ترتيب ظهور العلامات يتبع نفس النمط.
- 3) يتوافق هذا الترتيب أيضاً مع تتابع قار للحالات العضوية وسلوكات المرسل (أ)، التي تظهر في هاته العلامات.

يعمل تكرار العلامات على تكرار حالات المرسل، ويرجع تكرار المظاهر إلى أنه يتوجب على المرسل (أ) أن يلبي، من وقت لآخر، نفس الحاجيات.

كما توجد أيضاً علاقة متبادلة بين الحالات المتتالية للفاعلين وبين سلوكياتهم. وهكذا، فإن تسلسل العلامات المتكررة تحتوي على معلومة حول سلوكات المرسل المتكررة.

تتيح هذه العلاقات للمتلقي (ب) أن يستعمل بشكل دال المعلومة التي تتضمنها العلامات الصادرة عن المرسل (أ). وتحديداً، تجعل العلامات المتكررة لمظاهر المرسل (أ) ميزتين:

أ- أن يُحتمل التعرف عليها من لدن المتلقي (ب).

ب- أن يُحتمل توقع حدوثها من لدن المتلقي (أ).

يمكن لمظاهر المرسل (أ) أن تكون معروفة بالنسبة إلى المستقبل (ب) لأنها تتوفر على "شكل" محدد سابقا⁵².

❖ الحالات التي يظهر فيها الحلزون عندما يخرج من قوقعته أو عندما يختبئ فيها محددة مسبقا.

❖ نظهر نحن الأشخاص بأشكال مختلفة ومحددة عندما نكون منتبهين أو مشتتي الانتباه، وراضين أو غير راضين، وذلك عند وجود أشخاص آخرين يلاحظوننا ويعرفوننا، فهم يتمكنون من معرفة هذه الحالات.

وبتعبير آخر، إن الرابط الموجود بين "أشكال" المظاهر والمعاني هي كالتالي: ليكون سلوك المرسل (أ) دالا يجب أن "يكون معلنا".

يمكن أن تكون مظاهر المرسل (أ) متوقعة من قبل المتلقي لأن تتوفر على "شكل" مقيد.

يقصد بـ "المقيد" أنه من بين كل الأشكال التي يمكن أن يظهر بها المرسل (أ) خلال التفاعل، فالمرسل (أ) سيظهر بأشكال محددة دون غيرها، ومن ثم فإن ترتيب وطبيعة مظاهر المرسل (أ) تكون منظمة بشكل معين؛ لذا يجعل هذا الترتيب المظاهر متوقعة مسبقا.

إن الترتيب الذي يبين المظاهر، مشتق ناتج عن الذي تتوفر عليه الحالات، بحيث يتم إعادة إنتاج على مستوى آخر تتوفر عليه العمليات البيولوجية والسلوكية. وتكون حالات جميع الفاعلين مقيدة، لأن أول ما

⁵² تقدم أيضا العلامات التي تصدر عن المرسلين الجامدين ثوابت؛ هكذا تتكرر التنقل من الليل إلى النهار؛ أما العلامات التي ترافق هذه الظاهرة الطبيعية ترتبط ببعض مظاهر السلوكيات. مثلا، يمكن ملاحظة هذه العلاقة عند الحيوانات النهارية والليلية : الغروب / مقابل / الشروق

الخروج من الجحور / مقابل / الدخول إلى الجحور
يشكل الارتباط بين "بعض التكرارات للطبيعة" و" بعض السلوكيات الحيوانية المرتبطة فيما بينها" أيضا "أشكال"، حيث إن هذه الأخيرة تكون كذلك مناسبة للحيوان (ب) قدم كفاءات إختيارية يمكنه أن يرد مسبقا على سلوك الآخر. مثلا، عندما ينقطع المطر تنتظر الطيور التي تتغذى على الديدان، ظهور فرائسها في الأرض المبللة.

يظهر منها يُنبئ بالحالات التي ستأتي من بعد، ولنفس الأسباب تكون سلوكيات الفاعلين منظمة ومتوقعة الحدث⁵³.

❖ تكون العديد من الأنواع مقيدة في بعض الفترات المحددة عندما تجتمع مع رفاقها. ويتبع الاندماج في المجموعة سلوكيات أخرى تكون محددة بدورها، مثل الهجرة، أو التزاوج أو الصراخ. فظهور أولى الحالات تجعل ما يعقبها متوقعا.

(ب) تحديد المتلقين لمعاني العلامات

إن الأشكال التي يظهر بها المرسلون تكون معروفة ومتوقعة الحدوث مسبقا من خلال العلامات التي يصدرونها؛ لذا يجب على المتلقي أن يتفاعل مع المحفزات التي يتلقاها من العلامات لكي يفعل المعلومة. وكننتيجة لهذه العمليات تحصل العلامات على معنى.

يقوم المتلقي (ب) بتحديد معنى ما للعلامات التي يصدرها المرسل (أ) في التفاعلات عندما يعيد تشكيلها.

ويقصد بـ "إعادة التشكيل"، في هذا السياق، التشكيل من جديد، بمعنى، استعمال أشكال أخرى للتفاعل مع المعلومة التي تشملها العلامات المتلقاة، والمشار إليها في مظاهر المرسل. ويحدد المتلقي قيمة هذه المعلومة من خلال ما سوف يقوم به أثناء استعماله، إذ تمر العلامات من خاصية القابلية للتعرف عليها إلى علامات معروفة، وتتحول المظاهر التي يمكن التنبؤ بها إلى مظاهر متوقعة. إن العلامات التي يظهر فيها المرسل (أ) تعطي معنى للمتلقي (ب)⁵⁴.

⁵³ يكون سلوك الحيوان منظما عند وجود الآليات التي تحد قائمة الحالات الممكنة في وظيفة الحالات السابقة؛ لذلك تظهر المعلومة في القيود التي تنظم السلوكيات بالطريقة تشبه وظيفتها وعرض الثوابت. استعمل نوربيرت وينبر (Norbert Wiener) مفهوم الرجوع إلى الوراء (Feed- Back) لتسمية الآليات التي تنتجها تلك الثوابت، فالكاتب أشار إلى احتمالية تحديد السلوك المستقبلي بواسطة الأحداث الماضية. (وينبر 1948). من المفهوم أنه في التفاعلات، عندما يكون (أ) أكثر تقيدا في سلوكه الأكثر توقعا ستكون بالنسبة إلى (ب)، وبعبارة أكثر تقنية، كلما كان تقيد السلوكيات (أ) أكبر تكون مظاهرها قليلة الإلكترونيا.

⁵⁴ من المفهوم أن الشكل الذي أعيد تشكيله، يمكنه أن يتزامن كليا، أو لا يتزامن في شيء، مع الشكل الذي تكون فيه العلامات منظمة عندما تنبع من المصدر الذي ينتجها، فهذا الاتفاق أو الاختلاف على مستوى العملي، يكون في أصل الاختلاف أو الاتفاق بين الفاعلين على مستويات أخرى (معرفية، أخلاقية وتفاعلية).

إن التعرف والإصدار القبلي لدى أوائل المتلقين القادرين على الاستعمال الدال للمعلومة، يتوفر على أسس بيولوجية :

يتعرف المتلقي على العلامات الصادرة عن المرسل مطبقاً "أشكالاً" إدراكية-حسية⁵⁵.

تسمح هذه الأشكال للمتلقى بأن يختار من بين كل العلامات تلك التي تحفزه، وتلك التي لها قيمة إخبارية بالنسبة إليه في التفاعلات مع المرسل (أ).

عموماً، إن حجم العلامات الإخبارية التي تُعرض على المتلقي (ب) حينما يتفاعل مع المرسل (أ)، سيتجاوز الكم الذي يمكن إدراكه وأجراته، والأشكال الإدراكية-الحسية هي المصفاة الأولى التي يمتلكها المتلقي (ب)، ليميز بين المعلومة التي لها أهمية بالنسبة إليه وبين تلك التي لا تمكن أن تخدمه. بل الأكثر من هذا أنها تعتبر أولى آليات انتقاء العلامات التي ظهرت في العملية التطورية، كما كانت خلال وقت معين هي الوحيدة⁵⁶.

تعتبر الكفاءة الإخبارية للمتلقين في التفاعلات الأولية، قبل كل شيء، القدرة على الاستجابة فقط للعلامات المهمة للتفاعل مع المرسل (أ). ويجب على هذه العلامات أن تتوفر على ميزات إدراكية قارة.

يتوقع المتلقي (ب) مظاهر المرسل (أ) مطبقاً "أشكالاً" لتحليل المعلومة التي تصدر عن المرسل (أ).

يعتمد شكل التفسير على أول تكيف بين ما يقوم به المرسل والمتلقي طيلة التفاعل. فيتم الربط بين العلامات التي يصدرها المرسل (أ) والتي يتعرف عليها المتلقي (ب)، وبين الاستجابات التي سيقوم بها المتلقي (ب)؛ ولهذا يتطلب من المتلقي (ب) أن يمتلك جهازاً ما "لقائمة" يسمح له "بتذكر" الطرق التي يظهر بها المرسل (أ)، والتي لها قيمة في التفاعل. ولقد كانت هذه الذاكرة، عند بداية هذه القدرة على التفاعل مع المعلومة، تعتمد على تدخل انغراس الجهاز العصبي الحساس جداً، وهذا ما سنوضحه فيما بعد.

⁵⁵ شرح الأستاذ موليس. أ (A. Moles) في "نظرية المعلومة والإدراك الجمالي" أن المعنى يتكون أولاً من المستوى الإدراكي، "الأشكال الجيدة" التي تظهر في دراسات الجشطاطنية، تُفهم كأنها "معاني إدراكية"، لذا هذا التحليل هو نتيجة تعليمية.
⁵⁶ تتكون الأشكال حسب أبراهام موليس في "الديناميكية الاجتماعية للثقافة" من عناصر مسبقة للمفهومية. لذلك كتب الكاتب إذا نقصت عند الفرد معايير لتكوين الأشكال التي تقلل من قائمة المحفزات التي يستقبلها، وقائمة التركيبات حيث يمكن ضبط هذه القائمة، ستكون النتيجة مغمورة، ومتجاوزة بواسطة "أصالة" تقديم العلامات. إن تحليل هذا الكاتب وضح بشكل نهائي الفرق الموجود بين المعلومة والدلالة، وقدم واحدة من أكبر المساهمات بين العديد من منظرين التواصل في ستراسبورغ.

وقد يتغير معنى العلامات حسب كل متلق، ولو كانت هذه العلامات صادرة عن نفس المصدّر. فإذا رجعنا إلى أولى التفاعلات الدالة، فإن هذا التباين يجد تفسيره في التطور. ويرجع إلى أن القيمة الإخبارية للعلامات تخضع للحاجيات التي تحرك سلوكيات كل متلق في التفاعلات.

❖ هذا ما حدث في مثال الجدول 3.2: إن العلامات الكيميائية التي يصدرها المرسل (أ)، عندما تكون ذات طبيعية جنسية، تظهره كـ "زوج" "للمخصب" متلقي (ب1)، وعندما تأتي هذه العلامات من السوائل الباطنية فهي تظهره كـ "فريسة" للمفترس (ب2).

التطبيق الذي يقوم به كل متلق (ب) بين كلتا الإشارتين - العلامات والحالات - يحدد المرسلين (أ)، بمعنى أنه يجعل كل المرسلين (أ) متماثلين بالنسبة إلى المتلقي (ب)، حيث يمكن أن ينفذ المتلقي (ب) هذا التطبيق.

❖ تتعرف ذكور الأسماك الشائكة (ب) على علامة حمراء عند الذكور الأخرى (أ) كعلامة دالة، وذلك عندما تنافسها على مجالها وعلى الإناث. والتطبيق الذي تنفذه الذكور يمكنها من تحديد العديد من المنافسين بالنسبة إلى سمكة أخرى أو طعم حيث تميز العلامات التي تتوفر بالنسبة إليها على نفس القيمة الإخبارية⁵⁷.

في التفاعلات التي تكون العلامات لها استعمالات دالة، فإن المتلقين يستقبلون المعلومة ويخبرون كذلك:

يرسلون المعلومة بمعنى أنهم يؤكدون على سلوكياتهم الخاصة إزاء المعلومة التي تصدر عن الآخرين عندما يستعملونها.

⁵⁷ Cf. Lorenz, K. (1970-71).

وبهذه الطريقة تساهم المعلومة الصادرة عن نشاط المرسلين في تنظيم سلوكيات المتلقين أيضا. ويخبرون كذلك بمعنى أن المتلقين يؤكدون على المعلومة الصادرة عن الآخرين عن طريق سلوكياتهم الخاصة عندما يعطونها معنى معيناً.

وتُستقبل العلامات الصادرة عن المرسلين، والتي لها قيمة في التفاعلات، من كل متلق معنى قار كلما ظهرت هذه العلامات. ويفترض هذا التعيين أن يكون المتلقي قد تفاعل مع الأشكال الإدراكية - الحسية وأشكال التأويل⁵⁸، وبالتالي، فمعنى العلامات الصادرة عن (أ) هو مرتبط أيضا بسلوكيات محددة لـ (ب).

5. الأسس الطبيعية للدلالة

لإنهاء هذا التحليل، سيتم التركيز على المقاربة القائمة على طبيعة المضمون والشكل الذي تصدر به، حيث تعتبر جزءاً من العملية التطورية التي تضم المعلومة في التفاعلات.

تسمح المعلومة الدالة التي يتلقاها المتلقي (ب) من خلال ملاحظته لسلوك ومظهر المرسلين (أ) بـ:

- تحديد هوية كل المرسلين (أ) للتعرف عليهم.

- ملاءمة سلوكه الخاص لسلوكيات المرسلين (أ) لأنه يمكن أن يتوقع ردود أفعال (أ).

ويقتضي تحويل محفزات المرسل (أ) إلى علامات دالة بالنسبة إلى المتلقي (ب) آليات ملائمة تسهل تطور القدرة الإدراكية والتأويلية للمتلقي (ب). وعلى وجه التحديد، يرتبط تحسين قدرات التعرف، والأجراً وحفظ المعلومة بتحويلات "حالات" ظهور الآخرين.

فوجود المعلومة الدالة هو مظهر آخر عن الثبات الموجود في قوانين الطبيعة، ويظهر التناسب الوثيق الموجود بين العالم المادي والآخر الحيوي، إذ يكون المرسلون محددين ومتوقعين، لأن العلامات التي ينتجونها هي نفسها في كل مرة وتكرر فيها نفس الأنشطة. إنه قانون ينفذ من دون استثناءات:

⁵⁸ إن الاستقرار الدال الذي ستقوم به العلامات أقل جموداً في التفاعلات لدرجة أن المتلقين بطورون أنظمتهم العصبية القادرة على استعمال المعلومة المتعددة المعاني والتفاعل معها، لكن في المراحل التطورية الأولى كان حامل الدلالات عصبياً، وأن أشكال الإدراك والتفاعل مع المحفزات التي تصدر عن الآخرين تكون مضبوطة قبلياً في وظيفة الانغماس الحسي الحركي للمرسلين، لذا فهذه التطورات التطورية سيتم شرحها في الفصول الموالية.

في نهاية المطاف، يكون العالم دالا لأنه متكرر، أو إن صح التعبير هو واضح بالقدر الذي يكون فيه اشتغاله مقيدا.

لهذا يحصل المتلقي على المعلومة الدالة متعاملا بنفس الطريقة، سواء للفهم والتحكم في الظواهر الطبيعية، أو للفهم والتحكم في سلوكيات الفاعلين الآخرين. فما يحصل عليه المتلقي يتم بواسطة الأشكال. وهذا الإجراء له معنى مزدوج: امتلاك الأشكال والتغيير في وظيفتها. ويستخلص من هذا التحليل أن الدلالات التي تحصل عليها العلامات في عالم الحيوان تؤسس بحسب تطور التفاعلات، وبالتالي:

يشكل تكوّن الدلالة جزءا من بنيات تطوير السلالات للسلوكيات.

وأظن أن هذه الملاحظة التي ظهرت في آخر الفصل ستفتح مجالات مهمة للبحث⁵⁹.

6. نموذج عام للتفاعلات التي تشمل علامات ذات معنى

يمكن وصف الشروط التي تمكن من استخدام المعلومة ذات معنى في التفاعلات على النحو التالي :

ا. هناك حيوان أو إنسان مرسل (أ)، لمجرد كونه كائنا حيا، يمر بتغيرات فيزيولوجية ودينامية، تكون في بعض الأحيان ثابتة ومتكررة، وتؤثر في مظهره أو في سلوكه.

وتظهر مثل هذه التغيرات في مجموعة من العلامات التي تكون هي الأخرى ثابتة ومتكررة. وتجعل هذه المظاهر من مرسل (أ) مرسلا للعلامات ومصدرا للمعلومة .

اا. يوجد حيوان أو إنسان آخر متلقي (ب) يمتلك الأجهزة المطلوبة :

- أولا، لإدراك هذه العلامات التي تتوافق مع وجود المرسل (أ) أو نشاطه.

❖ يمكن فهم العلامات المتأتية من تغيرات حالة المرسل (أ)، مثل العلامات التي تولد تغيرات لون أو شكل الجسم، أو التعرف على العلامات التي تنتج عن تغير سلوكيات المرسل (أ)، مثل الأصوات أو الصور الآتية من التقلبات في الماء، أو الأرض أو الجو.

⁵⁹ يمكن لأبحاث البنيات الفيلوجينية للمعنى أن يتم تطبيق مراقبة في كل صنف، ما هي المعطيات التي تؤخذ بعين الاعتبار عند تجاهل معطيات أخرى؛ وأي تطبيق تقوم به في التفاعلات. قد يكون من المفيد ربط هذه التحولات الفيلوجينية للبنىات مع التغيرات المناسبة للبنىات الجسدية.

- ثانياً، يكون المتلقي (ب) قادراً على التمييز بين علامات المرسل (أ) تلك التي يمكنه استخدامها:

➤ على بعض سلوكيات المرسل (أ) التي تؤثر في المتلقي (ب) أو التي ستؤثر عليه بشكل ما؛

➤ على رد أو ردود محددة لهذه التأثيرات التي يمكن للمتلقي (ب) أن ينفذها في التفاعل مع المرسل (أ).

و تجعل هذه القدرات من المتلقي (ب) متلقياً للعلامات وموظفاً للمعلومة .

يمثل ويعرض الجدول 5.2 تفاعلاً ذا معنى بين الفاعلين (1) و (2)، بحيث يؤدي الفاعل (1) دور مرسل العلامات، في بداية التفاعل، والفاعل (2) دور المتلقي.

ويبدو أن تعاقب النشاطات المطلوبة لإتمام تفاعل ذي معنى متعلق ب "العناصر التي يتضمنها التفاعل الأساسي"، حيث يكون فيه موقع كل من الفاعل (1) كمرسل والفاعل (2) كمتلق مختلفين وغير متغيرين.

ويمكن أن يكون كلا الفاعلين مؤهلين ليحتلا موقعي المرسل والمتلقي، فمن الممكن في هذه الحالة أن يتم التفاعل ذو معنى في مرحلتين أو أكثر، إذ يمكن أن يتبادل فيها الفاعل (1) والفاعل (2) موقعيهما، سواء في كل المراحل أو في إحداها، بالشكل الذي يوصف بـ "العناصر التي يتضمنها كل تفاعل إضافي".

الجدول 5.2 : إجراء تفاعل له معنى بين فاعلين اثنين			
المرحل	الأنشطة	فاعل (1)	فاعل (2)
العناصر التي يتضمنها التفاعل الأساسي	باعتباره مرسلًا للعلامات (أ)	نشاط ضمني	حالة بارزة لـ (1)

(المرحلة الأولى)		العلامات التي تسبق أو ترافق النشاط الضمني	ظهور الفاعل (1) الذي يحفز الفاعل (2) ←	
	باعتباره متلقيا للعلامات (ب)	نشاط ضمني		حالة الفاعل (2) عبارة عن رد فعل إزاء ظهور الفاعل (1) ↓
		التعرف على شكل الظهور		استخدام المعلومة من قبل الفاعل (2) ↓
	العناصر التي يتضمنها كل	باعتباره مرسلا للعلامات (أ)	نشاط ضمني	استجابة للفاعل (2) →

تفاعل إضافي		العلامات التي تسبق أو ترافق النشاط الضمني	من المحتمل أن تكون للفاعل (1) القدرة على أن يكون محفزاً لظهور الفاعل (2)	
المرحلة الثانية وكل ما يليها من المراحل	باعتباره متلقياً للعلامات (ب)	نشاط ضمني	حالة الفاعل (1) عبارة عن رد فعل إزاء ظهور الفاعل (2)	
		التعرف على شكل الظهور	استخدام المعلومة من قبل الفاعل (1)	
		نشاط ضمني	استجابة للفاعل (1)	
	من المحتمل أن تتكرر العملية عدة مرات			

الاستعمالات التواصلية للمعلومة

1. المعلومة والتواصل

بدأت استعمالات المعلومة في التفاعلات مع المستقبلين الأوائل الذين وجدوا لها معنى معيناً في سلوكيات الفاعلين المرسلين الآخرين. كما بدأت أيضاً عندما كان المرسلون في العالم عبارة عن مصادر للمعلومة فقط. لذا حدثت الاستعمالات التواصلية للمعلومة متأخرة جداً، عندما اكتسب بعض هؤلاء الفاعلين القدرة على تبادل الإشارات مع فاعلين آخرين⁶⁰.

وبإمكان علم الحيوان يمكنه أن يقدم في وقت وجيز معطيات حول الفترة التي بدأت فيها تلك المرحلة ما قبل التواصلية، كما أن الدراسات الفيلوجينية تحدد من هم أول المتواصلين، بحيث يمكن لنظرية التواصل، في الوقت نفسه، أن تستمر في هذا العمل التحليلي. هكذا، فإن هذا الفصل هو عبارة عن شرح كيفية حدوث تحول تطوري بالغ الأهمية.

أ) العلاقة بين التواصل واللاتواصل

ينبغي تلخيص بعض الاستنتاجات التي تم التوصل إليها في الفصول السابقة من أجل الاستمرار في العرض:

- يقتضي التواصل تعريف التفاعلات الدالة، بمعنى أنه أحد أشكال العمل الذي يشارك فيه على الأقل فردين؛ أي أنه يكون فيه، على الأقل، فرد يعتبر مصدراً للمعلومة، وآخر، على الأقل، يتعرف على هذه المعلومة ويتفاعل معها.
- تعد قدرة التعرف على المعلومة وضبط اشتغالها، والتي تم التعرف عليها من خلال سلوك الآخر، إحدى الخصائص التي يمتلكها المستقبلون في كل التفاعلات الدالة. وبالتالي، فهي ليست خاصية كافية للتمييز بين الاستعمالات التواصلية وغير التواصلية للمعلومة، أو بتعبير آخر:

⁶⁰ يمكن أيضاً اختبار على المستوى الأونتوجيني وجود هذا التحول التطوري من خلال العلاقات الدالة، ومن ثم يمكن للاقتراح الموجود في هذا الكتاب استعماله لتعزيز الارتباطات النظرية والتطبيقية التي طالما كانت موجودة بين دراسات التواصل، وعلم النفس التفاضلي والمعرفي.

ليست كل التفاعلات الدالة تواصلية.

فكل فاعل مرسل (أ)، عندما يغير مظهر هيئته، يمكن أن يوفر معلومة دالة لفاعل آخر متلقي (ب) يملك القدرات المناسبة للتعرف عليها.

يعتبر هذا الاستعمال الإخباري الذي يمكن أن تكون له مظاهر في الهيئات، شيئا بديهيا. وكما تمت الإشارة إليه، يمكن للقيمة الإخبارية أن تكتسب هذه التغيرات من قوانين طبيعية تتكرر في القوانين التي تنظم الحياة، لكن هذا لا يعني بالضرورة أن بفضل تغير المرسل (أ) سيعبر عن شيء للمتلقي (ب).

❖ عندما يقوم الطائر بإزالة الحجرة التي تختبئ فيها حمار القبان، تتحول هذه القشريات إلى كرات صغيرة، وذلك راجع إلى رد فعل متحرك بسبب وجود الضوء.

❖ إن الشكل الكروي الذي حصل عليه حمار القبان (أ) له قيمة إخبارية بالنسبة إلى الطائر (ب)، كما يمنحه معنى معيناً، لأنه حسب ما يثير انتباه الطائر سيعرف ذلك عن طريق الكريات الفضية كـ "غذاء" أو "ليس بغذاء".

ويصح القول في هذا المثال إن حمار القبان "قد شارك" في التفاعل مع الطائر، كما يصح القول إن الشكل الكروي الثابت الذي يظهر به حمار القبان "يحمل دلالة للطائر". بالمقابل، ليس صحيحا استنتاج أن حمار القبان، عندما يأخذ شكلا كرويا، فهو "يتواصل مع الطائر".

2. الأفعال التعبيرية والتنفيذية

إن جميع أنشطة المرسل في التفاعلات تنتج علامات، يمكنها أن تتوفر على استعمال ذي معنى للمستقبلين. لذا، فإن الطابع التواصلية وغير التواصلية لهذه العلامات يأتي أولا من طبيعة أفعال المرسل التي نشأت فيها هذه العلامات.

من هنا يجب التمييز في كل تفاعل بين نوعين من الأفعال التي تنتج العلامات التي يظهر فيها المرسل. فتختلف من حيث أصلها واستعمالها، وهي ما قد سميتها بالعلامات "التعبيرية" والعلامات "التنفيذية"⁶¹. والمثال الذي يظهر في الجدول 1.3 يساعد على توضيح الاختلافات بينهما.

الجدول 1.3
الحالة: إن انزعاج الكلبة بسبب ابتعاد بعض جرائها كثيرا يجعلها تقوم بمجموعة من التصرفات لإرجاعها مرة أخرى إلى جانبها.
<ul style="list-style-type: none"> ▪ المرحلة الأولى: يمكن للكلبة أن تقوم بسلوك تعبيرية. <p>تنادي الأم على طفلها، لهذا تنتج علامات صوتية معينة تعبر بها عن إشارة: "حضور الطفل".</p>
<ul style="list-style-type: none"> ▪ المرحلة الثانية: يمكن للكلبة أن تقوم بسلوك تنفيذي. <p>الجرو لم يستجب ولم يأت، فتذهب الكلبة للبحث عنه، تحمله بفمها وتأخذه رفقة الجراء الأخرى. فنقل الجرو يتطلب بذل جهد بدني.</p>

- يعتبر تصرف الكلبة في المرحلة الأولى تعبيريا. تنتج الطاقة التي جمعتها للمناداة على صغيرها، إنها أصوات ذات معنبالنسبة إلى الصغير، تشير بواسطتها إلى أن صغيرها فعل شيئا ما. فالإشارة في المثال هي "حضور الصغير"، فيكون تحقيق الهدف الذي تصبو إليه الكلبة حسب الاستعداد التام للجرو من أجل تلبية النداء والحضور.
- أما في المرحلة الثانية، فالفعل هو تنفيذي لأن عمل الكلبة، لما حملت صغيرها، قامت بشيء ما من أجل الصغير، بحيث إن هذا الأخير تأثر بشكل مباشر. كما أن تحقيق هدف الأم (الانتقال من مكان ما إلى مكان الجرو) لا يتطلب حتما تعاون الصغير.

⁶¹ من أجل توضيح عندما يكونوا الفاعلين الذين يتفاعلون متواصلين، لأنهم يستعملون المعلومة للقيام بإشارات تنقل بعض المفاهيم التي طورتها في كتب أخرى. Cf : Manuel Martín Serrano : Teoría de la Comunicación. Epistemología y análisis de la referencia.

وينتج هذا التصرف التنفيذي أيضا علامات، بحيث إن هذه الأخيرة تتوفر على قيمة إخبارية، لأي متتبع للفعل، يكون قادرا على تصور المشهد الذي تمت متابعته وفهمه، وإعطائه معنى. وعادة ما تشمل هذه الإجراءات المتعلقة بالمعلومة فاعلين مشاركين (يتعلق الأمر في هذه الحالة بالكلية وصغيرها).

(أ) تعريفات الأفعال التعبيرية والتنفيذية

يمكن الآن عرض التعريفات المناسبة :

1. الأفعال التعبيرية: هي تلك التي تنتج العلامات التي يشير بواسطتها فاعل إلى شيء ما لفاعل آخر.

تنتج الأفعال التعبيرية علامات يمكن أن تكون تواصلية وذات معنى.

2. الأفعال التنفيذية: هي تلك التي تنتج طاقات يفعل بواسطتها فاعل شيئا ما لفاعل آخر.

نتيجة لهذه الأفعال، تتولد علامات يمكنها أن تكون ذات معنى، لكنها ليست تواصلية.

(ب) كيف يمكن تحديد الاستعمالات التواصلية للخبر في التفاعلات؟

يتم تحقيق كل هذه الأفعال بواسطة الأفعال التعبيرية والتنفيذية المناسبة.

تعتبر الأفعال التعبيرية في التفاعلات سلوكيات تواصلية، لأن الفاعل يستعمل طاقاته لإنتاج علامات.

❖ تكون الأفعال التعبيرية بين الإنسان عندما يتحدث ويقول للآخر "ابق معي"، وبين الثدييات عندما تعلم محيطها بالبول لتشير إلى ثديي آخر "خرج من أرضي".

إن الأفعال التنفيذية في التفاعلات التي تؤثر مباشرة في الآخرين تعتبر إرغامية، لأن الفاعل يستعمل طاقاته في إنتاج تغييرات بالنسبة إلى الآخرين.

❖ أمثلة: ضربة حيوان بالمخالب تسقط الضحية، ودفعة من طفل صغير تجعل طفلا آخر يسقط، وعملية تنفس من الفم إلى الفم يتم إجراؤها للغريق.

تعتمد نجاعة الفعل التنفيذي على كمية من الطاقة التي تكون قادرة على تحفيز من يقوم بالفعل. وبالتالي، فإن الحيوان الذي يصطاد يقفز فوق ضحيته، ولا يتحقق غرضه إلا إذا طبق على فريسته كمية كافية من الطاقة لإسقاطها.

في المقابل، نجاعة الفعل التعبيري لا تعتمد على كمية من الطاقات التي يضعها الفاعل سواء في أسلوب الكلام أو في التشوير؛ فمن الواضح أن الكلمات لا يمكنها أن تُستعمل للاحتفاظ فعليا بالشخص الذي نود أن يظل معنا، ولا البول يمكنه أن يطرد فعليا الكلب الذي اقتحم مجال كلب آخر. بينما تعتمد فعالية المورد التعبيري على القدرة التي تتوفر عليها الإشارات لإخبار الآخر عما يطلبه منه، وعلى استعداد هذا الآخر لتنفيذ هذا الطلب.

❖ هكذا يتم حينما تشعر بعض الحيوانات وبعض الأشخاص أيضا بالاعتداء من خلال تغيير لون بشرتها، بحيث يفتر هذا التغيير العضوي إلى طاقة هامة لإزاحة المعتدي. لكن في وظيفة العلامات، يمكن لتغييرات اللون أن تتحكم في الاستجابة الطاقية للآخر، إذ إن هذا الآخر يعطي معنى معيناً لهذا التغيير على مستوى المظهر الذي يدفعه إلى الانسحاب.

تضم القدرة التنفيذية كل الأنواع التي قد تلجأ إلى استعمال الطاقة في التفاعلات. في المقابل تضم القدرة التعبيرية فقط تلك الأنواع التي توظف العلامات من أجل تبادل المعلومة.

جاءت التفاعلات التنفيذية قبل التفاعلات التعبيرية في نظرية التطور. ومن المحتمل وجود حيوانات لم تكن تستعمل إشارات لتتفاعل مع أخرى. في واقع الأمر، هذا الأمر أكثر شيوعاً، لكنه من غير المعقول أن يتفاعل الفاعلون دون مورد للطاقات.

3. الخصائص التي تميز التفاعلات التواصلية

يمكن اعتبار التفاعلات التواصلية فقط تلك التي ينتج فيها المرسل علامات يمكن أن يستعملها للإشارة إلى شيء ما للمتلقي، وهذه الخاصية تُستعمل للتمييز بين المتواصلين.

سيتم وصف المتواصلين عن طريق تصرفين اثنين تم اكتسابهما من خلال التفاعل التواصلية: أولاً، عندما يؤدي الفاعلون دور المرسلين (أ) ويشغلون مواقعهم؛ ثانياً، عندما يكونون في مكان المستقبلين (ب) ويؤدون دورهم.

أ) عندما يؤدي الفاعلون دور المرسلين في التواصل

لا يمكن اعتبار المرسلين الذين يتواصلون مصادر للعلامات فقط، بل يقومون كذلك بتبليغ هذه العلامات التي ينتجونها بأنفسهم، بمعنى أنه يتم اختيارها وجمعها بتطبيق طريقة ما. ومن ثم فإن المرسلين يقومون بنفس ما يقوم به المستقبلون: أي أنهم يقومون بتعيين معنى ما. لكن، في هذه الحالة المرسلون هم الفئة الأولى التي تثبت هذه القيمة الدلالية في التفاعل. لذلك فإن العلامات التي تُنتج يتم تكوينها للمتلقين.

هذا الشكل الذي تتوفر عليه العلامات التي ينتجها المرسلون، لا يأتي فقط من حالات وسلوكات كل مرسل يظهر بها عندما يقوم بتصرف ما، بالإضافة إلى ظهور بعض السلوكات التعبيرية. فالطريقة التي يطبقها المرسل تعتبر شكلاً تعبيرياً للعلامات.

وكان لا بد للمراجع الأولى التي تم تحديدها في العالم أن تكون هي الحاجيات التي ترتبط بهذه الحالات والسلوكات المتعلقة بالمرسل. ومن ثم، اشتغلت في بدايات التواصل الحاجيات، في الوقت نفسه، على مستويين: كمولدة لمظاهر تحمل معنى، وكمواضيع للمرجع الذي يعينه المرسل للمتلقي في هذا التفاعل الدال. لذا، فنظرية التطور سنظل مفتوحة على عالم تعيين أي هدف أو موضوع آخر للمرجع. وهذا الانتشار للإشارة سيتم تحليله بتفصيل في هذا الكتاب.

يظهر الشكل الذي تأخذه العلامات عندما تكون صادرة عن المرسل. بعبارة أخرى، يبين المرسل فيها مشاركته مع الآخر، وكما يقال، إن المرسلين يقصدون نفس ما تشير إليه العلامات، وهذا قبل أن تأخذ عوامل أخرى مكان المستقبلين.

ب) عندما يؤدي الفاعلون دور المستقبلين في التواصل

بخصوص المستقبلين، لا يمكن اعتبار الفاعلين الذين يتواصلون فاعلين يحددون فقط معنى للعلامات التي أنتجها المرسلون، بالإضافة إلى أن ردود أفعال المستقبلين إزاء هذه العلامات التي تم اختيارها كعلامات ذات معنى قد جعلها تظهر قبل المرسلين. الأمر نفسه يحدث للمرسلين، لكن في مرحلة لاحقة.

فقد تم استعمال معنيين مختلفين في نفس التفاعل. الأول حدده المرسل، والثاني خاص بالمستقبل:

- قام المرسل بتحديد معنى ما للمظاهر التي يظهر بها المستقبل.

- يستجيب المستقبل، في بعض الأحيان وليس دائما، لمؤشرات تعطي معنى لهذه العلامات التي استقبلها المرسل.

كلا المعنيين مرتبطين (يلتقيان في نفس التفاعل). كما يمكن أن يكونا مقترنين بقوة (لربما يمنحان لكلا الفاعلين فرصة التوافق بين حاجياتهما). لكن هما لن يكونا أبدا متطابقين: لأنهما ينتميان إلى أصول مختلفة، ويستجيبا إلى مطالب فردية غير قابلة للتحويل.

إن استجابة أو عدم استجابة المستقبل للعلامة التي أرسلها المرسل ستكون دائما مظهرا ذا معنى بالنسبة إلى المرسل. وستكون أيضا مظهرا تواصليا عندما يحدد المستقبل (ب) بدوره شيئا ما للمرسل (أ). ففي هذه الحالة، يقوم الفاعلان بتبادل أماكنهما: (أ) مكان (ب)، و(ب) مكان (أ). وكلما قام الفاعلان بهذا التبادل، يتم تكرار الإجراء الدال بالطريقة التي وُصف بها.

توجد أثناء التطور التفاعلي للتواصل قوانين مؤقتة. فتبادل العلامات بين (أ) و(ب) يتم بشكل منظم، وهذا التنظيم يتحكم في سلوكيات كل فاعل في وظيفة سلوكيات الآخر. بذلك تم تأسيس علاقة بين التنظيمات الذاتية والتنظيمات الجماعية.

ويشرح الجزء الثاني من هذا الكتاب طبيعة الخصائص التي ميزت التفاعلات التواصلية، كما يبين التطورات التي كانت تتوفر عليها تواصلات الحيوانات والإنسان. أما الآن، ومن أجل الاستمرار في العرض المناسب، سيتم تلخيص الخصائص التي ميزت التفاعلات التواصلية في الجدول 3.3:

الجدول 3.3: الخصائص التي ميزت التفاعلات التواصلية

- 1° كل مشارك قادر على اتخاذ وظائف المرسل والمستقبل (أ و ب) بشكل تبادلي، وذلك في علاق مع الآخر الذي يتفاعل معه.
- 2° يعتبر التفاعل التواصلى نشاطا متكررا. في البداية، كل فاعل ينتج المعلومة من أجل الآخر، ويستقبلها منه.
- 3° عندما يشغل الفاعلون موقع المرسلين، تكون لديهم الكفاءة لتشكيل المعلومة للتعبير عن إشارة ما.
- 4° تكون طريقة كل استقبال للعلامات على امتداد التفاعل التواصلى منظمة بواسطة طريقة الارسل السابقة، والعكس بالعكس.
- 5° التواصل هو طريقة للتعديل. يسهل التنظيم الذاتي لكل متواصل في وظيفة التنظيم الجماعي لمتواصلين آخرين (والعكس بالعكس).

4. ظهور المؤشرات

يمكن للتغيرات التي لها معنى، في مرحلة ما من التطور، أن تُستخدم من قبل الحيوان وفق وظيفة دالة، وهذا عندما ظهرت "القدرة التواصلية"، بحيث إن هذا الحدث قام بتغيير الديناميات التطورية. فحسب اعتقادي، حدث هذا بالطريقة التي سأصفها في الصفحات الموالية.

أ) العوامل التي تسلط الضوء على عالم الدلالة

إذا كان إنتاج المظاهر العضوية الملاحظة في الطبيعة مستقرا دائما، فإن عالم المعنى لم يصل قط إلى تسليط الضوء على عالم الدلالة. لكن، في بعض الأحيان، يحدث أن "تجلي" (أ) في التفاعل مع (ب) يظهر بشكل مختلف عن المعتاد. ويمكن لمثل هذه التغييرات أن تُنتج بشكل متناوب أو آني، بسبب من الأسباب التالية:

تمت التغييرات الوراثية بشكل مستمر، في الحجم واللون أو في الأشكال العضوية للعينات.

ويمكن لهذه التغييرات أن تجعل من الصعب التعرف على حالات المرسلين من قبل المستقبلين، عندما يطبقون الأشكال الحسية الإدراكية.

كما أنتجت الابتكارات التطورية عينات ذات سلوكيات عرفت بدورها تغييرات.

تصبح السلوكيات التعبيرية للمجموعتين المرتبطتين "مختلفة"، عندما لا يحدد مستقبلو كل مجموعة مظاهر المرسلين في المجموعة الأخرى، مطبقين الأشكال المكونة مسبقا لتفسير العلامات.

يحدث أيضا في بعض المناسبات أن تبقى حالة وسلوك المرسل (أ) ثابتة، بينما يتم في البيئة إنتاج تغييرات تؤثر في الكفاءات الإدراكية أو التمييزية لمستقبل ما (ب).

يمكن أن يكون أحد هذه التغييرات نتيجة الاندماج في وسط عينات أخرى (أ2) ذات مظاهر تمتزج "بظهور" (أ). ويمكن لهذا المزج أن يحدث بطريقتين:

1.أ تصبح علامات (أ1) غير مفهومة لـ (ب)، لأنه يتم إنتاج علامات أخرى في الوقت نفسه من قبل (أ2)، والتي تتدخل كمصدر لـ "التشويش".

2.أ تختلط علامات (أ1) و (أ2)، لأن (أ2) "يقلد" أو "ينتحل صفة" لـ (أ2).

من خلال كل هذه الحالات يتم تحليل عديد من الأمثلة، بعضها في هذا الفصل (انظر الفصل 5). وعلى العموم:

تُحدث المعلومة الجديدة في التفاعل تغييرا ما في النموذج الذي يربط بين "مظهر معين لـ (أ) الذي يمكن التعرف عليه من قبل (ب)"، وبين "سلوك معين لـ (أ) والمتوقع بالنسبة إلى (ب)". ويمكن التعبير عن هذه الفكرة بالطريقة التالية:

إن تغييرات المرسل أو المستقبل وتحولات البيئة، تقلص مع مرور الزمن من تكرار نظام التفاعل.

تعتبر زيادة المعلومة والتخلي عن التكرار قضية لا يمكن تجنبها، مثل تحولات النظم الإيكولوجية وتطور الأصناف؛ لذا، وبشكل طبيعي، لا يمكن اعتبار السلوكيات ذات معنى دائمة، ولا يمكن أيضا اعتبار النماذج الإدراكية والتفسيرية صالحة إلى الأبد، لأن المعاني، من جهة أخرى، ستفقد الطابع الأحادي

الذي تتوفر عليه في أصولها، بواسطة التعقيدات المتزايدة التي اكتسبتها التفاعلات في الأصناف الأكثر تطوراً⁶².

يقتضي التحلي عن التكرار بالنسبة إلى (ب) أن لا تتوافق تغيرات مظهر (أ) مع معنى معين، إذ يمكن أن تحدد له معنيين أو أكثر، أو أي واحد. وهذه الزيادة في المعلومة تجعل (ب) يتواجد في حالة شك كبير بشأن معنى تصرف (أ).

عموماً، إن هذه التغيرات التي تشوش على "الأشكال" الحاملة للمعنى ستكون غير وظيفية بالنسبة إلى التفاعل كما كان يحدث عادة مع التغيرات الجسدية، كما أنه محكوم عليها بعدم الجدوى والاختفاء؛ لكن هناك أيضاً مناسبات تسفر فيها زيادة المعلومة على ابتكار مفيد؛ على أية حال، فالمشكلة بالنسبة إلى المستقبل تكمن تماماً في تقليص الغموض الذي تتوفر عليه مظاهر المرسل التي تكيف معها.

هناك نوعان من الإجراءات التكيفية في نظام التفاعل، لأن (ب) يقلل من الشك حول معنى العلامات:

1. تعمل التغيرات العضوية لدى المستقبل (ب) على تحسين قدراته على التعرف وتسمح له بإعادة تكوين مهاراته على التمييز.

فهو الإجراء الأكثر ديمومة من بين الاثنين. ولكن التحولات العضوية تحدث في فترة زمنية؛ عموماً تتم طريقة إعادة ضبط أشكال تفسير (ب) لمظاهر (أ)، عندما تكون للأصناف دورات قصيرة جداً ووفرة في العدد، كما سيتضح في ما بعد.

2. يتكون الإجراء الأكثر سرعة في التفاعلات من إدراج سلوكات جديدة للمرسل (أ) وللمستقبل (ب)، أو لهما معاً، أو من تغيير السلوكات الموجودة بشكل مثل ذلك الذي أزال الشك.

إن هذه التصرفات الجديدة ترجع إلى السبب التالي: الزيادة في تكرار مظاهر (أ).

سوف ترجح نظرية التطور تلك التفاعلات التي يتمكن فيها المستقبل (ب) من كسب المرسل (أ)، فهذا سلوك يجعل المستقبل معروفاً. لهذا، يجب على (ب) أن يدخل في علاقته مع (أ) تصرفاً مثبتاً.

⁶² لقد تمت الإشارة بالنسبة إلى التفاعلات السلوكية كانت مكونة مسبقاً وفق نموذج التنظيم؛ لذا يتم إعادة إنتاج هذا الترتيب في التظاهرات التي تنتج العلامات. لكن تتوفر السلوكات على درجات من الحرية لتتناسب مع تغيرات المحيط، وأن هذا التغير يؤثر على تظاهراته؛ فمن ثم إن نسخة طبق الأصل لهذه العلامات لا تكون تماماً مماثلة في كل الأحوال. لذا يمكن استنتاج أن تظاهرات العلامات تعتبر كذلك تركيباً بين الثابت وغير الثابت، أو بالأحرى، أن في التفاعلات استمرار مشكوك فيه حول معنى تظاهرات السلوكات التي تكون مرتبطة بغياب العلامات الزائدة وظهور العلامات العشوائية. وبالتالي تتيح هذه الاعتبارات تطبيق نموذج التحكم الآلي لتحليل إنتاج وإعادة إنتاج التظاهرات التي تنتج علامات إخبارية.

5. السلوكيات المثبتة وظهور ازدواجية المرجع

تدعى "تصرفات مثبتة" تصرفات المستقبل التي تكون قادرة على إثارة المرسل، وتبيان الحالة التي تحتوي على معنى للمستقبل.

يتم دمج التصرفات المثبتة لـ (ب) في أنماط من التفاعل عندما تؤثر في (أ)، لتتخذ الحالة التي ارتبطت بتصرف (ب)، أي، عندما تحصل على إجابات مثبتة لـ (أ).

كما أعتقد أن أساس "الكفاءات التواصلية" يكمن في القدرة على إدخال "محفزات مثبتة" تحصل على إجابات مثبتة في التفاعل.

وتتطلب هذه المهارات التواصلية من كلا الفاعلين مراقبة المظاهر العضوية والسلوكيات التي تنتج هذه العلامات الدالة.

النص الذي سأقدمه الآن هو للدكتور بادين ر. بيبباني (Dr. Vadin R. Viviani) المتخصص في دراسة اليراعات. للتذكير، إن هذه الأخيرة تنتمي إلى نظام الخنافس، وكما هو معلوم، كثير من العائلات هي بيولوجية الإضاءة، بمعنى أن جسدها قادر على إنتاج علامات ضوئية.⁶³

حسب ما يبدو لي، إن السلوكيات التي وصفها الكاتب في المقالة التالية تشكل مثالا لإدراج العلامات المثبتة في نمط من التفاعل الموجود، وذلك عندما تم تغييره بفضل دخيل من صنف آخر.

"تتوفر اليراعات في مرحلة البلوغ على بطاريات تكون في مقدمة السطح البطني، توجد في الحلقات الأخيرة من البطن. فتنتج ضوءا يظهر على شكل ومضات خضراء مصفرة تعمل بمثابة علامات تواصلية بين الذكور والإناث أثناء فترة التزاوج. يبعث كل صنف نمطا من الومضات المميزة، والمعروفة بها فقط من قبل أفراد من جنس آخر. لكن هناك استثناءات: إن إناث بعض الأصناف تبعث علامات لإناث من

⁶³ بداية الإحالة: "هناك ثلاث عائلات من اليراعات المضيئة وهي: لامبيريد، وفرقع لوز ثم فينغوديدا".
"تعتبر الإضاءة البيولوجية إرسالا لضوء خفيف ومرئي من طرف بعض الكائنات الحية. ويلاحظ لدى عدة أنواع، من البكتيريا وحتى الأسماك، كما يشكل شكلا واسعا لمسار أكثر عمومية عما يحدث في كل خلية: إن الإضاءة الكيميائية البيولوجية التي تصبح طاقة ضوئية واردة في الروابط الكيميائية للمركبات العضوية ... ما يسفر إلى إنتاج علامات ضوئية مرئية من قبل أجهزة عضوية أخرى، ومن ثم، تكون مفيدة كوسط للتواصل البيولوجي".

المصدر: Vadin R. Viviani. Luciferasas : las encimas de la luz

أصناف أخرى لتجلبها، فمن ثم تقوم بابتلاع ذكور هذه الأصناف الأخرى⁶⁴. (هذه مجرد مقولة وأستأنف تحليلي).

تحتاج الذكور (ب) في هذا التفاعل إلى التمييز بين العلامات الضوئية الصادرة عن الإناث من صنفها الخاص (أ1)، وبين العلامات التي تبعثها أنثى مفترسة من صنف آخر (أ2). يمكن للذكر أن يصل إلى هذه النتيجة، والطريقة نفسها يقوم بها جميع المتواصلون: التأكد من مصدر هذه العلامات المشكوك فيها. في المقابل، يتعين في هذه الحالة بعث شكلا من العلامات يحدث الاستجابات الضوئية للإناث المخصصة. وبالرغم من ذلك، فإنها لا تحفز أي استجابة من قبل الإناث الشرسة (أ2).

يمكن للعلامات التي تجاوزت معها الأنثى (أ1) أن تكون متكررة (لا تحتاج أن تكون علامات مختلفة عن تلك التي تم بعثها)، لكنها تكتسب قيمة الاستجابة المثبتة عندما تكون صادرة عن الذكر. إن هذه الإشارة الجديدة للأنثى مستمدة من السمات التي تتوفر على المحفز المثبت الذي بعته الذكر، وليس بطريقة مباشرة من الحالة الفيزيولوجية للأنثى. لذا، فإن الاستجابة المثبتة للأنثى تساعد الذكر على التمييز بشكل فعال أنها من صنف (أ1) وليس اليراع المفترس (أ2) الذي يمكن أن يبتلعه. إذن، تعتبر الاستجابة المثبتة مظهرا تعبيريا يندمج في الإشارات المتبقية التي تشمل المغازلة الجنسية التي سبقتها.

في هذا المثال، يتغير مظهر الذكر والأنثى عندما يصدران أضواء في فترات معينة حسب ترددات مختلفة، وتعتبر أنشطة عضوية لها قيمة إخبارية على مستويين: أولا، إنها مصادر لعلامات ذات معنى، ودالة. ليست فقط تجليا "لظهور" المرسل (أ) ولاستجابة المستقبل (ب) لما يكونان مستعدين جنسيا، بل تعتبر تعبيرات تشير إلى من يظهر، أو ما طبيعته:

تشتغل العلامات في التواصل كإشارات للهوية. وهذه هي السمة التطورية التي تميز الاستعمالات التواصلية للمعلومة.

تركيب: التغيرات التطورية لاستعمالات المعلومة، والتفاعلات التواصلية وذات معنى

يؤدي تطور التفاعلات، كلما كانت أكثر تعقيدا بين الفاعلين الذين يوظفون المعلومة، إلى ظهور علاقات تواصلية. وأساس هذه التطورات يوجد في الاستعمالات المتتالية للمعلومة التي يقوم بها الفاعلون من

⁶⁴ (O.C)

خلال مظاهر فاعلين آخرين. إنها، إذن، عملية طبيعية تستحق صفة المعجزة، لأنه سيتم من خلالها إنشاء "عوالم" ستكون مرتبطة باستمرار القدرة الإخبارية للعلامات:

■ أولاً، يعتبر كل مرسل (أ) جزءاً من عالم المعلومة ومصدراً للمعلومة حول نفسه.

تخبر العلامات، لما يظهر (أ)، عن كيفية العثور عليه، وماذا يفعل بالنسبة إلى كل مستقبل (ب) قادر على التعرف على هذه المعلومة.

■ يرتبط عالم المعلومة هذا في التفاعلات ذات معنى، بعالم الحاجيات.

تحدث هذه العلاقات للمرة الأولى عندما يتأكد المستقبلون المختلفون من المعلومة التي تتوفر عليها مظاهر المرسل، وذلك حسب الاستعمالات المختلفة لها من أجل كل مستقبل.

■ تجمع العلامات، في التفاعلات التواصلية، عوالم المعلومة والحاجيات بعالم الإشارات.

إن التغيير الذي تم حدوثه عند الانتقال من الكفاءة الإخبارية إلى التواصلية، يقتضي تسليط الضوء على بُعد جديد تم الاحتفاظ به ن لذن الكائنات المتواصلة: وهو عالم المواضيع المرجعية.

يتفاعل الفاعلون في التفاعل التواصلية مع موضوعين للمرجع في آن واحد:

■ الموضوع الأول هو نفسه الذي تم التعرف عليه بواسطة المعلومة المتوفرة للأشكال الإدراكية الحسية، لمعرفة حالة (أ).

■ والموضوع الجديد للمرجع الذي يندرج في التفاعلات عند التواصل هو الإشارة (مقابل عدم الإشارة) لأي (أ). لذا، فقد أصبحت العلامات في الوقت نفسه مرجعاً للاشتغال وللمن يشتغل، ومن ثم تحصل على خصائص العلامة.

توضح هذه التحليلات كيف يعمل التطور على إدراج الاستعمالات التواصلية للمعلومة:

■ تكون قيمة المعلومة في التفاعلات ذات معنى حسب سلوكات المستقبل، وظهور المعنى مرتبط بعملية استقبال العلامات.

■ بالمقابل، القيمة الإخبارية للعلامات، في التفاعلات التواصلية، يحددها المرسل، وإدراج عمل دال مرتبط بعملية إرسال العلامات.

كل واحدة من هاته القدرات تُنتج عن قوانين طبيعية مختلفة، سيتم الآن تحديدها في جدول "التركيب".

جدول "تركيب" التغيرات التطورية في استعمالات المعلومة، والتفاعلات التواصلية وذات معنى.
1. كل تبديل يغير حالة أو سلوك حيوان مرسل (أ) ينتج علامات.
2. العلامات التي تتوالد في هذه التغييرات لـ (أ) يمكنها أن تشكل محفزات تحدث استجابات (ب). تتشارك، في هذه الحالة، هذه العلامات في التفاعلات بين (أ) و(ب).
3. إن العلامات التي تنتج عن تغييرات (أ) وتحفز (ب) تتناسب مع حالات (أ). لهذا السبب، تمتلك بشكل محتمل قيمة إخبارية لـ (ب)، لما يكون هذا الأخير مزودا بالقدرات الإدراكية اللازمة.
4. تعتبر الرسالة التي توجد بين الحالات والعلامات (أ)، أساس القيمة الإخبارية التي يمكن ان تكون في التفاعلات.
5. عندما يستعمل (ب) قدراته الإدراكية للتمييز بين هذه العلامات الناتجة عن (أ) وعن باقي العلامات التي تحفزه، فهي عبارة عن علامات ذات معنى لـ (ب).
6. إن العلامات التي هي ذات معنى بالنسبة إلى (ب) يتم التعرف عليها في الحالات التطورية الأولى، لأن غيابه أو حضوره يميز سلوكيات (ب) في علاقته مع (أ).
7. تعد القدرة على التمييز لـ (ب) بين العلامات الناتجة عن (أ)، أساس "الكفاءة ذات المعنى" لـ(ب).
8. إن هذه الكفاءة التي يمتلكها أولئك المستقبلون (ب) الذين ينظمون سلوكياتهم الخاصة في التفاعلات تحصل على معلومة ذات معنى للعلامات التي أصدرها (أ).
9. عندما ينتج المرسل (أ) علامات ذات وظيفة إخبارية تشير إلى شيء ما بالنسبة إلى المستقبل (ب) الذي يستعملها، فهي علامات ذات استعمال تواصلية.

10. تحدد العلامات التواصلية في الاستعمالات التطورية الأولى الحاجيات التي أنتجت مظهر هذه العلامات.

11. إن الأفراد الذين يمتلكون مثل هذه القدرات ذات معنى ودالة، لديهم "كفاءات تواصلية". وهم متواصلون.

12. لا يكتمل التفاعل التواصلية على امتداد تطوره إلا عندما يتبادل الفاعلان موقعيهما: المرسل (أ) يتحول إلى المستقبل (ب)، والعكس كذلك.

13. تُدمج التفاعلات التواصلية سلوكيات الفاعلين في نفس نظام الترتيب. لذا يستعمل المرسلون (أ) والمستقبلون (ب) المعلومة التي يتبادلونها لتنظيم سلوكياتهم الخاصة بهم في التفاعلات، في ما يتعلق بأنظمة المتواصلين الآخرين.

علم حفريات التواصل

مقدمة: الفرضيات التي تقوم عليها دراسة أصل التواصل

أعتقد أنه من الضروري الإجابة عن سؤالين مهمين لشرح أصل التواصل، وهما:

(أ) ما هي العلاقة الموجودة بين الخصائص العضوية للحيوانات ومصدر المعلومة في التفاعلات؟

(ب) كيف تُنتج الأفعال التعبيرية الخاصة بالتفاعلات التواصلية بشكل تطوري مختلف عن الأفعال غير التعبيرية؟

في الفصول السابقة، تم عرض الفرضيات التي تقوم، في اعتقادي، على دراسة أصل التواصل، وجعلتها واضحة في الجدول الآتي، كما أعتقد أنه انطلاقاً منها يمكن البدء في تطوير علم الحفريات في حقل التواصل:

1. إن القدرة على الفعل في تبادل المعلومة التي تتألف من علامات هي أصل المعنى. ومثل هذا الشكل هو قبل تواصلية.

وهذه القدرة مناسبة للأنظمة الفيزيولوجية، بحيث إنها تعتمد على الخصائص التي لها أجهزة عضوية للحيوانات المتفاعلة.

2. والقدرة على استعمال العلامات للإشارة إلى شيء ما في التفاعلات تعد أصل التواصل، إذ يتم توليد مثل هذه السلوكيات انطلاقاً من سلوكيات أخرى انعكاسية، والتي لما تتوقف أولاً على الوظيفة الدالة⁶⁵.

⁶⁵ مثلاً، يمكن للعلامات الكيماوية التي تأتي من البناء الجسدي، استغلالها من أجل الاستعمالات التواصلية. ويمكن للمواد التي تجلي الجسد أن تحصل على وظائف دالة، مثل تحديد المنطقة. سيتم عرض مجموعة من الأمثلة في هذا الكتاب.

1. الأصل التطوري للقدرات من أجل استعمال المعلومة في التفاعلات

1) تكيف الأنشطة العضوية بوصفها منتجة للمعلومة

إن القدرات ذات معنى والدالة لها أصول عضوية، وكلا الاستعماليين للمعلومة يكونان مرتبطين تطوريا.

❖ هناك العديد من أصناف الحيوانات التي تُظهر تغييرات في الشكل، لأن اللون يمكن أن يكون ناتجا عن تغير في الهرمونات التي تستعد في الجسم للخصوبة أو من أجل الدفاع ضد الحيوانات المفترسة.

تكون هذه الآلية الفيزيولوجية التي تقوم بتغيير اللون لدى بعض الحيوانات مرتبطة بالسلوكيات المتكررة، وتولد "أشكالاً" ملونة ملموسة. وتوجد في هذه الحالة علاقة بين مجموعة معينة من الحالات ومجموعة معينة أخرى من العلامات. واللدائن الملونة لهذه الحيوانات، وغيرها كثير، تعتبر أساس "القدرة الإخبارية" لتلك التي تتكاثر معها، أو التي تتعرف عليها باعتبارها طعاما كي تتجنبها.

مع مرور زمن التطور يمكن لتغير شكل الحيوانات (أ) أن يُستخدم كإشارة إلى أزواجها المحتملة (ب)، لأن الفترة التي يكون فيها (أ) مستعدا للتفاعل الجنسي قد حانت؛ لذا، سيصبح هذا الاستعمال الجديد والدال للحالات الملونة لـ (أ) متطورا بفعالية أكثر، وذلك عندما تكون أعضاء الإدراك متطورة جدا لـ (ب) وحساسة للون والحركة.

❖ يتم عند الرخويات (سمك الحبار والأخطبوط)، بشكل تام تطوير هذا التعدد الوظيفي للعمليات الفيزيولوجية الداخلية مقارنة مع تلك التي تُنتج عن التغيرات اللونية.

بالإضافة إلى تغيرات اللون في اللدائن الملونة للحيوانات، تدخل تغيرات المظهر لدى الحيوانات ذات الشكل البلاستيكي، ضمن التغيرات العضوية التي تعمل على نشأة العديد من الاختصاصات التواصلية.

❖ يعتبر تغير الحجم الذي تحصل عليه بعض قنذيات البحر السباحة من أجل الدفاع عن نفسها، تعديلاً وظيفياً محتملاً ذا معنى لدى المستقبل، يدل على هروب وشيك لهذا المرسل.

هي كثيرة الأصناف التي تلجأ إلى تغيير مظهرها، بنفخ الحويصلات، وتمديد العضلات، وانتصاب الريش؛ فهي ذات وظيفة تواصلية محددة. لكن، في كل هذه الحالات، القيمة الدالة للتغيرات العضوية لـ (أ) مقيدة بالقدرة الإدراكية المناسبة لـ (ب).

ولقد جاءت التغيرات الهرمونية أو الحركية التي تظهر مع التغيرات العضوية المدركة، وكذا التغيرات على مستوى اللون والشكل، لتجمع ثلاث وظائف: الأولى فيزيولوجية والاثنتان الأخريتان إخباريتان (ذات معنى ودالة). والوظيفة الأولى داخلية، أما الثانية والثالثة فهما خارجيتان.

وسيتم تحليل إعادة توظيف التغيرات الفيزيولوجية في المعلومة من جهات نظر عديدة في هذا الكتاب.

(2) الارتباط العضوي للفاعلين

أقترح وأتطرق في هذا الكتاب إلى مفهومين هما: "الارتباط" و "أنظمة التفاعل المتبادل"، فقد عرفتهما واستعملتهما في هذا الفصل، لأنهما وسيلتان لشرح:

1° القدرات على استعمال المعلومة في التفاعلات.

2° تطوير هذه القدرات حتى تصب في التواصل.

يطلق "الارتباط" على أداء الفاعلين في التفاعلات المرتبطة بالتغيرات التطورية.

وتتطلب القدرة على الفعل بواسطة المعلومة في التفاعلات من أجسام الفاعلين أن تتطور حتى تكتسب ارتباطات معينة:

■ أولاً، ارتباطات حسية - حركية. فهي متطلبات لضمان التوافق بين مظاهر بعض الفاعلين وإدراكات الآخرين.

ثانياً، ارتباطات على مستوى السلوكات. فهي ضرورية للمتواصلين بحيث تمكنهم من التحكم في خيار الاستجابة من عدمها تعبيرياً للمحفزات الدالة الصادرة عن الآخر.

إن الارتباطات الأولى هي قبل تواصلية، أما الثانية فهي تواصلية؛ لذا سيتم عرضهما على حد سواء على هذا الترتيب.

// الأصل التطوري للقدرة على الإخبار

(3) نظم الحركات العصبية المرتبطة بالتفاعلات المتبادلة

يبدو أنه لا مناص من أن التغيرات الجينية للأصناف التي تتفاعل تميل إلى الارتباط، لأن التجديدات التي تسهل العلاقة لها مزايا التكيف بصفة عامة.

ويجب الأخذ بعين الاعتبار ارتباطين في التفاعلات:

1. يمكن للأصناف أن ترتبط في تبادل المواد العضوية. فمثلاً، يمكن للهرمونات التي ترافق إرسال أمشاج بعض الأفراد أن تكون لها التركيبية الفريدة لفك إرسال أمشاج الآخرين.

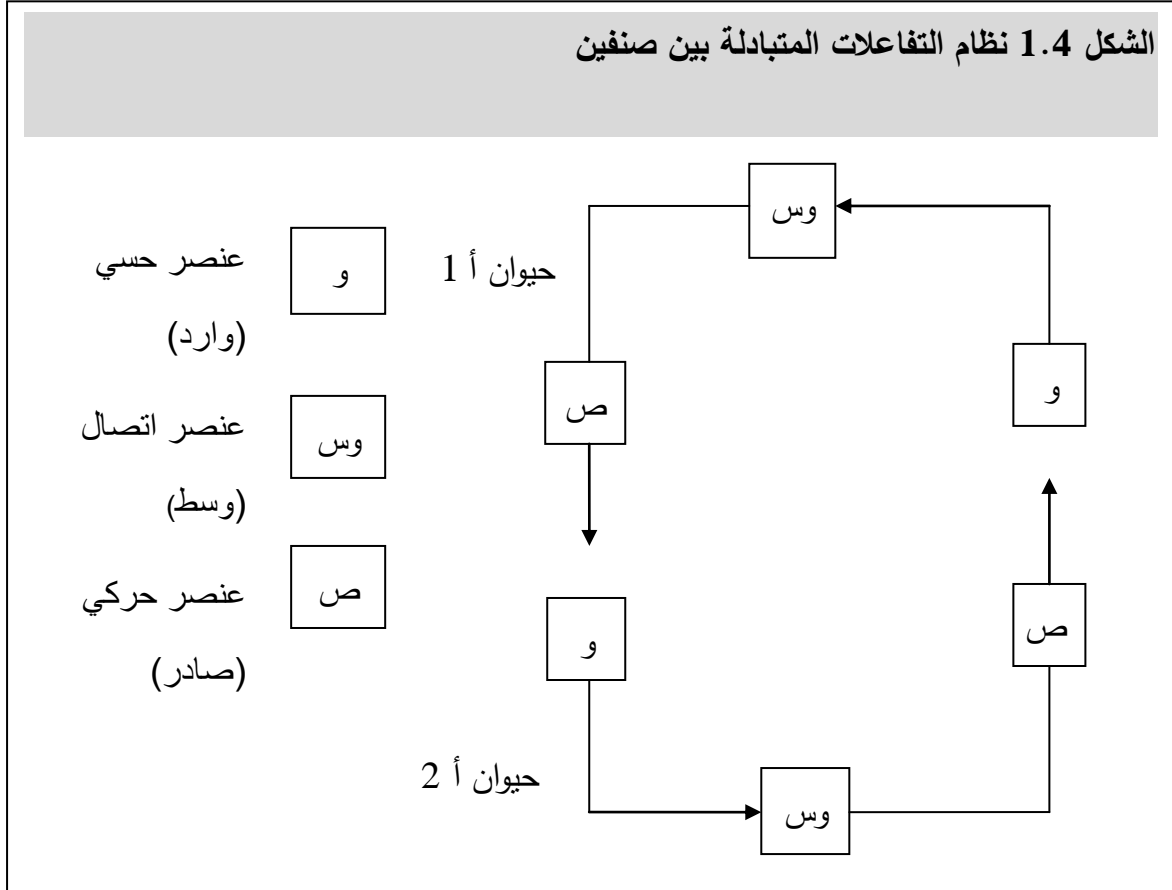
2. يمكنها أن ترتبط عصبياً. ويحدث هذا عندما تحدد بعض محفزات (أ) استجابات (ب)، والعكس كذلك.

والارتباط العصبي نتيجة لاختيار أصناف بعناصر حسية وحركية مناسبة، بحيث يؤدي هذا الاختيار إلى نظام التفاعلات المتبادلة بين الأجهزة الحسية والحركية لتلك الأصناف.

تعتبر "أنظمة التفاعلات المتبادلة" البنيات الحسية الحركية للأصناف المرتبطة في تفاعلاتها.

إن البنية العصبية الأكثر بساطة، التي فكرت فيها لإجراء هذا الارتباط، تتمثل في الشكل 1.4.

الشكل 1.4 نظام التفاعلات المتبادلة بين صنفين



من المحتمل أن تكون المحفزات الأولى التي تم تبادلها في نظام التفاعل المتبادل مكونة من "ضغوطات"؛ لذا، يحتاج هذا التفاعل إلى الاتصال الجسدي بين الفاعل المحفز (أ) والمتحفز (ب). فيتم إنتاج الارتباط بين الأجهزة الحسية الحركية على الشكل التالي:

___ يتوفر الضغط الذي يمارسه (أ) في الاتصال على الكثافة، أو/ والمدة، أو/ والتكرار، الذي يحتاجه (ب) من أجل إنتاج حركة الاستجابة المحددة التي يتطلبها هذا التفاعل (والعكس بالعكس).

يميز (ب) في هذه التفاعلات بين علامات (أ) وبين جميع المحفزات التي تؤثر فيه. فإذا كانت الظروف مواتية، فإن (ب) يرد على هذه المحفزات دون سواها، في الحالة التي يصبح فيها (أ) مصدرا لمعلومات ذات معنى بالنسبة إلى لـ (ب).

المشاركة في التفاعلات المتبادلة هي ممكنة في الأصناف التي تفتقر إلى النظام العصبي المركزي. يكفي تلك التي لها، ككل الأجهزة العصبية (الشكل 1.4)، دوائر مشكلة من عقدة الوارد (عنصر حسي "و")، وآخر وسط (عنصر الاتصال "وس")، والثالث صادر (عنصر حركي "ص").

سيتم في هذه الدوائر المرتبطة جمع الوقت وكثافة الاستجابات مع مرور الوقت وكثافة المحفزات.

من خلال هذا المستوى الأولي يجب البدء في فهم كيفية تطوير نمط من التصرفات التفاعلية، التي يتم فيها دمج العلامات التي ينتجها (أ) والاستجابات التي يصدرها (ب).

ولا تتوفر حتى الآن على المعلومات الضرورية لتحديد الصنف الأول الذي حقق القفزة التطورية التي سمحت له بتشكيل أجسام الشخص وأفعاله بواسطة أفعال الآخر وجسمه، باختيار المعلومة. إنها العملية التفاعلية التي حولت مسار التطور الطبيعي. كما تعتبر موضوعا يمكن للمتخصصين أن يساهموا فيه بمعرفة ذات أهمية علمية كبرى، لأنه من المفترض لمعلومة معينة، في محيط مملوء بمحفزات غير محددة، أن تكون ذات معنى بالنسبة إلى بعض الأصناف، لاسيما وأنها صادرة عن أصناف معينة أخرى؛ لذا كانت القدرة على الاستجابة مع المعلومة ذات معنى في التفاعل الخطوة الأولى لتصبح المعلومة، في ذلك الوقت، دالة وتنتج التواصل.

(4) النماذج الأولى للحيوانات الأولى القادرة على استعمال ذات معنى للمعلومة

بالرغم من أن العائلة التي تنتمي إليها أسلاف جميع المتواصلين في عالمنا مازالت غير معروفة، فإن التحليلات السالفة تسمح باستنتاج كيف ينبغي أن تكون الأجهزة البيولوجية والتصرفات في تفاعلات هؤلاء المتواصلين الأوائل. وهنا يمكن تصور أشكالهم الأولى.

إن هؤلاء المستكشفين الأولان في عالم الدلالات، اللذين بدءا المغامرة التطورية وتعاملا بواسطة المعلومة، يستحقان الاسم الذي أخذاه لتعريفهما رغم عدم ذكر اسميهما. واعتقد أن اسميهما كانا هما "انياس" "Eneas" و"لافينيا" "Lavina".

"انياس" "Eneas" و"لافينيا" "Lavina" يتم وصفهما في الجدول 2.4.

الجدول 2.4 خصائص النماذج الأولى السابقة على المتواصلين
1° تنتمي إلى أصناف اتكالية، وتتبادل المواد و/أو/ الطاقات مع أصناف أخرى من نفس الصنف أو من أصناف أخرى تتفاعل معها.
2° قد تصل إلى مرحلة تطورية بحيث إن أنماطها العصبية الحركية ترتبط في ما بينها.
3° تم تفكيك التصرفات التي تعتبر خاصة وضرورية لإعادة إنتاجها وتطويرها من لدن كل واحد من هؤلاء الفاعلين (ح1)، بواسطة بعض المحفزات الخاصة التي يتلقاها فاعل أو فاعلون آخرون معينون

(ح2).

4° إن نفس هذا النوع من التأثير يحدث على العكس من ذلك. في المقابل، إن بعض المحفزات الخاصة وتلك التي يؤثر بها الفاعلون (ح1) في (ح2) كانت مرتبطة بالضرورة بتطور وإعادة إنتاج هؤلاء الفاعلين الآخرين.

5° ينتجون ويستقبلون محفزات تنشأ فيها استجابات تفاعلية (لا يمكن تجاهل الصنف في ردود الأفعال الحسية والحركية المبرمجة بشكل تلقائي).

6° وفق تعريف هؤلاء الأسلاف للمتواصلين فإنهم لا يتواصلون. كما أن المحفزات التي تُنتج وتُدرك لا تعتبر علامات دالة.

يحتاج الارتباط المتبادل الذي يتناسب مع هذه الاستعمالات القبل تواصلية للمعلومة فقط إلى درجة من الحرية⁶⁶. وتتوفر فقط، في التفاعلات، محفزات (أ) على السمات الخاصة لتحديد الاستجابات الخاصة بـ (ب)، والعكس بالعكس.

مع ذلك، يمكن أن يكون الارتباط مرناً، أي أنه يمكنه أن يتكيف مع تغيرات البيئة ومع التطورات؛ للتذكير، إن هذه القدرة على التحول تتوفر عليها الأصناف التي تنتج مع تغير في عدد عناصرها، حيث تُظهر بينها أجيال ذات تركيبة جينية مختلفة؛ وبالتالي، لكي تتوافق متغيرات شروط المحيط، لا بد من تحويل الارتباطات الحسية - الحركية ليصبح التفاعل ممكناً. فهي سريعة ومنكرة، على الأقل، حتى على مستوى تطور الحشرات. ولكن النتيجة تبقى ممكنة رغم التعقيد المتزايد لدى الكائنات الحية، ومع مدة دورات حياة الأصناف، إذ يتم حل هذه الصعوبة في الطبيعة باستبدال التحولات الجينية الدائمة بالتحولات الدائمة للإشارات، أي، بالاستعمال التواصلي للمعلومة.

⁶⁶ يفهم من "درجات الحرية" أن عدد الأشكال أو الحالات المختلفة، على امتداد الوقت، يمكنه تقديم النظام (أو المكون) دون أن يتحول إلى آخر أو يتدمر؛ لذا يعتبر النظام الذي يكون في لحظة من اللحظات قادر على إظهار العديد من الأشكال أو الحالات المختلفة، من الصعب التنبؤ به (في هذه اللحظة). في حين أن النظام الذي يكون في لحظة ما قادر فقط على إظهار تشكيل أو حالة، يكون قابل للتنبؤ بشكل مطلق (في هذه اللحظة). يتوفر سلوك الأصناف التي يتم شرحها الآن، على خيار توليد استجابة (محدد مسبقاً) أو لا استجابة، بمعنى أنه يتوفر على درجة الحرية؛ فهذا التحليل موجد بشكل مفصل عند: مانويل مارتين سيرانو، في "نظرية التواصل. الإبيستيمولوجيا وتحليل المرجع"، كما يمكن الرجوع إلى الموقع أو

http://www.ucm.es/info/secom/publicaciones/autores/martin_serrano_manuel/
http://www.mhe.es/martin_serrano1

/// الأصل التطوري للقدرة على التواصل

5) من البنية العصبية - الحركية إلى الأنماط التواصلية المفتوحة

حصلت التفاعلات بين الفاعلين أثناء التطور على درجات مرتفعة من الحرية؛ وسيتم هذا الانفتاح في ثلاثة أشكال متقاربة:

1. يقوم التطور العصبي بتوسيع ذاكرة المحفزات والاستجابات، وأيضا ذاكرة التخزين التي يمكن أن تلعب دورا مركزيا في الاندماج العصبي. فيتم تنظيم، هذه الدورات العصبية في النظام العصبي، الذي يصبح في كل مرة أكثر تعقيدا وتنوعا.

2. إن الاتصالات التي ستحدد في التجارب التفاعلية تبقى "ميرمجة سلفا".

3. يعرف الفاعلون أخيرا طريقة استخدام المعلومة في التفاعلات بملاحظة فاعلين آخرين.

تم اكتساب هذه القدرات عبر المراحل التطورية التي حدثت قبل أن يتم التواصل الإنساني. كما أنها تتوافق مع نوعين مختلفين من النماذج التواصلية، وهما: "نماذج تواصلية محددة بنفسها"، وأخرى "محددة بغيرها"، ويتم وصفهما على هذا الترتيب.

6) ظهور النماذج التواصلية المحددة بنفسها

يمكن للتواصل أن يبدأ في الاشتغال لما يكون الوقت مناسباً لتطوير البنية العصبية الحركية:

▪ نوع من التحكم لإنتاج (أو عدم إنتاج) محفزات ذات معنى.

▪ نوع من التحكم لإنتاج (أو عدم إنتاج) علامات مثبتة.

ومن ثم، كان ينبغي على الحيوانات الأولى القادرة على التواصل مع حيوانات أخرى بواسطة الاستعمال الدال للمعلومة أن تمتلك خلايا عصبية متخصصة ومنظمة في جهاز عصبي حقيقي. ومثل هذه البنية العصبية يجب أن تمنح على الأقل لكل متواصل إمكانية تطوير الوظائف الآتية:

▪ **الانتقاء** من جانب الوارد بين قائمة العلامات البديلة، ومن جانب المرسل من قائمة أخرى للاستجابات البديلة، التي تتوفر أيضا على قيمة إخبارية.

يجب أن تضم هذه القدرة على الانتقاء احتمال التحكم في عدم الانتقاء.

▪ **الجمع** بين العلامات الواردة المختارة بطرق مختلفة، والاستجابات (العلامات) الصادرة المختارة.

يجب أن يشمل الجمع احتمال التحكم في الفوارق.

▪ **تحفيظ** البرامج العشوائية للجمع. أي، القدرة على تطبيق أشكال توافقية في كل خطوة كان قد أخذها السابقون بعين الاعتبار.

ينبغي على مثل هذه القدرة أن تشمل احتمال "تفريغ الذاكرة".

إن الجهاز العصبي البسيط جدا الذي يمكن تصوره لدعم هذه الارتباطات التواصلية سيكون الشيء الذي يعطي للاستجابة درجتين من الحرية. لذا، ينبغي أن يكون قادرا على الاشتغال حسب الخيارين المنطقيين التاليين:

خيار عدم الاستجابة		/يقابل/		خيار الاستجابة	
في هذه الحالة:					
الاستجابة "1"		/تقابل/		الاستجابة "2"	

يتوفر هذا الاحتمال على أنظمة عصبية لها بنية تكونت بزيادة عدد الثلاثيات (و- و- و- ص) الخاصة بالبنية العصبية الحركية المتمثلة في النموذج 1.4⁶⁷؛ لذلك، فإن إعادة تكييف الثلاثيات من أجل الاشتغال المندمج في الأنظمة العصبية هي قادرة على تطوير النماذج التي تمكن من التفاعلات التواصلية الأولى.

يوفر تحويل البنية العصبية للأنظمة العصبية الأولى القدرات الوظيفية والمنطقية الخاصة بالتفاعلات التواصلية المتطورة شيئا ما. فيمكن للأصناف أن تزيد من درجات الحرية من خلال استجاباتها، و"إعادة هيكلة" الذاكرة، بمعنى أن هذه الأنظمة العصبية الأولى تتمتع بالمرونة الضرورية ليتمكن المتواصلون من تكييف الاستعمال الدال للمعلومة مع التغيرات البيئية والتطورية. والنموذج الأول المناسب يتمثل في الشكل 2.4، الذي يتم وصفه فيما بعد.

⁶⁷ تعتبر النظم العصبية الأولى التي تظهر، البنيات التي تشتق من انغماس الاشتغال الحسي - الحركي، الذي يربط سلوكيات لافينيا (Lavinia) وإنياس (Eneas) الحيوانية؛ ما حدث لفترة طويلة قبل أن نكون هذه النظم قادرة على أداء وظائف فكرية، لهذا استخدم كل من لافينيا (Lavinia) وإنياس (Eneas) للربط بين كل الكائنات المتواصلة التي قد أحدثتنا؛ لذلك يمكن الرجوع إلى بياجي (1952، 1978) مع معطيات محدثة، حول تطوير النماذج الحسية الحركية وارتباطاتها مع البنيات العقلية.

أ) النماذج الأولى للأصناف القادرة على الاستعمالات الدالة للمعلومة

تشكل التفاصيل السالفة الذكر دليلا من أجل البحث عن الحيوانات الأولى التي لها أجهزة عصبية تمكنها من القيام بإشارات (المظاهر التواصلية)؛ لذا، يجب أن تكون لهذه الأجهزة الخصائص الآتية:

1. تحضير الحدود العصبية الحسية الخاصة بإدراك محفزات معينة، والتي تكون ضوئية، وكميائية ومشكلة من الضغط، إلخ، ثم إحصاء الأجهزة المناسبة للحدود العصبية الحركية.

2. إدراج المكونات الكافية لإمكانية تحقيق الاختلافات والانتقالات المتعددة.

وكانت تدمج مثل هذه العناصر بين الحدود الحسية والحركية، بحيث يمكنها الربط بين مجموعتين، الأولى خاصة بالمحفزات والثانية بالاستجابات. لذا يجب على مكونات كلتا المجموعتين أن ترتبط بين عدة أشكال أثناء عملية تبادل المعلومة. ويمكن لهذه الوظائف الفعالة أن تجمع سلسلة من العقد المرتبطة بواحد أو أكثر من المكونات العصبية بشكل مستمر. مثلا، تشكل البنيات العقدية في الحيوانات المتفرقة جزءا من الحبل الشوكي، حيث يتم تشغيلها من بداية الجزء الأول إلى نهايته.

3. حساب المكونات المركزية التي تبرمج اشتغال المكونات الفعالة السابقة.

يمكن أن يكون هذا المستوى الثاني من التحكم مشكلا في البداية بواسطة تكاثف الخلايا العصبية، فهي عبارة عن تخصص عصبي لا يزال بعيدا عن الدماغ الذي يقوم بتطوير الفقاريات، لكنه يعتبر وظيفيا "الدماغ البدائي". لذا فالمتطلبات التي تحتاجها الذاكرة كافية بالنسبة إلى التفاعلات التواصلية الأكثر بساطة، لاسيما وأنها تعتبر من الأجهزة التي توفرت في المتواصلين الأوائل.

يمكن لهذه الوظائف، التي تمت الإشارة إليها، أن تلبي الزيادة في عدد "الثلاثيات" (و- و- و- ص) التي يمكن بفضلها لقائمة المحفزات الواردة والاستجابات الصادرة معالجتها. كما سيتم من خلالها أيضا خلق انسجامات وعلاقات جديدة. فالشكل 2.4 يمثل الوحدة الأساسية لتلك الثلاثيات التي يمكن أن تكون الأجهزة العصبية التي تتطلبها النماذج التواصلية المحددة داخليا. فعلى هذا الأساس، يجب على كل متواصل أن يحضر على الأقل اثنتين من الثلاثيات المتصلة ببعضها، وبمجموعة من الخلايا العصبية التي تجمع وظائف التحكم في المجموعة.

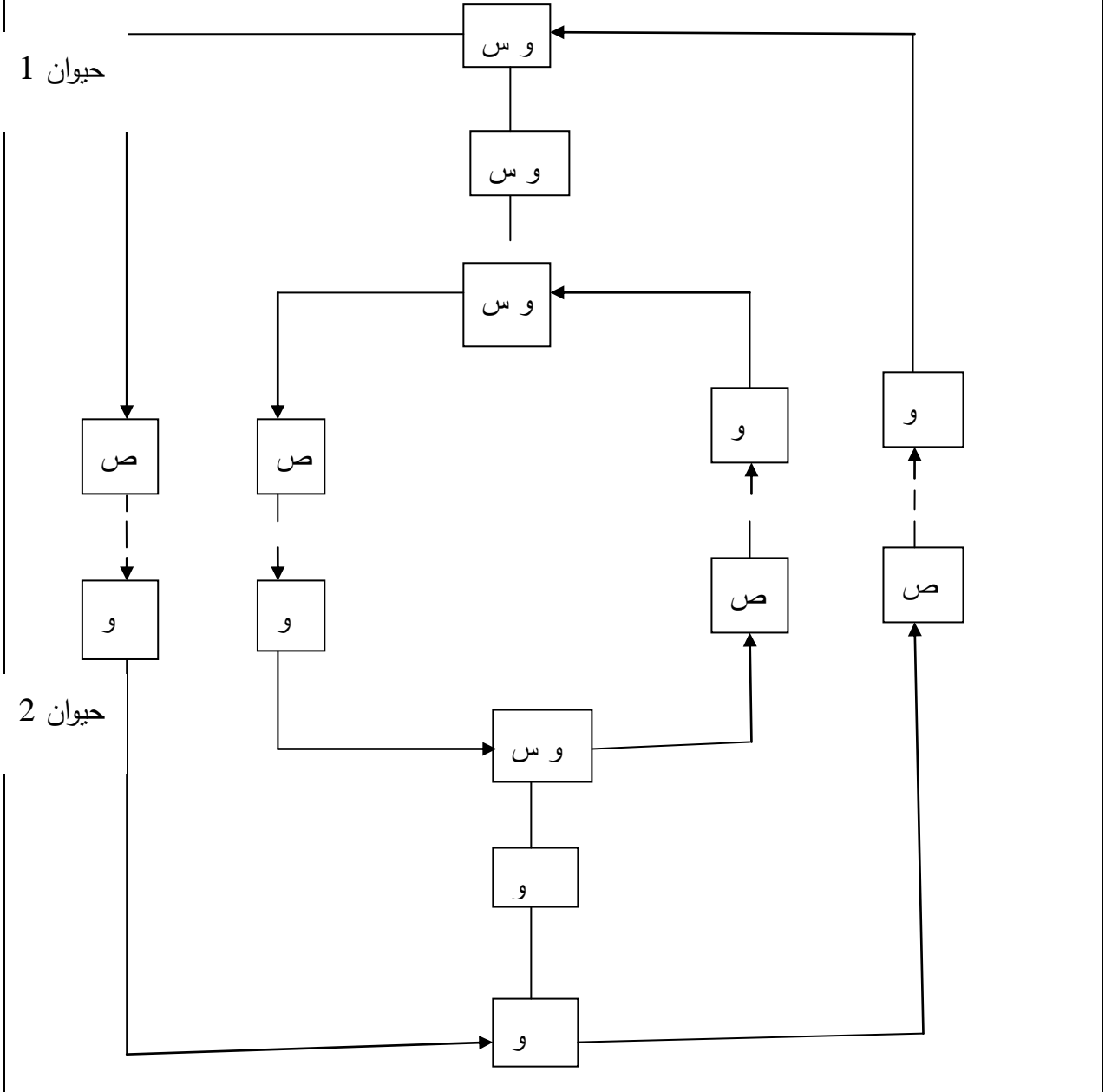
يمكن لاشتغال الأنظمة العصبية المتكونة من واحدة أو عدة وحدات أساسية أن توصف قبل النماذج التواصلية المحددة بنفسها.

▪ تعتبر نماذج تواصلية، لأن الفاعلين لديهم الحرية (العضوية والوظيفية) لانقضاء العلامات الصادرة وجمعها من قائمتين، الأولى من محفزات (أ) والثانية من استجابات (ب).

تتوفر المعلومة عندما تكون الاستجابة غير تلقائية، ويوجد الاستعمال التواصلية للمعلومة لما تسمح القدرة التمييزية للنماذج بربط السلوكات التعبيرية والإدراكية للفاعلين في التفاعلات.

▪ ونماذج محددة بنفسها، لأن التركيبة الإجمالية لإمكانيات الارتباطات بين السلوكات التعبيرية والإدراكية للفاعلين كانت محددة ومشكلة قبلها، بدرجة أكثر أو أقل، بسبب بنية الانغراس العصبية الحركية.

الشكل 3.4 البنية الحسية الحركية الأساسية لاشتغال النماذج التواصلية المحددة بنفسها



و عنصر حسي (وارد)

وس وعنصر اتصال (وسط)

ص عنصر حركي (صادر)

ب) المكانة الفيلوجينية للمتواصلين الأوائل

يقدم التحليل النظري لأصل التواصل معايير تسمح بالبحث في حديقة الحيوانات على الحيوانات الأولى الموجودة أو المنقرضة التي كانت قادرة على التواصل.

وتعتبر مكانة هؤلاء المتواصلين ذات أهمية خاصة بالنسبة إلى أطباء الأعصاب وعلماء الحيوانات الذين يتفرون على المعرفة المتخصصة المطلوبة. وفي انتظار النتائج الدقيقة لهذه الإسهامات، يجب العمل بالمراجع المتوفرة حاليا، لاسيما أن هناك عدة عائلات من الحيوانات تملك نظاما عصبيا بسيطا، وكذا شبكات عصبية يمكنها أن تلبى المتطلبات الضرورية للتواصل؛ لهذا يمكن للمعدات العصبية الأكثر ضرورة في البداية أن تُستخدم لهذه الأدوار، والتي يبدو أن الحيوانات المائية تمتلكها.

تنتهي الحيوانات المائية إلى قناديل البحر؛ لذا يميل المختصون حاليا إلى فكرة أن الأشكال الأولى لقناديل البحر كانت موجودة، إذ أنها حيوانات كانت تعيش خلال عصر الإيدياكر، وفي عصر ما قبل الكامبري، وهذا منذ قبل 550 مليون سنة على الأقل حسب ما يبدو⁶⁸.

يمثل النظام العصبي للحيوانات المائية الأعضاء المركزية المتباينة والمتراطة كما هو الحال بالنسبة إلى باقي قناديل البحر. لكن هذه العناصر كانت في البداية محددة من قبل الأعضاء المركزية التي يمكنها تنفيذ المستوى الثاني من المراقبة، كما شرحنا ذلك في الخصائص الضرورية لممارسة التواصل⁶⁹.

على العموم، تتطور القدرة على التواصل بتطبيق الأشكال التعبيرية التي تتطابق فيها الإشارات مع ظروف البيئة والمتواصلين، عندما سمح التطور بالخطوات الأولى لربط المفصليات⁷⁰. وقد تم تحديد هذه البداية، حسب التقديرات الأخيرة، منذ 540 مليون سنة.

⁶⁸ Cf : Xiao ; S . , B. Shen ;C.Zhou ; G.Xie ; y X. Yuan .

⁶⁹ تعتبر قناديل البحر من الحيوانات اللافقاريات مزدوجة الطبقات (جسدها يتكون من طبقتين – الأديم الباطن والأديم الظاهر – اللذان يشكلان تجويف واحد)، فمن بينها قناديل البحر والهديرا؛ لذا يتوفر الجهاز العصبي لقناديل البحر على بعض الخلايا الظهارية المستقبلية التي تمتد إلى اتصالها بتقلصات أخرى. فحسب المتخصصين في الحيوانات المائية أن هذه العناصر توجد أولا في "النظام العصبي المشبك" أو "في الصغيرة". تتشعب الخلايا العصبية الظهارية وتشكل غرز تحت الظهارية باتصال مع خلايا أخرى التي بدورها تتوفر على الامتدادات التي تتصل بخلايا المستقبلية للتقلصات؛ لذا يتم تجميع الخلايا العصبية في عقد وفي محاور عصبية يشكلان أشعة تتواصل فيما بينها.

⁷⁰ لقد طورت المفصليات من بين الأديم الظاهر والباطن طبقة جديدة تسمى الأديم المتوسط، وما ينتج عن ذلك في التجويف وجود أجهزة الأحشاء المتخصصة، فهي تتوفر على جسم مقسم إلى أجزاء وفي كل واحد منها يوجد على الأقل عقدتين متصلتين فيما بينها ومع عقد أخرى من نفس الجنس. فالأجزاء الثلاثة الأولى قد طورت تركيزات العقدية الأكثر أهمية، والتي تقوم بوظائف عقلية من بينها تلك المرتبطة بالنظر والتنفس ثم اللمس؛ لذان يمكن وجود تركيزات عصبية أخرى في مختلف أجزاء الجسم، التي تلعب دورا معيناً لدى الأصناف التي تمتلك حواس اللمس، والذوق، والشم ثم السمع؛ مثلاً، فك شفرة المحفزات التي تم إنشاؤها بواسطة الاهتزاز.

إلى حد كتابة هذه الأسطر، يظهر أن حضور الجنس البشري في العالم حدث منذ حوالي 6 ملايين سنة. وقد كانت هذه التقديرات حول قدم جنسنا تتغير باستمرار، كما أن التصويبات التي جاءت لاحقاً سوف تُغير بنسبة ضئيلة الفترة التي تفصل التواصل الإنساني بأصوله الحيوانية؛ لذا، فقد استغرق التطور حوالي 550 مليون سنة للوصول إلى العديد من الاستخدامات وإلى درجة الكمال التي وصل إليها التواصل في ما يخص جنسنا، أو قبل مركزية الإنسان: كان يوجد بالفعل متواصلون قبل 550 مليون سنة تقريبا قبل وجودنا.

ج) اشتغال النماذج التواصلية المحددة ضمناً

تسمح السلوكات التواصلية لزوج من اليراعات بظهور علامات مثبتة (انظر الفصل 3، الفقرة 5). فالنفاعلات التواصلية التي تطورها هذه الحيوانات، تم تنظيمها بواسطة النماذج التواصلية المحددة داخلياً. ولكي يشتغل هذا التفاعل، يتطلب مايلي:

__ إن كلا المتواصلين، (سيتم تسميتهما "أنا" و "الآخر") كانا متخصصين في إرسال العلامات الضوئية. لكن العلامات التي ترسلها الأنا مختلفة عن تلك التي يرسلها الآخر. إذن، يمكن لهذه الخصائص المميزة للعلامات المناسبة أن تتكون من تلك العلامات التي يختلف فيها التكرار، والكثافة، والطول والمدة بعضه عن البعض.

__ يجب على الخلايا العصبية الحسية للآخر أن تعمل حسب الحد الأدنى وزمن التفاعل، الذي يتم تكيفه من أجل الرد على وتيرة، وكثافة، وطول ومدة إرسال الضوء الصادر عن الأنا. أما الخلايا الحسية للأنا فيجب أن يكون لها تكيف معادل، مراعاة للمحفزات الضوئية الصادرة عن الآخر.

يوفر هذا الجهاز معلومة ذات معنى، لأنه يعتبر بمثابة الارتباط المتبادل الذي يقوم بتنسيق السلوكات والتفاعلات، عن طريق المعلومة التي توفرها العلامات⁷¹.

__ تعد المعلومة الحاملة للمعنى ضرورية بالنسبة إلى الذكر والأنثى اللذين يمكنهما أن يتكاثرا، لكنها غير كافية، لأنه يوجد فاعل ثالث في النظام الإيكولوجي يعرقل عملية تبادل العلامات. ويعتمد بقاء

⁷¹ يشتغل الارتباط المعكوس لدى الحيوانات المضيفة بيولوجيا بالطريقة التالية: أن الخلايا الحسية للآخر يتم إثارتها بواسطة المحفزات الضوئية للأنا؛ وأن الخلايا العصبية الواردة، تحول العلامات العصبية المناسبة لتنشيط الخلايا العصبية المركزية والخلايا العصبية الواردة، التي تؤدي إلى استجابات كيميائية أو حركية التي تتوافق مع نمط إضاءة الآخر.

أصنافنا على قيد الحياة على كون الذكور لا يندعون بسبب النداء الضوئي للأنثى المفترسة من صنف آخر، وبالتالي، ينبغي لنا وللآخر أن يحصلوا على القدرة التواصلية لتبادل العلامات ذات الوظيفة المثبتة، قبل إرسال العلامات ذات وظيفة التعرف على الجنس. فلكي يتم القيام بهذه العملية التعبيرية المبرمجة، من الضروري التوفر على ذاكرة اعتباطية. لذا، في هذه الحالة، تقدم الأجهزة العصبية المركزية المعدات المطلوبة.

د) تحويل النماذج التواصلية المحددة بنفسها

من المعلوم أن العلامات المثبتة يجب أن تكون مكيفة مع الخصائص الحسية - الحركية لنا والآخر. ولا تكون، في الوقت نفسه، معروفة بالنسبة إلى مفترسيهما؛ لذا يتم ضمان "خصوصية" هذه العلامات التي تتبادلها أزواج اليراعات بواسطة الإجراءات المختلفة؛ إذن، فالشكل الأكثر فعالية يتكون من الصنف الذي يحقق طفرات. وبالتالي، فالتغيرات العضوية تتكيف فيزيولوجيا مع عدم الرد بواسطة الإضاءة عن المحفزات التي تجعلها فرائس؛ وفي الآن نفسه، من أجل الرد بدقة عن محفزات الأزواج. وتعتبر هذه الخصائص مشتركة بين معظم أنواع الففريات⁷².

ينبغي أن يتم التحقق وفق هذه التحليلات:

أ) سيكون النمط المناسب، في مجموعة معينة للتفاعلات الضوئية لنا والآخر، مختلفا عن النمط الذي يناسب مجموعات أخرى لهذا النظام الإيكولوجي، لاسيما في ما يتعلق بتلك المجموعات التي يمكن لأصنافها أن تسلبها أو، ببساطة، أن يظهر فيها كـ "تشويش" لإرباك الشريك.

ب) عندما تستطيع مجموعة ما من الحيوانات المفترسة من تقليد نمط إضاءة الذكر أو الأنثى من مجموعة الحيوانات المفترسة، فإن المجموعة الضحية ستتطور إلى شكل ما يسمح بتغيير هذا النمط أو اختفائه.

⁷² يحتاج، كما أشرت، تحول النماذج التواصلية من خلال التغيرات الجينية، مجموعات كثيرة، ودورات حيوية قصيرة وانحرافات متكررة، لذا لم أجد معطيات في المنشورات المتخصصة التي تتيح لنا التحقق من أن هذا النظام تم إدخاله في إنتاج عدد من متغيرات الترميز التواصلية التي طورت الخنافس المضيفة، لكن معلومات أخرى مرتبطة بمتغيرات رموز الحيوانات المضيفة التي تقدم عائلات مشابهة، تشجع على افتراض أن اليراعات تكون قادرة على "فك رموز" تواصلها خلال الطفرات البيولوجية.

ج) لكن عملية التطور لم تنته عندما تمكنت الأنا والآخر من هذا النظام التواصلي الجديد. وبطريقة موازية، غير كل من المفترس أو المفترسة نمط التواصل، الذي سيتم تطويره في إشارتهما لاقتحام النمط الجديد لضحاياها، أو للعثور على فرائس أخرى بديلة، وإلا سيختفي.

إن وجود هذه الديناميكية التطورية لها نتائج نظرية مهمة من أجل فهم أصل التواصل: فيمكن شرح اختلاف التفاعلات الدالة في المجموعات التي تكون مرتبطة مع بعضها البعض، كأشكال أخرى أكثر تكيفا مع تغيرات الوسط، بحيث تكون، في هذه الحالة، مكيفة مع الضغوطات السلوكية التواصلية للآخرين.

يبين المثال الذي تم تحليله أن النماذج التواصلية تعمل وتتغير وفق القدرات المكيفة للأنظمة العصبية الحساسة، بحيث يتم تطوير وتشفير التخصصات التواصلية الجديدة في الطبيعة عندما يكون ذلك ضروريا، من دون وعي، ودون معرفة من الذي يتواصل. فيكون اللعب بالقوانين التطورية فقط عندما تشارك تحولات الأعضاء والسلوكيات التي تدخل في التواصل.

لا أحد من هذه الأصناف يتوفر على عقل قادر لتكوين معرفة انعكاسية لسلوكه الخاص، ولا لسلوك الآخر. لكن، في المقابل، تمتلك العنصر الضروري ليُظهر هذا العقل في أي لحظة: القدرة (المحدودة) على التمييز بين استجابتين أو أكثر، إزاء محفزين أو أكثر.

7) ظهور النماذج التواصلية المحددة بغيرها

تعد النماذج التواصلية المحددة خارجيا رموزا جينية، تنظم أنماط الإنتاج، والتعرف على العلامات الدالة. ومن ثم فهي تعتمد على اشتغال البنيات العصبية الوراثية. لكن هذا التحديد الفيلوجيني يبين ابتكارا بالغ الأهمية: إن التجربة والتعلم يندرجان في اشتغال النماذج، مما يجعل من الممكن وجود أنماط تواصلية غنية بكثير ومفتوحة⁷³.

إن الأنماط التواصلية التي تتوفر على هذه الطبيعة تعتبر رموزا جينية تخضع للتجريب، أو بعبارة أخرى، تتكون من تجارب لها آثار جينية مشفرة، بحيث إن التناقض بين ما هو فطري وما هو مكتسب يفتقر إلى الشعور بما تصل إليه هذه الحالة من السلوكيات التواصلية.

⁷³ كان ج. فون ويكسكول (J. von Uexküll) أول باحث اعتبر أن علامات المحيط مثل مكونات السلوكيات الحيوانية، فمؤسس إيكولوجية الحيوان قد شرح أن التصرفات تكون مرتبة مسبقا بواسطة ظهور العلامات المناسبة، وفي الفضاء حيث يتطور الحيوان؛ ويفهم أن من بين هذه العلامات تشمل تلك الصادرة عن نشاط عامل آخر.

وهناك معلومات أكثر حول طبيعة هذه النماذج التواصلية المحددة بغيرها وكيفية اشتغالها، وكذلك حول النماذج المحددة بنفسها. فثبتت لنا هذه المعرفة أساسا علماء الأخلاقيات، وخصوصا، نظرية التواصل التي تدين أكثر لـ ن. تيمبيرخين (N. Tinbergen) وك. لورنز (K. Lorenz)⁷⁴.

يحتاج دمج المعلومة التي تكون في البرامج السلوكية مع تلك التي يتم الحصول عليها عن طريق التجارب إلى أنظمة عصبية معقدة. في واقع الأمر، إن علماء الأخلاقيات قد بحثوا عن الأنماط التواصلية لهذا النوع في الأسماك، وأغلبهم اشتغلوا على الطيور. لذا سيتم شرح هذا الخيار الثاني لأن النماذج التواصلية في الطيور التي نتحدث عنها الآن تم دمجها مادام ظهورها سهل الملاحظة.

تشتغل الإشارات التواصلية في هذه الأصناف بواسطة مجموعة من الحركات المبرمجة، بحيث تقوم هذه الأخيرة، حسب علماء الأخلاقيات، بالتحكم في " نماذج التكيف ". فهي فطرية ومدمجة في اشتغال الجسم؛ ولا يتم الحصول على الأعمال التي تفكك نماذج التكيف بواسطة التجربة، بل تظهر في سلوكيات الأصناف دون أن تقوم بأي شيء من الممارسات المكتسبة عن طريق الملاحظة أو تقليد تصرفات الآخرين⁷⁵، ومع ذلك، فنماذج التكيف تنشط فقط بالتفاعل مع الآخر الذي يتحفز بالعلامات المناسبة. وهذا يعني:

أن نماذج التكيف تشتغل عندما يستقبل حيوان من آخر علامات أطلقت عليها سابقا اسم "العلامات المثبتة".

تفكك التفاعلات التواصلية هذه السلوكيات المبرمجة إلى مراحل معينة في تطور الحيوان؛ لذا، من الضروري أن ينضج نموذج التكيف. وهذا يحدث عندما تتطور القدرات العضوية وتظهر احتياجات جديدة

⁷⁴ تحول بحوث علماء الأخلاق مفهوم الغريزة، حيث اعتبرته معادلا لبرنامج تفاعل العلامات التي يستقبلها الحيوان من الوسط.

⁷⁵ تتشكل حسب لورينز (Lorenz) (دراسات حول السلوك الحيواني والبشري) آليات فيلوجينية مبرمجة للمواقف التالية من أجل التعلم:

- الأنماط الأولى للحركة: مثلا، تولد فرخ البط والكتاكيت وهي تعرف الركض. والأطفال، أمام نوع معين من محفزات، ستفاعل مع حركات الاكتساب القبلي لأي تعلم.
- التعرف على استعمال الأصوات ومعناها: مثلا، هناك طيور، رغم عيشها في عزلة، عندما تصل إلى سن معين تصبح قادرة على الغناء مثل طيور صنفها.
- التعرف على أشكال إجراء المعطيات التي تسمح بتحديد العلاقات الزمكانية. لذا إن الثبات في وجود الكيانات، يعتبر الفكرة التي لا يجب أن تكون مفهومة. يظهر اختبار الأطفال ذوي أربعة أو خمسة أيام أنه: يتم وضع في المنطقة الإدراكية للطفل موضوع خلف الآخر. وإذا ما تم سحب الموضوع الذي يغطي لا شيء يحدث. لكن إذا تم سحب الموضوع الذي يوجد في الخلف يبدأ الطفل بالبكاء.
- تحديد حالات محفزة: تعتبر كذلك سلوك غير مفهوم، لدى كل الصغار الذين اكتشفوا في محيطهم العلامات التي تشتغل كمحفزات لاستجابات مبرمجة، أو بالأحرى لأشكال فطرية لتلبية الحاجة.
- بحث النشاط الحيواني على هذه الحالات المحفزة.

تعتبر هذه التظاهرات الفطرية على مستوى التعبير، والحركية والسلوك، حسب لورينز (Lorenz) تكيفات فيلوجينية تشكل قائمة من الأنماط التي تتحول وراثيا، لأنها تتوفر في وقتها على قيمة معينة لوجود الصنف.

هي السبب في وجود هذه الأنشطة التواصلية. إذن، يمكن للتفاعلات أن تشتغل مع الإشارات التي تظهر في فترات وبأشكال معينة.

لكي تصل بعض الطيور إلى الغناء كما تغني أثناء مرحلة الشبق، ينقص أولاً النضج البيولوجي للطيور، لأن هذا النوع من الغناء الذي ظهر في فترة معينة كان مبرمجاً. لكن ظهور النمط التعبيري الذي يميز الغناء يحتاج أيضاً إلى بعض التجارب الخاصة؛ لذا، في هذه الحالة، يتحفز الفاعلان في ما بينهما بواسطة حركات مبرمجة. وسيتعرف الذكر على بعض المظاهر الملموسة التي ترتبط بوجود الأنثى، والعكس بالعكس.

يمكن للتفاعلات المنظمة بواسطة نماذج التكيف أن تكون بالغة التعقيد. هكذا، فإن "المغازلة" عند عدد من أصناف الطيور تستجيب للخصائص الآتية:

▪ تحدث الإشارات في نظام محدد مسبقاً.

تعتبر الأنثى، اعتماداً على الصنف الذي تتعامل معه، عن حالة الشبق الذي يشتغل وفق نظام معين بواسطة سلسلة من التصرفات أو من حركات الأجنحة، أو الذيل، أو العنق. عندئذ، تستجيب الذكور عن طريق سلسلة أخرى منتظمة كالنعيق، والطيوان، والتنقل، وغيرها من المظاهر التي تشير إلى طلب الجنس.

▪ تشترط كل إشارة جديدة للأنثى الحصول على استجابة أو طلب من الذكور، والعكس بالعكس.

على امتداد العملية، يتدخل كل متواصل في الفترة التي تناسبه، ويتصرف مناسباً، وهكذا يستمر الأمر حتى ينتهي التفاعل.

❖ مثلاً، إذا لم تكن هناك حركة ذيل الأنثى فلن يوجد نعيق الذكور، وإن لم يكن هناك نعيق ذكر ما، فالأنثى لن تميل رأسها إلى الأسفل دعوة منها إلى الاتصال الجسدي.

- إذا توقفت سلسلة الأفعال التعبيرية سينتهي التفاعل.
- يمكن للعملية التواصلية أن تستمر لبعض الوقت. في هذا المثال، تنتهي عادة المعاشرة بين الأُنثى وأحد الذكور الذي طورت معه عملية المغازلة⁷⁶.

(8) نهاية تكيف السلوكيات التواصلية

إن تصرفات الحيوانات، التي وُصفت في بداية علم النفس بأنها غريزية، تعتبر في الحقيقة سلوكيات تواصلية يتم التحكم فيها من قبل نماذج التكيف. فقد تم منذ فترة طويلة شرحها بواسطة نماذج ميكانيكية للغاية، بالاعتماد على نماذج "المحفزات- الاستجابات" التي أتت مع المدرسة السلوكية. لذا تم إلغاء هذه المرحلة الأولى من علم نفس الحيوان.

وتشكل المظاهر التواصلية التي يتم تنظيمها بواسطة نماذج التكيف جزءا من التفاعلات التي تُوجه نحو هدف معين، إذ يتصرف المتواصلون حسب اللحظة التي توجد فيها العلاقة التواصلية بطريقة معينة وليس بأخرى، في نظام معين، كما أن التفاعل يرتبط بالإنجاز. فقد تبين كل هذا في وصف فترة شبق الطيور. لذا يسمى هذا النوع من التفاعلات "telenómicas". "telenomía" هو مفهوم السيبرنيتيكا الذي يُطبق في العملية، وليس في تصرفات الأفراد. مما يعني، في هذه الحالة، أن التفاعلات التواصلية هي عبارة عن عمليات تتطور، وعادة ما تنتهي باتباع بعض الأنماط. فيمكن للباحث أن يشرح السلوكيات التواصلية استنادا إلى النتيجة التي تؤدي إليها التفاعلات. بل من الممكن أن يشير مفهوم telenomía إلى التواصل، وذلك باستخدام استعارة أكثر تعبيرا. لهذا، يمكن استنتاج أن telenomía هي "عرض معين" للتواصل. ولكن يجب فهم كون "المغزى" لا يعادل "القصدية"، وكلاهما يمكن أن يتوفر في السلوكيات الإنسانية. فبفضل مصطلح "المغزى" الذي يهتم بوصف بديل للسلوك، من بين عدة احتمالات، يتم توجيه التواصل. لذا يمكن توقع هذا التوجيه وتوضيحه بسبب القيود التي تتوفر عليها أجهزة المتواصلين وسلوكياتهم. فبالنسبة إلى السيبرنيتيكا، تشير إلى ارتباط السلوكيات والتكيف معها، فبستيان (Bastian) وسيبوك (Sebeok) كتبا أن التواصل له "مغزى" بنفس المعنى الذي يوجد في كليتي سمك القرش أو في يحمور العصفور.

⁷⁶ لدى الطيور، فالفترة والإيقاع الذي يتوفر عليه "الشيق" ربما يتعلق بالوقت اللازم لإعادة ترتيب الهرموني والعضلي ثم الهيكلي الذي يحتاج إلى التلصق. لذلك فالوظائف الداء التي لها نماذج التكيف تجتمع مع وظائف أخرى فيزيولوجية. مما يشير إلى أن في هذه السلوكيات التواصلية ما تزال متطورة جدا، إذ تتابع الاحتفاظ بالعلاقة الموجودة بين التغيرات العضوية والقيمة الدلالية التي تحدها في المظاهر الجسدية.

طبيعة التواصل

تقديم: العناصر التي تدرس نظرية التواصل

الفصل 5 فاعلو التواصل

الفصل 6 الأفعال التعبيرية

الفصل 7 علامات التواصل

الفصل 8 النظم الإيكولوجية، الطفرات والاختصاصات التواصلية

الفصل 9 أفعال التلقي

الفصل 10 نظم وسائل التواصل

الفصل 11 العلاقات بين الإشارات ومراجعها:

الفصل 12 الإشارات ومراجعها: مراحل التطور

الفصل 13 بنية عملية التواصل وعناصرها

تقديم: العناصر التي تدرس في نظرية التواصل

رأينا في الجزء الأول من هذا الكتاب ما الذي يجب التطرق إليه عندما يتعلق الأمر بالتواصل. فمن هنا يمكن معرفة الموضوع الذي تدرسه النظرية، إذ يمكن وصفه بطرق مختلفة، بحيث تعتبر هذه الطريقة من بين الطرق الأكثر بساطة وشمولية:

تدرس نظرية التواصل نوعا معينا من التفاعلات، وخصوصا تلك التي يقوم فيها متواصلان أو أكثر بأنشطة دالة.

وتتكون هذه الأنشطة من إنتاج، وإرسال، ثم استقبال المعلومة التي تشير إلى شيء معين يتعلق بالمرجع.

ونأخذ بعين الاعتبار في هذا الوصف:

- أن بعض المواضيع (المتواصلون)، وليس جميعها، عوامل موجودة.
- وأن بعض الأنشطة (الدالة) ليس بإمكان هذه المواضيع كلها أن تقوم بها.
- أن استعمالات معينة للمعلومة (مرجعية)، لا تعتبر كل الامكانيات الوظيفية التي تستقبلها المعلومة.

تكمن طبيعة التواصل في اختيار هذه المكونات؛ لذا سيتم تحديد هذه الهوية الخاصة بوجود إجابات لهذه

الأسئلة:

1. لماذا هذه المواضيع وليس أخرى مختلفة، أو أي واحد منها؟
2. لماذا هذه الأنشطة بدلا من أخرى مختلفة، أو أي واحدة منها؟
3. لماذا هذا الاستعمال للمعلومة وليس استعمالات أخرى بديلة، أو أي واحد منها؟

ويعتبر هذا المنهج للوصول إلى المناسب إنتاج نظرية بطريقة مناسبة، وهو الإجراء الذي سيتم تطبيقه في هذا الجزء الثاني من الكتاب. والإجابات التي يتم عرضها سوف تظهر أثناء التحليل:

■ توافق المكونات، المادية وغير المادية، الطبيعية والمصطنعة، الحيوانية والإنسانية، الفيزيولوجية والبيولوجية، والمعرفية، مع الأنشطة التواصلية.

■ تظهر العلاقات بين هذه المكونات خلال العمليات التواصلية.

إن إنشاء هذا الجهاز المفاهيمي والتحليلي هو مطلب نظري ومنهجي، بحيث تم تطويره لتقوم علوم التواصل بإيجاد لغة خاصة، دقيقة ومشفرة، وبعض النماذج المنهجية العملية والقابلة للاختبار عن طريق البحث، بواسطة مجموعة من الفرضيات، والقوانين والنتائج التي تعتمد على المعرفة في حقل التواصل. ومن ثم فإن التعاريف والجداول والرسومات تساهم في إعطاء العرض الطابع العلمي الذي يتطلبه هذا المنهج.

وفي الأخير، يسعى هذا الجزء من الكتاب المتعلق بطبيعة التواصل، إلا أن يتلاءم والحالة الراهنة للعلوم. فهو ضروري للمتخصصين في التواصل وحقول أخرى حتى يتمكنوا من التفاهم والعمل سوياً. ويستعرض المراحل التي وقعت منذ التفاعلات التواصلية الأولى، حتى التواصلات الإنسانية، كما يدخل، ومن منظور تواصلية خاص، في مواضيع فيلوجينية وأنتوجينية تهتم علوم أخرى متعلقة بالطبيعة والسلوك.

الفاعلون في التواصل

1. تحديد الفاعلين في التواصل

إن الكائنات الإنسانية وبعض الكائنات الحيوانية لها القدرة على استعمال المعلومة باستخدام الإشارات فيما بينها. فكلها تعتبر متواصلة، ويمكن أن تنتمي إلى نفس الصنف أو إلى أصناف مختلفة.

مثلاً، نحن نتواصل فيما بيننا، لكن كلبنا أيضاً يتواصل في الحديقة مع كلاب أخرى، وأسماكنا تتواصل في الصهريج مع أسماك أخرى، ونحن مع أسماكنا و كلبنا.

أ) التواصلات الخاصة بنفس الصنف البين _ صنفية

تعتبر التواصلات بين عناصر من نفس الصنف، تواصلات خاصة بنفس الصنف؛ وسنعرض أمثلة جديدة.

❖ تزأر الأسود البحرية، وتستجيب الإناث، وبالتالي تعثر عليها. وعندما تصيح الخرفان، تستجيب الأم، هكذا تتعرف عليها.

❖ تتكلم العائلات التي تعيش بعيداً عن طريق الهاتف، أو بإرسال الرسائل، هكذا فهي تحافظ على التواصل.

تسمى التواصلات مع عناصر من صنف مختلف بالتواصلات البين _صنفية الخاصة، وهذه بعض الأمثلة.

❖ تتعاون كل من اللانغور (قرود تعيش في غابات الهند) والغزلان، والطاوس بشكل متسلسل في إرسال إنذارات عندما يقترب الحيوان المفترس.

❖ نقوم بتدريب الحيوانات الأليفة للرد على حركاتنا وكلماتنا، بينما نحن نتدرب لمعرفة تأويل الإشارات التي نقوم بها. هكذا يحدث في العلاقة التواصلية بين الأشخاص المكفوفين وكلابهم المرشدة.

❖ توجد أيضا أمثلة يكون فيها الحيوان هو الذي يدرّب الإنسان. لذلك، فإن الطير الإفريقي الذي أخذ اسم "المؤشر" يستدعي الفلاحين للقدوم إلى الأشجار حيث توجد خلايا النحل. فمربي النحل، عندما يجمع العسل، يصل إلى الشموع التي هي جزء من غذاء هذا الطائر.

تسمى المواضيع الخاصة بالفعل التواصلية "الفاعلين".

(أ) العوامل التي تعتبر فاعلين

تعتبر العوامل التي تستعمل المعلومة في التفاعلات فاعلين في التواصل. لكنها تتوفر على خصائص تميز بينها وبين مستعملي المعلومة. وقد تم وصف هذه الخصائص المميزة في الفصل الثالث. ونذكرها الآن بشكل موجز:

___ كي يحدث التفاعل، يجب أن يكون هناك على الأقل فاعلان من أجل التواصل.

ويعد التواصل نشاطا مشتركا، بحيث لا يمكن القيام به بشكل انفرادي؛ لذا، فالفاعل لا يمكن أن يتواصل مع نفسه.

___ وليكون النشاط دالا، على كل المتواصلين أن يشاركوا فيه كمستعملين للمعلومة.

ومن أجل الدخول في التفاعل كفاعل لا يكفي أن تكون مصدرا للعلامات التي لها معنى معين بالنسبة إلى عامل آخر، لأن كل سلوك يولد علامات قد تحتوي على قيمة إخبارية، بالإضافة إلى أنه من الضروري أن يتكون السلوك بالضبط من خلال العمل على إنتاج هذه العلامات.

___ كل فاعل له القدرة على إنتاج علامات وتوجيهها للآخر وعلى الآخر تلقيها منه.

وتسمح هذه التشكيلات التي تحتوي على علامات يتم تبادلها بالتعبير عن أي دلالة.

ج) تمييز الفاعلين حسب المواقع التي يشغلونها في التفاعل

يعتبر التفاعل التواصلي نظاما يشغل بشكل منظم، إذ توجد أثناء عملية التواصل تقابلات:

▪ بين المواقع التي يشغلها الفاعلون في حالة تواصلية،

▪ وبين الأدوار التي يؤديها كل واحد منهم لتبادل المعلومة.

لذا، فإن التواصل هو عبارة عن نظام يتم فيه التمييز بين الفاعلين. مثلا، يمكن أن تأخذ بعين الاعتبار الموقع الذي يشغله واحد (أو مجموعة) في علاقة بالآخر (أو الآخرين) في بداية التفاعل التواصلي. فقد استعملت بإدراج مصطلحي "الأنا" و "الآخر"، من أجل التمييز بين طرف وطرف آخر.

"الأنا" هي الفاعل الأول في التفاعل الذي يقوم بإطلاق التبادل التواصلي، و"الآخر" هو الذي يأتي بعده.

يعتبر "الأنا" و "الآخر" الموقعين اللذين يمكن أن يشغلهما معا. مثلا، عندما تهتف مجموعة في مظاهرة بنفس الشعار إلى مجموعة أخرى، تستجيب هذه الأخيرة بشعار آخر.

وهناك معايير أخرى للتمييز بين الفاعلين، والمعيار الوظيفي هو الأكثر استعمالا. لذا يؤخذ بعين الاعتبار ما يقوم به كل فاعل أثناء التفاعل؛ وسنذكر صنفين من الأصناف الوظيفية للفاعلين، كما سأقوم بشرح الأسباب التي لا يبدو لي أنها مناسبة لنظرية التواصل:

▪ يتم أحيانا في كتيبي الخاصة بالتواصل، التمييز بين الفاعلين بـ "الملمّس" و "الملمّس"، كما أستعمل أيضا تمييزات أخرى موازية: "الطالب" و "المطلوب"، و"المتطلب" و "المتطلب"، وهذه الوظائف يمكنها أن تمثل كل فاعل من الفاعلين، في العملية التواصلية، بينما قمت بتحديد كل من "الأنا" و "والآخر" منذ بداية التفاعل⁷⁷.

▪ إن الطريقة الأكثر شيوعا لتمييز الفاعلين تعتمد على المصطلحين الآتيين: "المرسل" و "المستقبل"؛ لذا، فإن هذا التمييز مقبول بشرط عدم نسيان إضافة "التواصل". وللتذكير فقط "المرسل"، في

⁷⁷ من المعلوم أنه ليس صحيحا الاستقرار على تمييزات بنوية باستعمال معايير وظيفية، والعكس بالعكس. على الرغم من ألا شيء يمنع من أخذ بعين الاعتبار العلاقات بين بعضها البعض. مثلا: "الأنا الملمّس"؛ "الأنا الملمّس"؛ و"الآخر الملمّس"؛ "الآخر الملمّس". يمكن توسيع الدراسة لهذه القواعد المنهجية لدى مانويل مارتين سيرانو: "تطبيق النظرية والطريقة المنهجية في العلوم الاجتماعية"؛ كذلك هناك تحليل ملخص جدا في المناهج الحالية للبحث الاجتماعي.

معناه الأعم، يقصد به كل كيان يرسل علامات؛ و"المستقبل" هو كل كيان آخر يستقبل تلك العلامات. وهذه الأخيرة يمكنها أن تكون كائنات طبيعية أو اصطناعية، حيوانية أو إنسانية. إذن، العلامات التي يولدها المرسلون والتي يتلقاها المستقبلون ليس من الضروري أن تكون ذات قيمة تواصلية. وتأتي هذه دلالات مصطلحي المرسل والمستقبل من طبيعة (فيزيائية) العلامات، كما أنها مرتبطة بـ "النظرية الرياضية للتواصل" منذ عام 1948. منذ ذلك الحين وهي تستعمل عادة في جميع التخصصات التقنية أو الإنسانية التي تصب في هذه النظرية. ويتم استعمالها في معناها العلمي الأصلي⁷⁸ في هذا الكتاب (انظر الفصل 1، العنوان 2).

تستعمل كلمتا "المرسل" و"المستقبل" في اللغة العامية وفي بعض النصوص بشكل حصري للإشارة إلى الفاعلين في التواصل، وعلى العموم، لتعيين المتواصلين البشر في محيط التواصل الاجتماعي فقط، إذن، يعتبر هذا الاستعمال اختزاليا ويطرح خطأ كبيرا بين حقول المعلومة وحقول التواصل. لهذا السبب، استعملت اسمي "الأنا" و"الآخر" للتمييز بين المتواصلين⁷⁹.

د) الجسد والأفعال المطلوبة ليكون فاعلا

يتميز المتواصلون عن غير المتواصلين في شكل أجسامهم وفي مظاهر تصرفاتهم:

■ في أجسامهم، لأنها مجهزة بأعضاء خاصة تسمح لها بتطوير العمل الذي يتطلبه إنتاج العلامات الدالة واستقبالها وتبادلها.

❖ تكون أجسام الفاعلين، بما في ذلك أجسام الإنسان، مزودة في الوقت نفسه بأعضاء تتيح إنتاج العلامات واستقبالها؛ مثلا، تضم الأجسام معدات للتعبير بأصوات وأحاسيس لسماعها؛ ثم أجزاء متحركة للتعبير بمواقف وحركات، وأجهزة استقبال لرؤيتها.

⁷⁸ "النظرية الرياضية للمعلومة" تمت معرفتها عن طريق كلود شانون سنة 1948. وتم طبع أول عرض لها تزامنا مع مقال "النظرية الرياضية للتواصل" الذي تم نشره من قبل النظام التقني للمجلة.

⁷⁹ "الأنا" و"الآخر" اقترحا ووصفا لأول مرة من قبل مانويل مارتين سيرانو في "نظرية التواصل. إبستيمولوجيا وتحليل المرجع".

■ يتم التعرف على المتواصلين انطلاقاً من تصرفاتهم، لأنها جزء من الأعمال التواصلية، وسنحددها ونشرحها في العنوان الآتي، من خلال هذه الأمثلة.

❖ تعتبر تصرفات الديك في المزرعة (الأنا) أفعالاً تواصلية عندما يطلق كل صباح صيحته الرنانة، وكذلك تصرفات الديك في المزرعة المجاورة الذي يستجيب له (الآخر)؛ أو أيضاً التصرفات المتتالية للذين يتبادلون الرسائل عبر الانترنت.

إن أجسام الفاعلين في التواصل وتصرفاتهم تكون مترابطة.

❖ تكون الأعضاء التعبيرية للفاعلين مرتبطة بتلك التي تنتج أصواتاً، والأعضاء الإدراكية بتلك التي يتم سماعها. كما أنها تعمل بعلامات سمعية ذات كثافات وامتدادات في فترات معينة؛ لذا، فهذه التعديلات هي خاصة ومختلفة في أجسام كل صنف.

❖ عندما يصيح الديك يدل على حيازة قطعة أرضية، أما المنافس فيستجيب بالرجوع إلى القطعة الأرضية الخاصة به؛ والعكس بالعكس. وعندما يكتب شخص رسالة ويبعثها بواسطة الانترنت، فالمستقبل الذي يتلقاها يقوم بقراءة مضمونها، ثم يكتب رسالة أخرى للإجابة ويعيد إرسالها.

تكون أجسام المتواصلين مترابطة، لما تتوفر على القدرة على إنتاج فئة من العلامات الدالة التي يمكن للفاعل الآخر أن يتلقاها؛ والعكس بالعكس.

تعتبر التصرفات التواصلية مترابطة، عندما يكمل بعضها البعض. إذن، فتطوير هذه الأنشطة الإنتاجية والإدراكية تستجيب إلى النمط الذي ينسقها.

تحدد هذه الأعضاء وهذه الأنماط التي تتشكل من أجل تنفيذ سلوكيات تواصلية. وتبدأ دراسة هذه السلوكيات بملاحظة ما يقوم به الفاعلون من أجل التواصل.

2. الأشياء التي يقوم بها الفاعلون: الأعمال التواصلية

(أ) خصائص التواصل باعتبارها فعلا

تعتبر السلوكيات التواصلية أشكالاً من الفعل، في المعنى الدقيق للمصطلح "فعل"، لأنه يتم تغيير المواد واستهلاك الطاقة.

يطلق اسم "الأفعال التواصلية" على الأنشطة التي يقوم بها الفاعلون لإنتاج المعلومة الدالة واستقبالها.

ومن أجل أن يتم التواصل لابد من الفاعلين أن يتصرفا كفاعلين، فكل واحد يعمل في التفاعل مع الآخرين في المهمات تولد المعلومة الخاصة بالتبادل التواصلية. لهذا تستعمل في هذا الفعل الموارد والقدرات التي يتوفران عليها. أما تصرفاتهما فتتطور في إطار برنامج.

يبين الشكل 1.5 التوازن الموجود بين الأفعال التواصلية والفعل بصفة عامة، كما يشير إلى الأمور التي تختلف فيها. فكل واحد من هذه المكونات التي تضم الأفعال التواصلية سيتم تحليله في حد ذاته وفي علاقته مع غيره، في هذا الجزء من الكتاب.

الشكل 1.5 التحليل المنطقي لفعل بصفة عامة وللأفعال التواصلية بصفة خاصة

	(أ)	(ب)	(ج)	(د)	(هـ)	(و)
المشاركة في كل فعل	الفاعلون	المواد	الأدوات	العمليات التي تربط تطبيقات من (ج) حول (ب) بواسطة (أ).	تصميم العمليات التي تراقب (د) في خدمة (و).	النتاج النهائي للتبادل مع تعديلاته يراعي (ب).
المشاركة في كل فعل تواصلية	فاعلون	مواد تعبيرية	أدوات	أفعال تعبيرية وإدراكية	انغرامس، أنماط، وتمثلات	منتجات تواصلية: أشياء حاملة للمعلومة.

ب) أشكال الأفعال التواصلية

بكل تأكيد تكون الأفعال التواصلية للأنا والآخر مترابطة؛ لذا فإن الأنشطة التي يبدأها الأنا سيكون لها نظيرها في سلسلة أخرى من الأنشطة التعبيرية للآخر، والتي تعتبر تكميلية. وبالتالي، فمن الممكن تبادل العلامات التي تُستعمل من أجل الإشارة إلى الأشياء، لكن المهمات التي يقوم بها المتواصلان مختلفة عندما تشغل موقع الأنا وعندما تؤدي دوراً مثل الآخر.

وسيتيم وصف هذه العملية في الصفحات الموالية. وتسمى الأنشطة التي يقوم بها الفاعل عندما يكون في موقع الأنا، "أفعالاً تعبيرية"، وأما "الأفعال الإدراكية" تطلق على مجموعة الأنشطة المناسبة التي يقوم بها الفاعل عندما يكون في موقع الآخر؛ ونعرضها في الجدول 2.5، كما نصفها في الفصول المناسبة. وعادة ما تتكرر العملية على امتداد التفاعل التواصلية، كما أن الفاعلين سيغيران موقعيهما (انظر الفصل 3).

الجدول 2.5 أشكال الأعمال التواصلية	
الأنا	> <
فعل تعبيرية	فعل إدراكي

الأعمال التعبيرية

1. المواد التعبيرية للتواصل

يبدأ التفاعل التواصلي بنشاط الفاعل الذي يعبر أولاً. ومن ثم يحقق من يشغل موقع الأنا العمل التعبيري الأول، دون أن يمس ذلك بالآخر الذي يقوم بالتواصل في سلوكاته التواصلية المتتالية.

إن الأنشطة التعبيرية التي يقوم بها المتواصلون في تطور التفاعل التواصلي مشابهة لتلك السلوكات الأولى للأنا. ومنذ الآن، ومن أجل تسهيل عرض الأعمال التعبيرية، سيتم ذكر "ما تقوم به الأنا" في بعض الفقرات عندما تقوم بالتعبير، أخذا بعين الاعتبار أن الآخر يقوم بالشيء نفسه عندما تحل اللحظة التي يعبر فيها هو بدوره.

(أ) مفهوم "المواد التعبيرية"

أثناء التواصل تتغير الأجسام والأشياء الطبيعية أو المواد، لكي تكون مصادر للعلامات التي تشير إلى الأشياء. كما تعتبر هذه الأجهزة الجسدية المشتغلة، مواد تعبيرية للتواصل؛ ومن أجل شرح ما هي هذه المواد وكيفية العمل بها لجعلها تعبيرية، يجب الأخذ بعين الاعتبار آليات الإدراك، لأنها هي التي تسمح للمواد باستعمالات تواصلية.

(ب) التعبير والملاءمة

يعمل جسد الفاعل الأنا، والشيء أو الموضوع الذي يعبر به، بطريقة تكون ملاءمة للفاعل الآخر. إذن، الملاءمة هي الجودة التي يجب أن تحصل عليها هذه المواد لكي تصبح تعبيرية، وبشكل عام:

فالملاءمة هي الحالة التي يمكن إظهارها من خلال الأجهزة أو عرض الأشياء والمواضيع التي تجعل من الممكن الوصول إلى إصلاح بعض العوامل.

كما تعتبر الملاءمة ميزة من ميزات المواد الخاصة بمحيط معين (1) وبعض المستقبلين المحددين (2):

(1) تكون الملاءمة في علاقة مع كل مادة من الأجهزة المادية الأخرى في فضاء معين، مثلا، الشجرة التي تنمو لوحدها في مرَج تكون ملاءمة لباقي المواضيع.

تشير الملاءمة أيضا إلى حالات قابلة للتمييز تحتوي على نفس المواد على امتداد فترة معينة، مثلا، بالنسبة إلى المظاهر المختلفة لنفس الشجرة عندما يتغير لون أوراقها بمرور الفصول.

(2) تكون الأجهزة، والأشياء والمواضيع ملاءمة فقط لتلك العوامل التي تتوفر على الأعضاء الإدراكية المناسبة: فقط خلال الفترة التي تكون فيها هذه المواد داخل محيط الإدراك لهذه العوامل.

ستكون، وفي نفس المثال، الشجرة ملاءمة في هذا الفضاء الطبيعي للمستقبلين الذين يمكنهم التعرف عليها، وملاءمة على امتداد هذا المجال الجغرافي، بالنسبة إلى المستقبلين الذين يمكنهم رؤيتها.

ضمن السمات التي تكون ملاءمة لبعض الأجهزة والأعضاء الإدراكية لأولئك الذين يحافظون على جزء من الارتباط الحيوي معها، يتم إنشاء علاقات متكيفة خلال فترة التطور، مثلا، بين ألوان الزهور والأعضاء البصرية للحشرات⁸⁰.

2. الأعمال التعبيرية: المفهوم والخصائص

في نهاية المطاف، يمكن أن تكون الحالات الملاءمة للمواد نتيجة تدخل فاعل ما. إذن فهذه الأحداث هي عبارة عن أعمال تعبيرية.

تطلق " الأعمال التعبيرية" على الأنشطة الرامية للوصول إلى أن المادة تكون ملاءمة للإشارة إلى الأشياء.

⁸⁰ تسائل "فون فريش" في كتابه "حياة وعادات النحل" لماذا هناك الكثير من الورود الصفراء والقليل من الزهور الحمراء؟ إذ وصل إلى استنتاج مفاده أن هذا الاختيار الإيجابي للزهور الصفراء يتوفر على بعض المزايا للذين يضعون الرحيق. نعم ميزة حسية. ففي أوروبا تعتبر الزهور الحمراء تلقحية بالنسبة إلى الفراشات والصفراء للنحل. فعين النحلة هي مكونة لإدراك الأشعة فوق البنفسجية. وبالتالي، فالذي يراه الإنسان أصفرا على حقل أخضر، بالنسبة إلى النحلة فهو أزرق - أخضر على خلفية صفراء. تعرض الطبيعة ألوانا تجعلها ملاءمة، أو تريدها لامعة، لكن ليس بالنسبة إلينا.

يدخل العمل التعبيري للفاعل الذي يجعل المادة ملاءمة في الخصائص الإدراكية لهذه المادة. كما أنه يعمل بالطريقة التي يتوافق فيها مع الاستعمال التعبيري المكتسب من قبل الفاعل الآخر الذي يقوم بتغيير قيمة " الشكل "، معبرا بذلك عن "العمق الإدراكي".

ويتكون العمق الإدراكي من المواد المتبقية التي تقوم بتعيين استعمال تعبيري آخر مختلف، أو من المواد التي تفتقر إلى القيمة التعبيرية.

يحدث ذلك في هذا النص الذي تم طبعه في حجم صغير جدا وجريء، مما يسלט الضوء على حال "الشكل" المتعلق بالعمق الإدراكي"، وهو النص المتبقي من هذه الصفحة.

تستغل الأعمال التعبيرية تارة القوانين الجسدية وتارة أخرى الحسية، بحيث يجب الامتثال إليها من أجل إنتاج مواد لها "أشكال إدراكية جيدة"، أو تشكيل المواد بالطريقة التي تريدها.

ولا يقوم النشاط التعبيري للمتواصلين بإلغاء قوانين الطبيعة، بل على العكس من ذلك، تتحقق النتائج فقط عندما تتوافق المحددات الجسدية والحسية.

ويتم التعرف على قوانين الإدراك ووظيفتها من خلال البحوث الأولى لعلماء النفس الجشطالتيين، كما تم وصفها في العديد من النصوص الأخرى، ومع ذلك يتم في الجدول 1.6 تقديم إشارة بسيطة لهذه المفاهيم مع التوضيح بمثال.

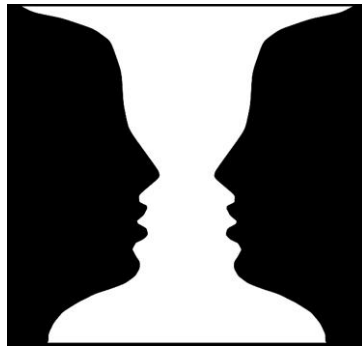
الجدول 1.6 تعتمد الملاءمة على التشكيل الإدراكي "شكل / مضمون".

تتطلب ملاءمة المواد القابلة للإدراك من المدرك أن يطبق شكلا لمعرفة الموضوع؛ لذا في الصورة يتم التعرف على شكل كأس أبيض على خلفية سوداء، لكن يمكن أيضا إدراك وجهين متقابلين بالأسود على خلفية بيضاء.

سيقوم الفاعل، في نهاية المطاف، بعرض هذه المادة التي تضيفي الملاءمة على إشارة "الكأس"، أو على إشارة "الوجهين"، مثلا، اللعب بكميات، وحجم أو لون المادة.

الملاءمة:

عندما تكون للأخر مادة تعبيرية في سياق إدراكي معين، تختلف حالة الشكل من الخلفية، أو الخلفية من الشكل.



3. الشروط التي تتطلبها الأعمال التعبيرية

كي تكون الأعمال التعبيرية ممكنة، يجب أن تتوفر على الشروط التالية:

(أ) أن يتوفر الفاعل على المواد التي تمتلك الليونة اللازمة للحصول على الملاءمة.

(ب) أن يتمكن من تحقيق عمليات معينة بهذه المواد لتشتغل كمواد تعبيرية.

لهذا سيتم وصف هذين الشرطين في الفقرات القادمة.

أ) المواد التي يمكن أن تُوظَّف من أجل التعبير

يتجسد العمل التعبيري في شيء ما له أبعاد في الفضاء المادي، ويتحول وفق القوانين المادية؛ لذا ستكون لهذا الشيء طبيعة عضوية (أ1) وغير عضوية (أ2):

(أ1) توجد ضمن المواد التي تمتلك الليونة اللازمة للحصول على الملاءمة الكائنات الحية. إن الأجساد - في شموليتها أو في بعض أعضائها التي تشكلها - معرضة لتغيرات صالحة لاستعمال الأنشطة التعبيرية.

(أ2) أما المواد غير العضوية فهي تُوظَّف أيضا في الاستعمالات التعبيرية، لأن العديد منها يمكن أن يتغير حسب أشكال مستقرة نتيجة تدخل عامل ما. ومن ثم، يتم هذا الاستعمال التواصلي على حد سواء بالأشياء الطبيعية والمواضيع التي صنعها الإنسان.

لذا فإن التواصل يتوفر على خزان احتياطي غير محدود من المواد التي تتحول إلى حوامل للإشارة. لكن الأشكال مختلفة ويمكنها أن تعمل مع المواد العضوية وغير العضوية لتصبح تعبيرية، وهذا الاختلاف له أهمية كبرى في التحولات التطورية التي مر بها التواصل.

(أ1) الأجسام باعتبارها مواد تعبيرية ملاءمة

هناك عناصر عضوية لها وظيفة تعبيرية مستمرة، كما هو الحال بالنسبة إلى الأكياس القرمزية لبعض الطيور الننتة. لكن في معظم الحالات يعمل الجسد أو بعض من أعضائه كمادة تعبيرية فقط في بعض اللحظات. مثلا، تظهر تغيرات على مستوى اللون في المناطق الجنسية لدى العديد من الأصناف فقط أثناء شبق قوي. لهذا ندرج مثالين إضافيين:

❖ يستعمل الأخطبوط جسمه الخاص كمادة تعبيرية مغيرا لون جلده.

❖ تتفخ الأفعى رأسها، والقط يشوك شعيرات ظهره عند محاولاتها ردع العدو، فيحولان جسدهما إلى مواد تعبيرية بتغيير الأشكال التي يظهران بها.

(أ) المواد غير العضوية باعتبارها مواداً تعبيرية ملاءمة

في البداية يمكن استعمال أي عنصر من عناصر البيئة والذي يكون محسوساً ليتم تحويله، بأي طريقة من طرق الفاعل، إلى مادة ملاءمة.

يأتي استعمال المواد بأهداف تعبيرية تطبيقاً لعدد كبير من الأصناف الأرضية. هكذا عندما تترك الدببة آثاراً مخالفاً على الأشجار. لكن يحدث كذلك نفس الشيء عندما يحول الإنسان أيضاً اللون الطبيعي لجدران المساكن.

(ب) العمليات التعبيرية

تتطابق الأعمال التعبيرية مع الأعمال الأخرى، التي تتغير فيها حالة المواد العضوية وغير العضوية من خلال اتباع طريقة محددة سلفاً. ونوع العمليات التي يتم تنفيذها لإنتاج هذه التحولات هي أيضاً من نفس الطبيعة: تحريك، وضرب ثم تشكيل، ضمن العديد من الأفعال الإضافية الأخرى الممكنة والتي سيتم ذكرها في ما بعد.

ومع ذلك تتميز الأعمال التعبيرية بواسطة صنف من التطبيقات التي تقوم بها، عن العمليات التي تؤثر في المواد التي يعبر بها الفاعل.

❖ يعتبر سلوك ذكور النورس تعبيرياً، عندما "تتزين" في حضور الأنثى التي يغازلونها، بينما لا تكون نفس هذه الأفعال تعبيرية عندما يقوم الحيوان لوحده بواسطة منقاره بمهمة الإبقاء على ريشه نظياً وفي حالة جيدة.

❖ يقوم الإنسان بعمليات تعبيرية عندما يعبر بالحركات اليدوية التي تُستعمل في لغة الصم؛ ولا تعتبر أفعالاً تعبيرية عندما تطبق الحركات المطلوبة لغزل الصوف.

❖ تعتبر الضربات على لوحة المفاتيح لكتابة بريد إلكتروني أعمالاً تعبيرية، بينما لا تعتبر كذلك الضربات بواسطة المطرقة لدق المسامير.

❖ تعتبر العمليات التعبيرية الكلامية، بواسطة الغشاء الصوتي، والحنجرة، والبلعوم، واللسان، والأسنان ثم الشفاه. في المقابل لا تعد كذلك العمليات التنفسية والغذائية وهذه الأعضاء نفسها.

إن العمل الذي تقوم به الأنا لتغيير المواد يوضح لماذا توفر له العمليات التعبيرية استعمالا ملائما للمادة في التفاعل التواصلي. للتذكير، هذه النتيجة تتحقق بطريقتين:

(أ) بحصول المادة على استعمال ملائم عندما تتيح الأفعال التعبيرية التي وظفتها الأنا للآخر التمييز بين هذه المادة عن باقي المواد (التعبيرية أو غير التعبيرية) التي توجد في نفس المجال الاستقبالي، وبطريقة متزامنة أو متغيرة.

(ب) ويحصل المادة أيضا على استعمال ملائم عندما يمكن للآخر أن يميز بين الحالة التي تقدمها هذه المادة في لحظة tn - عندما تتحول بالفعل التعابير إلى مادة تعبيرية - وبين الحالة التي تم تقديمها في لحظة tnl قبل تدخل الأنا.

مثال يبين استعمال الفاعل للطريقتين معا:

❖ يختلف تغير ذيل الطاووس عندما ينشر ريشه، عما يتعلق بمظهر أنثاه. وتختلف أيضا السمات الإدراكية للحيوان (في الفترة الخاصة به من الشبق) عن تلك التي يقدمها لما يحتفظ بريشه مجموعا (في الفترة الخاصة به من الراحة الجنسية).

4. مفهوم "التعابير"

تتغير المؤثرات التي تكشف عنها المواد التعبيرية لما يجعل الفاعل المواد ملائمة لتلك التي يعبر بها، شكل من الأشكال. لذلك سميت هذه المؤثرات بـ "التعابير".

تعتبر "التعابير" تلك المؤثرات المادية التي تكشف عنها المواد العضوية وغير العضوية، الناتجة عن العمليات التي يقوم بها الفاعل، من أجل تحويلها إلى مواد ملائمة.

تعتبر المواد التي يتم نقلها من مكانها، وتلك التي تتغير في شكلها، وحجمها ولونها، وكذلك تلك التي تتوفر على أثر، وبصمة ثم إضافة، وكل تغيير آخر يؤثر على مظهرها، وحالتها أو وظائفها، أشكالاً من المؤثرات. بناء على هذا سيتم عرض أمثلة متنوعة في هذا الفصل.

5. الاستعمالات الملاءمة للمواد التعبيرية

تكون العملية التعبيرية للمواد موجهة للملاءمة. للتذكير فقط، الملاءمة ليست صفة جوهرية للمادة التي يتم توظيفها، بحيث يجب مراعاة ظروف المحيط والأعضاء التي تدركها.

لذلك يتجلى العمل التعبيري لأننا أثناء التفاعل التواصلي في وظيفة القدرات الإدراكية للآخر، وبعبارة أخرى:

إن الأنا هي التي تقوم بالمواد العضوية وغير العضوية، والمواد التعبيرية؛ أما الآخر فهو الذي يتعرف على الملاءمة التي يتوفر عليها هذا العرض للمواد التعبيرية.

إن ملاءمة المادة التعبيرية هي القيمة الإدراكية التي يتوفر عليها الآخر وكل حالة تواصلية.

لتكون الملاءمة متعلقة بكل آخر، ستكون عموماً مختلفة بالنسبة إلى كل واحد منهما.

تعتبر المواد التعبيرية التي وُظِّفَتْ حتى الآن في المثال، ملاءمة بشكلها، ولونها أو حركتها للعوامل المجهزة بأعضاء بصرية. بالإضافة إلى أن هناك مواد لها مظاهر تعبيرية تتوفر على الملاءمة للعوامل المجهزة بحواس أخرى:

- كالمواد التي تنتج أصواتاً ملاءمة صوتياً للذين يتفرون على الأعضاء السمعية.
- والمواد الكيميائية الملاءمة للذين يمتلكون الأعضاء الشمية الحركية.
- والأجسام التي تتوفر على الوحدات الحرارية الملاءمة للذين يتحملون بحواسهم التغييرات الحرارية.
- وتكون الأعضاء اللمسية ملاءمة عندما تتم ممارسة الضغط للذين يمتلكون الأعضاء الاستشعارية عن طريق اللمس.
- وهناك أجهزة كهربائية ملاءمة للكائنات المجهزة بالأعضاء الاستشعارية للتغييرات الممكنة في الحقل الكهربائي.

6. أنواع الأعمال التعبيرية

تحدد الخصائص (العضوية وغير العضوية) للمواد التي تعمل بها الأنا، العمليات التعبيرية المطلوبة لتحويلها إلى مواد ملاءمة. إذ تُوظَّف هذه الاختلافات لتصنيف الأعمال التعبيرية إلى أنواع، مثل ما سيتم شرحه في ما بعد.

أ) الأعمال التعبيرية بالأجسام

يمكن لأي جسم الفاعل الذي يعبر، وجسم الآخر في التواصل، وجسم أي شخص آخر، أن يُستخدم تعبيرياً في الأشكال التي سيتم وصفها.

أ.1. الأعمال التعبيرية لجسم الأنا

حينما يطبق الفاعل جهده لجعل جسده الخاص ملائماً، يتم التمييز في هذا النوع بين قسمين من التعابير:

- الأول: "التعابير بجسده" أي أن الفاعل يكتسب بالاستعمال القدرات الوظيفية لجسده.

-
- ❖ عندما يشوك القط شعره، أو عندما يحمر وجه الشخص الغاضب.
 - ❖ وأما الكلب فيعبر بحركة ذيله، والشخص الذي يلجأ إلى الصراخ أو القفز فمن أجل إثارة انتباه الآخر.
 - ❖ وعندما تحدد النحلة موقع حقل الأزهار تعود إلى باب الخلية وتقوم بين رفيقاتها بسلسلة من الحركات التي تشير بها إلى موقع هذا الحقل.
-

يتم إنتاج العديد من التفاعلات التواصلية عن طريق تغيير عمل الأعضاء التي تمتثل للوظائف الفيزيولوجية، وذلك من أجل استعمالات جديدة ذات طبيعة تعبيرية، وهكذا يحدث عندما يتم استغلال أنشطة الإفراز والتنفس، وتحويل الإشارة إلى الأشياء.

لذا فالعديد من المظاهر التعبيرية تتأسس على السلوكات السابقة التي ينظمها الجهاز العصبي المستقل.

❖ تنتج الزواحف حركات انعكاسية من الأغشية والعضلات المدارية، عندما تتأثر الأعضاء البصرية بواسطة السوائل أو مواد أخرى، وتتوفر هذه الحركات أيضا على قيمة تعبيرية. وهذا الاستعمال المزدوج الذي اكتسبته الزواحف يتم الاحتفاظ به في الأصناف اللاحقة، فتشير القروود والإنسان إلى الأشياء بواسطة الحواجب والجفون.

يعد إعادة النظام التعبيري للجسم آلية تطويرية بدرجة كبيرة لدراسة تحول السلوكات غير التعبيرية إلى تعبيرية. لهذا السبب ستنم دراستها في العديد من أجزاء هذا الكتاب.

▪ ثانيا: "تعبير متعلقة بجسمه الخاص" أي أن الفاعل اكتسب خصائص إدراكية بإبراز أو دمج الجسم.

❖ يسهل التعرف على قطيع بعض الحيوانات عندما يشرب من الفضلات أو عن طريق الإفرازات، بواسطة حاسة الشم من قبل عناصر أخرى من المجموعة.

❖ وعندما تقوم النساء والرجال بتزين الوجه لدوافع جمالية أو شعائرية.

يعتبر استعمال الرائحة بين الحيوانات والإنسان إشارة للمجموعة التي ينتمون إليها، وإلى الهوية التي يحملونها داخل المجموعة، وهي موارد تفاعلية ذات أهمية كبيرة. وهذا توضيح لعدد من الأفعال التعبيرية المشتقة من التصرفات القديمة جدا (غير تعبيرية). يصلح الشرب، في هذه الحالة، للتمييز عن رائحة

أخرى أساسا لكي لا تكون مدركة من قبل المفترس. والشرب من نفس رائحة المجموعة يجنب أن يكون هناك خلط مع الفريسة، أو مع أحد آخر.

أ.2. " الأعمال التعبيرية بجسم الآخر "

تعتمد الأنا عندما تطبق جهودها لجعل جسم الآخر ملانما، في بعض الأحيان، على تعاون الآخر نفسه.

❖ يكون التزين بين القروود أو الذكر المهيمن من أجل التكاثر. النشل بين الإنسان ود على خذ الطفل؛ ووضع التيجان والأكاليل على رؤوس الأساقفة والنبلاء؛ والمصافحة باليدين⁸¹.

أ.3. " الأعمال التعبيرية بجسم الآخر "

عندما تطبق الأنا جهودها لجعل جسم كائن حي آخر مختلف عن الفاعلين في التواصل، ملانما.

❖ هاجمت دجاجة (الأنا) دجاجة أخرى، وهو ما يُوظف كمادة تعبيرية للإشارة إلى مكانها الترتيبي في خم الدجاج، لدجاجة ثالثة (الآخر). ويُسعمل العدوان أيضا بشكل اعتيادي داخل قطع آخر من الحيوانات على حيوانات أخرى، وذلك للإشارة إلى الهيمنة أو الاستسلام، ويوظف لإظهار مكانته داخل المجموعة.

❖ يتم الاحتفاظ بنفس هذه الاستعمالات التعبيرية في المجتمعات البشرية، وذلك عندما يقوم شخص (الأنا) برفع شخص آخر (مادة تعبيرية) للفت انتباه طرف ثالث.

⁸¹ تعتبر المصافحة باليدين تعبيراً عن الثقة. على الرغم من أنها اشتقت من إجراء فعال قد تم توليده من عدم الثقة (يمكن لقبضة اليد أن تؤدي إلى ألم عندما أكون في متناول يد الآخر). قد يكون السلوك العدواني اعتيادياً. فيحدد إشارة معارضة للاستعمال الذي كان يتوفر عليه هذا السلوك في التفاعل. لذا تقدم طفوس الاحترام أمثلة أخرى عديدة لهذه التحولات.

يستمر الاستعمال التعبيري للعدوان الاعتيادي في جنسنا البشري؛ مثلا، عندما يستعمل العراف (الأنا) أمعاء الضحية (مادة تعبيرية) للتنبؤ بمستقبل الطالب (الآخر).

إن الحيوان الذي يعبر باستعمال جسده أو جسد الآخر، يتبع نمط المظاهر الجسدية التي تتكرر في بعض التفاعلات. لذا، كتب **تبرجن (Tinbergen)** أن هذه التصرفات كانت عبارة عن "طقوس"، لاسيما أن هذه الأخيرة تعمل أحيانا بتقليص السلوكات المعقدة. لِنَر هذين المثالين:

❖ يعتبر إحكام الفكين بتجعيد الأنف وإطلاق الأسنان السلوكات التي تبدأ بها الكلاب الهجوم. وتعتبر كذلك إشارات تحاول بواسطتها ردع الخصم.

❖ كما يعتبر فتح الفم وإظهار اللسان ثم اللعق به، أفعالا لبعض القطط، فيواسطتها تلتقط الغذاء الذي توفره لهم الأم. وفي استعماله التعبيري، هو طلب لغذاء أكثر.

يوقف الاستعمال الشعائري لهذه الأفعال التعبيرية استمرار أو تفكيك السلوكات الأولية. فالإنجاز الأصلي _ طرد المنافس عند انتهائه من الغذاء _ يتوقف على المحاولة بطريقة تنفيذية، وبالتالي، يسعى الحيوان إلى ضمان أن الآخر قد انسحب دون الوصول إلى هذه الغاية؛ لذلك يستعمل الكلب القيمة الدالة لهذه الحركات الأولية التي يتوفر عليها، أو يحاول أن يستمر الآخر في الغذاء؛ لذا، فإن تربية القطط تعالج بشكل تعبيري حركات التغذية التي تتعلق بالمجتمع.

تظهر طقوس الجسم كذلك في التفاعلات التي تحرك النبضات التي تدخل في النزاع. ففي الأصناف التي تتزوج بواسطة التهجين (مع الأزواج التي تنتمي إلى مجموعة أخرى) عادة ما تشمل المغازلة الاعتيادية في الآن نفسه: حركات مناسبة للجماع وأخرى خاصة بالعدوان. ويفهم أن هذه الإشارات تأتي من نمطين متعارضين للسلوك: التزواج والابتعاد عن الغريب.

تمت بين الأصناف المهجنة التي تحول طقوس تحركاتها، دراسة حالة الطيور والقرود بشكل مفصل. فوجود هذه الطقوس في حالة الصنف البشري يمكن أن يسلب الضوء أيضا على اختلاف بين النشاط الجنسي والتوالد الداخلي، لكن الجماعات البشرية تعالجه كذلك بشكل ثقافي؛ لذا ذكر علماء أصول

الأجناس البشرية أن الطقوس الأولية وطقوس الزواج لها ممارسات يمكن فهم أصولها من خلال المجتمعات الحيوانية.

ب) أعمال تعبيرية بمواد غير نشطة

تذكير: ينتج العمل التعبيري في المواد غير العضوية تغيرات في المكان، والشكل، ثم الأثر أو البصمة. لهذا سيتم التمييز بين التغيرات التي تؤثر في الأشياء الطبيعية والتي تطبق على المواد المصنعة.

ب. 1 " الأعمال التعبيرية بالأشياء "

عندما تطبق الأنا جهدا لتجعل منتج الطبيعة ملائما.

❖ تشيد بعض الغربان "مدرات" باستخدام أحجار لامعة. فيتحول تغيير ترتيب هذه الأشياء إلى مواد ملاءمة.

❖ يضيف النشاط الموازي قيمة تعبيرية على الأحجار الموضوعة بشكل مستقيم أو دائري في الآثار الصخرية.

❖ إن الدببة، من خلال لأثر على جذور الأشجار، تعين حدود أقاليمها عندما تكون متزوجة، وهذا يعطي لهذه المواد استعمالا تعبيريا.

❖ وعندما يكتب العاشق اسم حبيبته على جذع الشجرة، يستعمله بشكل موازي.

إن المثالين الأخيرين فهما مترابطان، بحيث يرتبط أحيانا في الإشارة العاطفية مظهر العلاقة أيضا مع الرفيقة الإنسانية بالإقليمية.

ب. 2 " الأعمال التعبيرية بالمواضيع "

عندما تطبق الأنا جهدا لتجعل المنتج المصطنع ملائما.

❖ إن تشكيل الأعلام التي تستعمل لبعت رسائل بين السفن له قيمة تعبيرية.

❖ إن أثر الكتابة على السبورة أو الورقة يجعل منها مواداً تعبيرية.

❖ تعتبر تغييرات ضوء إشارات المرور استعمالات بتعابير متغيرة.

ج) اختلافات التطور بين الاستعمال التعبيري للجسد والأشياء

تتحقق الإشارات في الأجسام الحية بالحدس، وعملية الأيض، والليونة ثم الحركة. وفي المقابل، تعتبر المواد التعبيرية التي توجد في الطبيعة جامدة في حالة الأشياء، أو بالأحرى تستجيب لديناميتها الخاصة في حالة الأجسام الحية للآخرين، فيجب على المتواصل أن يبتكر آثاراً وبصمات تعطي للأشياء قيمة تعبيرية.

تعتبر بعض الاختلافات بين التعبير الجسدي وغير الجسدي عوامل مهمة لتحويل التصرفات والمعرفة، كما سيظهر في الفصول الآتية، أما الآن فمن الضروري الإشارة إلى اثنين منها:

1. غالباً ما يتوسط بين الشيء والإشارة فعل الحيوان الذي يعبر عن المحيط.

يُنْتَج التعبير الجسدي عن التغييرات التي تظهرها الحالات العضوية باستمرار، في حين أن الاستعمالات التعبيرية الأولية للأشياء قد تأتي من الأنشطة المتداولة في المحيط. فمثلاً، من بين السلوكات التي تشمل نقل الأشياء، وتخزينها ثم العمل بها هناك تنظيف المساحات الخاصة بالمرور والمسكن، وتراكم النفايات الأيضية في المناطق النائية لإزالة آثارها ثم جمع وتخزين الأغذية أو الفضلات العضوية للمسكن في المكان.

2. يغيب التشابه بين التعبير العضوي والتغيير المشار إليه من خلال الاستعانة بالأشياء للقيام بإشارات.

يجب على الوظائف العضوية التي تتدخل في المظاهر التعبيرية الأولية، والتي تتحقق عن طريق الأجسام، أن تكون مماثلة للمظهر والحالة أو الفعل الجسدي الذي يتعلق بالإشارة.

❖ هناك تشابه بين تناول الغذاء وسلوك أفراخ الطيور والثدييات، حيث تفتح مناقرها أو خرطومها للإشارة إلى أنها تريد تناول الطعام.

يتم، عموماً، فقدان هذه العلاقة عندما تتوقف الأعضاء الفيزيولوجية عن الإنتاج التعبيري؛ وسنعالج هذا بشيء من التفصيل في الفصل 15، العنوان 3.

7. يعتبر التعبير سلوكاً محفوفاً بالمخاطر

تقوم نفس القوانين التي تنظم التشكيل الفيزيائي للمواد بتحديد تصوره والتعرف عليه. فيستغل التعبير هذه العلاقة بين " الأشكال الجيدة" المادية والحسية، بحيث تنتج الأنا بواسطتها مواداً ملاءمة للآخر، فيقوم هذا الأخير بتمييزها.

تتيح إمكانية التعرف من قبل الآخر التفاعل بين فاعلين منفصلين. لكن هذه الميزة التطورية لها تكاليف، لأن الأشكال التعبيرية الجيدة ليست دائماً هي أشكال جيدة للظهور من أجل البقاء على قيد الحياة. فثمة هناك صراع حيوي بين "الظهور" و"المرور بدون ظهور" في المحيط.

ويجب على الحيوانات التي تتكيف مع التفاعلات التواصلية أن تظهر، مثلاً، يكون تحديد إقليم إما بالتزاوج، أو التوالد أو الصيد. وستصبح أكثر نجاحاً من وجهة نظر تطورية كلما كانت ملاءمة أكثر بالنسبة إلى الآخرين الذين يساعدون على تلبية هذه الاحتياجات الأساسية، في حين ستكون أكثر ضعفاً كلما كانت أكثر تموقاً بالنسبة إلى مفترسها، وذلك بسبب الأصوات التي تبعثها، والحركات التي تقوم بها أو الروائح التي تصدرها.

كما يتيح التشكيل العضوي وسلوكيات بعض الأصناف التواصلية ملاحظة العديد من الطرق التي تعمل وفق هذا التناقض: "الملاءمة / التقليد"، وعلى الرغم من أن أياً من هذين الحلين يمكن أن يكون دون مخاطر.

❖ توجد بين أجنحة الفراشات أنواع لها لونان، وهما الرمادي أو البني، مثل الأماكن التي تحط بها، وذلك من خلال الهيئمة التي يكون عليها الحيوان عندما يكون في استراحة. ولها أشكال وألوان

(التي تكون ملاءمة بالنسبة إلى فراشات أخرى) بواسطة الهيئة التي تظهر بها عندما يكون الحيوان في نشاط جنسي.

❖ يتم تطبيق نفس الدور بين الانسجام أو البروز بمراعاة الخلفية، من قبل حيوانات معقدة أكثر بكثير، مثلا، تقوم الأسماك، والطيور والثدييات بثني أو نشر زعانفها، وريشها، وشعرها، ثم أعضاء أخرى متنوعة؛ لذا، تبين ملاحظة بعض السلوكات المثيرة لجنسنا البشري إلى أن لها أصل في هذا الاختلاف.

وفي الأخير يعد التعبير سلوكا محفوقا بالخطر نظرا لأصوله التطورية.

العلامات في التواصل

1. الاستعمال التواصلي للعلامات

يجب إنشاء علاقة بين المادة التي جعلتها الأنا ملاءمة لعملها التعبيري، وبين الآخر الذي ينبغي أن يقوم بتمييزها. لذا يجب تقليص المسافات التي تفصل بين الفاعلين في المكان والزمان. ودمج المعلومة التي تتيح للآخر إدراك هذه الملاءمة. في حين يمكن التعرف على أن الظهور الملائم يتوافق مع الإشارة التي تعبر بها الأنا.

وتعتبر العلامات عناصر مركبة يمكنها أن تقوم، في نفس الوقت، بهذه الوظائف الثلاث: الإشارة إلى حالات المواد التعبيرية؛ والتواصل بين الفاعلين؛ وتحديد ما تشير إليه هذه المعلومة.

يجعل العمل التعبيري المادة الملاءمة تشير إلى الأشياء عندما يتم إنتاج العلامات التي تقوم بها هذه الوظائف الثلاث للمعلومة، والعلاقة ثم الإشارة.

2. مفهوم وأنواع العلامة

نذكر هنا بتعريف العلامة الذي تناولناه في العنوان 3 من الفصل 1:

تعتبر العلامات طاقات متضمنة، بحيث تتألف من تباين معين في الآخترتيب، والكثافة أو تكرار التبادل الحيوي للجسم (الطبيعي أو المادي) مع محيطه⁸².

(أ) الحصول على العلامات التي تقوم بوظائف تواصلية

إن العلامات التي تُستعمل في التواصل هي مشتقة، كجميعها، من هذه العملية التضمينية. في هذه الحالة يكون التضمين التي تحصل عليه العلامات التواصلية نتيجة التبادل الحيوي الذي يُنتج بين المادة التعبيرية والمحيط. وهذا التبادل هو نفسه الذي تم تعزيزه أو تغييره من قبل الأنشطة التعبيرية للفاعل.

⁸² يمكن للعلامات أن تتمثل في عدة أشكال. من بينها تلك التي يتم استعمالها الآن: موجة من الطاقة التي تتحدد بواسطة مصدرها، وتضمينها ثم كثافتها وتكرارها.

تكون المادة تعبيرية حينما تكون فقط مصدر العلامات المعروفة، مما يفرض إنتاج علامات مختلفة عن تلك الموجودة، أو إعادة تضمين العلامات الموجودة. لهذا، من الضروري بالنسبة إلى التغييرات المنتجة بواسطة العمل التعبيري أن تحول السلوك الحيوي. لذا فالأمثلة الآتية تتناسب وثلاث طرق مختلفة لتغيير التبادل الحيوي بين المواد والمحيط.

1. التدخل الذي يؤثر على الطاقة التي تستقبلها المادة التعبيرية من المحيط:

❖ تأخذ السبورة السوداء الجزء الأكبر من الموجات التي تؤثر عليها من أي مصدر ضوئي، وذلك عندما يتم رسم حروف أو رسومات بواسطة طباشير أبيض، وتتناقض هذه الأجزاء مع بقية المساحة من السبورة لأنها تعكس تقريبا كل الضوء المسلط عليها. فالموجات الضوئية المعكوسة تكون مختلفة عن تلك التي يرسلها المصدر؛ وتكون متضمنة وفق الجمع بين الألوان والكثافة التي تحدها آثار الطباشير.

2. التدخل الذي يؤثر على الطاقة التي ترسلها المادة التعبيرية من المحيط:

❖ عندما تشغل اليراعات أعضائها الضوئية، تقوم بإرسال بعض التوهجات المختلفة في تواترها وكثافتها لأي مصدر ضوئي آخر من المحيط⁸³.

3. التدخل الذي يعمل في مادة تعبيرية بطاقة ضوئية صادرة أو واردة.

⁸³ يمكن للنشاط الحيوي للمادة التعبيرية أن يخسر ملائمته عندما تحجب المصادر الطاقية الأخرى الكثافة أو تكرر التبادل الحيوي. بحيث إن الأنماط التي تسمح بالتعرف على العلامات بالنسبة إلى الخنافس المضيئة (اليراعات)، يمكن رؤيتها متأثرة بواسطة فانوس عجيب. إن وظيفة هذه الظواهر التي تدرس المادية تعطي هنا بالطبع لعدم تحويل هذه التحليلات لموضوعه.

❖ تعكس رسائل أنبوب النيون خلال النهار، وعند توقيف الإعلان، الإضاءة الشمسية. فالضوء المنعكس له كثافة ولون متميز ومختلف على خلفية ضوء النهار. وأثناء الليل يزود الأنبوب الخاص بالعلامات الضوئية التي تبرز على خلفية مظلمة، ذات تشكيل يميزها عن باقي الطاقات التي تضيء هذا المحيط.

انطلاقاً من المادة تعبيرية في شموليتها أو فقط في ذلك الجزء الذي يتوفر على سلوك حيوي مختلف، في ما يتعلق ببقية المواد أو المادة التي تحيط بها.

ب) أشكال إنتاج العلامات التي تتوفر على قيمة دلالية

سيتم تقديم ثلاثة أنواع من التغييرات في التبادل الحيوي للمواد التعبيرية مع المحيط، حتى يتسنى توليد علامات. وهي على النحو التالي:

1. تغييرات في معنى التبادل الذي يحول الاستقبال إلى ارسال حيوي، أو العكس بالعكس.

❖ هكذا يتم التعامل مع المرايا التي كانت تستخدم في التلغراف البصري.

2. تسريع أو تأخير تكرار التبادل الحيوي.

❖ يعتبر الإجراء الذي يحصل المكفوفين من خلاله على علامات صوتية، في ممرات الرافلين لبعض المدن.

3. الزيادة أو التخفيض من الكثافة الحيوية، أو كلاهما معا.

❖ يتم ذلك بلمسات الأجراس أو النواقيس للإشارة إلى رجال الكنيسة الذين سيحتفلون بالقداس، والجائز، والأعراس، ثم أنشطة أخرى دينية أو مدنية.

إن العلامات التي تُستعمل في التواصل هي تغييرات في الإرسال والاستقبال للطاقة من جهة المادة التعبيرية التي تم إنتاجها عن طريق العمل التعبيري لفاعل ما.

3. أوجه التشابه بين أنماط السلوك التعبيري والعلامات

تستجيب الطاقات المتضمنة لنمط ما، بحيث إن نمط العلامات سوف يتضمن نموذجاً أو مجموعة من النماذج المتكررة. وبالتالي، يمكن تمييز علامات عن أخرى بمقارنة أنماطها المناسبة، كما هو الأمر في الألحان. ومن المعلوم أن الإشارة إلى الأشياء تحتاج إلى علامات ذات أنماط مميزة ومستقرة.

تحفظ أنماط السلوك التعبيري وأنماط العلامات المميزة منها، على علاقة مماثلة، بحيث إن هذا هو الشرط الطبيعي الذي يجعل من الممكن للنشاط التعبيري للفاعل أن ينتج علامات ذات قيمة دلالية. وإذا كرر الفاعل في كل مرة نفس السلوك، سوف تظهر العلامات وفق نفس النموذج.

❖ عند القيام بالتطيل (بواسطة الأصابع على الطاولة، وبواسطة العيدان على الطبل) يتم التحكم في الإيقاع، والتكرار وكثافة العلامات الصوتية. لذا فالنموذج التعبيري والنموذج الذي يشكل هذه العلامات متشابهان.

عادة ما يختفي هذا التشابه بين طريقة التعبير وشكل العلامات عندما يتم الحصول على إنتاج العلامات بشكل تقني، مثلاً، إذا تم إنتاج الصوت عن طريق جهاز التركيب. لهذا لا يتم، على العموم، الاحتفاظ بهذه العلاقة عند استخدام أجهزة إلكترونية. إذ، يجب على الجهاز التقني الصغير، في كل الأحوال، أن

يولد علامات ذات مظهر يناسب النمط الذي يميزها، لأنه لا يمكن تمييز هذه العلامات بطريقة أخرى عن البقية التي تفتقر إلى القيمة الدلالية في هذا التفاعل.

4. الائتلافات والاختلافات بين التعابير، والعلامات والإشارات

تُنتج العلامات التي تُستعمل في التواصل عن التغييرات التعبيرية التي تظهرها المواد، إذ يمكن التأكيد أن التعابير هي رحم العلامات، لكن لا يجب أن تكون غير منظمة ولا مأخوذة من نفس الشيء (الرحم ليس هو الطفل).

■ وكمثال على هذا، استعمال السبورة والطباشير: رسم دائرة بيضاء يعتبر عملاً تعبيرياً. الدائرة هي الأثر التعبيري. وثمة مصدر ضوئي خارجي يقع على السبورة، فيمتص وينشئ جزء من هذه الإضاءة خلفية غير شفافة؛ وجزء آخر ينعكس على الدائرة بواسطة مسافات الموجة المناسبة للألوان التي تشكل الفضاء الأبيض. إذن، تعتبر هذه الاهتزازات التموجية المعكوسة علامات ضوئية يدركها ويتعرف عليها المستقبلون.

■ يتكون الكتاب من مواد تعبيرية (الورق والحبر) بحيث تعتبر الحروف فيه تعابير.

وتنتج الإضاءة الآتية من مصدر خارج عن الكتاب علامات يتلقاها القارئ على شكل تغيرات الطاقة الضوئية المعكوسة بواسطة الورق والحروف. أما في مسكن مظلم تبقى المادة التعبيرية متاحة، لكن دون علامات.

إن التعابير الموجودة بطريقة ما في المادة تكون نتيجة لبعض التأثيرات التي تم إنجازها من قبل الفاعل.

إن، العلامة هي عبارة عن طاقة تكون ملموسة، لكن ليست مادة العمل التعبيري.

وأخيراً، يمكن لطاقة العلامة أن تأتي من العمل التعبيري للفاعل، بينما ليست الطاقة المستهلكة في العمل ناتجة عن الفاعل.

هناك مشاكل قديمة لنظرية التواصل مرتبطة بطبيعة الإشارات. لذا يجب الأخذ بعين الاعتبار الخط بين ما يتم من أجل إنتاج الإشارات وما يتم مع الإشارات. وأعتقد أن هذه الصعوبات اختفت باستعمال هذا

التمييز بين "التعبير" و"العلامات". وتتيح دراسة إنتاج التعبير إمكانية اعتبار التواصل في وضعيته النشيطة المنتجة (للعلامات). وهو النشاط الذي يشرك الجهد والتغيرات في المواد.

تحافظ أشكال إنتاج العلامات على الصلة الضرورية مع الطريقة التي تحصل بها المعلومة، والمعنى الذي تشير إليه. وتتكون هذه الصلات، بالتحديد من العلامات والإشارات. إذن، الصلة بين الإشارات والأنشطة الضرورية لإنتاج العلامات هي أحد الأبعاد الاجتماعية التي تتوفر عليها الإشارات. وهي تشير إلى كيف يتم إجراؤها. وثمة بُعد آخر يتناسب وما يتم مع الإشارات، بحيث إن هذه الأنشطة يمكن أن يتم تحليلها بواقعية، أما الإشارات لا يمكن ذلك.

يتوفر إنتاج الإشارات في المجتمعات على علاقة مع التطور الإنساني والأنسنة: مع التطور الإنساني لأنه يتم وفق الأنظمة التعبيرية التي تلقنتها وطورتها البشرية في وضعها كجنس طبيعي، ومع الأنسنة لأن معظم أشكال إنتاج الإشارات هي تقنية، وتحرك التنظيم والموارد الاجتماعية. وبالتالي، فدراسة إنتاج الإشارات يشير، من جهة، إلى الأسس التطورية وحفريات التواصل الإنساني؛ ومن جهة أخرى، إلى الإنتاج الاجتماعي للتواصل.

5. وظائف العلامات في التواصل

لا تعتبر كل التغيرات في الإرسال والاستقبال لطاقة المواد التعبيرية كعلامات في التفاعلات التواصلية، بحيث يجب توضيح ما هي الوظائف التي تتم في التواصل، وذلك من أجل معرفة السمات التي يجب أن تتوفر عليها العلامات. كما يبين ذلك الجدول 1.7.

الجدول 1.7 فهرس وظائف العلامات في التواصل
1. التنبيه إلى التغيرات التي تجعل بعض المواد ملائمة.
2. نقل المعلومة إلى الآخر في التواصل عبر القنوات.
3. الاتصال بمتواصل آخر بعيد في المكان والزمان.
4. إنتاج محفزات للآخر تكون مدركة ومعروفة.
5. تحويل معلومة دالة من الأنا، تكون لها أيضا قيمة دلالية للآخر.

إن إنتاج علامات تتوفر على هذه الفوائد قد يتم في الطبيعة قبل تسويتها في المختبر التكنولوجي. لهذا فإن العلامات التي تم إدراجها في التواصل تتناسب مع ثلاث فئات من التحديدات:

(أ) في علاقة مع الكفاءات الدالة التي ينتجها الفاعلون عندما توظف للتعبير عن إنتاج هذه العلامات.

(ب) في علاقة مع خصائص المحيط الذي يعيش فيه المتواصلون. لذا فالنظم الإيكولوجية، دون غيرها، تقدم قنوات معينة دون غيرها من أجل رواج العلامات، كما توفر الشروط، دون غيرها، من أجل نشر وتعميم العلامات.

(ج) في علاقة مع الكفاءات التي يكتسبها المتواصلون عندما يعملون على الإدراك، والتعرف ثم القيام باستعمال مؤشرات هذه العلامات دون غيرها.

وأولى هذه التحديدات (أ) تمت دراستها في الفصل السابق. أما التحديدين الآخرين، (ب) و(ج) فستتم دراستهما في الفصلين المواليين.

الفصل 8

النظم الإيكولوجية، التحول والاختصاص التواصلية

يعتبر التواصل آلية من آليات التطور. لذا فإن تنوع الأصناف المتواصلة ناتج عن تحولات جينية، عندما تكون هذه الأخيرة ذات قيمة تكيفية. بمعنى أن مثل هذه التحولات مفيدة في كل وسط؛ ومفيدة للنوع في قضية الإنتاج عندما يتحول الوسط.

___ كما هو معلوم، تنتج التحولات، في نهاية المطاف، عينات ذات خصائص عضوية جديدة وأنماط سلوكية مختلفة، بحيث تقوم هذه الميزات بتحويلها إلى سلالاتها. مثلاً، تحولات اليد عند أشباه الإنسان؛ وتحولات الفك والبلعوم عند الإنسان (انظر الفصل 14، العنوان 3).

___ يحدد "الوسط" - في المعنى الذي تعطيه له نظرية التطور - البيئة التي تشغله مجموعة من الأصناف التي تكشف فيها عن حياتها وتفاعلاتها. لهذا تؤثر تحولات الوسط على هؤلاء الفاعلين عندما تتغير حالة هذه البيئة أو الموارد المتاحة. فمن المعروف أن هذه التحولات مستمرة، وكانت ناتجة عن

تغيرات فيزيائية، مثلا التغيرات المناخية، ونتيجة للتركيبات الجديدة التي سيحصل عليها السكان. مثلا، زيادة ونقصان وعدم ظهور بعض العينات؛ والدمج في البيئة، من وسط خارجي آخر، لسكان جديدة. إذن، تقوم تحولات الوسط بفتح الطريق للسكان الرئيسية لتتصرف مع السكان الجدد أو تبدو متقلبة من قبلهم.

1. النظم الإيكولوجية في التغيرات التطورية للتواصل

إن تغير الوسط يمكن أن يكون ذا قيمة انتقائية. ويمكنه أن يحصل على قيمة تكيفية إذا كان مرفوقا بالتحولات الجينية. فهو انتقائي بالنسبة إلى صنف معين عندما يكون غير قابل لتطبيق إعادة إنتاجه (يموت الصنف في هذه البيئة)، ويصبح متكيفا (بالنسبة إلى هذا الصنف) عندما يكون نمو وإعادة إنتاج العينات الجديدة لتظهر في تحوله ممكنة.

قام تانسلي سنة 1935 بإدخال مصطلح "النظام الإيكولوجي"، الذي يرتبط مفهومه بالإيكولوجية، بحيث لم يلتق تماما مع المفهوم التطوري لـ "البيئة". لكن على مستوى الممارسة كلا المصطلحين يستعملان كمرادفين. على العموم، لا يعتبر الوسط وحيدا في تركيب النظم الإيكولوجية، بل هناك اثنين: من جهة، "غير حيوي" بحيث يتكون من العناصر غير النشيطة؛ ومن جهة أخرى، "حيوي" يتشكل من الكائنات الحية⁸⁴. ويتم استعمال المصطلحين "الوسط" و"النظام الإيكولوجي" في هذا الكتاب بشكل مكافئ كي لا يتم الخروج عن القاعدة. على أي حال، عندما يُستعمل "النظام الإيكولوجي" - تسمية تانسلي - كمرادف لـ "الوسط"، - تسمية داروين - يجب الحفاظ على هذه الإشارة للنظام الإيكولوجي، والتي تتم في إطار الأنظمة التطورية، بمعنى أن التحليلات الإيكولوجية التي تم إجراؤها لا بد لها أن تراعي الانتقاء والتكيف للأصناف. مثلا، يتم شرح التواصل باعتباره آلية تطورية، ولا يمكن شرحه كظاهرة إيكولوجية للأسباب الآتية.

⁸⁴ يستعمل مصطلح "النظام الإيكولوجي" للإشارة إلى النظم المشكلة في فضاء محدد حيث يتم القبول بوسط غير حيوي وآخر حيوي على امتداد فترة معينة.

- يحتوي الوسط غير الحيوي، كما أشار المصطلح، على كل ما هو ليس على قيد الحياة، والطاقات بما فيها العلامات؛ والمواد المادية الجامدة؛ والنشيطة؛ ثم الأخرية، والماء، والهواء ثم الأوضاع البيئية (مثلا، جوية ومناخية). من بينها الحرارة، والرطوبة، والإضاءة، والضغط الجوي ثم الارتفاع. ينبغي في البيئة المائية إضافة حركة ولزوجة الماء.

- ويشمل الوسط الحيوي النباتات والحيوانات التي توجد في النظام الإيكولوجي بما فيها تفاعلاتها. تعتبر "الإيكولوجية" العلم التي تدرس العلاقات بين الواسطين معا. حيث يتم في بعض المناسبات التمييز والارتباط بين "النظم الإيكولوجية الطبيعية" و "النظم الإيكولوجية الإنسانية". فالعلاقات الإيكولوجية التي تم أخذها بعين الاعتبار في هذه الحالة، تشمل حدوث أنشطة المشتغلون الإنسان للنظم الإيكولوجية في الأوساط غير الحيوية وعن الحيوية (غير الإنسانية)؛ والتأثيرات على مستوى المعنى المعارض.

تعتبر مشاركة النظام الإيكولوجي في التغييرات التكيفية منفصلة عن الأخرى الجيني للإنسان. كما يعتبر الموروث والبيئة ظاهرتين مختلفتين، لكنهما مندمجتان في التطور. لذا تتم دراسة التحولات الجينية وتغييرات النظم الإيكولوجية كمكونين لنظام كلي أكثر شمولاً عن ذلك الذي يتعلق بالتطور.

إن، ينتج التطور أنظمة حية، ويحدد خصائصها وتحولاتها بإدراج أنظمة تتكون من الحيوانات والإنسان، اللذين يستعملان المعلومة. لذا فالتطور هو الإطار، أو بالأحرى، المحرك الذي يمكنه شرح كيفية تشكل واشتغال أنظمة التواصل:

إن تركيب الأنظمة التواصلية والاختصاصات الجديدة التي تحولها تعتبر تكيفات ناجمة عن تغييرات تطورية (ليست تغييرات النظم الإيكولوجية، ولا حتى تغييرات الإرث).

وبالتالي، يظهر الإنتاج الاجتماعي للتواصل.

يجب البحث عن أسباب الأنظمة التواصلية واشتغالها في الوقت الذي تستجيب فيه لقوانين الطبيعية، في علاقة بالتطور. وهذا الإجراء هو الذي أتاح إمكانية تأليف هذا الكتاب. لذلك، يعد التواصل إحدى الآليات التكيفية لهذا النظام الكلي للتطور. حيث تؤدي التغييرات التطورية أحياناً (ليس دائماً) إلى تحول الأنظمة التواصلية. كما أن هذه التحولات التواصلية، على العموم، تشكل جزءاً من مجموعة من التغييرات التكيفية (فهي ليست مستقلة). لهذا، يعتبر انتماء نظام التواصل إلى النظام الكلي للتطور، عملاً يستمد مبدأين اثنين:

(1) لا يعد التواصل الخيار التكيفي الوحيد بالنسبة إلى تغييرات النظم الإيكولوجية، لأنه توجد على العموم خيارات أخرى.

على سبيل المثال، الاستجابة التطورية لإدخال حيوانات مفترسة جديدة في الوسط، في بعض الحالات، هي تحسين القدرات التواصلية للصغار مع أمهاتهم، إذ تظهر وتعمل بواسطة عمليات متكررة تكيفية مختلفة، تواصلية وغير تواصلية بشكل متصل.

(2) إن خصائص واشتغال التواصل مرتبطين بالآليات التطورية الأخرى.

على العموم، سيكون تشكيل الأنظمة التواصلية ومكوناتها جزءاً من تكيفات أخرى غير تواصلية. مثلاً، يرتبط الاختصاص التعبيري للإنسان في لغات الإشارات مع ثنائية الحركة.

في هذا الفصل يمكن اختبار كيف يتم تطبيق هذين المبدأين في دراسة التكيفات التواصلية، والجوانب المنهجية المتعلقة بفئة من العلاقات التي توجد بين دراسات التواصل والتطور؛ ويتم أيضا اختبار الإرث والنظم الإيكولوجية في العنوان 3 من الفصل 24.

2. الاختيارات التي توفرها القنوات والعلامات لاستعمالها التواصلي

تستعمل الأصناف المتواصلة قنوات وعلامات بطرق كثيرة. كما أن مكونات نفس الصنف التي تعيش في مواطن مختلفة تتباعد بدرجة أكبر أو أقل في طريقة الاستعمال. فخلال التطور يتم إنتاج التغيرات التي تفترض استعمالات أخرى مختلفة تماما. ومن أجل شرح أصل هذه التحولات التي تغير الأنظمة التواصلية والطريقة التي تعمل بها، يجب التمييز بين القيمة الانتقائية للوسط، والآليات التكيفية عقب التطور:

__ يرتبط الدور الانتقائي للوسط بالاختيارات التي توفرها القنوات والعلامات لاستعمالها التواصلي. لذا يجب مراعاة الخصائص الحيوية وغير الحيوية للنظم الإيكولوجية.

__ تفسر الآليات التكيفية للتطور الاستعمالات التواصلية التي تقوم بها الأصناف بواسطة هذه الاختيارات. لاسيما وأنها تحتاج إلى تحولات سلوكية وتحولات جينية.

لذلك تم وصفها بتسلسل بهذا الترتيب:

(أ) ملائمة العلامات للقنوات المتاحة للمتواصلين

تدور العلامات، بصفاتها طاقات، عبر قنوات. والموطن الذي يشغله الفاعلون يوفر القنوات المتاحة (الجوية، والأرضية والبحرية) حتى يمكن للأنا والآخر أن يتواصلا. إذن، فكل قناة مناسبة لدوران العلامات الناتجة عن تشكل بعض الطاقات المعينة: ضوئية، وصوتية، وكيميائية وحرارية، لكن هذا لا ينطبق على مجموعها. وبالتالي، فإن الفاعل الذي يعبر يجب أن يمتلك المهارات المطلوبة لإنتاج فئة من العلامات التي تدور عبر هذه القنوات المشتركة مع الآخر.

الشكل 1.8 يشير إلى فئة العلامات التي يمكنها أن تدور بواسطة القنوات الطبيعية المختلفة:

الشكل 1.8 الطاقات التي يمكنها أن تدور عن طريق القنوات الطبيعية

علامات قنوات	ضوئية		صوتية	حركية *	كيميائية **	حرارية	كهرومغناطيسية
	الإرسال المنعكس						
هوائية	×	×	×	×	×	×	×
سائل (الماء)	×	×	×	×	×		×
صلب (الأرض، الكتلة)			×	×	×		×
أجسام عضوية				×	×	×	×
أشياء غير عضوية					×		×

(*) حركة؛ ضغط. (**) شمّي؛ ذوقي

القناة التي من خلالها يتم التواصل مهمة:

- فئة من الطاقات التي تدور عبرها كالعلامات.
 - طبيعة التشكيل
 - بالتكرار والكثافة اللذين يكونان مناسبين لسد الفجوة بين الفاعلين.
- انظر هذه الأمثلة الثلاثة:

❖ اللجوء إلى الأصوات يعد اختياراً أكثر فعالية مقارنة باستعمال الموجات الضوئية بالنسبة إلى الحيوانات المائية، لأن هناك تساوي في الشروط، فالماء ينقل الموجات الصوتية بسرعة أكبر من الأرض، وبأهمية أكثر وشساعة أكبر. وبالتالي، فبعض الحيوانات المائية ذات الأجزاء المفصلية الصلبة، كالرخويات، تلجأ إلى الاشتباك بأصدافها.

❖ كذلك العلامات الصوتية، وخصوصاً بتواتر ضعيف، تعتبر أفضل خيار بالنسبة إلى الفاعلين الذين يعيشون في فضاءات أرضية، حيث هناك عوائق لنقل الصور. وهذه الصعوبة تظهر في

الأمكان المفتوحة حيث يمكن للموجات الضوئية أن تدور بدون حواجز. ولهذا السبب تُستعمل في الأدغال الصغيرة أو دقات الطبل وفي البراري علامات الدخان.

(ب) ملاءمة العلامات لمكان وزمان التواصل

تكون للعلامات التواصلية أهمية كبيرة لسد الفجوة التي تفصل بين الأنا والآخر. والاستمرار قدر الإمكان من أجل الإبقاء على الوقت الذي يفصل بين فاعلين اثنين.

إن نقل العلامات في كل محيط يتم في فضاء معين. كما أن العلامات تبقى ذات جدوى خلال فترة زمنية معينة.

❖ في شروط متساوية، تنتقل العلامات الضوئية في وسط هوائي أفضل منه في وسط مائي.

❖ وعلى ضوء نفس الشروط، تستمر العلامات الكيميائية الناتجة عن تلقیح الأجسام، مثل تلك التي يتم استعمالها لتحديد المنطقة، أكثر من العلامات الصوتية.

لذا، تؤثر التغيرات المستمرة للنظم الإيكولوجية على اشتغال القنوات، إذ استبعدت هذه العوامل الدورية أهمية واستمرارية هذه العلامات، بالاعتماد على المصادر التي تنتجها من خلال نوع الطاقة التي صنعت منها، ومن خلال الخصائص المادية للقنوات كذلك.

(ج) العلامات التواصلية والخصائص الحيوية للنظم الإيكولوجية

تخضع الخصائص العضوية لفئة العلامات التي يمكن لكل صنف أن يختص بها.

❖ يتيح اللجوء إلى ومضات الضوء لدى الخنافس المضيئة إمكانية تحديد الذكر والأنثى. فهذه الوظيفة تتحقق في العائلات التي لا تمتلك هذه الأعضاء من خلال نوع آخر من العلامات، وعادة ما تكون كيميائية أو لمسية.

إن الطريقة التي يتم بها توزيع السكان في النظم الإيكولوجية تؤثر في تخصص استعمال القنوات. في المقابل، يجب مراعاة القرب أو البعد بين الأصناف بالرجوع إلى بعض القنوات، وإلى سلسلة من العلامات المستعملة، وخصائص الأعضاء التعبيرية والإدراكية.

❖ وبالتالي، فإن الفرمونات والمواد الكيميائية التي تنتقل عبر مسافات طويلة تعتبر خيارا مناسباً للعينات التي تكون منتشرة ولها دورة إنجاب قصيرة.

3. الاستعمالات التي تقوم بها الأصناف انطلاقاً من قدراتها التواصلية للنظم الإيكولوجية

يجب أن نوضح أن خصائص الوسط تشترط الخيارات التي توفرها القنوات والعلامات لاستعمالها التواصلية. لكن، في الوقت نفسه، تتيح استعمالات حرة متنوعة. فنفس القناة تعمل لنقل أشكال مختلفة من الطاقة؛ ونفس شكل الطاقة يتكون من طرق مختلفة حسب الأصناف؛ ونفس التشكيلات تعمل من أجل المؤشرات المختلفة حسب المتواصلين الذين يستعملونها. لهذا تقيد القدرة الإرسالية للهواء، والماء أو أي سائل آخر ناقل للطاقات الموجودة في الطبيعة، عمل العلامات؛ لكن المستخدمين يستعملون الخيارات الممكنة حسب قدراتهم الخاصة واعتماداً على حالتهم الوجودية. لهذا سنعرض بعض الأمثلة:

❖ طورت الأصناف التي تستعمل القنوات الجوية التكييفات المختلفة لاستعمال خيارات الإرسال، بحيث توجد بين الحشرات أصناف لها سمع يستجيب لانتقال الجسيمات؛ في حين أن سمع الفقريات يستجيب لتغيرات الضغط الذي تنتجه الموجات الصوتية.

❖ يستعمل الإنسان والفرشاة العلامات الضوئية التي تدور بواسطة القنوات الهوائية. فالفرشاة تستخدم الموجة بمسافات قصيرة جدا في سلسلة الأشعة فوق البنفسجية (أقل من $0,40 \mu$) التي طورت أعضاء الاستشعار المتخصصة. في المقابل، يستخدم الإنسان علامات الموجة بمسافة أطول ($0,40$ ما بين و $0,70 \mu$). وثمة أصناف أخرى تخصص في مسافات طويلة جدا للموجة في سلسلة الأشعة تحت الحمراء.

❖ تبعث ذكور اليراع "فوتينوس بيراليس" ومضة كل $5,8$ ثوانٍ؛ بينما تقوم الإناث بذلك بعد ثانيتين (انظر برانهام وآخرون). يفهم أن هذا التخصص الدال يعطل اختيارات صوتية أخرى من أجل التمييز الجنسي.

وتبين هذه الأمثلة الدور الأكثر انفتاحا الموجود بين معوقات الوسط وخصائص الهيئات وسلوكات المتواصلين. وهي نفس الدينامكية التي تظهر في الأنشطة الأخرى التي يشملها التطور (انظر ويلسون إي، Wilson, E. O.). في هذه الحالة ينعكس تحول النظام الإيكولوجي وتحول الأصناف، على عمل قنوات الاستعمالات التواصلية؛ وعلى تخصص بعض العلامات.

إن الاستعمال التواصلي للقنوات هو موجه لتقليص التقلبات الطاقية التي لا تتوفر على طابع العلامات التواصلية، بل توسع القدرات الإرسالية للقنوات.

وسيتم تحديد هذه القضايا فيما بعد.

4. تحولات الوسط وتطور الأصناف المتواصلة

أ) الوسط والتخصص التواصلي

- تؤثر بعض تحولات الوسط على أداء القدرات التعبيرية والإدراكية للمتواصلين، فتحتاج في نهاية المطاف إلى تعديل.
- في المقابل، تضع التحولات القدرات التعبيرية والإدراكية الجديدة في متناول المتواصلين. فهذه التغيرات للهيئات والأنماط السلوكية تتيح أعمالا أخرى للقنوات الموجودة.

تحافظ هذه التغيرات التطورية على تطابق التخصصات التواصلية مع خصائص النظم الإيكولوجية؛ على الرغم من أن الأولى تتغير والثانية تتحول. لذا تعتبر الآلية التي من خلالها يتكيف عالم الدلالة مع الأشكال التي تكون متاحة للمتواصلين، لتكون لها مكانة بين قاطني هذا العالم. كما أنها تنتشر، بتنوع هائل، أشكال التواصل التي تظهر وتختفي منذ أن تحولت الحيوانات الأولى إلى فاعلين.

(ب) أشكال التخصصات التواصلية

غالبا ما تكون للقنوات الموجودة في النظم الإيكولوجية قيمة عالية للاشتغال لدى أصناف متعددة تستعملها في تفاعلاتها التواصلية. مثلا، تكافح الطيور في أعشاشها الأرضية الرطبة وأشجار المنغروف من أجل أن يسمعها رفاقها خلال الأشهر الأكثر تنافسية (انظر بيرينس س. م وبيرخياد، ط. ر. Perrins C.M. y Birkhed, T.R).

تعمل نفس القدرة الموجودة بالمساحات المادية من أجل الحصول على مكان لها ضمن شساعة القنوات. وكما أشرت إليه، تعزز التنافسية التخصص التواصلية الذي ينعكس على تحويلين متضمنين:

(1) يعتبر "التخصص التعبيري" آلية تطورية تنتج تغيرات على مستوى الأعضاء التعبيرية والأنماط الدلالية.

(2) و"التخصص الإدراكي" يظهر في هذه الحالة التغيرات التطورية على مستوى الأعضاء التي تشارك في إدراك العلامات الدالة، على مستوى الأنماط المناسبة.

إن "التخصص التعبيري" في أي تواصل يستنتج، وهو استنتاج من "التخصص الإدراكي".

يتخصص الفاعلون بهذه التغيرات التطورية في إنتاج نوع العلامات وإدراكها، والتي تسمح بالقيام بالأدوار التواصلية الملائمة بين تلك التي تكون متاحة.

تحصل جميع الأصناف المتواصلة الموجودة حاليا على قدرات تعبيرية وإدراكية مناسبة للحصول على جزء من القنوات التي كانت متاحة لها، نظرا لأنها عانت من قبل.

يمكن للتخصص التواصلية أن ينتج ثلاثة أشكال:

1. من خلال اختيار الطاقات التي تعمل لإنتاج العلامات.

2. من خلال تغيير المستويات الإدراكية.

3. من خلال دور الرموز في جمع العلامات.

وسيتم تحليلها وفق هذا الترتيب.

5. تخصصات الطاقات المستعملة لإنتاج العلامات

يحافظ التخصص في العلامات التواصلية التي أنتجها نوع معين من الطاقات على العلاقة مع فئة الأعضاء التعبيرية والإدراكية التي يتوفر عليها المتواصلون. وبالتالي يختارون بنجاح الاستعمال الدال لشكل معين من الطاقات، فتطور هذه الأعضاء نحو أشكالاً أكثر وظيفية وتعقيداً.

❖ تخصص معظم الحشرات في معالجة العلامات الكيميائية (الذوقية والشمية) أو الضغطية (المسية)؛ كما تطور على مستوى أقدامها الأعضاء الاستشعارية المناسبة للذوق؛ وعلى مستوى اللمسات النهائية التي تكون حساسة في اللمس. في المقابل، غالباً ما تكون الأعضاء البصرية قليلة التكيف في تمييز الأشكال: وتقوم باستعمال متتال للعلامات الضوئية للتواصل.

❖ إن الحيوانات التي تحتوي على عناصر متحركة (زعانف، وأرجل، وأجنحة، وذبول، ومناقير، وأوجه، وأعضاء أخرى) تكون معدة للتعبير عن طريق سلوكيات وحركات. لهذا يمكنها أن تتخصص في العلامات المختلفة الصادرة من الأعضاء البصرية للعديد من الأصناف: عندما تكون الطيور في الأرض وتحرك أجنحتها وذيلها؛ والكلاب بواسطة ذيلها؛ ثم الحيوانات بواسطة الأيدي والوجه.

❖ تتوفر، مع ذلك، الحيوانات الطائرة (طيور، وخفافيش)، عندما تكون في الهواء، على إمكانيات محدودة للإشارة إلى الأشياء من خلال علامات إيمائية، لأن حركة الجسم تكون مشغولة للبقاء في الهواء.

في السطور الآتية سيتم وصف المورد المتخصص في أربعة أنواع من الطاقات، وتستخدم جميعها لإنتاج العلامات في التفاعلات التواصلية: أ) كيميائية؛ ب) حركية؛ ج) ضوئية؛ د) صوتية.

أ) الاستعمال الدال للطاقات الكيميائية

تنتج الطاقات الكيميائية علامات تدرك بواسطة أعضاء شممية وذوقية.

تعتبر المواد الناتجة عن الأيض العضوي (أساسا العرق، والبول ثم البراز) مصادر العلامات الكيميائية التي تتطور بشكل واسع ومتنوع. لهذا ظهرت في وقت وجيز حيوانات بأعضاء حسية مستقبلية للمركبات الكيميائية. وتعد الروائح والأذواق من بين المحفزات الأولى التي تحصل على معلومة ذات معنى مرتبط بحالة المحيط⁸⁵. والواقع أن كل الكائنات التي تنتج مواد يمكنها أن تكون شممية أو ذوقية بالنسبة إلى الآخرين. مثلا، عادة ما يكون حضور مفترس أو فريسة معروفا بواسطة علامات الروائح التي تبعثها⁸⁶.

تكون الإمكانيات المعلوماتية التي تتوفر على علامات كيميائية ناتجة عن عمليات الأيض للبناء الجسدي، صالحة للاستخدام في الاستعمالات التواصلية. في مثل هذه الحالات، يراقب الفاعل إنتاج السوائل عندما تستعمل كمواد تعبيرية. ولقد ظهرت كائنات مجهزة بغدد متخصصة، تنتج مواد مميزة بواسطة الشم أو الذوق للآخر. على العموم، ترتبط هذه المؤشرات الكيميائية بالهرمونات الجنسية، كما تعمل على وجه التحديد للتعبير عن الحالات أو الطلبات الجنسية، وأيضا من أجل تحديد المنطقة (سلوكان مرتبطان بعضهما البعض). بهذه الطريقة يحصل المنتج الصادر عن الأيض الجنسي على وظيفة أخرى في إعادة الإنتاج؛ لكن بطبيعة دالة.

تعد العلامات الكيميائية أكثر فعالية من العلامات الضوئية والمائية في ما يخص التواصلات "الارتجالية"

(في مختلف الأوقات) وبمسافات طويلة:

⁸⁵ من المتوقع أن العلامات الأولى التي تستعمل للإشارة إلى أشياء في التفاعلات، تكون من الطبيعة الكيميائية (بالنسبة إلى الأعضاء التي تميز الروائح والنكهات) و(حركية بالنسبة إلى الأعضاء تعرف الضغوطات).

⁸⁶ أمثلة حول الاستعمالات الإعلامية (غير تواصلية) للعلامات الكيميائية.

تشم ذكور الإبل بول الإناث لمعرفة إذا كانت في وقت الشبق (حقة الخصوبة مناسبة للاستعداد لتزاوج).
كذلك في صنف الإنسان توفر غدد العرق معلومة مماثلة للرائحة، على الرغم من أن العوامل ليست لها علم بها. فهذه المعلومة الشممية لا تعمل فقط لتسهيل الاتصال الجنسي، أيضا تقوم بوظائف في تعديل دورات الطمث للنساء اللواتي يعشن في المساكن أو مدارس داخلية. فالميزة التطورية لهذه الآلية هي موضوع الجدل.
توضح هذه الوظائف الإعلامية التطور الكبير الذي يتوفر عليه الدماغ الشمي وأجزاء أخرى من الدماغ المتخصصة في فك شفرة معلومة الشممية - الذوقية.

__ تستمر الروائح والنكهات في الهواء أو الماء أثناء فترة ما . كما تزيد أيضا من الاحتمالية التي تبدو للآخر الذي يدركها. لذا فهذه المدة الكبيرة تعتبر أيضا ميزة تراعي المؤشرات الملموسة.

__ يمكن للتيارات الجوية والبحرية أن تحمل علامات على مسافات كبيرة. وقد تمت الإشارة إلى أنها مورد مناسب لتسهيل الاتصال الجنسي عند عينات تشغل مناطق كبرى (مثلا، الفراشات المهاجرات). ويمكن العيب الرئيس في أن هذه العلامات تكون بواسطة العناصر، مما يدل على أن الحيوانات لها احتمالات قليلة لاختيار المستقبلين، بما في ذلك الذين يمكن اعتبارهم مفترسين.

عادة ما يتم ذكر الفرمونات باعتبارها مثلا للعلامات القوية، بحيث تكفي بعض جزيئات مادة الرائحة ليُدرك الآخر ويعرف وجود الأنا على بعد كيلومترات عديدة.

تعتبر العلامات الكيميائية أكثر فعالية لتحديد المناطق، لأن التلقيح يتيح مؤشرات متميزة جدا عن هوية المرسل؛ وهي تعتبر كذلك باستمرار.

❖ يحدد النمل وحشرات اجتماعية أخرى تنتقل على الأرض، بواسطة الطعم، الطرق التي تم تحديدها بالعلامات الكيميائية من قبل رفاقها. فثمة عدد كبير من الثدييات التي تستخدم إجراءات مشابهة.

نستمر نحن البشر في استعمال المعلومة ذات علامات كيميائية للتحكم في المحيط، كما تم توضيحه في أمثلة أخرى تم ذكرها. لكن الاستعمال التواصلي للنظام الكيميائي - الذوقي - الشمي قد فقد أهمية نسبية بالمقارنة مع أنظمة أخرى تتيح القيام بمؤشرات أكثر تعقيدا. لهذا فقد خضعت للنظم القبض - اللمسية، والحركية - البصرية ثم الصوتية - السمعية.

مازالت الحواس الشمية والذوقية تحتفظ بالعلاقة التي كانت لديها مع حاسة اللمس في الأصل، والتي تم دمجها أيضا مع الحواس السمعية والبصرية. ففي التفاعلات الإنسانية، غالبا ما يتم إدراج المعلومة التي

يحصل عليها الشخص من العلامات الكيميائية الناتجة عن حالات الآخرين مع المعلومة التي تُستقبل من هؤلاء الآخرين عندما تشير إلى أشياء، من خلال الحركة أو الكلمة. وبسبب تأثير هذه العلامات الشمية تقوم بالاستعارات اللفظية التي تحدث عندما يتعلق الأمر بالجنس، والإقليمية ثم الوثوقية. مثلا، يقال "في رائحة القداسة" "أشم أن هناك شخص ما"، "تشمني جيدا أم سيئا".

ب) الاستعمال الدال للطاقات الحركية

تنتج الطاقات الحركية العلامات التي تدرك أساسا بواسطة الأعضاء الحسية للضغط واللمس.

ومن الواضح أن اللمس يحتاج إلى الاتصال المادي بين الأنا والآخر. وتحدد هذه الخصوصية الاحتمالات التواصلية للطاقات الحركية إذا تعلق الأمر بسد الفجوة بين الفاعلين، مما يسلب الضوء على شيئين اثنين:

___ اللمس هو شكل قديم جدا من الدلالة، خاص بالأفراد الذين يجتمعون في تكتلات، ويتم بحركات خفيفة.

___ اللمس كان مرتبطا بالتعرف على الجسد بين الفاعلين منذ أصول الطاقات الحركية.

تشير السمات الإعلامية لللمس إلى إمكانية ظهورها في أصناف لها عناصر لم تكن كثيرة الحركة، ومندمجة في تكتلات كثيفة.

إن الرجوع إلى العلامات من أجل اللمس اختصاص مفيد عند استعمالها من قبل الفاعلين في وسط قليل الإضاءة، وفي تجاوب صعبة، حيث تدور العلامات بشكل سيء. لذا يبين الاتصال الجسدي فعاليته لدى الحشرات، ونجد هذا بشكل عام عند الثدييات اللواتي يعشن في مجموعات.

❖ يعتبر لعق البعض للبعض الآخر تعبيراً على العلاقة التي تظهر عند النمل وأيضاً بين الأبقار والكلاب، (بمعنى آخر، تتذوق).

❖ يعتبر لمس أي عنصر عندما يعود إلى الخلية سلوكا تواصليا بين النحل⁸⁷، وأيضا بين الثدييات عموما.

يخص الاستعمال التواصلي للعلامات للمسبية المقبوضة الحيوانات المتطورة والإنسان. وتُوظف للإشارة، تحديدا، إلى العلاقات بين عناصر المجموعة. والأمثلة الآتية تبين هذه العلاقات:

❖ يعتبر إزالة الديدان من الجسم، بالإضافة إلى كونه ممارسة صحية، تعبيراً عن المواقع الهرمية ضمن مجموعة من القروود.

❖ يشكل اللمس أو عدم اللمس جزءا من الطقوس الأكثر واتقانا عند القروود. فهذه القيمة الدالة يتم الاحتفاظ والقيام بها بين الإنسان رغم أنها معقدة جدا. لهذا فإن تسلط الضوء الأشكال المسموح بها والممنوعة ففي اللمس تسلط الضوء على العلاقات الشخصية للجنس والأعمار، والحالات، المتعددة والمعقدة.

ج) الاستعمال الدال للطاقات الضوئية

تنتج الطاقات الضوئية علامات تدرك عن طريق العديد من الأعضاء الحسية وعبر الرؤية.

وتقدم العلامات الضوئية في الطبيعة معلومة أنية عن الأحداث التي تقع في المحيط، بحيث تعني جودتها الفرق بين حياة الفريسة محتملة وموتها.

⁸⁷ تقوم النحل الأنا بـ "رقصة" تتكون من سلسلة من المواقف التي تعيد إنتاجها النحلالات الأخرى. يخبر اتساع الميل إلى الحركات النحل باتجاه ومدة الطيران. تنتج النحلة هذه المعلومة مستغلة القدرة على ضبط الحركات التي تمنحها بنية استقطاب من عيونها. يجب على النحلة لتحقيق الاستقطاب أن تُضع في زاوية معينة مراعاة للشمس. تقدم، النحلة التي تجلب المعلومة، بميل جسمها تنسيقا، زاوية التي تحتفظ في الوقت نفسه بالاستقطاب، والإشارة إلى الاتجاه حيث يوجد الطعام. تظل لتخبر عن مدة الطيران. فهذه المعلومة لها طابع مماثل، وتشير بمنطق العدد "ثمانية" الذي تخبر به النحلة فيجتمع النحل الأخرى في نفس الموقع بمراعاة أشعة الشمس وينفذ نفس العدد "ثمانية"، قبل القيام بالطيران في الاتجاه، والمدة التي ستجعلهم الوصول حيث يوجد الطعام. وهذا ما تم شرحه في كتاب "الحياة وعادة النحل"، أنه نموذج للبحث في حقل التواصل الحيواني.

إن العلامات الضوئية التي تأتي من الإضاءة المعكوسة تحصل على أكبر قيمة عندما تقع على الجسم النشط. في هذه الحالة تصبح أكثر تنوعا وتعقيدا، مثل تعقيدات وتنوعات حركات كل كائن. لهذا تعتبر الحركات وباقي الأحداث التعبيرية التي تقوم بها الأجسام بمرونة إجراءات تواصلية قد ترتبط في تطورها بمتواصلين يعيشون في مجتمعات أكثر تنظيما، بما في ذلك الكائنات البشرية، بشرط أن يكون الآخر مجهزا بصريا من أجل تمييز الحركات والألوان أو هما معا.

وتقدم العلامات الضوئية هذه المزايا وبعض الحدود في استعمالها التواصلي. فهي خاصة بتفاعلات الوجه، حينما يكون الفاعلون يشاهدون، بحيث تتطلب مساحات ضوئية، وغياب العوائق التي تمنع الرؤية. لذا، فمثل هذه المتطلبات هي التي تجعل الأصناف التي تستعمل، بشكل حصري، الموجات الضوئية كعلامات دالة قليلة، بحيث إن بعضها كان متاح للرؤية، مثل الخفافيش المختصة في تدبير نوع آخر من العلامات، التي تعد علامات صوتية في هذه الحالة.

من المفهوم أن الحركات والمواقف التعبيرية، التي تنتجها العلامات الضوئية، تتوفر على أهمية كبيرة في التفاعلات وجها لوجه. مثلا عندما يكون لزاما على الذكور أن يختاروا بين المقارعة أو الهروب؛ أو عندما يتعلق الأمر بالاختيار النهائي للزوجة الخصبة.

د) الاستعمالات الدالة للطاقات الصوتية

تنتج الطاقات الصوتية العلامات التواصلية التي تدرك بواسطة أعضاء حساسة للضغط والاهتزاز (أعضاء حسية أو سمعية).

ويعتبر استعمال العلامات الصوتية للإخبار عن حالة الوسط تخصصا بديلا بالنسبة إلى الحيوانات التي لا تتوفر على تطوير قدرات بصرية متطورة، وميزة لمن يعيشون في وسط أرضي أو مائي مظلم أو لديهم رؤية ضعيفة.

لقد اقتضى التطور الرجوع إلى العلامات الصوتية في التواصل. فقد كان المتواصلون يتفرون على أنظمة صوتية - سمعية أكثر فعالية بسبب تطور الأعضاء والأنماط التي زادت من القدرة التعبيرية والإدراكية على حد سواء. مما قد يتطلب في الوقت نفسه تطوير القدرات العقلية الضرورية لكي تشغل مع رموز معقدة.

حدثت أكبر قفزة عندما أصبح المتواصلون قادرين على نطق الأصوات. كما أن الامكانيات الدالة للعلامات الناتجة عن الزقزقة - أي، عن طريق احتكاك الأجنحة وبعض الأعضاء الصلبة مع جزء آخر من الجسم - ليست قابلة للمقارنة مع مجموعة كبيرة من الأدوار التي تقوم بها الموجات الصوتية المنطوقة التي توظف مع مجموعات من الإيقاعات، والكثافات والآخردادات.

وستتحول العلامات الصوتية إلى دعامة أساسية لإشارات الفاعلين الذين ينقلون المعلومة المعقدة، بحيث إن اللغات الأكثر ثراء بين الأصناف البرية (الطيور والقرود) صوتية. وينطبق الأمر نفسه على الأصناف البحرية (الحياتان والدلافين).

ولقد وصل التعبير بالأصوات إلى مستواه الأعلى من التطور في كلام الإنسان، إذ أصبح في الصنف الذي ننتمي إليه نحن الإنسان الحالي مصدرا تعبيريا أقوى بكثير من التعبير بالحركات. فقد تشكلت منذ مدة العلامات الصوتية كدعامة أساسية للمعرفة والثقافة.

6. التخصص من خلال دور العتبات الإدراكية

عادة ما يكون التخصص في تلك العلامات التي تتناسب مع القدرات التعبيرية والإدراكية مواتيا بالنسبة إلى الصنف، حيث يكون مجهزا بشكل أفضل من الأصناف الأخرى التي تتقاسم معه نفس النظام الإيكولوجي. مثلا، تتخصص الحيوانات البحرية والبرية في إرسال علامات صوتية واستقبالها بترددات أكثر ارتفاعا أو أقل انخفاضا من تلك التي تستعملها منافساتها. من بينها الخفافيش، والكلاب، والدلافين، وكذلك الثدييات.

تميز الترددات الأقل وصولا إلى القنوات الاتصالات المحددة ضمنيا، كما تسمح للفاعلين بالحفاظ على "خصوصيات الاتصالات". على الأقل مراعاة لتلك الأصناف الأخرى في المحيط التي تعمل في نطاقات أخرى.

❖ مثلا، ترسل الحيوانات ذات حوافر علامات صوتية بتردد منخفض تسمعها عينات أخرى على مسافة تتراوح بين اثنين وأربعة كيلومترات.

عموماً، يساهم وجود كل سلسلة من العلامات في بعض القطاعات المعينة بدلا عن أخرى، في ضبط علامات الحيوانات التي تحتلها ضمن بعض العتبات المعينة.

لهذا السبب يمكن للعلامات الدالة التي تستعملها مجموعات من نفس الصنف، عندما تحتل نظم إيكولوجية مختلفة، أن تختلف في تذبذب العتبات. وتلعب الحيوانات المفترسة أيضا دورا مهما في درجة دعم هذه التكيفات.

تجعل التخصصات المعتمدة في تشكيل العلامات من الممكن تحديد، وتمييز ثم تصنيف السكان الذين يعملون على امتداد مسافات الموجة، آخذين بعين الاعتبار الكثافات والترددات للعلامات التي يستعملونها. وبالرغم من أن ذاكرة المؤشرات المختلفة يمكن معالجتها بالعمل مع التشكيل، فهي مقيدة بالقوانين الجسدية والإدراكية. والبدل التعبيري هو استعمال مجموعات من العلامات. مما يدل على استعمال رموز أكثر اتقانا.

7. التخصص من خلال استعمال رموز مجموعة من العلامات

يتكون الاستعمال الدال للعلامات الأكثر حساسية من العلاقة بين كل علامة وكل إشارة. إن العينة التي تستعمل علامتين مختلفتين وفقا للرمز ذي الاتجاهين، يمكن أن تقوم بإشارتين. وهذا ما يحدث عند الزيزان:

صريير خطير (-)	صريير حاد (+)	مكونات الرمز التعبيري
<إشارة إلى أنثى>	<إشارة إلى ذكر آخر>	الإشارات

إذا تم الجمع بين علامتين اثنتين { (+) و (-) } في مجموعتين، تتضاعف الإمكانيات الدالة:

(-)	(+)	(-+)	(++)	المجموعات
<...>	<...>	<...>	<...>	الإشارات

نظريا، يمكن الحصول على عدد هائل من الإشارات المختلفة فقط بعلامتين مميزتين، والجمع بينهما في ثلاثيات { (+++) ... (---) }؛ وفي عدد من المرات⁸⁸.

لكن في الاستعمال توجد صعوبات حركية وحسية للعمل بالإشارات التي تجمع بعض العلامات المختلفة. وأما متطلبات الذاكرة لمعالجة هذه الرموز ذات النطق الوحيد فهي كبيرة جدا، على العموم يوجد خياران من أجل توسيع ذاكرة الأشياء التي يمكن أن تشير إلى العلامات:

■ زيادة عدد العلامات بأشكال مختلفة؛

■ الرفع من ذاكرة المجموعات البديلة بواسطة العلامات.

وتؤدي كل واحدة منهما إلى تغير محدود. لهذا تمكنت الحيوانات من توسيع قدراتها التعبيرية والدلالية على امتداد تطورها، باستخدام كلا الإجراءين في الوقت نفسه.

❖ تبرز لغات بعض الطيور، والدلافين والحيتان ذلك من خلال كثرة العلامات ومن خلال التجمعات المتنوعة التي تتيح الرموز التعبيرية، بحيث يبدو أن الحيتان الحدباء تمتلك ذاكرة من العلامات الصوتية أكثر، مقارنة مع تلك التي تؤسس تشكيلات معقدة على أساس استعمال مبرمجة بكتافات، وأصوات ثم إيقاعات متنوعة. وهكذا يتم التحقق منها في الطيفية⁸⁹.

تتوفر اللغات التي تعمل بالرمز على هياكل مشكلة سابقا. فتبقى واضحة على الرغم من أن العلامات تبين تغييرات طفيفة إذا احتفظت بالتعديل. وبالتالي فهي أقل حساسية بالنسبة إلى "التشويشات". ولهذا يعتبر تخصص الرموز التعبيرية ميزة تكيفية في النظم الإيكولوجية حيث يتغير احتلال النفوذ التواصلي بشكل مؤقت أو دائم.

مثلا، يكون مفيدا في الحالة التي يتدخل صنف آخر في نفس نطاق الترددات؛ أو في الحالة التي يستفيد الحيوان المفترس من هذه المظاهر التعبيرية لتحديد فرائسها.

⁸⁸ إن حساب هذه التغيرات دون تكرار يتم بالصيغة المعروفة: التغيير = مجموع عدد العلامات، فتكون مجموع علامات المتميزة وعدد العناصر التي تضم كل مجموعة.

⁸⁹ CF . Suzuki, R ; Tyack, P.L

تتيح التحليلات السابقة إبداء ملاحظة مهمة:

إن عددا كبيرا من المراجع المختلفة بعضها عن البعض، والتي يمكن للفاعل أن يشير إليها، مشروطة ببضعة تجمعات تمييزية تكون قادرة على التنفيذ بواسطة العلامات التي تُعالج في التواصل.

وينبغي معرفة الحد الأقصى لـ "الأشياء المختلفة" التي سوف يتضمنها عالم مرجع المتواصلين، بحساب العدد الإجمالي للإشارات المختلفة التي تسمح بتنفيذ الرموز التعبيرية. كما أعتقد أن هذا الاتصال يحكم حتى التمثيلات التي تدرج في الإنتاج التعبيري. وسنرجع إليها في الفصلين الحادي عشر والثاني عشر.

إن مجموعات من نفس الصنف التي تقطن في نظم إيكولوجية مختلفة تصل إلى تغيير النماذج الدالة بظهور "اللهجات". ويتم إنتاج تغييرات في بعض الحالات من أجل التكيف مع الشروط الخاصة بالقنوات (الضوضاء، والقدرة على الفرق والترددات الصوتية، إلخ.)، وذلك لمراقبة النظام الإيكولوجي بواسطة العلامات الأكثر فعالية. فهذه التغييرات اللسانية عند الحيوانات التي تعمل بالنماذج التواصلية المحددة خارجيا، لا تحتاج مسبقا إلى ما ينتج تغييرات صرفية أو تحولات في الأنماط التواصلية.

الأعمال الإدراكية

إن الفاعل الذي يشغل أولاً موقع الآخر، يبدأ العمل الإدراكي، بالرغم من أن الأنا تعمل نفس الشيء، في التصرفات التواصلية المتتالية اعتماداً على العلامات الدالة التي تلقتها بدورها.

إن الأعمال الإدراكية التي يقوم بها بعض المتواصلين خلال التفاعل التواصلية متشابهة. وسيتم منذ الآن، ولجعل العرض أكثر سلاسة في بعض الأحيان، كتابة " ما يقوم به الآخر " عندما يستقبل العلامات الدالة، أخذاً بعين الاعتبار أن وصف هذا التصرف يكون صالحاً أولاً لأولئك الذين يأتون من بعيد.

1. تطابق العلامات مع العمليات الحسية

من الضروري أن يكون إرسال واستقبال العلامات مترابطين كي يكون التواصل ممكناً، بحيث يجب على الأنا عندما تعبر، أن تنتج بعض أشكال العلامات التي سيمكن للآخر أن يعمل بها لما يستقبلها. فضرورة هذا الارتباط يجعل من التغييرات المتضمنة متكيفة بالنسبة إلى الفاعلين، كما تنعكس على كل الأجسام وكذا السلوكيات.

إن علامات الأنا التي يمكن أن ترتبط بالعمليات الإدراكية للآخر، ستصبح بالنسبة إلى هذا الأخير قابلة للإدراك، ومعروفة ثم قابلة للتأويل. كما أن العلامات التي تتوفر على هذه الشروط تجعل العمل الإدراكي للآخر ممكناً. ونشرح في هذا الفصل كيف وبأية طريقة يعمل بها الآخر.

2. العلامات القابلة للإدراك والاستقبال التواصلية

(أ) تحديد الحدود الإدراكية القصوى

تكون العلامات، مهما كان مصدرها، قابلة للإدراك عندما توجد ضمن بعض الحدود الدنيا والقصوى التي تم إرساؤها والتي تستجيب إلى الأعضاء الحسية للمُدرك.

وثمة اختلافات بين الحدود القصوى التي تعتبر عملية للأصناف المختلفة من الحيوانات والبشر، مثلا، في قوة رؤية الحركات والأشياء الثابتة، في سماع الأصوات المنطوقة والبيئية. كما يعتبر أيضا نطاق العتبات شاسعا جدا في حساسية اللمس، والشم والذوق. فقد عرضنا في الفصل السابق العديد من الأمثلة.

(ب) المواد الإدراكية

تحتوي الأعضاء الإدراكية على مكونات مادية تعكس نوعا معينا من المحفزات. والطاقة التي تصلها عن طريق العلامات تنتج أيضا هذه التغييرات كأى محفز حيوي آخر صادر من المحيط.

❖ يتغير الجهاز السمعي جسديا وعصبيا انطلاقا من العلامات الصوتية. أما الجهاز البصري فيخضع لتغيرات بصرية وكيميائية من خلال العلامات الضوئية.

يبدأ العمل الإدراكي مع ردة فعل هذه المواد الحساسة تجاه العلامات ذات الأصل التواصلية.

تنتج "المواد الإدراكية" من خلال العناصر الطبيعية أو الاصطناعية التي يتم تغييرها، عن المحفزات الناتجة عن العلامات التواصلية.

- **المواد الإدراكية الطبيعية** هي: أجزاء العظام والأغشية الوسطى للأذن، ومكونات عدسة العين، والأصابع التي تتلقى الضغط من أصابع أخرى، وبراعم الذوق. وتساعد النصوص التي تشير إلى فيزيولوجية أعضاء الحواس على تحديد وظيفة "المواد الإدراكية".
- **المواد الإدراكية الاصطناعية** هي: شاشات بلورية السائل حيث تظهر النصوص أو الصور التي تنتج علامات إعلامية؛ ثم الأشرطة ومواد أخرى تتغير تركيبها الالكترونية عندما تسجل الرسائل في أجهزة الرد.

3. العلامات المعروفة كمؤشرات تواصلية

تكون العلامات معروفة لما يميزها المستقبل عن باقي العلامات التي تحفزها في المحيط الذي يوجد فيه عندما يدركها⁹⁰.

أ) المحفزات، العلامات الأشياء التي يتم إدراكها

يختلف العمل الذي يقوم به مستقبلو العلامات التي تحفزهم عن تلك التي يستقبلونها من باقي الطاقات: يستعمل المستقبل العلامات باعتبارها محفزات انطلاقا من تلك التي تنتج أثرا. لذا يتم تنفيذ هذه العملية الإدراكية بجميع العلامات، سواء كانت تواصلية أو غير تواصلية⁹¹.

وعادة ما يأتي كل شيء يتم إدراكه من دمج محفزين أو أكثر في نفس البنية الإدراكية. لذا فالعلامات التي يتلقاها المستقبلون ينبغي أن تكون ملائمة لتشكيل جزء من البنى التي تصبح قابلة للتعرف عليها كأشياء يتم إدراكها.

وتكون قدرة المستقبلين على دمج المحفزات في الأشياء التي يتم إدراكها مدعمة في المستوى الأول بآليات حسية، بحيث تشتغل أعضاء الحواس بالأنماط العصبية التي تنظم المحفزات في الأشياء التي يتم إدراكها وفق أشكال مرتبة سابقا⁹². ومن خلال هذه التشكلات الفطرية، يطور المستقبلون قدراتهم الإدراكية بحرية أكبر. ويعتبر هذا التطوير مكونا ضروريا لكي يتمكن المتواصلون من استعمال بالعديد من العلامات التي تشير إلى أشياء متنوعة ومعقدة.

لذلك يقدم علم نفس الإدراك العديد من الأمثلة لـ "المحفزات" و "الأشياء التي يتم إدراكها". ويقدم الجدول 1.9 توضيحا للعلاقات التي توجد بينها.

الجدول 1.9 مثال عن كيفية تشكيل المحفزات في الأشياء القابلة للإدراك

...	...
-----	-----

⁹⁰ إمكانية تلقي وتمييز الفاعل للعلامات اعتمادا على الأعضاء الحسية المتاحة والمناسبة لهذه الطريقة الخاصة من المحفزات الحيوية؛ وللعلامات كثافة كافية لتجاوز الحد الأدنى للتعبة الحسية، وليست مرتفعة بدرجة بحيث تصبح فوق الحد الأقصى للتعبة الحسية؛ والتغيرات في المحفزات التي تتوافق مع تضمين العلامات تخلق نمطا عصبيا معيناً ذلك الذي يمتلكه الفاعل لمعالجة المعلومة. تلتقي هذه المعدات والعمليات الأساسية مع الوظائف الإدراكية ومعرفة العلامات بالرغم من عدم وجود المعدات والعمليات المعرفية.

⁹¹ تنتج، في بعض الأحيان، التأثيرات المادية للعلامات إصابات حسية عندما تكون الطاقة أو كثافتها التي تم تشكيلها مضررة بالنسبة إلى الجسم الذي يتلقاها. مثلا، العلامات الضوئية التي تخطف البصر، أو الصوتية غير المسموعة. لكن هذا التأثير المادي هو فرعي في علاقتها بالاستعمال الإدراكي الذي تتم من خلاله التفاعلات.

⁹² يوفر كل شيء قادر على الإدراك يمتلك جهازا قادرا على تحليل المحفزات (مثلا، العين) أداة تحليلية للمحفزات التي يلتقطها، ليس فقط اختلافاتها، بل أيضا النظام الموجود في تسلسلها.

يمكن للمستقبل، في مستوى أول، أن يميز في هذه الصورة بين اثنتي عشر نقطة سوداء تشكل جزءاً من محفزات أخرى كثيرة بالنسبة إلى النظر. أما في مستوى ثان، فمن الممكن التمييز بين أربع أشياء قابلة للإدراك، بتشكيل كل مجموعة واحدة من ثلاث نقط. وفي مستوى أكثر عمومية يمكن ملاحظة شيء واحد قابل للإدراك يدرج البنيات الأخرى التي يشكلها.

إن الأشياء القابلة للإدراك التي يحصل عليها المستقبل من العلامات التي تحفزه يمكن استخلاصها من خلال معرفة المعلومة المتعلقة بحالة مصدر هذه العلامات. ففي التفاعل الذي يفكك فيه فاعل آخر المحفزات، تشير الأشياء القابلة للإدراك إلى حالة أو سلوك المرسل.

(ب) معرفة العلامات التواصلية

تتوفر العلامات القابلة للتعرف على أشكال تختلف عن أشكال باقي العلامات، كما أن المستقبل يكون قادراً على معرفة هذه الاختلافات. وبالتالي يمكن للآخر في حالة العلامات التواصلية، القيام بالتمييزات الآتية:

(أ) التمييز بين العلامات التي تأتي من المادة التعبيرية ومن إرسالات أخرى لنفس هذه المادة، أو من أي مصدر آخر للعلامات الموجودة في محيطها الاستقبالي.

❖ التعرف على نداء عناصر القطيع وعدم الخلط بينه وبين نداء عناصر قطيع آخر.

❖ التمييز بين أصوات الطبل والضوضاء الناتجة عن العاصفة.

(ب) التمييز بين هذه التغييرات وبين غياب كل تغيير في النشاط الحيوي للمواد التعبيرية.

❖ التعرف على العلامات الحرارية للثعبان عندما يهدد بالهجوم، وأيضا على غياب هذه العلامات عندما يكون أثناء الراحة.

❖ التمييز بين حركة النداء لمستحم في ورطة وبين عدم وجود أي نداء.

4. العلامات التواصلية وتفسيرها

يعتبر تنظيم العلامات في الأشياء القابلة للإدراك، وتحديد مصادر وقيمة هذه العلامات بخصوص سلوك المستقبل، مهارات تواصلية. (انظر الفصل 2). وقد تم تطوير هذه القدرات في التفاعلات من قبل الحيوانات للقيام بالاستعمال الدال للمعلومة. لهذا، فالعلامات الصادرة عن المرسل والتي يتعرف عليها المستقبل لها معنى معين بالنسبة إلى هذا المستقبل (انظر الفصل 2. العنوان 3.4).

وبالتالي، تحفز العلامات التي تنتجها الأنا في التواصل هذه المهارات الاستقبالية للآخر. لكنها في الاستعمال التواصلي للعلامات خاصية مختلفة:

تعتبر العلامات في التواصل محفزات دالة.

تعد "المحفزات الدالة" صنفا من العلامات التي لا تثير ردة فعل لدى الفاعل الذي يستقبلها.

لا تكون استجابة الآخر للعلامات الدالة مراقبة بواسطة الكثافة، والتكرار، ولا حتى من قبل أي خاصية حيوية أخرى للعلامات التي تحفزه.

❖ إن الأفواه المفتوحة للعصافير عندما تدخل الأم إلى العش حاملة في منقارها دودة، كلها محفزات دالة. فالعصفور سيقدم الطعام لأحد من طالبيه، أو للعديد منهم أو لأي أحد.

تعتبر العلامات محفزات دالة عندما تجتمع مع الشروط التالية (أنظر الشكل 1.9):

1. تُستمد من الطاقات التي يطبقها مرسل التواصل على مادة تعبيرية وليس على أخرى.

إذن، فهي الخاصة التي تميز الأفعال التعبيرية في ما يتعلق بالتنفيذية. (انظر الفصل الثالث، العنوان 2).

2. تتوفر العلامات الدالة على موضوع المرجع الذي تم تعيينه من قبل المرسل في التواصل.

تنتج الأنا هذه العلامات، وبواسطتها يشير إلى شيء ما. لذا، لا تعتبر مجرد مظهر من مظاهر النشاط الحيوي لهذا المرسل.

3. إن المعنى الذي يحدده المستقبل في التواصل لهذه العلامات يدل على أن هناك أنا وأنها تتوفر على مرجع.

تعطي الأنا شكلا للعلامات التي تنتجها حسب المعنى المرجعي الذي تتوفر عليه. لكن المعنى الذي تم تحديده لا يتحول مع المعلومة التي تنقلها هذه العلامات. لهذا السبب، فإن التفسير الذي يقوم به الآخر بدوره للمؤشرات التي تتوافق وهذه العلامات يتزامن، بطريقة أو بأخرى، فقط مع المؤشرات التي تقدمها الأنا. (انظر الفصل 2. العنوان 4).

يؤثر هذا التناقض في الفهم بين كلا الفاعلين. لكن الصعوبة التي تعترض الأنا والآخر في ما يخص الإشارة في العلامات لا تحدد المعنى الذي تتوفر عليه بالنسبة إليهما.

5. تطبيق المؤشرات التواصلية

يطبق المستقبل (ب) على سلوكه الخاص العلامات الصادرة عن المرسل (أ) عندما يكون هذا السلوك لـ (ب) ملزما على القيام بشيء ما أخذًا بعين الاعتبار المعنى الذي يحدده (ب) لهذه العلامات لـ (أ).
إن التطبيق الذي يقوم به الآخر والمتعلق أيضا بالمعنى الذي يحدده للعلامات، يمكنه أن يتكون من أي سلوك، سواء كان تواصليا أو غير تواصللي.

هناك ثلاثة أنواع من التطبيقات للعلامات الدالة، والأخير هو الذي يعتبر فقط تواصليا:

1.3 يتفاعل الآخر مع أي إجراء مادي متعلق بالوسط، أو بأي عامل آخر، بما في ذلك المرسل في التواصل. مثلا، الأم (أ) تطلب من ابنها (ب) "أن يتناول وجبة خفيفة"، والطفل يفتح الثلاجة ويحضر لُمجةً، أو بدلا من ذلك يدفع الطفل أمه ليهرب ويغلق باب غرفته.

2.3 تؤثر استجابة الآخر عليه. مثلا، يأكل الطفل اللمجة.

3.3 إن استجابة الآخر لمؤشر المرسل في التواصل يعتبر إجراء تعبيريا. بناء على طلب الأم يجيب الطفل : "أنا لست جائعا".

هكذا يظهر مرة أخرى أن كل الاستجابات للعلامات التواصلية ليست تواصلية. وهذا المثال الآخر يساعد على معرفة المتغيرات التطبيقية:

❖ إن اليد الممدودة والصوت الحزين للمسكين الذي يطلب صدقة في باب الكنيسة عبارة عن محفزات دالة بالنسبة إلى المصلين الذين يغادرون القداس، إذ ينبغي على أحد منهم أن يعطيه نقودا، وعلى شخص آخر أن يساعده للحصول على غطاء يقيه من الشتاء (1.3). أما آخرون فيتصرفون كما لو أنهم لم يروه، ويستجيبون بالمشي بشكل أسرع متجاهلينه باختبائهم تحت المظلة، أو بربط أحديتهم (2.3). وآخر يقول له: "ريك يحميك" (3.3).

ويمكن وصف النشاط التعبيري لأننا باعتباره سلوكا تواصليا خاصا في إنتاج محفزات دالة بالنسبة إلى الآخر.

ويساعد الجدول 1.9 على معرفة المحفزات الدالة.

الشكل 1.9: الاختلافات بين المحفزات التي تنتج العلامات وبين تلك التي تنتج المجهودات التنفيذية			
أصناف المحفزات	تولد	ذات هي طبيعة	نتيجة عن
دالة. أمثلة: الضوء الناتج عن شمعة مضيئة أثناء الحركة. الصوت الناتج عن ضرب جديع مجوف.	الأشياء القابلة للإدراك	أو تواصلية إعلامية	العلامات (طاقات دائما متضمنة).
تفاعلية. أمثلة: حرارة ناتجة عن شمعة موضوعة على اليد. ضغط ناتج عن ضربات على الجسد.	ردود أفعال	تنفيذية	الطاقات (ليست دائما متضمنة).

6. الأعمال الإدراكية

تبين التحليلات السابقة أن استقبال العلامات التي تنتجها الأنا، يتطلب من الآخر أنشطة إدراكية من أجل المعرفة والتفسير. لذلك تعتبر هذه الوظائف الإدراكية للآخر أعمالا؛ نفس الأمر يحدث للأنشطة التعبيرية لدى الأنا. ففي كلتا الحالتين يتم استهلاك طاقات، ويتم تغيير بعض المواد وتشغيل أدوات، واتباع نماذج معينة. بناء على ما سبق، سيتم ختم هذا الفصل بتعريف للأعمال الإدراكية:

تطلق "الأعمال الإدراكية" على أنشطة الآخر الهادفة إلى اعتبار بعض العلامات الدالة تقتضي تطبيقا معيناً.

نظم وسائل التواصل

1. مهمة نظم وسائل التواصل

(أ) ارتباط الأعضاء التعبيرية والحسية

تحتاج العلاقة بين الأنشطة التعبيرية والإدراكية إلى الأعضاء التي تستخدمها الأنا لإنتاج العلامات وتحويلها، والتي تشكل جزءا من نفس النظام، وإلى الأعضاء التي يستخدمها الآخر لاستقبال العلامات الدالة والتفاعل معها. ويكون النظام الناتج عن ذلك مناسباً للتواصل عندما تتمكن الأنا من تنفيذ عملها التعبيري، والآخر عمله الإدراكي.

❖ يوفر كل شخص، في محادثة ما، الوسائل التعبيرية لما يشغل مكان الأنا؛ والإدراكية عندما يتحول إلى مكان الآخر. فخلال التفاعل كله تعمل الوسائل بشكل مترابط على شكل نظام.

تظهر هذه الوظيفة النسقية في نفس المثال. تزود الأنا النظام بالأعضاء التي تتيح له ما يلي:

(أ) إنتاج التعابير:

تشكل العضلات التي تحرك الحنجرة، واللسان والشفنتين - وأعضاء أخرى - جزءا من الوسائل التعبيرية. ففي هذه الحالة يعتبر جسم الأنا المادة التعبيرية، لاسيما وأن التعابير تتكون من تشكيلات صوتية صادرة عن الجهاز الصوتي.

(ب) توليد علامات دالة:

إن الهواء الذي يمر عبر الأعضاء الصوتية في وضع تعبيرى مصمم لإنتاج العلامات، والحديث في هذه الحالة عن الأصوات. لذا تجد العلامات الصوتية في الجو القناة المناسبة للانتشار.

يزود الآخر، من جهته، النظام بالوسائل التي تتيح له:

(ج) إدراك العلامات الصادرة عن النشاط التعبيري الأنا ومعرفتها.

يعمل السمع بالعلامات الصوتية التي تكون خلال الفترات التي يتذبذب فيها الكلام.

في هذا المثال تحافظ، الأعضاء التي تحركها الأنا والآخر، على الربط بين التعبير والإدراك لأنها تتوفر على الخصائص التالية:

- توافق الأصوات التي ترسل مكونات تتداخل في الصوت مع السلسلة التي يلتقطها الجهاز السمعي.

- هذه العلامات الصوتية مناسبة لتتحول عبر الهواء الذي يعتبر في هذه الحالة القناة الرابطة بين الفاعلين.

ويمكن لنظم وسائل التواصل أن تدرج أجهزة تقنية، لكنها ستشمل كذلك أعضاء بيولوجية. واستمرارا مع نفس المثال، يمكن للمحادثة أن تتحقق عن طريق الهاتف، لكنها تحتاج إلى أعضاء الكلام للتعبير، وإلى أعضاء سمعية للاستماع.

(ت) مفهوم نظم وسائل التواصل

تعتبر "نظم وسائل التواصل" مجموعة من الأعضاء البيولوجية، أو البيولوجية التكنولوجية التي تحافظ على الارتباط بين العمل التعبيري للأنا والعمل الحسي للآخر.

وسيتم في الصفحات الموالية شرح طبيعة نظم وسائل التواصل وخصائصه.

2. تكيفات الأعضاء للعمل باعتبارها وسائل للتواصل

انطلاقا من اللحظة التي تحاول فيها الحيوانات اختبار استعمال العلامات في التفاعلات بنجاح، تتكيف بعض الأعضاء لتشكيل الطاقات وتوليد العلامات (مثلا، أصوات الأجنحة في زقزقة)، في حين أن أعضاء أخرى تتحول لتلتقط وتفك شفرة العلامات (مثلا، الأحاسيس بالإدراك السمعي).

ويمكن للأعضاء التي تندمج في نظم وسائل التواصل أن تستمر في إتمام الوظائف البيولوجية الأولى التي كانت تتوفر عليها، أو إدراج وظائف أخرى جديدة بالإضافة إلى الوظائف التواصلية. مثلا، في

جنسنا البشري، الأعضاء التي تتيح لنا التحدث تحتفظ بوظائف تنفسية أو غذائية (انظر الفصل 14. العنوان 2).

إن الوسائل التي تسمح بالتعبير والإدراك، في بعض الأحيان، لها فوائد ترفع من الحاجيات التواصلية. فهذه الزيادة في القدرة عادة ما توجد عندما يستمر العضو، في نفس الوقت، في الاشتغال بالاستعمالات القبل تواصلية.

❖ تمتلك الثدييات اللاحمة إحساسا سمعيا متطورا جدا في ما يخص وظيفة العلامات التي تصدر من خلال حركات الفرائس. أما بالنسبة إلى إدراك العلامات التي تأتي من أفراد نفس الصنف فتكون نتيجة كافية للاستماع بجودة أقل.

3. نماذج من نظم وسائل التواصل

يتم تجميع نظم وسائل التواصل التي توجد في العالم الطبيعي على شكل نماذج، مع الأخذ بعين الاعتبار فئة العلامات التي تعمل بواسطتها الأعضاء التي تشكلها. لذا سنشير إلى أربعة أنواع أساسية:

1. **النظم اللمسية المقبوضة:** يتم فيها ربط الأعضاء التي تدفع إلى التنقل أو اللمس بالحواس الحساسة للضغط أو جس النبض.

2. **النظم الكيميائية - الذوقية/الشمية:** يتم فيها الارتباط بين بعض الأعضاء التي تنتج مركبات كيميائية وأخرى تصنع نكهات أو روائح.

وقد ظهرت، مع الأجيال اللاحقة، نظم وسائل التواصل التي تتوافق مع نماذج صوتية - سمعية وحركية - بصرية.

3. **نظم وسائل صوتية - سمعية:** تجمع الأجهزة التي تنتج أصواتا عن طريق الزقزقة أو تلك التي تُنطق بأنواع مختلفة للأعضاء الحساسة للعلامات الصوتية. وتعتمد هذه النظم في الضغط التي

تمارسه الجسيمات، أو الموجات الصوتية، على أجهزة استشعار المدرك. لذا، يوفر هذا المعطى ارتباطات بين النظم اللمسية المقبوضة.

4. **النظم الحركية - البصرية:** يقوم الجسم أو بعض من أعضائه بتحولات أو تغيرات في شكله، والتي يمكن تمييزها عن غيرها من الأعضاء البصرية الحساسة من خلال الحركة.

يستخدم هذا الارتباط المتنوع تغيرات لونية جسدية. ويتطلب، في الطرف المقابل، من الحواس التي تدرك أن تمتلك أجهزة استشعار اللون. فالتعرف عن الأبيض والأسود ولون العلامات المضيئة يدل على أن هذه الأجهزة تنتج ردود أفعال كيميائية. والمعلوم أن هذه النظم يجب أن تكون لها علاقة مع كيميائية الذوق/الشم.

4. **المعلومة وتغيير نظم وسائل التواصل**

تتعرض التغيرات التطورية التي تنتج القدرات التواصلية الجديدة على الوسائل التي تستعملها الأصناف للتواصل؛ من جهة، في ما يخص الرجوع إلى نظامين أو أكثر من الوسائل التي يمكن استعمالها بشكل تبادلي أو تطابقي، ومن جهة أخرى في ما يخص حسن اشتغال الأعضاء. لذا، فجنسنا البشري قد ورث كل نظم وسائل التواصل التي تم ذكرها. وقد أدخلت تحسينات تطويرية هامة في الوسائل الصوتية - السمعية والحركية - البصرية.

وقد ظهرت واستمرت في الاشتغال نماذج أخرى من نظم وسائل التواصل التي لا تشكل جزءا من معدات الإنسان. فثمة من يعيش في الماء ويتمتع بالأعضاء التي تنتج تغيرات في الجهد الكهربائي، وذلك موازاة مع أعضاء أخرى تعمل على شكل معدات خاصة بالجهد. ويوجد في الأرض متواصلون لديهم نظم للوسائل تعمل بموجات الحرارة. والطريقة التي كان يشير بها السابقون علينا إلى ما كان يحدث لهم تعتبر تجربة نجهلها نحن البشر.

ينبغي للخصائص المحددة للوسائل البيولوجية للتواصل التي يمتلكها كل صنف أن تظهر في مجموعة واسعة نسبيا من الاحتمالات والمعوقات التي يتوفر عليها كل نظام:

- بجانب التعبير، تعتمد على صنف من المواد التي يستعملها الفاعل، وعلى العمل التعبيري الذي يجعلها ممكنة التحقق، وعلى الطاقات التي تكون متاحة في المحيط من أجل تشكيلها كالعلامات. كما أنها خصائص محددة للوسط الذي يجب عليه القيام بوظيفة القناة.
- وبجانب الإدراك، يجب الأخذ بعين الاعتبار عدد وصنف الآخرين الذين تتواصل معهم الآن، وهذا يظهر بالفعل في التفاعلات داخل نفس النوع أو بين الأنواع. لذا يجب النظر في كل معوقات استقبال العلامات الدالة التي تم ذكرها. والمثال التالي يبين الطابع المتعدد لهذه التأثيرات.

❖ يكون نظام الوسائل الحركية - البصرية التي تعمل بالتعبير بالاعتماد على لحركية الجسم. فيستخدم المواد التعبيرية التي تولد علامات ضوئية، بحيث تحتاج البيئة عموماً إلى إضاءة. ويمكن استعمال قنوات هوائية أو سائلة، لكنها لا تشتغل إذا كانت القنوات صلبة. لذا يجب على المتواصلين أن يكونوا متموقعين في أماكن تصل إليها العلامات الضوئية بدون انقطاع؛ وأن يتوفروا على أعضاء بصرية مناسبة لإدراك هذه العلامات والتعرف عليها على مسافة من مصدر الإرسال.

يتيح ارتباط وسائل التواصل التحرك في فضاء كبير جداً، ويوفر الوقت الكافي للتفاعلات. كما يجعل طرقاً أخرى ممكنة الوجود والاشتغال في بيئة تم واسعة ومفتوحة. تتوفر على آثار تطويرية على مستويات متنوعة:

- تفضيل التغييرات التشريحية والاستشعارية. فجسم المتواصلين يطور المهارات والأعضاء المناسبة (أو تغييرها) لإنتاج علامات على أوسع نطاق وعلى مدى طويل أكثر، وذلك من أجل إدراكها.
- تؤدي إلى سلوكيات متنوعة جداً: تكيفات مختلفة جداً مثل تلك التي تطورها الأصناف المهاجرة (لاحتلال فضاءات عديدة) والمستقرة (للحفاظ على نفس الفضاء).

■ يمكن للمتواصلين أن يمارسوا نشاطهم في مساحات واسعة جدا، ومتباعدين بعضهم عن البعض بفترة طويلة من الوقت، دون أن يفقدوا الاتصال بينهم. لذا، تساهم العلاقات الأكثر انفتاحا في تكوين مجموعات منظمة لديها عناصر تتمتع بحرية كبيرة في الحركات.

وقد تدخل أيضا في صنفنا البشري وسائل التواصل في ما هو جسدي - الطريقة التي يتم بها تكوين الجسم - وفي ما هو تعبيرى - الطرق التي ينتج بها الفاعلون الإشارات. فقد كانت حاسمة في تحديد المجال، التعايش، والاستمرارية، ثم التنظيم الاجتماعي للسلوكات التي هي تحديدا من ابتكارات الإنسان. وسيتم هذا إنجاز بالتفصيل في الفصل الرابع عشر.

5. الإنتاج التقني لوسائل التواصل

لقد تمت الإشارة إلى أن الإنسان قد وصل إلى أن يكون مجهزا وراثيا بوسائل تواصل جيدة لها خصائص ظلت مستقرة بشكل أساسي خلال التطور الإنساني. لكن عندما تقوم الأصناف البشرية بتطوير تكيفاتها الخاصة تتخلى عن سلسلة من التغيرات العضوية، والعميقة والسريعة. وقد كانت مثل هذه التحولات مفضلة إلى حد كبير بواسطة الاستعمالات التي كانت تقوم بها هذه الأعضاء كوسائل تواصلية. لكنه ظهر كذلك عامل جديد للتغيير: إدراج أدوات صنعت في النظم الطبيعية لوسائل التواصل. لذا، فالقدرات التي يتوفر عليها التواصل الإنساني، والتي هي مستحيلة بالنسبة إلى أصناف أخرى من المتواصلين، هي صادرة، بالتحديد، عن هذه التغيرات.

(أ) الوسائل الضخمة والمترجمة

بين القرون أو الجذوع التي كان يستعملها أسلافنا، والهواتف النقالة التي تضعنا في اتصال، يتضح أن هناك اختلافات نوعية. ومن أجل فهم مكوناتها يجب تحديد ما تقوم به الأدوات الأولى المصنوعة للتواصل، والإلكترونية مع العلامات. وحسب هذا المعيار يمكن التمييز بين نوعين من الوسائل التقنية أطلق عليهما اسم "المضخمت" و"المترجمة".

"المضخمت" هي الوسائل التقنية التي تُستعمل لكي تتوفر العلامات على قوة أكبر أو على استمرارية لفترة طويلة.

❖ يعتبر الجذع المجوف أداة طبيعية تزيد من المسافة التي تصل إليها الأصوات لما يتم الضرب عليه.

❖ يعتبر القلم أداة مصنوعة تتحول مع المواد الكتابية إلى مصادر دائمة للعلامات.

لا يؤدي تضخيم العلامات إلى اختلافات أخرى. فهي تبقى علامات ضوئية، أو صوتية أو كيميائية؛ لكنها تستعمل بطريقة أفضل أو أقل عرضة للتلف.

لم نكن نحن المتواصلون الأوائل نستعمل الوسائل الكبيرة غير البيولوجية. مثلا، القنادس تقوم أيضا بضرب الجذوع المجوفة. وهناك قرود تستخدم الحجارة أو الأسلحة لتحدث شقوقا. لكن، على ما يبدو، نحن الصنف الوحيد الذي يصنعها.

موازاة مع هذا، إنشاء الوسائل المترجمة واستعمالها إمكانية خاصة فقط بصنفنا.

"المترجمة" هي الأجهزة التي تستعمل لتحويل علامات إلى علامات أخرى.

❖ كما هو معروف، التلغراف كان أول وسيلة تقوم بـ "ترجمة" علامات إيقاعية إلى أخرى كهربائية، مستغلة السرعة ومدى هذه الطاقة في التواصل.

❖ ويعتبر الهاتف التقليدي وسيلة لترجمة العلامات الصوتية إلى أخرى كهربائية (والعكس بالعكس).

❖ وتترجم أجهزة الهاتف النقال الصور والأصوات إلى علامات كهربائية، ومن ثم يتم تحويلها مرة أخرى.

لذا، فالإنسان صنع وسائل ضخمة من أجل التواصل أكثر قبل الثورة التقنية التي جلبها العصر الحجري الحديث. في المقابل، لم تنتج الوسائل المترجمة للعلامات لم تصل حتى تم استيعاب التحكم في الطاقات الكهربائية. لكن تحديث التواصل كخطوة تطويرية تم إنجازه في وقت وجيز.

(ب) أوجه الارتباط بين الوسائل الطبيعية والتقنية

كانت الوسائل التكنولوجية للتواصل مقيدة بالعمل في الفترات الحسية التي تتوفر عليها أعضاء الحواس، والتي بدورها تشكل جزءا من نظام الوسائل.

❖ يمكن استعمال الوسائل فوق صوتية أو تحت صوتية. لكن يجب أن تكون العلامات مترجمة إلى المكون الذي تدركه أذن الإنسان ليكون مدركا.

❖ هناك عدد من وسائل التواصل الإلكترونية. لكننا نحن البشر نفتقر إلى أعضاء لفك رموز العلامات الكهربائية بشكل مباشر، بحيث يجب على هذه المحفزات أن تكون مترجمة إلى صور وأصوات⁹³.

تقوم الوسائل التقنية بتحسين، وتوسيع وجعل القدرات التعبيرية والإدراكية للأعضاء البيولوجية ممكنة، لكن لم يتم بعدُ استبدالها. لذا، فهذا الاستقلال التكنولوجي في ما يخص ما هو بيولوجي يوجد منذ أصل عمل الإنسان. فينعكس على التواصل (على الأقل حتى الآن) وعلى خصائص الضخمة والمترجمة. وفي هذا الصدد تعد ملاحظة "مكلهان" " McLuhan " صحيحة عندما يؤكد على أن وسائل التواصل هي امتداد للحواس.

⁹³ كما تمت الإشارة، هناك أصناف أخرى تدرك بشكل مباشر العلامات الكهربائية وفوق الصوتية؛ وتميز بين المحفزات التي توجد فوق أو تحت العتبة التي تلتقطها حواس الإنسان.

الإشارات ومرجعها: العلاقات

1. الأشياء المرجعية في التفاعلات التواصلية

يعتبر المتواصلون الفاعلين الذين يمتلكون القدرة على الإشارة إلى الكائنات التي لا تقتصر على الأشياء فقط.

يفهم من خلال " الشيء المرجعي " ذلك الذي يتحقق بواسطة التواصل.

ويمكن للأشياء المرجعية للتفاعل التواصلية أن تكون أشياء ومواضيع مادية، وكائنات نشيطة، بما في ذلك المتواصلون وكيفية الإشارة إليهم؛ ثم الكائنات والحالات غير المادية (في بعض الأحيان).

لا يوجد تواصل بدون موضوع مرجعي، على الرغم من إمكانية وجود الموضوع المرجعي الذي لا "يوجد" في المعنى المادي للكلمة (على سبيل المثال، وحيد القرن أو المرور على الكل).

(أ) التمييز بين "الإشارة إلى الأشياء" و"معالجتها"

يشارك الشيء (المادي أو غير المادي، الحقيقي أو غير الحقيقي، المفرد أو الجمع) كشيء مرجعي في التواصل عندما يتم تحديده.

لا يعتبر التواصل نشاطا تتم فيه معالجة، ونقل أو تحويل الأشياء باعتبارها قابلة للتواصل. فقد تم ذكرها في التواصل.

❖ عندما تهدد الحيوانات بالهجوم على الدخيل بإشهار أسنانها، فإن فالعدوان مُمثَّل، لكن لم يتم تنفيذه.

❖ وعندما أطلب من أحد: "من فضلك أعطني هذا القلم فهذا لا يعني أنني تسلمت القلم لأنني ذكرته (ولو أن هذا الذكر يمكنه أن يكون برغبة الآخر في يسلمه لي).

❖ يمكن أن أقول لأحد ما : "لا أريد حتى أن أراه". لكن هذا لا يخفي حضوري، ما قمت به فقط هو توضيح هذه الرغبة.

❖ إذا عبرت على أنني " أود أن أمضي يوماً جميلاً في نهاية الأسبوع المقبل"، هذا لا يعني أن الجو سيتغير.

1) التمييز بين مراجع التواصل ومكوناته

من حيث التعريف، لا ينتمي ذلك الشيء الذي نتواصل به إلى النظام التواصلية. لذا يجب التمييز بين طبيعة الأشياء المرجعية (تثير التواصل) ومكونات نظام التواصل. فأن يكون شيء ما مرجعياً، لا يعني أنه يدخل ضمن مواضيع التواصل (الفاعلون)؛ ولا الوسائل (بيولوجية أو تكنولوجية)؛ ولا المواد التواصلية، والتعبيرية؛ ولا أنماط السلوك في التواصل (نماذج وتمثلات)، على الرغم من أن العلاقة بين الفاعلين، والتكافؤ بين الإشارات، والتفسيرات وحقيقة التواصل تتأسس على الأشياء المرجعية.

وهذا التوضيح يجعل كل مكون من مكونات التفاعل التواصلية جسماً مرجعياً لهذا التواصل نفسه. وهذا يحدث في التواصل من خلال التواصل ذاته (بمعنى ، في إطار ميتاتواصل)؛ ولما يحدث التواصل، فذلك من خلال الفاعلين، أو التعابير، أو الوسائل، أو التمثلات. وذلك لتكون مكونات النظام التواصلية ذات خصائص، وتقوم بأنشطة تواصلية وكي تكون مذكورة في التواصل، يتم تحديدها في خصائص أو أنشطة المرجع. فالوظيفة التواصلية والمرجعية مرتبطتان، لكنهما مختلفتان⁹⁴.

2) التمييز بين المراجع والمواد التعبيرية

يمكن للأشياء المرجعية المثالية أو المجردة، من حيث طبيعتها، أن تكون محددة. لكن، في المقابل، كل شيء مادي (شيء، جسم مصنوع والفاعل ذاته) يمكنه أن يكون، بالإضافة إلى كونه محددًا، مؤثراً من خلال النشاط التواصلية، لكن فقط في الوقت الذي تم استخدامه كمادة تعبيرية، كما هو موضح في تحليل الأعمال التواصلية. لنر هذه الأمثلة:

⁹⁴ العلاقة التي توجد بين الدور التواصلية وذكر هذا الدور يتيح إمكانية تأثير مكون التواصل في مرجع هذا المكون؛ والعكس بالعكس. مثلاً، عندما يشير الأستاذ إلى أداء تلميذه مشيداً بقدراته التواصلية، فهذا المرجع قد يؤثر في الطريقة التي يتطور بها التلميذ لما يتواصل، والعكس بالعكس.

❖ يقوم الجسم بقفزة من أجل لفت انتباه شخص ما، ويتم نحت اسم على شجرة، ويتم التلويح بعلم للإشارة إلى شيء ما. لكن هذه الأشياء المتغيرة تعتبر مادة تعبيرية يُعبّر بواسطتها الفاعل؛ وليست هي مرجع التواصل.

ولا شيء يحول دون استخدام مادة تعبيرية للإشارة إلى نفس هذه المادة. مثلا، عندما تتم الكتابة في ورقة، " فهذه تعتبر ورقة".

أ3) التمييز بين المراجع والتعابير

من أجل الإشارة إلى الأشياء المرجعية، يجب على المتواصل أن يعبر عن شيء ما. لكن "التعبير عن شيء ما" ليس هو نفس الأمر في "الإشارة إلى شيء ما".

❖ عندما يقال في مكالمة هاتفية بالإسبانية "ألو، ألو"، للتأكد من أن الاتصال قد تم مع الآخر، فهذا الاتصال يعتبر هو الشيء المرجعي للتواصل في هذه الفترة. و"ألو" تعبير مشتق من الكلمة الإسبانية "مرحبا hola"، ومشتق في الوقت نفسه عند العرب من كلمة "الله". فهذا التعبير لم يعد يستعمل من طرف المخاطبين إلى "إله المسلمين".

ب) التمييز بين "النقل" و"التواصل"

يتم تبادل المعطيات عن الأشياء في التواصل (من خلال المعلومة التي توفرها العلامات التي تم الحصول عليها من التعابير)، وعن غير الأشياء من خلال تلك القابلة للتواصل. فعندما يتم تبادل الأشياء يتم النقل وليس التواصل.

- إذا سألتني أحد: "من أي خشب صنع غليونك؟"، فأجيب "من الخلنج" وأقدم معطى حول غليوني (أستطيع أن أظهر أو لا أظهر الغليون، مما لا يؤثر عن حقيقة الإجابة)، أكون قد أسست التواصل وليس النقل).

لكن إذا ما تفاعلت مع السؤال بالصمت وأعطيت الغليون للآخر، فإنني أرتبط مع الآخر عبر فعل النقل (إذ إن الآخر يتوصل أولاً إلى التعرف على خشب الغليون، فلا يؤثر على حقيقة ما فعلته، لذا، فقد أثرت في شيء وليس في التواصل من خلال الشيء⁹⁵).

يلتقي التواصل والنقل في شيء (المادة والطاقة) يحفظ المسافة المكانية أو الزمنية بين الفاعلين. لكن هذه المادة أو الطاقة تتحرك في التواصل لأنها تحمل معطيات من خلال شيء مرجعي ما، ليس لأنه مادة من هذا أو ذاك الصنف، أو من هذا أو ذاك النوع الحيوي.

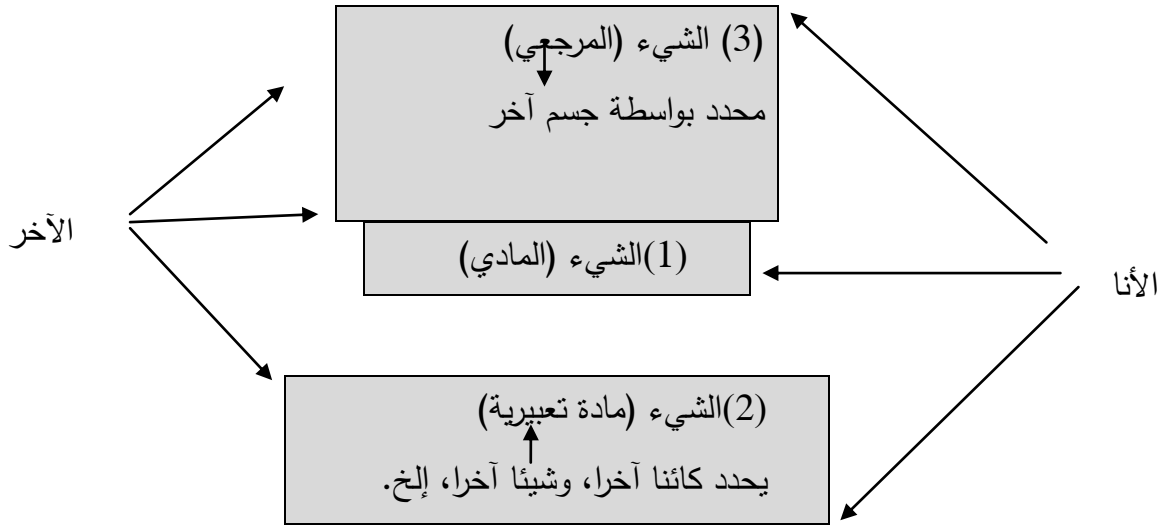
- وبالتالي، فالوظيفة التواصلية للرسالة تكمن في المعطيات التي ترسلها الأنا إلى الآخر وليس في الدور الذي يقوم به الورق (في المقابل، ورق الجرائد هو مادة خام للصحيفة). وتكمن الوظيفة التواصلية للتغراف في الدفعات الكهربائية التي تعتبر علامات ذات معنى؛ وليس في الاستعمال الحيوي لهذه الدفعات (على عكس ما يحدث في شبكة نقل الطاقة الكهربائية)⁹⁶.

يعكس الشكل 1.11 الاختلافات التي توجد بين استعمالات الأشياء والأشياء كمواد تعبيرية؛ وكمواد خام أو بضائع؛ وكأشياء مرجعية للتواصل الذي يعتبر العمل المهم في هذا السياق:

⁹⁵ يمكن للإجراء التنفيذي لنقل الغليون للآخر أن يتشكل بشكل ثانوي في الإجراء التعبيري من خلال مرجع آخر. مثلاً، إذا ما سلمت الغليون بشكل غاضب، أعبّر هنا عن غضبي تجاه الآخر. ففي هذه الحالة يصبح الغليون مادة تعبيرية للعلامات التي تقدم "الغضب". هنا التواصل يشير إلى علاقتي مع الآخر (غضبي) وليس مع الغليون: والذي يتغير ليس هو المرجع (غضبي) بل المادة التعبيرية (الغليون، معبراً عن "التسليم بغضب").

⁹⁶ يعود التواصل، في بعض الأحيان، للحفاظ على المسافة بين الفاعلين، إلى نقل المواد التعبيرية لما يجب على هذه الحوامل أن تكون منقولة مادياً عبر المكان، كما يحدث مع الرسائل. لكن هذا الاستعمال للنقل لا يعني أنه يمكن أن يكون مرادفاً للتواصل. يكون هذا الخلط بين النقل والتواصل في اللغة العامية، مثلاً، عندما تدعى السكك الحديدية "نظاماً تواصلياً"، كونه نظاماً للنقل يمكنه أن يعمل أو لا لنقل أشياء حاملة لمعطيات تواصلية.

الشكل 1.11 الاستعمالات التواصلية للأشياء وانتقال هذه الأشياء



- في (1) يقدم الفاعل أنا للفاعل الآخر الشيء كمادة ليكون مستعملا، ومجريا وممتلكا. يتعلق الأمر هنا بالاستعمال المادي.
- وفي (2) يقدم الفاعل الشيء للفاعل الآخر كمادة تعبيرية تشير إلى شيء آخر، وكشيء آخر، وكفكرة أخرى، إلخ. يتعلق الأمر هنا بالاستعمال التواصلية التعبيرية.
- أما في (3) فيشير الفاعل إلى الشيء عن طريق الآخر الذي يعمل كمادة تعبيرية. يتعلق الأمر هنا بالاستعمال الذي يكون فيه الموضوع هو مرجع التواصل.

2. إنتاج عالم الأشياء المرجعية المحددة للتواصل

أ) الأشياء المدرجة كمراجع للتواصل

يشكل الشيء جزءا من عالم مرجع المتواصلين عندما توجد في الذاكرة التعبيرية للأنا والذاكرة الحسية للآخر، بعض المجموعات المناسبة للإشارة إلى هذا الشيء المرجعي.

وفي حقل التواصل (لكن ليس بالضرورة في الحقول الأخرى) يتحقق بالفعل القول المأثور لويتجيمستين (Witgenstein). لذا يمكن تطبيقه باستخدام هذه العبارات المقتبسة:

إن ما لا يمكن الإشارة إليه في التفاعل التواصلية لا يمكن أن يكون محددًا كشيء مرجعي.

وبالتالي، يحدث هذا رغم أنه يوجد شيء له هيئة مادية ومعنوية، تختلف عن هيئة أخرى و يمكن تمييزها عن غيرها، أو في سياق آخر. والعكس أيضا صحيح:

كل شيء مرجعي للتواصل يمكنه أن يكون مشارا إليه ومحددا.

لذا فإن هذا الأمر صحيح رغم أن هيئة الشيء تكون غير حقيقية، وغير منطقية وغير معروفة بمعزل عن هذا المرجع، وعن الكيفية التي سيتم بها عرضها في ما بعد.

ومن الضروري للتعابير التي تُنتجها الأنا للإشارة إلى الآخر تذكر شيئا مرجعيا معينا، وأن تكون مميزة عن التعابير الأخرى البديلة، بواسطة تلك التي يمكنها ذكر أي شيء آخر.

(ب) التوافق المرجعي للمراحل التواصلية

يمكن التواصل في القيام بإشارات للآخرين وفي استقبالها منهم، وهي تحدد شيئا قابلا للتعرف من قبل كلا الفاعلين. فالأنماط التواصلية تجعل السلوكات التعبيرية للأنا ممكنة، والإدراكية للآخر محددة في شيء مرجعي معين. ويتم جمع هذه العلاقة في الشكل 2.11:

الشكل 2.11 العلاقة بين المرحلتين التعبيرية والاستقبالية

مرحلة الاستقبال (دليل العمل الإدراكي)	المرحلة التعبيرية (دليل العمل التعبيري)
<p>من أجل الاستكشاف الحسي للمحفزات الناتجة عن العلامات، بتنظيم المبادئ في</p>	<p>من أجل التسلسل الصحيح في استعمال المواد التعبيرية في ترتيب للوصول إلى التعبيرات الملائمة في الزمان والمكان المحددين، والتي تنتج للعلامات</p>
<p>تسلسل صحيح على علاقة أخرى، مع مبادئ وبمنحها</p>	<p>على مدى يسمح، لها بالوصول إلى حيث يوجد الآخر في المكان والزمان المناسبين؛</p>
<p>اسما يحدد الشيء المرجعي الصحيح،</p>	<p>ومميّزة، في ما بينها وعن باقي علامات المحيط .</p>
<p>إسناد للذي يحدد المرسل الصحيح، وأحيانا الاستجابة التي تتناسب مع طلب الأنا.</p>	<p>ودالة قادرة على تحديد موضوع مرجعي ما.</p>

3. التوافقات بين عالمي الإشارة والمرجع

(أ) النظام المرجعي للعالم

يؤسس الفاعلون الذين يتوفرون على أنماط تواصلية مرتبطة نظاما مرجعيا للعالم الذي يعيشون فيه.

يدل "النظام المرجعي للعالم"، من بين جميع المراجع، على أن كل فاعل يتعرف على بعضها وليس على البعض الآخر، وأن من بين كل الطرق الممكنة للقيام بتصنيفات أو مجموعات بواسطة هذه المراجع، يتم استعمال بعض المراجع وليس غيرها.

يُنْتَج التشكيل المشترك للعالم المرجعي من كون الفاعلين يربطون إشاراتهم في الوقت الذي يضبطون تجارب الحياة التي تشارك في التفاعلات. بعبارة أخرى، إن المتواصلين يشيرون إلى العالم بنفس الطريقة لأنهم يؤسسون جنبا إلى جنب مكانهم في هذا "العالم".

ويحقق المتواصلون مزايا مهمة لأنهم أدرجوا في أنماطهم السلوكية عالما مرجعيا مشتركا مع الآخرين، والقيمة التكوينية التي يتوفر عليها هذا الارتباط المرجعي خلال التطور يتم عرضها في هذا الفصل والفصل الموالي.

(ب) التوافق التطوري بين الإشارة والمرجع

يعتبر تحول الأنماط التواصلية واكتساب قدرات مرجعية كبيرة قضايا متكاملة. ويتم الاحتفاظ بالعلاقة بين الإشارة والمرجع على امتداد التطور، على الأقل حتى ظهور التمثلات الأولى. لذا، يعتبر هذا التوافق مُنظما هاما للآليات التطورية. وأعتقد أن هذا التكامل هو قانون الطبيعة الذي أسميته بـ "التوافق التطوري بين الإشارة والمرجع" والذي تم التعبير عنه بهذه الطريقة:

قانون التوافق التطوري بين الإشارة والمرجع:

تكون الأنماط التواصلية للتفاعل ذات فعالية تطويرية، منظمة مرجعيا.

ويشير هذا القانون إلى:

1° أنه انطلاقاً من اللحظة التي تظهر فيها التفاعلات التواصلية، يعمل التطور بتحويل عالمي الإشارة والمرجع في ذات الوقت.

2° أن هذا التزامن يعتبر آلية تكيفية.

تستخلص من خلال هذا القانون نتيجتان للتحليل يتم تحديدهما في السطور التالية:

1° تشمل الذاكرة الإجمالية للمظاهر التعبيرية المختلفة كل الاختلافات المرجعية التي يقوم بها المتواصل في "عالمه".

2° يقتضي نمو الأنماط التواصلية التي تزداد تعقيداً شيئاً فشيئاً، تقسيماً موازياً لعالم الأشياء المرجعية.

يتم البحث تجريبياً في وظيفة القانون عند الحيوانات ذات ذاكرة إجمالية من خلال الإشارات المختلفة التي تم تحديدها. وكما هو منطقي من السهل جدا القيام بهذا الاختبار في الأصناف ذات لغات بسيطة للغاية. لكن من الممكن أيضاً دراسة العلاقات بين العالم التعبيري والمرجعي للأصناف التي تتواصل بلغات معقدة نسبياً، مثلاً لدى الطيور (انظر Gill, F. B ; Nottebohm, F)؛ بل معقدة جداً كما عند الحيتان (انظر Suzuki, R y Buck , J.R ; Tyack, P.L).

ويستعمل الباحثون، بشكل متزايد في كثير من الأحيان، تقنيات متطورة للحصول على مواد تعبيرية، وعلى برامج قوية جداً من أجل فك شفراتها. وبالرغم من أنه يجوز أيضاً البحث عن كيفية اشتغال هذا القانون في لغات الحيوانات، فهذا يتم فقط بواسطة موارد الملاحظة وجهاز تسجيل الأصوات. مثلاً، قد يحاول علماء الطيور تحديد ذاكرة العلامات والرموز التي تتوفر عليها لغات بعض أصناف من الطيور.

وتساعد ملاحظة التوافقات بين المظاهر المختلفة للطائر الذي يعبر، وردود أفعال الطائر الذي يستوعب، على تفسير ما هي المراجع المتعلقة بكل إشارة. إذن، فحسب القانون الذي تم اختباره، تشمل ذاكرة الإشارات كل الاختلافات المرجعية التي يكون هذا الحيوان قادراً بواسطتها على الفعل في "عالمه"، أو إذا أراد أن يشير إلى حقيقة العناصر المختلفة التي توجد في هذا "العالم الخاص به".

يتكون النموذج الآتي من دراسات علماء الطيور. ويضم مجموع الإشارات ومطابقتها المرجعية التي يمكن العثور عليها في سراب من الطيور النموذجية وغير الموجودة. ويُفترض أن هذا النموذج للغة التي تتواصل بها عناصر السراب تعمل بعلامتين فريدتين: "بي" و "كو"، وأن الرمز التعبيري يتيح مجموعات

ثنائية وثلاثية بهذه العلامات. لذا، فهذه هي ذاكرات المظاهر الدالة بالمراجع المناسبة التي تنتج النموذج التالي:

المراجع	المظاهر الدالة
> مكان التعشيش / العش <	1. "بي - كو"
> مكان التغذية / الغذاء <	2. "كو - بي"
> عنصر من السراب / الإذن بالاقتراب <	3. "بي - كوبي"
> ليس عنصرا من السراب / خطر العدوان <	4. "بي - كوكو"
> الصقر الذي يطلق من فوق / يختفي <	5. "كو - بي بي"
> الثعلب الذي يطارد / يطير <	6. "كو - بي كو"
> طلب الطعام عند النكاث / للتزواج عند الأنثى <	7. "بي - بي بي"
> تحديد المجال عند الذكور / طلب التزواج عند الذكر / الاستقرار في العش عند الأنثى <	8. "كو - كوكو"

يبين المثال ثمانية علامات تتجزأ إلى أقسام أخرى عديدة في العالم المرجعي:

■ يتم استعمال المظهرين الدالين الأولين لأننا في مساحات وأشياء الوسط التي هي قابلة للتوظيف عناصر كالأشجار، والصخور، والأراضي الرطبة أو المزروعة. فالطائر يرجع إلى التعشيش، أو إلى التغذية.

لذلك تقوم المظاهر المتبقية بالإشارة إلى الآخرين. فتستعمل الثالثة والرابعة في التفاعلات المحددة داخليا؛ أما الخامسة والسادسة فتستعمل في التفاعلات المحددة بينها.

■ يجب أن تقوم العلامة التي تميز بين الثالثة والرابعة بالتعرف على المتجانسات، وعناصر مجموعتها الخاصة أو مجموعة أخرى، وعلى ما يترتب عن استجابات من التسامح تجاه أنفسهما أو من العدوان تجاه الآخرين.

■ أما الخامسة والسادسة فهي لذكر الحيوانات المفترسة ومن أجل التمييز بين نوعين: الذي يهدد من الجو، والذي يهدد من الأرض. وتشير في الوقت نفسه إلى السلوكات المناسبة للهروب.

■ وأخيراً، تشير المظاهر السابعة والثامنة، في ذات الوقت، إلى سلوكات التوالد والخصوبة. لذا يجب على العلامات أن تعمل مع جنس العناصر التي تعبر.

وهناك علاقات بين الإشارة والمرجع كما في علم السلالات والتطور الجيني. كما أنها تتوفر على فائدة مهمة لمعرفة المسافة بين "عالم" الفاعلين، حيث لا يدخل الباحث بشكل مباشر - اعتماداً على أشياء مرجعية- انطلاقاً مما يُظهره له المتواصلون من خلال هذا "العالم" بإشاراتهم.

وفي ما يلي ستنم دراسة التعقيد المتزايد والمتنوع في هذا النموذج الذي تحصل عليه مكونات العالم المرجعي استناداً على التغيرات في القدرات التعبيرية. وهذا هو الإجراء الذي تم اتباعه في هذا الكتاب من أجل عرض النموذج التطوري الذي يربط بين الإشارة والمرجع. وهو النموذج الذي يتم تقديمه وشرحه في الفصل الموالي.

الإشارات ومرجعها. المراحل التطورية

1. تطور الأنماط الدالة وإنتاج عوالم المرجع

ترتبط الأنماط التواصلية بين تصرفات الأنا التعبيرية وتصرفات الآخر الإدراكية، فكلا السلوكين يتغيران بشكل ضمني على امتداد التطور، لأن هذه التحولات تتطابق مع التعقيد المتزايد الذي يحصل عليه الإنتاج الدال والمرجعي؛ إذن، يتعلق الأمر في هذا الفصل بتحديد مراحل هذه العملية الإنتاجية.

أ) الأنماط التواصلية الأولى

يقوم التواصل على أسس عصبية، كما يُنتج عن الارتباط الحسي - الحركي لبعض الحيوانات التي لم تعد بعدُ قادرة على التواصل لبناء جسر بين عالم بدون مواضيع مرجعية وآخر مليء بالمراجع، والتي من خلالها تجاوزنا كل الكائنات المتواصلة التي أنتجناها.

من خلال البرامج العصبية - التي تربط استجابات بعض الفاعلين بعلامات الآخرين - سيتم تنسيق أنماط الأنا من أجل التعبير، وأنماط الآخر لاستقبال الإشارات؛ لذا يتم تشغيل هذه الأنماط التواصلية أولاً عن طريق أنماط السلوك؛ ثم عن طريق التمثلات.

ويعتبر النمط التواصلية برنامجاً يؤسس علاقات أكثر أو أقل مرونة بين مجموعة من تصرفات الأنا والآخر في التواصل.

تعتبر الأنماط التواصلية منغلقة، ومنها تنتج عنها الأنماط المنفتحة المولية، التي تلتقي في كونها غير قابلة للتعديل دون تغييرات تطورية قبلية.

- يتم ضبط برمجة الأنماط المنغلقة في الوظيفة الحسية والحركية للكائنات الحية، فهي تستخدم بواسطة نظم عصبية حساسة، مشكلة من نموذج الإنغرامس الحسي - الحركي؛ لهذا السبب تكون قدرة هذه الأنماط محدودة لربط الأعضاء والتصرفات التعبيرية والإدراكية، لكنها تسمح بدرجة معينة من الحرية للفاعلين، على الأقل فيما يخص الاختيارات بين الإشارة / عدم الإشارة؛

الاستجابة/عدم الاستجابة؛ لذا فهذه الأنماط قادرة على الإشارة إلى الحالة التي يوجد فيها الفاعل، إن صح التعبير، وتدرج لأول مرة الرموز في التفاعل⁹⁷.

■ من خلال هذه الأنماط التي ما تزال مقيدة يتم إنتاج أنماط أخرى تكون شيئاً فشيئاً أكثر انفتاحاً تتيح إدراج المعلومة المكتسبة عن طريق التجربة والتعلم، وتكون مبرمجة لكي تتم مراقبتها- إلى حد ما (ليس كلياً)- من قبل المعلومة التي يُدخلها الآخر في التفاعل التواصلي. إذن، تعتبر هذه الأنماط الجديدة مناسبة للإشارة إلى العلاقات بين المواضيع الطبيعية والفاعلين فيما بينهم⁹⁸.

ب) إدراج التمثلات في التواصل

في الأخير لا تقتصر الأنماط التواصلية على التغيرات الجينية والسلوكيات المعتادة، إذ تتغير حسب الحالات، وحسب وظيفة مواضيع الفاعلين؛ لذا فهي اللحظة التي ستشارك فيها التمثلات في الربط بين التصرفات التواصلية.

وتعتبر التمثلات مجموعة من المعطيات المرجعية التي تكون منظمة في نموذج.

ويتوفر كل نموذج تمثلي على معنى معين لمستخدم أو مستخدمٍ هذا التمثل، ويتم تطبيقه عندما يمنح معناه مجموعة جديدة من المعطيات المرجعية⁹⁹.

- لا يعتبر فقط ظهور المعطيات المرجعية "الكلب"، و "الطفل" و "العضة" تمثلاً دون معنى.
- يتناسب تنظيم هذه المعطيات حسب المتغير، "الكلب يعض الطفل" أو "الطفل يعض الكلب"، مع النماذج المختلفة التي لديها معاني مختلفة.

⁹⁷ تتكون الإشارة من تعيين شيء ما، وتعتبر أثناء الحالات الأولى للتواصل، الحالة أو الطلب الذي تم الإشارة إليه باستعمال بعض العلامات التي لا تعتبر الشيء المشار إليه. فهذه العلامات تعمل مثل الرموز. ومن ثم يتوفر المتواصلون الأوائل على مهارات رمزية حتى لو أنها في شكل أصلي.

⁹⁸ تكتمل الحاجة إلى الجزء الجيني للنمط، بتعلم التصرفات التواصلية لعناصر أخرى، بحيث تم التعرف عليها في الجنس الإنساني منذ الدراسات الأولى بما يسمى "صغار الذئب". ونفس هذه الحالة تعمل بها الطيور. تقوم صغار الأصناف التي تتوفر على أناشيد متطورة مثل العصفور المتوج، في محيطها الطبيعي، بتقليد وتعلم زقزقة ونغمات أقرانها الكبار. وإذا تم استبعادها وعزلها عن العش، لن تصل أبداً إلى اكتساب هذه الكفاءة التعبيرية، ولن تكون صالحة لوضعها فيما بعد مع كبار آخرين عندما يصبحون كبار.

⁹⁹ يمكن تمييز التمثلات حسب استعمالها (انظر مانويل مارتين سيرانو، في نظرية التواصل، الابيستيمولوجية وتحليل المرجع):

(أ) التمثلات التي تعتبر نماذجاً للحدث تعطي للمعلومة معنى يؤثر في السلوك. مثلاً، يمتلك السائق نموذجاً من التمثل الذي ينشئ بعض الاستجابات (السرعة، الفرامل، وتدوير المقود) ارتباطاً ببعض المحفزات الناتجة عن الطريق ولوحة مؤشر السيارة.

(ب) التمثلات التي تعتبر نماذجاً للمعرفة تعطي للمعلومة معنى يؤثر في المعرفة.

مثلاً، يحدد تمثّل النموذج العائلي في كل ثقافة، الأشخاص الذين يعتبرون أقرباء أو غرباء.

(ج) التمثلات التي تعتبر نماذجاً مقصودة تعطي للمعلومة معنى يؤثر على أحكام القيمة.

مثلاً، اسناد بعض النوايا التي لا تعبر عنها سلوكيات أو كلمات الآخرين إلى التواصل بين الأشخاص.

إن المعيار البسيط للتمييز بين الأنماط والتمثلات هو كالاتي:

- عندما لا يمكن للفاعل أن يشير إلى سلوكه الخاص، يكون مبرمجا بواسطة النمط.
- وعندما يكون الفاعل قادرا على القيام بالإشارة إلى سلوكه، يشتغل التمثل (رغم أن إشارته زائفة أو خاطئة).

وقد تظهر أنماط السلوك التواصلي لكي تربط بين التفاعلات التواصلية للفاعلين؛ في المقابل، تعتبر التمثلات العوامل الكونية، التي تشتغل في كل أنشطة الفاعلين الذين يتوفرون على هذه القدرات العقلية؛ لذا، فإن دمج التمثلات قد يفترض أن التغير البيولوجي للتفاعلات التواصلية تسيطر عليه نماذج معرفية، بيد أن هناك صلة بين كلا النوعين من الأنماط التي سيتم توضيحهما عن طريق العملية التطورية اللاحقة.

تتوافق المعلومات الآتية من مصادر وأصناف متعددة في التفاعل التواصلي، ذلك الذي يكون مدعما بالعلامات التي يتبادلها المتواصلون فيما بينهم، والمعلومة الجينية التي يعمل كل فاعل بإنتاجها واستقبالها، وتكون كذلك المعطيات التي تصل عن طريق التواصل مجزأة، في بعض الحالات، وحاملة لأخطاء، أو تكون مشوهة في بعض الحالات الأخرى، كما أن البرامج الفطرية تصحح أشكال التعبير والاستقبال؛ أو تكمل المعاني.

ويسمح الاقتصاد الحيوي والفاعلية بانتشار أجهزة الذاكرة التي يتوفر عليها كل المتواصلين، أولا للحفاظ على العادات التعبيرية والاستقبالية، ثم في مرحلته التطورية لتخزين المعلومة التي لها علاقة بحالات وهوية الفاعلين الآخرين؛ وبالمواضيع والحالات المرجعية.

أثناء فترة التطور يتم توسيع ذاكرة الحالات والسلوكات التي يكون فيها استعمال المعلومة دالا، في حين يرتفع عدد المواضيع التي يشملها العالم المرجعي وتتنوع؛ لذا تجعل هذه التوسعات كل معلومة تُنتج في العملية التعبيرية والاستقبالية ممكنة، وبالتالي يكون تطوير استعمالات التواصل محددًا بواسطة القدرة التي يتوفر عليها المتواصلون لإنشاء "سجلات الذاكرة" واسترجاعها.

من هنا، فإن التواصل يساهم في تنمية معلومات هذه السجلات، وتنظيم محتويات الذاكرة وفق الممارسات التي سيقوم بها الفاعلون فيما بينهم، لكن هذا النشاط ليس الوحيد الذي يحدد المحتوى والعمليات.

لذلك يتم إنتاج التمثلات باستعمال كل معلومة يمتلكها الفاعل بشكل مستقل عن الكيفية التي تم إنشاؤها بها، ففي نهاية المطاف تقوم التمثلات بتنشيط السلوكات التواصلية، حيث يتم توسيع وجمع أو تصحيح المعطيات وتقديم نموذج لتطوير التفاعل التواصلي، ومساهمة المعيار لتفسير وتصحيح أو التخلص من المعلومة التي يصل إليها الفاعل بواسطة تصرف تواصلي. فعند القيام بهذه الاستعمالات التواصلية للتمثلات يتم تحديد وظيفة الأنماط التواصلية التي سبقتها ومراقبتها.

يعتبر إنتاج وتحويل تمثلات العمليات المعرفية استعمالاً لكل معلومة يتوفر عليها الفرد، على الرغم من أن محتويات كل تمثّل واستعمالاته قد بلغت درجة إلى التخصص، كما أن الأنشطة التمثيلية التي تحدث في التواصل لا تتوفر على استقلالية، إذ يتم الحديث عن الاستعمالات التواصلية للتمثلات، أو الوظائف التي تقوم بالتمثلات في التواصل، أو عمليات التمثّل التي تحدث أثناء التواصل، أو الطريقة التي تمثّل الظواهر التواصلية، أو تأثير التواصل على التمثلات؛ لكنه من غير الصحيح الإشارة إلى "التمثلات التواصلية"، الأمر الذي لا يمنع من أن يكون التواصل - الذي يساهم بمعلومة جديدة، ويؤدي إلى استبدال المعلومة عن طريق موضوع المرجع بمعلومة أخرى أو العكس - طريقة من الطرق الأكثر فعالية لتغيير محتوى التمثلات العامة وتعديل تنظيمه.

ج) أنواع الأنماط التي تنظم التفاعلات التواصلية

بين الشكل 1.12 هذه الأنواع الثلاثة للأنماط التي تنظم التفاعلات التواصلية، ويلخص الخصائص التي تميز كل واحد منها.

يتضح تطور الأنماط التواصلية في التغيرات الفيلوجينية كما هو الحال في الأنتوجينية، فيصبح من الممكن؛ في كلتا الحالتين؛ البحث في تطوير القدرات الدالة، والتحقق، في الوقت نفسه، من كيفية تجزيء عالم المواضيع المرجعية؛ لذا تعرض العناوين الآتية النموذج التطوري، حيث يتم التمييز بين المراحل التي كان لها؛ حسب اعتقادي؛ هذا المسار.

الشكل 1.12 أنواع الأنماط الموجودة للربط بين التفاعلات التواصلية

التأثيرات	الآليات	الفوائد	الأنواع
يثير نشاط الأنماط التعبيرية استجابات فطرية، (تنفيذية أو/وتعبيرية).	أنتوجينية في مراقبة من قبل نظام مستقل في عمله، ونشيطة بواسطة العلامات الدالة ذات قيمة في حالة الحاجة، والتي يتم تليبيتها في التفاعل مع الآخر.	يتفاعل النمط الإدراكي للآخر مع المعلومة الدالة للأنا، لكن لا يدمجها، و تحدد درجات الحرية للإشارات والاستجابات، بالنسبة إلى البدائل التي تتيح النظم العصبية الأولى.	الأنماط المغلقة
مثل سابقتها، إضافة إلى أن كل خطوة من التفاعل تتم مراقبتها من قبل العلامات الخاصة التي تتوفر على قيمة دالة. لذا يمكن تغيير النمط عن طريق التكيف.	مثل سابقتها، لكن يتدخل النظام العصبي بشكل اعتباطي.	تدمج المعلومة الدالة الصادرة عن الأنا لوظيفة نمط الآخر، والعكس بالعكس. تضبط هذه الطريقة ارتفاع درجات حرية أنماط السلوكيات المفتوحة لفاعل آخر.	الأنماط المفتوحة
يتم تغيير النمط من خلال الممارسة، ويتغير أيضا أثناء التنشئة الاجتماعية.	تتغير بواسطة عمليات معرفية حيث يمكن أن تتدخل الملاحظة والتقليد والتعلم الرمزي.	تدمج المعلومة الآتية من أي مصدر، إلى تلك التي تأتي من الآخر. فيتم إنتاج واستقبال المعلومة عن طريق عمليات معرفية. يتيح ارتفاع درجات الحرية التي يحصل عليها الفاعل، فقط بتوقع سلوكياته فيما يتعلق بالاحتمالية الاحصائية.	التمثيلات

2. المراحل التطورية للإشارة

لقد تم تقديم التطور المشترك للقدرات التعبيرية بتكوين العالم المرجعي في الشكل 1.12، بحيث يتضمن أربع مراحل تطويرية سيتم تحليلها فيما بعد.

أ) النموذج التطوري

المرحلة الأولى: اكتساب السيطرة التعبيرية على الجسم الخاص

عندما تشير بعض التغيرات التي يعرفها الجسم إلى حالة فاعل لفاعل آخر.

من الممكن للاستعمال التعبيري للجسم أن يعمل بمرونة؛ مثلاً، تغيير الشكل أو اللون. كما يكتسب وظائف تعبيرية كالأبيض؛ مثلاً، الإرسال التحكيمي لإفرازات التبول أو مواد أخرى ذات رائحة.

يمكن افتراض أن التعابير الجسدية الأولى، وتلك التي تبدأ معها التفاعلات التواصلية، تُنتج عن تحكم الوظائف العضوية التي ترتبط بشكل مباشر بالحاجة التي تشير إليها هذه الإشارات.

❖ مثلاً، تُنشط الاستجابة لمحفزات المحيط، عند بعض الحيوانات، الهرمون الذي يكتمل بمهنتين: تهبيء الجسم لحالة الاستعداد الجنسي؛ وتجعله في الوقت ذاته ملائماً، لأنه يتغير في اللون.

يميز السلوك التعبيري للمتواصلين الأوائل بين إشارتين: ظهور الفاعل // مقابل // عدم ظهوره. لذا فالتمييز المرجعي يلائم التمييز بين:

> حالة الطلب // مقابل // حالة الراحة <

يفترض نطق الإشارات والحالات وجود نمط تواصلية بالفعل، لذا، تكون القدرة في التعامل مع هذه الأنماط البدائية في التفاعلات التواصلية متاحة للحيوانات التي تتوفر على نظم عصبية بسيطة، وهذا تم شرحه في هذا الكتاب (انظر الفصلان 3 و4).

المرحلة الثانية: اكتساب القدرة على الإشارة إلى العالم الموضوعي

يتم إدراج العالم الموضوعي كمرجع للتواصل لأول مرة عندما يتوفر المتواصل على القدرة التعبيرية على التمييز بين إشارتين:

الإشارة إلى < نفسه كطالب // مقابل // موضوع طلبه >.

تعتبر هذه الإشارات هي الأولى التي من شأنها أن تقوم بالإشارة إلى المحيط، لذا من الأرجح أن يكون أصلها ناتج عن انقسام المرجع < حالة الطلب > الذي يوجد في المرحلة السابقة.

يدل التمييز بين الطالب وموضوع هذا الطلب ضمناً على تجزئة العالم الموضوعي، فيحتاج بدوره إلى أن يرتبط بمرجع آخر يعارضه: لذا تتدرج تلك المواضيع التي ترتبط بحاجيات الفاعل في مجال الموضوع. أما باقي المواضيع فتستخدمه في عمق؛ لذا يندرج التجزيء الجديد، بشكل متوقع، ضمن الشكل الآتي:

الذي تشير إليه الأنا / الذي لا يجب للأنا أن تشير إليه وأحتاجه // مقابل // الذي لا يجب أن تشير إليه الأنا ولا أحتاجه.

بناء على هذا، فالنمط قادر على التواصل من خلال تخصيص موارد المحيط، فهي الفترة التي يجعل فيها التواصل من الممكن أن تأخذ التفاعلات بعين الاعتبار المجال الخاص.

المرحلة الثالثة: اكتساب القدرة على التعرف على الآخر

يتم تقسيم الإشارة المتعلقة بالمواضيع التي لا يشير إليها الفاعل باعتبارها خاصة إلى قسمين:

يتعرف الفاعل، من بين المواضيع على تلك التي تظهر وتتصرف كأنه هو الذي خلقها، وتتداخل مع الأشياء التي يطلبها أو يريد استبدالها.

إن هذه الكائنات الموازية لنفس الموضوع هي "مواضيع في حد ذاتها"، فينقسم العالم الذي ليس هو نفسه لإعطاء مساحة لموضوع له أيضاً عالمه.

فعندما تظهر القدرة على التعرف على الآخر، تظهر الهوية في الوقت نفسه، إذن يمكن للفاعل أن يتعرف ويحدد بنفسه أنه هو الأنا وليس الأنا الآخر؛ لذا يعالج التوازنات من عدمها بين الآخر والأنا.

> يختلف الآخر وكأنه الأنا الآخر، عن الأنا / وتختلف الأنا، وكأنها الآخر الآخر، عن الآخر <

لذلك تتكشف التفاعلات التواصلية وفق التماثل أو عدم التماثل الذي يدركه الفاعلون بين:

الأنا (ما هو للأنا) // مقابل // الآخر (ما هو للآخر).

يظهر المرجع في إنجاز وتأثيرات التفاعل، حيث إنها الفترة التي يصبح فيها التواصل ميتا - تواسلا: بمعنى أن الفاعلين قادرين على الإشارة إلى التواصل كموضوع للتفاعل.

ولكي تكون هذه الاختلافات ممكنة، لابد من أنماط التواصل أن تعمل بالتمثلات.

تُستعمل التمثلات الأولى، التي تم دمجها في التواصل، كجزء من المعلومة التي ستوجه السلوك، وبعض الأثر، والصور والمفهوم، المرتبطة بعلاقة الفاعلين مع احترام المواضيع المرجعية.

إن دمج طبيعة العلاقة بين الفاعلين والأنماط التواصلية قد تكون له صلة مع التكاثر، لأن هذه القدرة التواصلية هي ضرورية بالنسبة إلى تلك الأصناف التي تغذي وترعى نسلها خلال فترة معينة من الوقت؛ فمن المفترض أن تظهر بين الحيوانات البيوضة، قبل أن تتطور إلى ثدييات تُرضع. وبالتالي فهذه المرحلة الثالثة ستوفر الآلية التطورية التي تعطي الأصل للتواصل الإنساني، وهو ما سوف يتم وصفه في الفصل 22، العناوين 2، 3 و 4.

المرحلة الرابعة: اكتساب القدرة على الإشارة إلى الحالة

عندما تتأسس العلاقة بين:

> التمثل الذي يتوفر عليه الفاعل من خلال حالته // مقابل // التمثل الذي يعتقد أن الآخر يقوم به من خل هذه الحالة <

ستبحث " الحالة المتمثلة" على أي موضوع، كائن أو علاقة، لكن يعتبر المرجع التواصلية الأفكار، والمفاهيم، والنماذج، التي بواسطتها يؤسس كل فاعل التمثلات التي يظهرها للآخر.

لهذا وصل جنسنا الإنساني إلى العمل بالمفاهيم التي تمثل مفاهيم أخرى، وبالرموز التي ترمز إلى رموز أخرى.

❖ على سبيل المثال: أشير إلى أن "نظرية التواصل تدرس التفاعلات الدالة". أود أن أشير إلى شيء مجرد - "نظرية التواصل" - لما أقول إنه الشيء المجرد "الذي يدرس التفاعلات التواصلية".

إن الإدراك والتعبير عن الأفكار المتعلقة بالأفكار تحتاج إلى "مستوى ثان من التجريد الرسمي". وتظهر هذه القدرة العقلية خلال فترة المراهقة، لكن عادة ما يجب أن تكون محفزة عن طريق التدريب.

لذلك، فالقدرة على معالجة هذا المستوى الثاني من التجريد هي، على الأقل حتى الآن، المرحلة التطورية الأخيرة للتواصل. وما زال من الواضح أن أشباه الإنسان حينما طوروا هذه المهارات المجردة، وأيضا قروء الشمبانزي، وإنسان الغاب وغيرها من العائلات القريبة منهم، يمكنهم أن يتدربوا مثل الإنسان للعمل بها. ويمكن أن نتصور هذا المسار في شموليته على النحو التالي:

تبدأ التصنيفات التعبيرية البسيطة جدا، وعن غير وعي، بتدبير حالة الحاجة للإشارة إلى الحاجة؛ وتصل إلى أقصى تعقيداتها باستعمال الإشارات المجردة، عن وعي، للإشارة إلى التمثلات.

(ب) التطور والارتداد الدالان

لا يعني اكتساب القدرات المعقدة جدا للإشارة أنه تم فقدان القدرة على استعمالها ببساطة عالية، لذا تبقى الأنماط التواصلية الأولى تشغل في الأصناف التي تستعمل أنماطا أخرى أكثر تعقيدا أو تمثلات، وفي الواقع توجد في العديد من التفاعلات التواصلية الازدواجية التعبيرية.

❖ مثلا، يشير الجسد البشري إلى حالة الفاعل بالرغم من أنه لا يريد ذلك، هكذا يحدث عندما يثير الفاعل في التواصل اللفظي كائنا مرجعيا مرتبطا بالوظائف البيولوجية أو الحاجيات الأولية (الغذائية، والجنسية، والإقليمية، والمرافقة والقبول، وغيرها). وسوف تتزايد فيما بعد في هذا المظهر التعبيري المزدوج. (انظر الفصل 19، العنوان 5).

الشكل 1.12 التطور الفيلوجيني والأنتوجيني للإشارات، وتجزئء عالم المواضيع المرجعية

التميز المرجعي	تصنيف التعابير			
<p>التمييز (الطلب / الراحة)</p>	<p>1 أ التعبير عن الحالة الموضوع (شرح الحالات الفيزيولوجية للحاجة وقدرة الانفعال للاستعمال التعبيري)</p>	<p>المرحلة الأولى اكتساب القدرة التعبيرية</p>		
<p>التمييز ما يتعلق بي/مقابل/ ما لا يتعلق بي</p> <hr/> <p>التمييز</p> <table border="1" data-bbox="240 869 528 1025"> <tr> <td>ما ليس لي ولا أحتاجه</td> <td>أنا/ ما ليس لي وأحتاجه</td> </tr> </table>	ما ليس لي ولا أحتاجه	أنا/ ما ليس لي وأحتاجه	<p>2، 1 التعبير عن المحيط الكانن الموضوع (تحديد مكونات النظام الإيكولوجي)</p> <hr/> <p>2، 2 التعبير عن الامتلاك أو الانتماء الكانن الموضوع لي الموضوع ليس لي (تحديد المجال الخاص)</p>	<p>المرحلة الثانية اكتساب قدرة المرجع الموضوعي</p>
ما ليس لي ولا أحتاجه	أنا/ ما ليس لي وأحتاجه			
<p>التمييز</p> <table border="1" data-bbox="240 1122 528 1384"> <tr> <td>ما ليس لي ولا أحتاجه</td> <td>أنا/ ما ليس لي وأحتاجه</td> </tr> </table> <p>أنا الآخر</p>	ما ليس لي ولا أحتاجه	أنا/ ما ليس لي وأحتاجه	<p>3 أ التعبير عن الغيرية الكانن الموضوع لي الموضوع ليس لي كانن آخر (اكتشاف "الأناانية / الغيرية")</p> <p style="text-align: center;">→ ←</p>	<p>المرحلة الثالثة اكتساب القدرة للتعرف على الآخر</p>
ما ليس لي ولا أحتاجه	أنا/ ما ليس لي وأحتاجه			
<table border="1" data-bbox="240 1413 528 1771"> <tr> <td>ما ليس لي ولا أحتاجه</td> <td>أنا/ ما ليس لي وأحتاجه</td> </tr> </table> <p>أنا الآخر</p> <p>تمثل الآخر</p> <p>تمثل الأنا</p>	ما ليس لي ولا أحتاجه	أنا/ ما ليس لي وأحتاجه	<p>4 أ التعبير عن التمثل الكانن الموضوع لي الموضوع ليس لي كانن آخر</p> <p>تمثل الأنا</p>	<p>المرحلة الرابعة اكتساب القدرة على الإشارة إلى الحالة</p>
ما ليس لي ولا أحتاجه	أنا/ ما ليس لي وأحتاجه			

تتيح استقلالية تعبير الجسم البشري استنتاج أن جسمنا يبقى متكيفا للإخبار عن المطالب والإنجازات، والأفراح والمخاوف التي تعبر عنها حيواناتنا السابقة، أو التي تشتغل بنفس التشكيلات >الحاجة – الإشارة<. لذا فهذه الأنماط المعمول بها عندنا، والتي هي كائنات العالم الذي لم يسكنه الجنس البشري، كانت بمثابة مراجع أولى.

إذن، يتحقق الاحتفاظ بهذه المظاهر التعبيرية المستقلة في الأشخاص الذين يعيشون بإحساس ارتدادي في مراحل الإشارة، لذلك تعتبر التراجعات التعبيرية مشتركة عندما يعثر عليها الأشخاص بصعوبة لتمثل الحالات، أو لتسوية أنفسهم في علاقاتهم مع الآخرين، وتكون أكثر ندرة وخطورة بالنسبة إلى أولئك الذين يرون أن علاقاتهم الموضوعية دمرت. لهذا سيتم إنتاج -وفي حدود- عدم القدرة على الإشارة إلى حالات الحاجة، الحالة التي يسمح المتواصل بوجودها. إذن، هذه المسارات لها ما يعادلها عند الحيوانات، عندما يتم استبعادها عن محيطها أو عزلها عن الاتصال مع مجانسها.

3. تصنيف المواضيع المرجعية

يمكن للإشارات التي تتدخل في التواصل أن تتم الإشارة إليها:

1. بحالة الفاعل.

❖ تفتح الكتاكيت منقارها عندما تعود الأم إلى العش بالغذاء، في وضع الابتلاع الذي يتناسب مع مظهر "أطعمني".

1.2 بحالة الفاعل في وسطه أو من الوسط.

❖ عندما يراقب الطير بإشارة من أعلى الشجرة "قرب المفترس".

❖ استمرارا في الأمثلة التي تقدمها الطيور، فالإشارة إلى " الامتلاك / الدفاع عن فضاء الإنجاب" التي تقوم بها بعض الغربان من خلال الإشارة بالحجارة إلى منطقة التعشيش والتزواج.

3. بالعلاقة مع الآخر، وإنجازات أو تأثيرات التفاعل.

❖ عندما تعبر البطة عن "طلب/استعداد للتزواج" من خلال العلامات التي تنتج مع حركات "المغازلة".

❖ وعندما يعبر الكلب عن "تقديم نفسه" بإظهار العنق والبطن بالنسبة إلى الكلب المهيمن.

1. بالتمثل من تمثّل آخر.

يمكن الإشارة إلى تمثّل الحالة التواصلية الخاصة. مثلا، يعبر منشط المذيع عن التمثّل بـ "أنا أتصل" مرتبطا بالعلامات التي تميز (PQ).

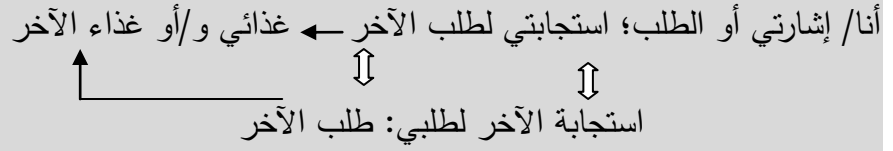
لذلك يمكن التعبير عن تمثّل الكيانات المجردة باستعمال مصطلحات مجردة. مثلا، عندما يتم وصف السيمفونيات باستعمال رموز الألحان.

الشكل 2.12 تصنيف المراجع حسب تطور التفاعلات التواصلية.

أشير لك	تصنيفات المراجع	تصنيفات التعابير	الشروط
1.1 للحالة	أشير إلى: أنا هنا / أنا موجود // لم أظهر	"أنا في حالة الحاجة".	قدرة التحكم في ملاءمة الأنا في سياق التفاعل.
1.2 للمحيط	أشير إلى: أني في حالة الحاجة // أن هناك بالتحديد موضوعا لحاجتي أو رغبتني. مثال: أنا ↔ أتغذى	"أريد هذا الغذاء"	قدرة التبعية في تلبية الحاجيات الموضوعية. التنقل وإمكانية الانتقال إلى حيث يوجد الموضوع.
2.2 للامتلاك أو الانتماء	أشير إلى: أنا // أن هناك مواضيع لرغبتني أو حاجاتي / أن هناك مواضيع أخرى. مثال: أنا ↔ أنا أتغذى	"أنتمي إلى هذه الوجبة"	القدرة التنافسية والفائدة الخاصة في تلبية الحاجيات الموضوعاتية.
3.3 للغيرية	أشير إلى: أنا // أن هناك مواضع لحاجتي أو رغبتني // أشير من بين المواضيع الأخرى، إلى البعض منها يعتبر في الوقت نفسه مواضع الحاجة. مثال: أنا ↔ أتغذى بنفسني و/أو من الآخر الأنا الآخر	"أعطني، وخذ وتقاسم معي هذه الوجبة".	التعلم، واللعب.
4.4 للتمثل	إشارتي للوضع الذي يتضمنني، والذي يشمل أيضا الموضوعات والآخر/ الإشارة الى الآخر	"كنت تشير لي إذا ما كنت تقاسمت	التعاون.

	في الوضع الذي يتضمنني ويشمل الموضوعات.	هذه الوجبة".	
--	--	--------------	--

مثال:



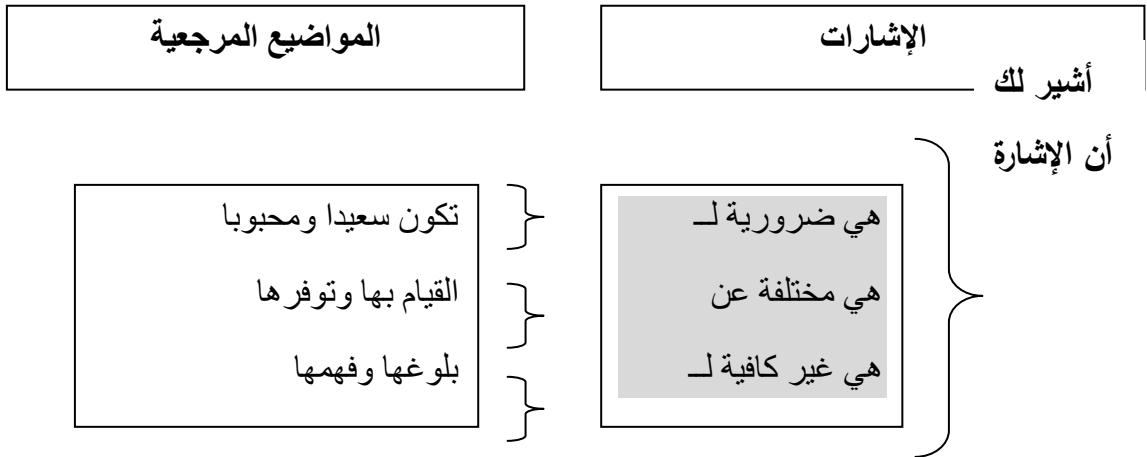
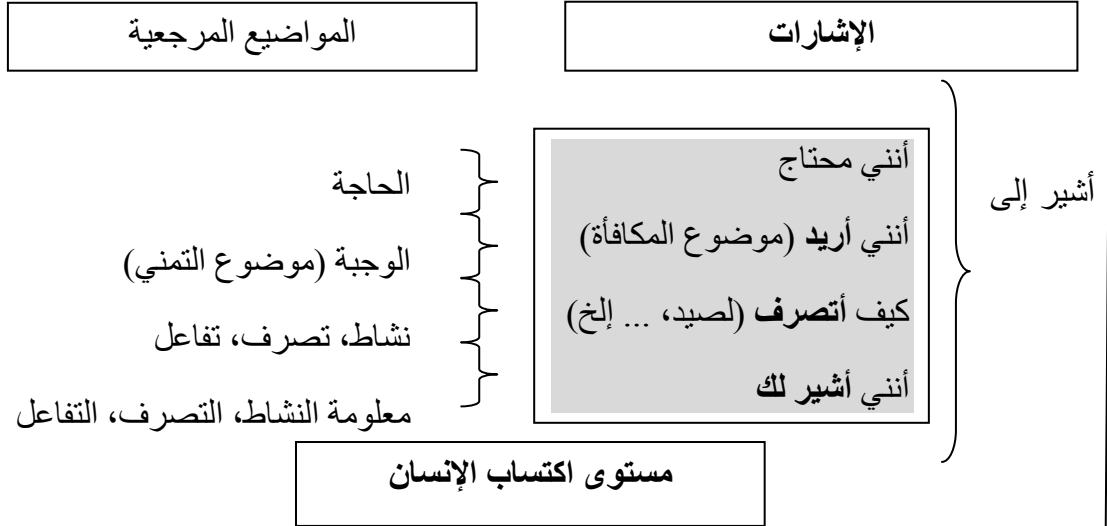
تتوافق هذه التطورات المرجعية مع ظهور تصنيفات التعابير المناسبة، مثل ما تم وصفه في العنوان السابق. وتتطلب من الفاعلين امتلاك القدرات العضوية الخاصة، ومستوى معيناً من الارتباط فيما بينهم. وكل هذه الارتباطات تم تقديمها بطريقة منهجية في الشكل 2.12.

4. القدرات الدالة والمرجعية للحيوان والإنسان

إن الجنس البشري له القدرة على تحديد مجموعة من المواضيع المرجعية التي تم إدراجها هنا، بينما توجد في الأجهزة المرجعية للحيوانات بدرجة أقل من التوا

الشكل 3.12 تطور الإشارة عند الحيوان والإنسان

مستوى اكتساب الحيوان



نفس الأمر، لكنه كذب

في اللحظة التي كُتِبَتْ فيها هذا الفصل، اعتبرتُ أن الحيوانات ليست قادرة لا على المستوى الفيزيولوجي ولا العقلي على التعبير عن التمثلات والإشارة إليها، لذا، فهذا هو المستوى التطوري، حيث يتم الآن وضع الحدود التي تستخدم للفصل بين الإنسان والحيوان. والشكل 3.12 يبين الحدود التي يُعتقد أنها تجاوزت التواصل الإنساني بارتباطه مع الحيواني.

ومع ذلك فبعض الحيوانات، بالرغم من أنها لا تتواصل حول التمثلات، إلا أنها تتواصل باستخدامها، لهذا تتعرف الأصناف التي تشير إلى العلاقة بين عناصرها عندما تتواصل على أن الآخر هو معادل لنا في بعض المظاهر؛ وأنه ليس كذلك في بعض الأصناف الأخرى. ومن أجل الإشارة إلى هؤلاء المتواصلين، يتم وضعهما منطقياً قبل أو أثناء المظهر التواصلية، في مواقع الأخرى. فما زال الاستمرار - في بعض كتب التواصل وعلم نفس الحيوان - في الكتابة على أن هذه القدرات المعرفية هي اكتساب إنساني، بالرغم من أنه كان متوقعا ظهورها في الأصناف السالفة عند الطيور والثدييات.

ولا تكون الحيوانات التي تطور مفهومها، على العموم، قادرة على الإشارة إلى الآخر وإلى نفسها. لكن لا يوجد هذا الحد في جميع الحالات. مثلا، تحتاج الهرمية بين أعضاء المجموعة وإعادة تنظيم دوراتها إلى تدبير بعض المفاهيم من أجل تحديد مكان كل عضو مع احترام المجموعة. لذا، فهذه أمثلة لمفاهيم العلاقة <الأعلى > <في نفس المستوى > <الأدنى >. إن مكونات العديد من أصناف الثدييات الاجتماعية، إضافة إلى إنجاز العمليات العقلية التي تتيح لها التعرف على الهرمية، تشير عندما تعبر إلى هذه العلاقات الهرمية، وإلى علاقات أخرى بديلة. دائما ما تنتهي في التطور بواسطة إنشاء توافق معين بين القدرات المعرفية والتواصلية. فيما يتعلق بالتمثلات، من الممكن تصور أن هذا التغيير لم يتحقق حتى ظهور الأصناف الإنسانية، مما يؤدي إلى طرح الفرضية التالية:

إن التمثلات الأولى التي تم تغييرها بمسارات عقلية، وخاصة الإنسانية، يُحتمل أن تكون مرتبطة بعالم القيم، خصوصا من أجل تنظيم العلاقات بين أعضاء المجموعة، باستخدام معايير مكونة اجتماعيا، على سبيل المثال، <أكثر أو أقل وثوقية >.

يمكن أن يحدث أيضا أن المعرفة الجيدة للعلاقات التي تربط بين التواصل الإنساني والحيواني تتطلب مرة أخرى إدراك الحدود التي تفصلنا. مثلا، قد تظهر القدرة المرجعية للقرود أكثر بكثير مما كان مفترضا، عندما يتم البحث من خلال الأشكال التعبيرية المعتمدة عن الإيماءات اليدوية¹⁰⁰.

ولمعرفة الإمكانات المرجعية للقرود، يجب اعتبار خصائصها أنها إيمائية وليست شفوية، لذا يبدو أن المتخصصين متفوقون على أن الشمبانزي والقرود تعرف وتعبر عن الهوية (تعرف عليها بنفسها وتعمل بنموذج من العالم الذي توجد فيه ولهما علم بوجوده)؛ وترسل معرفة مفهومة وتطبقها على حالات جديدة¹⁰¹.

على كل حال، تحتاج هذه الاستعمالات للمعلومة الاشتغال ببنيات تركيبية متعددة الأبعاد، فهذا الصنف من الرموز يتيح اختراع علامات جديدة، لذا يعمل تركيب اللغات الإنسانية المنطوقة ببنيات نفس النوع، فهناك بعض الباحثين الذين اعتقدوا أنها تستعمل كذلك عند بعض القرود والثدييات البحرية عند تواصلاتها¹⁰².

لهذا، ترتبط هذه المهارات التواصلية بالقدرة على الحفاظ على النشاط التمثلي المستقل، أي أنها ناجمة عن محفزات غير تواصلية، ومولدة بالملاحظة في الشكل أو ردة الفعل، فإذا عالج الحيوان الإشارات بهذه الطريقة، فلا بد أن تُنسب إليه المهارات التمثلية المناسبة. لهذا، فهناك الآن مجال مفتوح للبحث والتحقق حول ما إذا ما يمكن للحيوانات القريبة منا أكثر أن تتعلم أو لا، باستخدام الرموز التي تحدد الرموز.

¹⁰⁰ إن دراسة القدرات المعرفية واللسانية للقرود لم تبتدأ حتى حلت الجشطالنتية محل نظرية الانعكاسات في تفسير التصرف الحيواني. ويرجع هذا التغيير إلى وولفغانغ كويهلير الذي نشر سنة 1917 "اختبار ذكاء القرود". المؤلف الذي ظهرت فيه سيكولوجية الحيوان وسيكولوجية الشكل معا. كانت التجارب التالية التي اهتمت بمعرفة سبب قدرة الشمبانزي على فهم واستعمال الكلمات، محدودة. والفرضية التي تقول أن البيئة الإنسانية مرتبطة بهذه المفردات المحدودة قادت الزوجين الشابين الباحثين، إلى تربية طفل وقرود منذ ولادتهما باستغنائهما عن نفس المعاملة لئليهما. ولقد تم التحقق من أن اللسانيين المتقدمون كانوا أزواجا؛ لكن توقفوا مع القرود عند حوالي ثلاثة أشهر. وقعت هذه التصاميم في خطأ افتراض أن المهارات اللغوية للقرود كان عليها الظهور بالضرورة من خلال اللغة المنطوقة. ومن أجل تصحيحه تم تعليم أنواع مختلفة من القرود لغة الأصم، والنتائج تحسنت بشكل ملحوظ. لكن التعلم يعطي قفزة نوعية عندما يتم تصميم لوحات تتوفر على رموز، وإيقونات أو لا، فإنها تتناسب مع المواضيع، والكائنات والأحداث التي قد يمكن للحيوان أن يشير إليها. ومن أجل استمرار تاريخ البحث عن القرود في حالات غير طبيعية يمكن الاطلاع على: F. B. M de Waal.

إن الملاحظات الخاصة بالمحيط الطبيعي للقرود، قد أظهرت أن التفاعلات التواصلية لها أهمية أساسية في تنظيم مجموعات الغوريلا والشمبانزي، فكانت أكثر تعقيدا مما كان يفترض. لقد فتح العمل في حقل جين غودال (Jane Goodall) وباحثون نكران الذات آخرين، كل الأسئلة حول الحدود الفعلية التي تفصل التواصل الإنساني والحيواني.

¹⁰¹ انظر كالوب، ج.ج. (Gallup, G.G. JR)، وبوفينيلي، د. (Povinel, D.)، وسواريز، س. (Suarez, S.)، وأندرسون، ج. (Anderson, J.)، ليهامتي، ج. (Lethmate, J.)، وميزيل، إ. (Mezel, E.)، روسون، أ. (Russon, A.E.)، وبارد، ك. أ. (Bard, K.A.)، باركر، س. ط. (Parker, S.T.)، وحول تطوير قدرات القرود انظر: بييرني، ر. (Byrne, R.W.)، و توماسيلو، م. (Tomasello, M.)، و كال، ج. (Call, J.).

¹⁰² يؤكد كاتي أرنولد (Kate Arnold) وكالوس زوبيلاهلير (Klaus Zuberbuhler) أن القرود ذات الأنف الأبيض هي نوع من القرود التي تقيم في نجيريا، وتمتلك لغة شفوية التي تعمل ببناء الجملة التي توجد فيها مستويين من النطق: الأول، الأصوات تشكل الكلمات والكلمات، ثم تكون جملة مختلفة تتغير حسب المرجع والحالة.

تتوفر فرضية بنية اللغة الإنسانية المنطوقة ورمزها الأدائي، على معادلهما في التواصلات الحيوانية، كما أنها تعتبر صالحة للحياتان والحوت الأهدب حسب فريق متعدد التخصصات من الباحثين المرتبطين بالمعهد التكنولوجي ماساتشوستس. لقد بحثوا عن البنيات المنطقية لنماذج التفسير التي بواسطتها كونت هذه الثدييات "أناسيها". فحسب ما يبدو أن النموذج الرياضي المناسب لهذه الأنماط، يعمل كمستخدم تركيبية. انظر سوزوكي، ر. (Suzuki, R.)، و بوك، ج. ر. (Buck, J.R.)، و تايبك، ب. ل. (Tyack, P.L.).

بناء على ما سبق، يحتفظ العالم المرجعي للإنسان بالعلاقة بين الإشارات التي تكون ضرورية من أجل التفاهم بين المتواصلين، لكنها نمت وتطورت دون الاعتماد بشكل حصري على تجارب الحياة. وترجع هذه الاستقلالية إلى قدرة الإنسان على إنشاء تمثيلات من "عوالم" خيالية ومستحيلة ومتناقضة، ثم الإشارة إليها، كما يتوفر أيضا هذا العالم على خاصية يجب شرحها انطلاقا من آليات أخرى مختلفة عن تلك التي تم وصفها في هذا الفصل. وهذه الدراسة نقوم بها في الفصل 20.

بنية عملية التواصل وعناصره

1. مكونات التفاعلات التواصلية

أ. مجموعة المكونات

لقد تم في الفصول السابقة وصف المكونات والأنشطة التي تشكل جزءا من كل التفاعلات التواصلية بتركيز، لذا سيتم في هذا الفصل توضيح كيف تنتظم وبأي طريقة تشتغل.

للبدء في هذا التحليل من المفيد إعطاء نظرة شاملة، بحيث يتيح الجدول 1.13 عرض سلسلة كل الأنشطة التي سيقوم بها المتواصلون من بداية العلاقة التواصلية حتى انتهائها.

الجدول 1.13 تطور العلاقة التواصلية من بدايتها حتى نهايتها.		
الأنشطة المطلوبة		
(+)	<ul style="list-style-type: none"> يدخل الفاعل الأنا أثناء التفاعلات في علاقة تواصلية مع فاعل آخر (أو مع عدة فاعلين). فهذه العلاقة تبدأ عندما تحقق الأنا العمل التعبيري. 	↓
	<ul style="list-style-type: none"> يغير الأنا بواسطة العمل التعبيري حالة مادة معينة (عضوية، غير عضوية؛ طبيعية، مصنعة) يستعملها كمادة تعبيرية. 	↓
	<ul style="list-style-type: none"> يتضمن العمل على هذه المادة التبادل الحيوي مع المحيط، وينتج علامات. 	↓
	<ul style="list-style-type: none"> في الأخير، تتوفر هذه العلامات على كثافات و/ أو توترات مختلفة عن باقي العلامات التي ترسلها هذه المادة، أو أي مصدر آخر للعلامات. ويمكن أن تكون المادة التعبيرية، في هذه الحالة، مناسبة لفاعل آخر (الأخر) أو لعدة فاعلين، وهذه الملازمة تحتاج إلى: 	↓
	<ul style="list-style-type: none"> وجود قناة للإرسال مناسبة لخصائص هذه العلامات، والتي يمكن من خلالها الوصول من مصدرها إلى أدوات مستقبلية (بيولوجية، تكنولوجية) من تلك التي تتوفر عليها الآخر لالتقاطها. 	↓

(++)	<ul style="list-style-type: none"> ▪ أن تكون العلامات محفزات مناسبة لكي تعتبرها الأعضاء الحسية للآخر كتعاليم. 	↓
	<ul style="list-style-type: none"> ▪ أخيرا، يمكن للآخر أن يحقق بهذه التعاليم عملا إدراكيا. 	↓
	<ul style="list-style-type: none"> ▪ يفسر العمل الإدراكي للآخر التواصل، لذلك يشمل خمس مهام متناسقة فيما بينها: <ol style="list-style-type: none"> 1. تبين أن هذه التعاليم تأتي من العلامات التواصلية، بالتمييز بين تلك التي لها هذا الأصل وكل العلامات الأخرى التي تم إدراكها. 2. معرفة كيف يلائم المادة التعبيرية، انطلاقا من تشكيل التعاليم. 3. إعطاء معنى ما لهذا المظهر التعبيري، بإعطاء شكل معين للمعلومة التي تم انتقاؤها. 4. نسب هذا المظهر إلى أي فاعل؛ وتحديده مثل الأنا الذي يهدف إلى الإشارة إلى شيء ما. 5. تحديد إشارة أي موضوع من خلال مرجع. 	↓
	<ul style="list-style-type: none"> ▪ يفرض الآخر السلطة على التفاعل الذي قد ينشؤه مع الأنا، ويكتسب هذا الدور عندما يتم القيام بتأويل ما. ويمكن أن يكون هذا الفعل استجابة تواصلية (في أ و ب) وغير تواصلية (في ج و د): 	↓
	<ul style="list-style-type: none"> (أ) يمكن للآخر، في نهاية المطاف، أن يستجيب للأنا من أجل تأكيد التأويل. ▪ سيستخدم الآخر عنصرا أو عدة عناصر للتأويل: التعرف؛ والإسناد؛ والعزوة؛ والتعيين. (ب) في الأخير، سيستجيب للأنا للاستمرار في تبادل المعلومة الدالة. لذا فالآخر والأنا سيتبادلان مواقعهما وتصرفاتهما التواصلية حتى نهاية التفاعل. 	
	<ul style="list-style-type: none"> ▪ في نهاية المطاف، يمكن للآخر أن لا يستجيب للأنا. فهذا الانقطاع للإشارات يمكن أو لا يمكن أن ينتهي بالتفاعل. (ج) يستمر التفاعل عن طريق التنفيذ، رغم أن التأويل الذي يمنحه الآخر لإشارات الأنا قد يشمل الأنا. (د) ينهي الآخر التفاعل عندما لا يقوم أو لا يشير إلى شيء قد يشمل الأنا. 	

(+) أجزاء التواصل التي تعتمد على ما يقوم به الأنا.

(++) أجزاء التواصل التي تعتمد على ما يقوم به الآخر.

تضم العلاقة التواصلية مكونات ذات طبيعة مختلفة من أجل تطوير هذه الأنشطة، ونذكر باختصار مجموعة المكونات، والدور الذي يلعبه كل واحد منها. وهي كالتالي:

(أ) على الأقل فاعلان سيشغلان موقعين متكاملين لكنهما مختلفين، على طول التفاعل التواصلية.

(ب) المواد التي تعتبر مصدر العلامات وغايتها:

- من جهة، مادة تعبيرية، والتي يمكن أن تكون جسما، شيئا طبيعيا أو كائنا اصطناعيا. وتتحول بفعل عمل الفاعل الذي يعبر لكي تكون ملاءمة لفاعل آخر.

- ومن جهة أخرى، مادة إدراكية: جهاز الحواس، أو الجهاز التقني الذي يعتبر حساسا للعلامات المستعملة في هذا التفاعل التواصلية.

(ج) أدوات تواصل بيولوجية وتكنولوجية أحيانا. تكون هذه الأدوات بدورها منظمة في ما بينها على شكل نسق:

- من جهة، الأدوات التي يحتاجها كل فاعل في موقع الأنا لتنفيذ عمله التعبيري، والذي يتكون من إنتاج تغييرات تعبيرية للمواد؛ والعمل بالطاقات التي تتحول إلى علامات لها قيمة دالة في التواصل؛ وجعل هذه العلامات تدخل وتمر عن طريق القنوات التي توصلها إلى المتواصلين الآخرين.

- ومن جهة أخرى، الأدوات التي يحتاجها كل فاعل عندما يشغل موقع الآخر من أجل تحقيق عمله الإدراكي، الذي يتكون من استعمال الأعضاء، وتحريك قدراته الحسية والإدراكية للعلامات الدالة التي ينتجها نشاط الأنا. ويواصل الآخر عمله الإدراكي باستغلال ما اختزن في ذاكرته، وتحليل المعلومة من أجل نسب الإشارة إلى الأنا الذي قد أنتجها، والإشارة إلى المعلومة التي استقبلها، وموضوع المرجع الذي تمت الإشارة إليه بواسطتها.

(د) أنماط السلوك التي تربط الأنشطة التواصلية لكل متواصل في التفاعلات مع المتواصلين الآخرين.

يحدث هذا التعديل بين الإجراءات التي يقوم بها المتصل في كل مرة يشغل فيها موقع الأنا أو الآخر التواصلي؛ وبين الإجراءات الموافقة التي يمكن أن تناسب متواصلا آخر على مدى التفاعل.

ويتحقق ارتباط التفاعلات التواصلية لأن سلوك كلا الفاعلين يعمل وفق نمط ما. إذن، تكون الأنماط التواصلية عند الحيوانات المتطورة والإنسان مراقبة بدورها من قبل التمثلات؛ ومن ثم فإن الأنماط البيولوجية يتم تحديدها بواسطة المعارف.

ب) وصف البنيات والعمليات التواصلية في نماذج

لقد تمت دراسة هذه المكونات باعتبارها مجموعة منظمة، وكذلك ملاحظة العلاقات التي توجد بينها أثناء تطوير التفاعلات التواصلية. في الحالة الأولى، يتم تحليل البنيات التواصلية، ثم دراسة عمليات التواصل بعد ذلك. وكلتا المهمتين تتحققان باستعمال نماذج، بحيث إن البعض منها يصلح لوصف البنيات التي يتمثل فيها تنظيم السلوكيات التواصلية، والبعض الآخر لجعل العمليات واضحة ويعكس تطوير الأنشطة التواصلية. لذا يجب على النماذج البنيوية، بشكل منطقي، أن تتناسب مع النماذج الإجرائية.

وتنتج النماذج عن المناهج التي يطبقها الباحث لإنجاز بحثه النظري، ويمكن إدخالها عندما يتم وصف كل العناصر التي ستشمل هذه النماذج، أي في اللحظة التي تُظهر فيها الأجزاء طبيعة الكل. هكذا نكون قد وصلنا في هذا الكتاب إلى نهاية هذا الجزء المتعلق بطبيعة التواصل.

2. نظم التواصل

لإنجاز تحليل نسقي من الضروري أن يكون الموضوع قيد الدراسة يتوفر على تنظيم معين، بمعنى أن يكون، بشكل واقعي، عبارة عن نظام. إذن، التواصل عبارة عن نظام، لذلك تتيح هذه الخاصية استعمال المنهجيات النسقية، عندما يكون ذلك مناسباً وممكناً.

عندما يستعمل مصطلح "نسق" لتحديد كيانات حقيقية، فهو يعارض مصطلح "إضافة". إذن، فالنسق والإضافة هما مجموعتان متساويتان، أي هما الكيانان اللذان يتكونان بالجمع بين أكثر من عنصر. ويتجلى الفرق بين كلا المصطلحين في كون مجموعة عناصر نسق ما تُظهر التنظيم الذي تفتقر إليه عناصر الإضافة¹⁰³.

¹⁰³ توجد المظاهر المنهجية للتحليل النسقي في الفصل 23. ويتوفر القراء المهتمون بمعرفة تفاصيل أكثر حول التحليل النسقي أو تطبيقه على منشورات أخرى للكاتب. انظر "تطبيق النظرية والمنهج النسقي في العلوم الاجتماعية"؛ و"نظرية التواصل. الإبيستيمولوجية وتحليل المرجع".

❖ مثلاً، لا تستجيب التشويشات الطفيلية التي تتدخل في إرسال التلغراف، لأي تنظيم، وتعتبر إضافية. في المقابل، تكون العلامات التي تمر عبر نفس هذه القناة منظمة وعبرة عن نسق.

(أ) التواصل باعتباره نسقا

تتجلى الشروط التي تجعل التواصل عبارة عن نسق حقيقي في مستويين: من جهة، في الطريقة التي تكون فيها منظمة بها؛ ومن جهة أخرى، في طبيعة مكوناتها:

¹ إن جميع الأنشطة التي تشغل فيها العلامات التي تقوم بمهمة تواصلية، هي منظمة على شكل أنساق.

وتندرج الأنشطة التواصلية ضمن هذه الأنشطة، لهذا تقوم العلامات بوظيفتها التواصلية بعلاقتها مع علامات أخرى بديلة، فالمعلومة تشير إلى النسق وليس إلى عناصر معزولة.

❖ يعرف طلبة السيميولوجيا المثال التالي: يشير الضوء الأخضر لعلامات المرور بأن المرور مسموح به للراجلين، لأنه يشكل جزءاً من لائحة العلامات، بينما يشير الضوء الأحمر إلى مرور مرور السيارات؛ والأصفر إلى تغيير أولوية المرور.

² لا تعمل النظم التواصلية فقط بالمعلومة، بل تتوفر أيضاً على المعلومة التي تشكلها.

تعتبر "المعلومة" نموذجا من الإشارة إلى مفهوم أكثر شمولية "لتنظيم داخل أي نظام". ومن خلال وجهة النظر هذه، فإن معرفة التعقيد والتنظيم، الذي يتميز به كل نظام هو نفسه معرفة معلوماته، كما أن المكونات المرتبطة بالعنوان 1.أ تم تنظيمها بطريقة مثل تلك التي تجعل من التواصل نظاما.

ومن أجل معرفة أن المكونات تشكل جزءا من نظام معين، يتم التحقق من الخصائص التي يتوفر عليها كل واحد منها، ويتم توضيحها كنتيجة لانتمائها لهذا النظام¹⁰⁴. وهذا يحدث في هذه الحالة:

▪ يعتبر توافق فاعلين اثنين، على الأقل، لحدوث تواصل، مطلباً يوضح لماذا التواصل هو عبارة عن تفاعل.

▪ إن الاختلافات التواصلية بين الأنا والآخر تتأسس بمراعاة الموقعين اللذين يشغلانها في النظم التواصلية.

▪ إن العلاقات التي يحتفظ بها المتواصلون مقررة في وظيفة الأعمال التواصلية المناسبة.

في المقابل، يعتمد اشتغال وديمومة النظام على وجود هذه المكونات وعلى هذه الاختلافات في ما بينها، ثم على هذه العلاقات التي تحتفظ بها.

وليس هناك نظام للتواصل بفاعل واحد. ولا يعمل هذا النظام بالفاعلين الذين لا يقومون بمهام مختلفة تناسب قيامهم بالأدوار عندما يعملون بمثابة الأنا و الآخر. ولا يعمل أيضا حينما لا يتحمل الفاعلون تبعات المسؤولية تجاه بعضهم البعض: فالأنا له عمل التعبيري كي يؤوله الآخر؛ والآخر له عمل إدراكي يحصل به على المعرفة التي يريدها الأنا.

هذا كله عبارة عن تحليلات ممكنة موازية مع المواد التعبيرية، ومع الوسائل التواصلية، ومع الأنماط السلوكية. وبالتالي تم التحقق من أن كل واحد من هذه العناصر يعتبر مكونا ضروريا في جميع النظم التواصلية.

(ب) النموذج الأساس المعروض في النظم التواصلية

يقدم الشكل 1.13 النموذج الذي يناسب البنية الأساسية للنظم التواصلية¹⁰⁵، تلك التي يتم القيام بها من قبل الإنسان، وكذا التي ينشؤها الحيوانات المتواصلة، وتلك التي لها عناصر كلها طبيعية، والتي تضم

¹⁰⁴ تم في العنوان 3 من الفصل 23 عرض مبادئ وقواعد التحليل النسقي وتم وصف كيف يتم تطبيقه في هذا الكتاب.

أيضا عناصر أخرى ذات طبيعة تكنولوجية. فعندما يتحول إنتاج التواصل إلى نشاط اجتماعي منظم، فالنظم التواصلية تضم أكثر من عنصر في كل مكون؛ بينما تضم عددا قليلا من المكونات، ومن طبيعة مختلفة، في غياب أي عنصر.

يبين النموذج أن النظم التواصلية لها ثلاث خصوصيات:

1[°] تكون مكونة من مكونات ذات طبيعة متنوعة: إنسانية أو حيوانية، وفي الوقت نفسه مواد وأدوات: طبيعية أو اصطناعية، إضافة إلى ترتيب مكونات الفاعلين العصبية أو المعرفية.

2[°] تأثير وتأثر جميع العناصر بالعناصر الأخرى.

وتتجلى هذه العلاقات من خلال الأسهم التي تجمعها مع تلك التي تشير إلى الاعتماد المتبادل:

- حسب الفاعلين، سواء كانوا أناسا أو حيوانات، هناك الأدوات التي يستعملونها، والمواد التي يعملون بها، والأنماط التي تربطهم بالمهمة التواصلية.
- وبالاعتماد على الأدوات التي تكون بيولوجية أو تكنولوجية، يتدخل فاعلان معينان أو لا، والعمل بمواد ملائمة دون غيرها، ويكونان أنماطا لها طرق تطبيقية معينة.

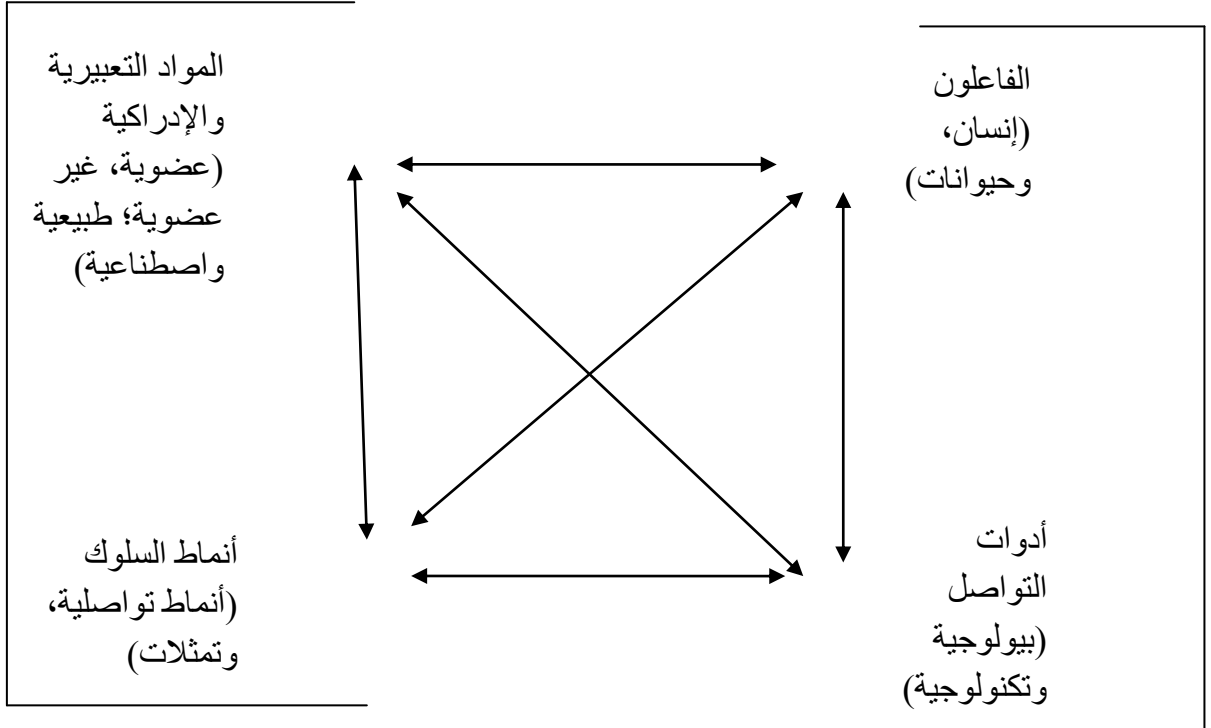
3[°] تكون نظم التواصل منفتحة.

من خلال هذا التعريف، يرتبط النظام المنفتح بأنظمة أخرى يمكنها أن تؤثر فيه أو يؤثر فيها، لذا فالانفتاح يمثله التواصل بإغلاق غير تام، يتوفر عليه الإطار في النموذج.

وسيتم إجراء تحليلات النظم الأخرى التي تعتبر نظاما تواصلية منفتحة وذلك في الفصل 23.

¹⁰⁵ يتوفر هذا النموذج على انتشار واسع منذ سنة 1981 عندما نشرته في الكتاب. انظر مانويل مارتين سيرانو "نظرية التواصل. إبيستمولوجية تحليل المرجع". ومازال صالحا لنفس المكونات والعلاقات. ومع مرور الوقت وتجربة التدريس، أصبح ضروريا تغيير بعض ال مصطلحات لكي تكون أكثر دقة.

الشكل 1.13 الطبيعة غير المتجانسة للمكونات المرتبطة بالتفاعل التواصلي



3. عمليات التواصل

يتكون نموذج بنية التواصل الذي تم عرضه من المكونات التي تشكل جزءا من نفس النظام التواصلي فقط، في المقابل، يتطلب تمثيل العمليات التواصلية في نموذج عرض أنظمة أخرى غير تواصلية، لأن عملية التواصل تدخل في تفاعل مع عمليات أخرى مادية ومعرفية.

(أ) طبيعة التعدد النسقي لعمليات التواصل

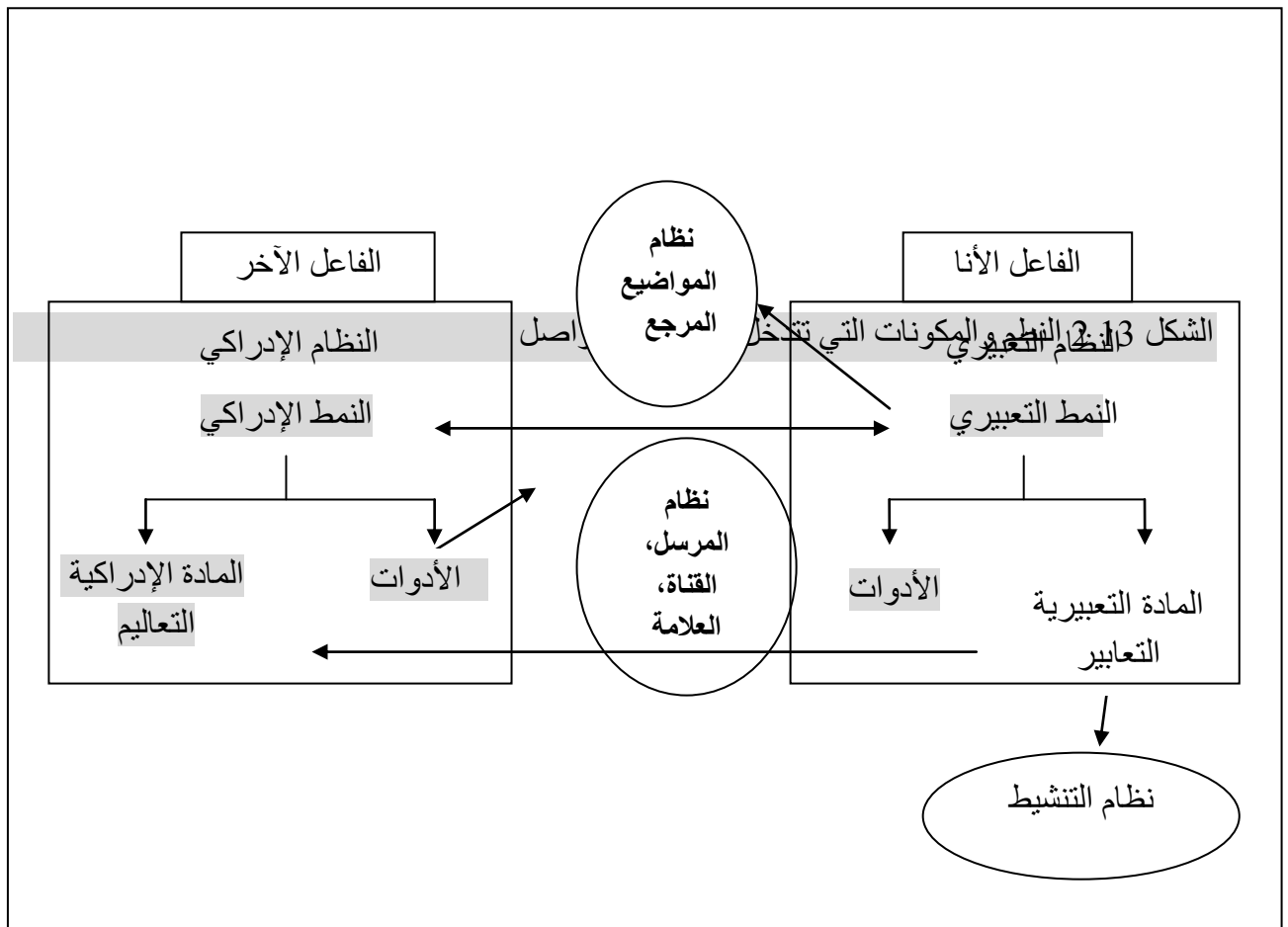
لقد عرضنا في الفصول السابقة العناصر التي يتفاعل بها التواصل، وتم شرح كون النظام الحيوي يجب عليه أن يقدم الطاقة التي سوف تعمل بها العلامات، والتي يجب تحويلها في كل نظام نقل للعلامات، سواء كان طبيعيا أو اصطناعيا. وعندما تتعارض الأنشطة التواصلية الجارية، تشير التصرفات تشير إلى

أن المراجع تشكل جزءا من نظام المواضيع المرجعية، لذا يقوم كل نظام من هذه النظم التي يكون التواصل من دونها مستحيلا بوظيفته، وله زمنه في العملية التواصلية.

من خلال هذا المنظور الإجرائي الذي تم التفكير فيه الآن، تتشكل كل مكونات نظام التواصل من نظامين فرعيين، الأول يتم تنظيمه من قبل نشاط الأنا؛ والآخر من نشاط الآخر. فالأنا هو المسؤول عن العناصر التي تشارك في العمل التعبيري، وتكون على عاتق الأنا المكونات التي تتدخل في العمل الإدراكي، وهذا ما تم تقديمه في الجدول 1.13 الذي تم به افتتاح هذا الفصل.

تكون عملية التواصل ممكنة فقط عندما تتوافق كل النظم التي تشارك فيها، وعندما تعمل دائما جميع المكونات، كل واحد في الوقت الذي يناسبه.

ويتم عرض تكون العمليات التواصلية في الشكل 2.13، وسيتم تطويره في ما بعد.



ب) النموذج الأساس الذي يمثل عمليات التواصل

يفترض أن اشتراك فاعلين اثنين، على الأقل، قد يكون كافيا لعملية التواصل عندما يتدخل هذان المكونان بالطريقة المناسبة، وفي الوقت الملائم فقط.

1. عمل الفاعل الأنا في التواصل كنظام لإنتاج العلامات الدالة

يطابق الأنا بدء التفاعل، لذا فالعمل التعبيري الذي يجب تطويره يخضع للمواد والأدوات التي وضعت لهذا المهمة، وبالاعتماد على قدرته للاشتغال بها:

- إذا لم تكن للأنا أي مادة مناسبة كحامل تعبيرية فلن تكون هناك تعابير. وإذا نقصت هذه الأخيرة فلن يتم توليد علامات دالة تحول إلى الآخر وتتيح له إنجاز العمل الإدراكي، بالرغم من أنه تم استعمال أداة معينة؛ وبالرغم من تنفيذ نمط تعبيرية بشكل صحيح من قبل الأنا.

❖ مثلا، تعتبر خريشات مخالبا الدب المحبوس في الهواء غير نافعة؛ ولا تعتبر حركات القلم على ورقة غير موجودة منتجة.

-
- إذا استعمل الأنا مادة للتعبير (مثلا، كاميرا تستعمل فيلما فارغا) يجب عليه أن ينتج في هذا الحامل التغييرات التي تكون مناسبة (في هذا المثال، طباعة الصور). وإذا لم يتم عرض الفيلم لأي سبب، فعندما يعرض على جهاز الإسقاط الضوئي بالطاقة الضوئية التي ينبغي أن تشغله، فلن تتولد علامات متسلسلة تشكل صورا سينمائية، بالرغم من أن شخصا ما يلاحظ أن تصوير مناورة غير مثمر، ويستنتج أنه كانت توجد من خلال الكاميرا إرادة لصنع منتج تواصلية؛ ومن خلال مشغل جهاز الإسقاط الضوئي كانت هناك النية لعرض الفيلم¹⁰⁶.

¹⁰⁶ توفر ملاحظة هذه الأحداث التعبيرية الخاصة بالتصوير وبهذه الأنشطة المرسله التي تتناسب مع العرض السينمائي، أيضا المعلومة للملاحظ. لكن هذه المعلومة المحصل عليها بواسطة الملاحظة هي مختلفة عن المعلومة التي تهدف الكاميرا لإيصالها إلى المشاهدين من خلال صور الفيلم، والتي تجعل من الممكن نشرها للجمهور باستعمال فيلم غير مطبوع.

- إذا كانت الأدوات التي يضعها الأنا للحصول على علامات لها المدة والقدرة الكافيتان لكنها لا تشتغل، فلن يكون ممكنا التواصل مع الآخر في اللحظات والأماكن المناسبة، حتى ولو تأثرت بهذه الأدوات جميع الإجراءات الضرورية للحصول على علامات دالة.

❖ سيستعمل الديك المتحول إلى مقاتل حنجرته مثل كل صباح ليعلن هيمنته للديكة الأخرى المتبقية في المزرعة، لكن الصياح لا يحافظ على المسافة التي تفصلهما عنه.

❖ إذا تم قطع مكبر الصوت، سيصل خطاب الخطيب فقط للذين هم أقرب إلى كلماته.

-
- إن غياب أو عدم فعالية الأداة ضمن تلك التي ينبغي أن تشارك في إنشاء، ونشر ثم التقاط العلامات، تمنع التواصل (على الأقل بواسطة هذه الأدوات)، وهذا ما يحدث عند الأشخاص الذين يعانون من إصابات على مستوى أعضاء النطق والسمع.

- يجب على الأنا أن ينسق أنشطته التعبيرية مع المواد والأدوات التي يضعها للحصول على هذا الصنف من العلامات المطلوبة، لذا تعتبر هذه من بين الوظائف التي تتوفر على نمط تعبيرى، وينبغي أيضا أن تتوافق مع النمط الإدراكي للآخر. وتكون مناسبة لتحديد الموضوع المرجعي، لذلك يجعل تطبيق نمط غير مناسب، والتدبير الخاطئ لبرنامج الأنشطة الذي يحدده النمط، العمل التعبيري فاشلا.

❖ غالبا ما يفشل الحيوان والإنسان عندما يحاولان التواصل، لأنهما يشيران بطرق مختلفة.

- ❖ يمكن فقط لعلماء الطيور التعرف على بعض أغانيها الأكثر تفضيلا والتي تخصصها لنا عندما نقرب منها، وعلى مظهر التهديد والاحتجاج. إذن، يحتاج إنجاز ترجمة الإشارات الحيوانية إلى إشارات إنسانية إلى متخصصين يعرفون تشكيل الأنماط التعبيرية الخاصة بكل صنف.

2. يبدل المحيط الطاقات بالمواد التعبيرية. فهذا هو النظام النشط المطلوب من أجل إنتاج علامات مضمنة.

إذا غابت هذه الطاقات تتعطل عملية التواصل، وإذا ظهرت في فترة غير مناسبة تقوم بإفشاله.

❖ لا يتم تمييز الحركات التعبيرية للذي يشير لنا بفعل شيء ما بدون إضاءة.

❖ يحدث نفس الشيء عندما تقوم طاقات أخرى بتثويته أو إلغاء العلامات الدالة، فإذا حل النهار سيكون العرض الضوئي للبرقة عملا غير ملائم.

3. يحتاج التواصل إلى القناة التي تتوفر في النظام التواصلي المناسب لطبيعة العلامات.

❖ لا يتوفر السباح الذي يغرق تحت الماء على القناة التي يحتاجها لكي توصل صرخاته للذين يتواجدون على رمال الشاطئ من أجل إغاثته.

4. يعمل الآخر عندما يأتي دوره كنظام إدراكي للعلامات الدالة.

تحدث الأنشطة التي تشكل جزءا من هذا العمل التعبيري وفق نظام معين، كما تعتمد النتيجة أيضا على المهارات وعلى قابلية المواد والأدوات المناسبة.

▪ يجب على الآخر أن يعتمد على الأعضاء الحسية التي تشتغل عندما تؤثر فيها العلامات، والأعضاء التي تستكشف، من بين كل القدرات التي لدى الجسم، العلامات التي تصل عن طريق القنوات التواصلية. وتساهم الأدوات العضوية ذات حدود وأوقات الاستجابة في تشكيل التعاليم من خلال المحفزات المستقبلية، ويمكنها في الأخير أن ترتبط بالأدوات التكنولوجية التي تضخم أو تترجم العلامات، مثل النظارات والسماعات.

▪ ينبغي على نفس هذه الأعضاء، أو حتى أعضاء أخرى مختلفة، أن تقدم المادة الإدراكية. لذا سوف تكون بعض العناصر، حين يتم القيام بردود الأفعال اللازمة لإنتاج العلامات العصبية، معروفة ومفسرة عن طريق الأعضاء الدماغية. وتعتبر المواد التعبيرية خلايا بصرية متخصصة في ردود أفعال كيميائية تحول المحفزات الضوئية إلى نبضات عصبية؛ أو خلايا شمسية وذوقية تقوم بتحويل مماثل لمحفزات المواد الخفيفة.

ففي الحالة التي تكون فيها هذه الأدوات والمواد التعبيرية غير مناسبة لمعالجة صنف من العلامات التي استقبلها الآخر بطريقة تواصلية، لن تكون الإشارة الموجودة ملحوظة، أو تكون كذلك لكنها غير معروفة.

❖ نحتاج - نحن البشر - إلى الشعور من أجل العمل بالقنوات الحرارية التي تستخدمها العديد من الأصناف التي نتقاسم معها النظم الإيكولوجية، بما فيها الزواحف.

❖ يمكن للأشخاص ذوي الإعاقات الحسية أن يأخذوا بعين الاعتبار أن شخصا ما يتحدث معهم أو يشير لهم بإيماءات، لكنهم لا يميزون دائما بين الكلمات أو صور الحركات.

▪ يجب على الأنماط التي يستعملها الآخر لتنظيم عمله الإدراكي أن تنظم الأنشطة المماثلة التي تتسق الأنماط التعبيرية للأنا، وكلاهما يرتبطان خلال العملية التواصلية. افتراضا أن الآخر والأنا لا ينسقان العملية، ينبغي إعادة تشغيلها أو لن تصل إلى النهاية.

❖ تبقى ذكور البط البري التي تتفاعل مع الإناث خلال فترة المغازلة خارج المنافسة عندما تستجيب لإشارات الأنثى في وقت متأخر أو بطريقة خاطئة.

5. يقوم التواصل الذي يشمل نظام المواضيع المرجعية بمهمته الدالة عندما يشير الفاعلون إلى نفس المواضيع فيما بينهم

يقتضي تزامن كل الأنظمة المذكورة سلفاً، والاشتغال الصحيح لكل مكوناتها، وأي نقص أو حادث قد يمنع من تحديد مرجع مشترك للعلامات التي يرسلها أو يستقبلها كل متواصل، أن يصبح التواصل خاطئاً أو ينقصه موضوع معين.

❖ تختلف المراجع التي تحدد نفس المظاهر التعبيرية حسب الثقافات، وهكذا، فإن عبارات الاحترام الموجهة إلى فتاة بحضور أباؤها مازالت تفهم في العديد من المجتمعات كطلب للإذن من أجل بدء علاقة بغرض الزواج.

التواصل الإنساني

التقديم: تطور وتاريخ التواصل الإنساني

الفصل 14 التواصل، التطور الإنساني، والأنسنة

الفصل 15 إنتاج المواضيع الرمزية

الفصل 16 التواصل في السلوكات الإنسانية

الفصل 17 التبديلات بين التصرفات القسرية والتواصلية

الفصل 18 تراكيب التنفيذ بالإشارة

الفصل 19 التواصل المرتبط بالتأثيرات

الفصل 20 مراجع التواصل الإنساني

الفصل 21 الخطأ والصواب في التواصل الإنساني

الفصل 22 ما يخص الإنسان في التواصل الإنساني

تقديم: تطور وتاريخ التواصل الإنساني

تقدم المهارات التواصلية المكتسبة من قبل أصناف سبقت الإنسان، الرأسمال التطوري له إرث جعل التواصل الإنساني ممكنا، بحيث يتم توسيع وتعديل هذه المهارات بعمق عندما تصبح مدمجة عن طريق التطور الخاص بصنفنا البشري؛ لذا توفر التحليلات التي تم عرضها في الجزء الثاني من الكتاب، الفئات الضرورية من أجل تطوير وصفا لمن هي هذه القدرات وكيف تم تحويلها.

لقد كان تطور الإنسانية، كما هو معروف، موجها بواسطة عوامل التغييرات الخاصة: من بينها الاستعمالات التقنية والثقافية للتواصل؛ وما سيتم توضيحه هنا، أن التواصل والتقنيات وصلت لتشكيل إطار يرتبط، في نفس الوقت، بالتعدلات الجسمية والتغييرات الثقافية؛ لذا يقوم هذا الدمج بين الكائن الطبيعي والفعل التقني، بوظيفة انتقائية بالقدر التي تفضل فيه نقل بعض التغييرات الجينية التي ستميزها عن الأصناف البشرية المتعاقبة.

والآن نعرف أنه في أصل الإنسان يتدخل عاملان اثنان بطريقة ملائمة للغاية: الأول هو الاستعمال الفعال بشكل متزايد للمعلومة المشتركة، والثاني هو التطبيقات التي يقوم بها التواصل سواء لتطوير الأنشطة التقنية أو لتكوين المجموعات، والعكس بالعكس.

تؤدي هذه المعطيات إلى الأخذ بعين الاعتبار الأشكال الأكثر أهمية التي تم وضعها لشرح أصل الإنسان، بحيث يعتبر، وفقها، " الإنسان " (هكذا تم كتابتها) المخلوق الذي تم في محيطين اثنين:

الوسط الطبيعي / الوسط الاجتماعي.

ليست هذه هي المناسبة للتفصيل في نسخ هذا البراديجم الذي ربط التنشئة الاجتماعية بالحالة الطبيعية، فمن المؤكد أن القارئ أو القارئة يعلم أنه تم العثور عليها في نشأة الكون ما قبل العصور الهيلينية، التي ألهمت الأنثروبولوجيات الإغريقية، وتم تحويلها، انطلاقا من ج. ج. روسو (J. J. Rousseau)

ونظريته الوحشية الجيدة والعقد الاجتماعي بالإشارة، بوعي أو غير وعي، إلى العلوم النفسية والاجتماعية عندما تناولت النزاع بين الرغبات والمعايير¹⁰⁷.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن التواصل الإنساني نشأ وبني هنالك حيث تم تكوين أو ظهر تعارض هذين النظامين المعقدين جدا، فالقدرات التواصلية التي تم تطويرها تنعكس في الفاعلين الآداميين أكثر ممن سبقوهم من الحيوانات على تحديد الاحتياجات الطبيعية والاجتماعية على حد سواء، مما جعل هذا البراديغم مجديا لإنتاج نظرية عندما يتم ابتكار نظريات جديدة.

لقد تم تفسير الوضع المزدوج "الطبيعي" و "الاجتماعي" لـ "الإنسان" باعتباره معضلة من قبل روسو والمتورين، ويظهر عندما تعتقد الحداثة أن قدرات العقل المنتشرة بواسطة تقنيات التواصل ستتولى في الأخير السيطرة على المجتمعات والعالم، فتعتبر المرة الأولى التي تم فيها خلق "الإنسانية" بموارد كافية للسيطرة على "الطبيعة"، ووصلت حالة الاستغناء عنها؛ في الواقع، كانت هذه فترة منفصلة في التاريخ ميزتها الهيمنة، حيث أرادت أن تفرض الرأسمالية¹⁰⁸.

ولا تعتبر هذه المقاربة مناسبة لفهم أصل التواصل الإنساني والدور الذي يلعبه في الأئسنة، في المقابل، يمكن الآن استرجاع، على مستوى الحفريات، نظرة الكائن الإنساني التي يتوفر عليها علماء التأويل الإغريقيون، لأنه يتم فيها فهم وممارسة التواصل بوصفه تفاعلا داخل المجموعة التي، في الوقت نفسه، ترتبط وتتححر بمراعاة الطبيعة؛ فلا يزال في الهرمينوطيقا أثر نشأة الكون التي كان لزاما تشكيلها في الفترات البدائية، خلال التقدم الهش والطويل لأصل الإنسان، وذلك عندما كان الإنسان يعمل - من الفشل إلى الفشل، ومن الانقراض إلى الانقراض - حيث لم يحاول أي صنف آخر التغلب (التغلب، عدم التغلب) على الطبيعة، لكن خصوصا من أجل الإقناع (التغلب عليها بنفسه) في وجه خطر السقوط مرة أخرى، ومن أجل البقاء بالنسبة إلى الحيوان.

ومن المطلوب في هذه الظروف إنشاء حد مناسب بين ممارسة الطقوس والتواصل، فمن المحتمل أن يكون للمظاهر التواصلية الأولى التي تأنسنت (التي تختلف عن تلك التي تشبه الإنسان) هذا الأصل وهذه الاستعمالات التعبيرية. في الواقع، ظهرت على مستوى اللغات تعتمد على المواقف والاتصالات

¹⁰⁷ يوجد في كتاب مانويل مارتين سيرانو: "النماذج الحالية للعلوم الاجتماعية" تحليل مفصل لتناقض الوسط الطبيعي والوسط الاجتماعي، في تاريخ الفكر وفي تكوين العلوم الإنسانية.
¹⁰⁸ حول تحويل التصورات الطبيعية، انظر مانويل مارتين سيرانو: "الوساطة الاجتماعية". وحول الرأسمال واستغلال الطبيعة، انظر أدورنو، ت. و؛ هورخيمر، م: "جدلية التنوير".

الجسدية. وبالرغم من أننا لا نعرف كيف كان التواصل الذي ظهر من خلال هذا الجهد الضائع للإنسان، يمكننا أن نفترض وجوده، لأن الأنسنة كانت ممكنة، كما أننا متأكدون أن الطقوس التواصلية قد تقاسمت إشارة ما لكونها مجموعة في العالم؛ لذا تقوم هذه الرؤى، ربما هي فقط مخاوف أولية، بوظيفة نشأة الكون، حيث سيتم في مرحلة معينة القيام بتوضيحات على مستوى المواعظ، التي تعتبر من الصيغ التي يساهم بها التواصل في المخاوف الجماعية، ففي هذه الحالة، وباختراع الصيغ للوصول إلى أن الجهود التي تختارها الحياة، لا تلغي الأشكال الإنسانية في الحياة؛ إذن، تعتبر من بين الوظائف الصعبة للتواصل التي مازالت سارية المفعول في طقوس الهرمونيظيقا.

يتضمن التعبير في الأساطير وفي الفلسفة الإغريقية هذا التمثل المأساوي البدائي للمكانة الإنسانية في العالم رؤية جدلية: هي أن "المجتمع هو ضد ومع الطبيعة في الوقت نفسه"؛ ويعتبر هذا التناقض تفسيراً للانفصال في علاقة الكائنات البشرية مع العالم: "المجتمع هو ضد ودون الطبيعة وفي الوقت نفسه"، وهو الأمر الذي يقوم عليه نموذج الحداثة. وبالتالي، يتضح أن التصور الأول هو الأكثر توافقاً لإدراك بدايات وتطور التواصل حتى ظهور المجتمعات الصناعية، وهو المنظور الذي تم استعماله في هذا الجزء الثالث من الكتاب، لأنه يشرح بشكل أفضل كون التواصل الإنساني يهتم بالإنسان خصوصاً.

لقد حاولت، بناء على المعارف الحالية وقدراتي، توضيح الأبعاد الأنثروبوجينية التي يتوفر عليها التواصل الإنساني، ويتم اكتساب هذه الحالة بالانخراط في التحولات التطورية والاجتماعية على حد سواء، لهذا السبب فالتواصل يشارك في ابتكار الكائنات الإنسانية على مستويين:

¹ يشارك في التطور الإنساني، بمعنى، في التحول البيولوجي لأشباه الإنسان وليس الإنسان.

يعتبر التواصل الإنساني، في أصوله، مورداً يطور أشباه الإنسان من أجل التكيف مع العالم الطبيعي. وحتى وقت قريب استمر في الاشتغال بشكل جيد. أما بالنسبة إلى التطور الإنساني فيوفر فكرة عن كيفية اكتساب جسم وسلوكيات الإنسان المعاصر طابعاً من خلال وضعيات التواصل.

² يشارك في الأنسنة، التي تعتبر ابتكاراً للمجتمعات التي تنظمها الأعراف، والمعتقدات و القيم.

يشارك التواصل في إعادة إنتاج المجموعات، التي تلبي الاحتياجات الجماعية، في حين أن المعلومة التي تُنتج في الوسط الاجتماعي تنتج نحو منع الرجوع إلى الحالة الطبيعية، لكن التواصل يُستعمل، في الوقت

نفسه، لإعادة إنتاج الحالة الطبيعية، لأنه يوفر موارده للإنسان الذي يستخدمه، في حين أن المعلومة التي يتناولها حول الوسط الذي يعيش فيه تسمح له باستعادة المسارات الطبيعية¹⁰⁹.

ومن المعلوم أن كلا الإنجازين لا يكونان دائما متوافقين، ويعتبر هذا الاضطراب السمة التي ستميز التواصل الإنساني عند ظهوره؛ لهذا، ومنذ نشأته، تمت مناقشته ضمن الجهد لتوليد المعلومة من أجل تجنيس المجتمع أو استغلال الطبيعة.

حاليا، وفي الوقت الذي تطورت فيه الأنسنة وتطور الإنسان، تم ابتكار المواد التعبيرية، والأدوات التواصلية، واللغات، وعوالم الإشارة والمرجع الذي يوجد فقط في التواصل الإنساني، مع اختراع الحقيقة، والممنوع والمستحيل؛ وسيتم أخذ كل هذا بعين الاعتبار في الفصول الآتية.

وتشمل الفترة التي تعتبر ضرورية للتغطية من أجل فهم كيفية ظهور وتحويل التواصل، والوقت الذي بدأ فيه وتحوّل فيه الإنسانية، على 99 ٪ من المدة المتعلقة بتطور الإنسان؛ والدراسة التي تتم الآن تصل حتى بداية الإنتاج الاجتماعي للتواصل، الذي هو موضوع وعنوان عمل آخر للكاتب.

¹⁰⁹ يكون هذا الجهد المسترجع في الإجراءات التقنية التي وظفت، منذ وقت مبكر، في الوسط لتجنب تدهور أو انقراض الموارد الطبيعية، وأيضا في طقوس تقديس الأرض، والنبات، والحيوانات التي استمرت في الثقافات المبنية على الصيد والزراعة.

التواصل، والتطور الإنساني والأنسنة

إن السمة الرئيسية التي تميز التواصل الإنساني عن الحيواني هي إدراج التقنيات في الإنتاج، ونشر العلامات واستقبالها باستعمال الأدوات.

ترافق الرقابة التقنية للإنتاج التواصلي التطور الإنساني؛ لذا سيتم في هذا الفصل توضيح كون التقنيات لها تأثير غير مباشر يتعلق بنا، وتأثير مباشر على التنشئة الاجتماعية التي تؤنسنا.

يعتبر "التطور الإنساني" جزءاً من التطور اللاحق الذي تم من خلاله تحويل الأجسام والأنماط الاجتماعية للقرود الأولى إلى أجسام وأنماط اجتماعية إنسانية.

أما "الأنسنة" فتعتبر إنتاجاً للوسائل، والثقافة والتنظيمات الاجتماعية المتنوعة والمعقدة.

ينتج التطور الإنساني والأنسنة "خيارات إنسانية" تواجه بواسطتها المجموعات الإنسانية، بدرجة متفاوتة من النجاح، تغيرات المحيط ولها القدرة المحددة ضمناً للتفاعل مع مجموعات أخرى، فكلاهما قطعاً مسارهما الأنتروبوجيني حتى ظل جنسنا البشري في العالم هو الممثل الوحيد للإنسان.

وخلال هذه الفترة كانت التغيرات الجسدية والابتكارات التقنية غير منفصلة ومرتبطة بشكل محكم. وقوة الارتباط ملحوظة جداً في حالة التقنيات التواصلية، كما سيتم توضيحه في هذا الفصل.

استقر التطور الإنساني في فترة التطور القصيرة جداً - في صنفنا البشري - على التشكل العضوي وأنماط نموذج الكائن الإنساني، وبعد ذلك توقف أو بالأحرى أصبح بطيئاً. على كل حال، تتولى الأنسنة السيطرة على أصل البشر، في حين أن التواصل سيتحول إلى نشاط منظم اجتماعياً؛ وأصبحت المعلومة هي العنصر الذي يشكل التنظيمات والفعل الاجتماعي.

1. التطور المشترك للأعضاء والتقنيات

يتوفر ارتباط الأفعال التعبيرية والإدراكية عند الحيوانات الاجتماعية على ميزات كثيرة؛ لهذا حظي تكيف الأعضاء، باعتبارها وسائل للتواصل، بالاهتمام أثناء التطور؛ وتنعكس هذه الديناميكية على التحولات

التشريحية والوظائفية لجسم الإنسان. وفي الأخير، يرتبط التطور البيولوجي بالنتائج التقنية البشرية. وسيكون هذا الارتباط موضوع عناوين قادمة.

إن بعض تغيرات الجسم التي تظهر وراثيا في الجنس البشري لها علاقة بالأهمية التي يحصل عليها التواصل في التفاعلات الاجتماعية؛ لذلك ينبغي التمييز بين مستويين يكون فيهما التواصل متضمنا:

1 عندما تكون التحولات التشريحية والوظائفية لأعضاء التعبيرية والإدراكية التي ورثها الإنسان من أسلافه الحيوانات متكيفة مع محيطات جديدة (طبيعية واجتماعية).

2 من خلال هذه التحولات المرتبطة بالتقنيات يتوفر على استعمال، له قيمة تكيفية لإبقاء المجموعات البشرية على قيد الحياة في محيطها (الطبيعي والاجتماعي). فهي حالة التكنولوجيات التواصلية الأولى عندما تصبح ضرورية للعمل في العالم ولكي ترتبط مع مثيلاتها. إذن، تتوفر هذه الوسائل والممارسات التي ترافقها كذلك على القدرة على اختبار تغيرات فيلوجينية.

ويسلط التحليل الآتي الضوء على مسارين أنتروبوجينيين:

■ ينشئ التطور الطبيعي للإنسان وتاريخه الاجتماعي جدلية متبادلة التأثيرات على ذلك الذي يتضمن نظم وسائل التواصل.

■ إن الميزات التي تتوفر عليها تقنيات التواصل تُظهر إلى حد ما التركيبات الناتجة عن هذا التعارض بين الطبيعة والمجتمع.

(أ) الآليات الجديدة التي تنظم ظهور وعدم ظهور الحياة

يبدأ التغير البيولوجي - التقني (أو التقني - البيولوجي) طريقة جديدة لتحويل الحياة. فنتلاقى البيولوجية والتقنيات في النظام الكلي للتغيير الذي يشتغل في الوقت نفسه بمخاطر التطور الطبيعي والتاريخ الاجتماعي.

وتظهر نتائج هذه الجدلية كثيرا في ما يختبره الأفراد والفئات السكانية:

■ تظهر عند الأفراد في التغيرات المورفولوجية والوظيفية للأجسام التي يتم تفسيرها بشكل حصري أو مبدئي لأنها تجعلها أكثر تعبيراً وإدراكاً، وكذلك في الوظائف حيث إن الأنماط التعبيرية والإدراكية تكتمل عند نمو الأطفال.

■ أما بالنسبة إلى السكان، يتم اكتشافها عندما تشرح وسائل التواصل كلياً أو جزئياً احتلال النظم الإيكولوجية الجديدة، والتكيفات مع المحيطات التي تسكنها المجموعات البشرية. لذلك يظهر أيضاً دور التقنيات في تغيرات المحيط والتي تتطلب نشاطاً مستمراً منظماً من قبل المجموعات البشرية.

قد تتوفر بعض التقنيات المتطورة للعمل بالتواصل على قيمة انتقائية. وهي تلك التي كانت (أو لم تكن) محددة لطريقة تنظيم المجموعات البشرية من أجل التنافس مع مجموعات أخرى عن طريق الموارد المادية والرمزية.

(ب) دراسة العلاقات بين التطور الإنساني والتواصل

تتوفر الأعمال الحفرية، الكلاسيكية والحالية، على معطيات مباشرة وأخرى غير مباشرة من أجل فهم الأصول المشتركة للتواصل، والتطور الإنساني والأنسنة. إن إعادة القراءة من خلال نظرية التواصل تمكن الذاكرة المعرفية من استرجاع مساهمات اثنين من الرواد على مستوى دراسة الدور الذي لعبته التقنيات في التطور الإنساني. وهما عالم الحفريات أندري لوروا غورهان (André Leroi – Gourhan) 1943، والعالم البيولوجي فاوستينو كوردون (Faustino Cordón). وتساعد أعمالهما على فهم واستعمال المعلومة، الغزيرة جداً والأحسن دائماً، التي أنتجت حالياً باحثين في الأصول التطورية والثقافية للإنسان. وقد تمت محاولة استرجاع، كلما كان ذلك ممكناً، بعض المناهج التي تستحق أفضل الاعترافات، والتي تكونت عند الذين يستخدمونها.

2. التغيرات الجسدية والتفاعلات التواصلية

لقد كان من السهل تنبؤها في الماضي، لكن حالياً نعرف أنها تحتاج إلى تحولات معينة على مستوى الأجسام والسلوكات لكي تبدأ الانطلاقة نحو الأشكال والاستعمالات الإنسانية للتواصل.

أولاً، سيتم اختبار التغيرات الصوتية والوظائفية لأجسامنا، التي تكون مرتبطة بالتقنيات التعبيرية والإدراكية، والتي تجعل التواصل ممكناً. ثانياً، سوف يظهر كيف أثرت التقنية على هذه التغيرات العضوية، والتي ساهمت بشكل أكثر من غيرها في نمو القدرات التواصلية التي تميز بين الإنسان والحيوان.

أ) توليفات بين الاستعمالات الفيزيولوجية والتواصلية للأعضاء

يعتبر الجسد مادة ووسيلة تعبيرية إدراكية. لكنه يستخدم أيضاً لأشياء أخرى. لذا فالأعضاء التي تسمح لنا بالكلام، والحركة واللمس، والسمع، والبصر، والشم ثم الذوق، تقوم بالعديد من الوظائف، إضافة إلى الوظائف التواصلية:

___ أولاً، تعتبر هذه الوظائف الأخرى غير التواصلية ووظائف فيزيولوجية؛ مثلاً، التنفس، والأيض، والتنقل.

___ يمكنها أيضاً أن تكون وظائف إخبارية (قبل تواصلية)، بما في ذلك استقبال المحفزات الناتجة عن العلامات الصادرة عن المصادر النشطة وغير النشطة الموجودة في المحيط.

وقد أتت الوظائف العديدة التي تقوم بها أعضاء الجسم من أسلافنا الحيوانات. لنرَ هذه الأمثلة:

❖ يعتبر الفم والحجرة الإنسانية العضوين اللذين يؤديان إلى الارتباط، المتناقض في بعض الأحيان، بين وظائفهما الغذائية، والتنفسية والتعبيرية.

❖ وينطبق الشيء نفسه على اليد التي ينبغي أن تعمل للمسك، والخدش، وحمل الطعام إلى الفم، وتدبير الأدوات والقيام بحركات أيضاً.

❖ إن الأعضاء الحسية تم تشكيلها من أجل جودة تمييزها، وتتوافق مع الحركات أو الكلمات في جنسنا البشري. لكن ليلي تعرف وجميع الأطفال الآخرين وجداتهم، أن آذان الذئب الشرس

تسمعنا وعيناه تراقبنا. لهذا السبب تعتبر آذاننا وعيوننا من أدوات التواصل، وأعمالا لاكتشاف الذئاب والحيوانات المفترسة قبل أن تأكلنا¹¹⁰.

عندما يتم إجراء هذه التوافقات بين الاستعمالات الفيزيولوجية والتواصلية للأعضاء، على المستوى التطوري للقردة يتم الترقية أساسا ببعض التغيرات الجسدية بواسطة التفاعلات التواصلية:

__ إن تنظيم وجه الإنسان حاليا هو كما هو ويومئ كما يعمل، لأن الآخر يراه.

__ تتشكل الأعضاء التي تنطق الصوت مثل ما تعمل، لأن الآخر لابد له أن يسمع هذه الأصوات.

لذا فالفكرة التي تم تسليط الضوء عليها هي كالاتي: تظهر العينات المتوفرة للعمل في العالم وتطور، في الوقت نفسه، في الحاجة إلى الآخرين، وفي التوافق مع الطريقة التي يعمل بها هؤلاء الآخرون.

بما أن التواصل سيحصل على أهمية كبيرة في التفاعلات، فتطور المتواصلين يرتبط أكثر بشكل محكم لأن التغيرات العضوية والأنماط السلوكية التي تنعكس على الإشارة ستتوافق مع التغيرات المرتبطة بالاستقبال.

وينبغي طرح دراسة تطويرية لأنظمة الوسائل العضوية للتواصل، مثل المتواصلون الذين يتطورون جنبا إلى جنب ومثل تحول النظام في شموليته.

إن هذا الارتباط بين التغيرات الفيلوجينية للمتواصلين له انعكاس كذلك خلال التطور الجيني:

▪ من المعروف أن أبناءنا حديثي الولادة يأتون إلى العالم بجسم ونظام عصبي لا يزالان غير ناضجين، وأن هذا المسار يؤثر أيضا على اكتساب القدرات العضوية من أجل التواصل وتطوير الأنماط التواصلية.

▪ لكن، في الوقت نفسه، يتأثر النمو الحسي والنمو الحركي للطفل بتفاعلهما مع فاعلين آخرين كبار؛ من جهة، بواسطة التفاعلات ذات معنى؛ ومن جهة ثانية، بالتفاعلات الدالة، على الرغم من أنها تكون، في أوقات لاحقة، المراحل الأولى لنمو الأطفال المرتبطين بسلوكات الآخر¹¹¹.

¹¹⁰ يتم تحويل العينين نحو الجزء الأمامي للوجه عند القرده. فهي تقدم للنظرة زاوية أكثر انفتاحا. وتحسن التمييز بين ألوان العصي والقضبان التي تقوم بها.

ب) الرأسمال الجيني والمرونة التعبيرية للجسم

في بعض الحالات، تُظهر خصائص الأعضاء التي يستعملها الإنسان من أجل التواصل التشكل الذي يتناسب مع تشكل هذه الأعضاء لدى الأصناف التي تحدد العديد من الخطوات في بداية المسار التطوري. لهذا سيكون لزاما على المتخصصين أن يحددوا متى يدل هذا الارتباط، في علاقة مع نقطة الانطلاقة البعيدة نوعا ما، على تراجع في التطور. والغاية هنا هي إظهار كيف تم في جنسنا تحقيق التعقيد الذي اكتسبته نظم وسائل التواصل. لذلك يبدو أنه في التشكلات الجديدة للأعضاء التي تقوم بالوظائف التواصلية، قد تم توظيف كل الرأسمال الجيني المتاح للمتواصلين، على الأقل للوصول إلى المرونة التعبيرية التي تميز يد ووجه الإنسان.

كانت يد الإنسان تتوفر في فترة معينة على إبهامات طويلة جدا وتشتغل عوض باقي الأصابع التي كانت تتوفر عليها القردة السابقة. وهذا الشبه يظهر مع يد "الترسير" أكثر من يد "أورانج أوتان" والغوريلا. لذا فيد القرد الكبرى لم تتبع نفس المسار التطوري¹¹².

مهما كانت أسباب هذا التكيف، فهذه الأصابع التي تشير إلى أيادي "الليمور" تتيح حركات الصيد والنقر. وتجعل هذه الحركات التقنية من الممكن استخدام الأدوات الدقيقة كالإبر والثقب.

وتطبق أيضا الأدوات والحركات التي تصاحب استعمال الأصابع المشتغلة على إنتاج أدوات تقنية للتواصل. مثلا، تتيح حياكة الجلود صناعة أنواع مختلفة من الوسائل، بعضها كان يعتمد على الضرب كالدفوف، والبعض الآخر على ضغط الهواء مثل الأكياس. وبمجرد ما اكتسبت هذه الحركات التقنية الجديدة، أصبحت لها قيمة دلالية معينة (انظر ليرو غورهان 1943 - Lerou - Gourhan). وحسب اعتقادي، يمكن التفكير في أن جميع الإشارات الأولى، قد تمت الإشارة إليها في المهمة المناسبة لهذه الحركة في الإنتاج الاجتماعي. لذا فهذه الفائدة الدالة مازالت محفوظة في لغات الحركة.

3. التغيرات العضوية التي تتوافق مع القدرات الخاصة للتواصل الإنساني

أ) التغيرات التشريحية: ثنائيات الحركة

¹¹¹ أنظر Piaget, J. (1961), Wallon, H.; Perret-Clermon; Damon, W; Schiefelbusch et Alt
¹¹² اكتشفنا نحن الإنسان بأيدينا والقرد الكبار بأيديها كذلك، احتمالات دالة للحركة اليدوية. لكن، حسب ما يبدو، يتم تطوير الاستعمالات التواصلية المناسبة التي هي خاصة بالأصناف الإنسانية وشبيهة بها عندما يتم الانحراف عن الجدع المشترك. انظر كونروي، غ.

كما هو معروف، كانت القدرة على الوقوف على الأرجل موجودة بالفعل في مرفولوجية أشباه الإنسان الأوائل. فقد تم تغيير تشريح الركبة، والفخذ وعظام الورك. لذا فهذه التغيرات انتهت مع ثنائيات الحركة التي تحولت بالإجراء التنقل المعتاد¹¹³.

وتتوفر ثنائيات الحركة على ثلاث نتائج متصلة بهذا الموضوع:

1 أ تحويل الوجه

يتحول الوجه إلى هيئة جسدي تجعله الجزء الأكثر أهمية في الجسم. لذا تعطي هذه الحالة امتيازاً لنمو النظام الحركي - البصري في التفاعلات لما يكون الفاعلون قريبين بعضهم ببعض، مما يشجع على تغيرات تشريحية جديدة، في هذه الحالة للوجه. وإعادة الترتيب هذه تغير ، مثلاً، موقع العيون وأجزاءها. إذن، التشكيل الجديد وصياغة بؤبؤي العيون في الوجه يقومان بتحسين جودة القدرات البصرية. وتدعم كذلك الإيماءات لأنها تجعل الوجه أكثر تعبيراً.

2 أ التحول الأقصى للشكل

يتوفر الوضع العمودي على أساس صلب ومستقر لكي يرتاح عليه الرأس. وارتباطاً بثنائية الحركة، يتم إنتاج التحول التدريجي الأقصى للشكل (الذي هو ثقب في الجمجمة يتم من خلاله الجمع بين المخ والحبل الشوكي) نحو أساس الجمجمة.

أما بخصوص جمجمة ربايعات الحركة، فهي متعلقة بالجدع. لذا تستقر جمجمة الكائنات الشبيهة بالإنسان، وخصوصاً الأصناف الأكثر حداثة، على الجذع. وهذا التحول يقلل من وظائف الدعم التي تقوم بها الجدران والقمم العظمية الهادفة إلى الدمج بين العضلات التي تساند الرأس، والموجودة في مناطق الفذالية، والجدارية ثم الصدغية. إذن، الجماجم ترفع وتنقص من قدرتها (تقاس بسننترات مكعبة) وتتغير في شكلها.

لقد درس أ. لوروا - غورهان (A. Leroi - Gourhan) العلاقات بين هذه التطورات التشريحية، والتعديلات المهمة جداً التي تحدث في النظام العصبي، ثم القدرات الذهنية للإنسان والكائنات الشبيهة به¹¹⁴. من ثم تُظهر التصاميم المتتالية لِقَحْفُ الدماغ لدى الأصناف البشرية توجهاً ما، بالرغم من أنه لم

¹¹³ انظر: Pickford, M., Senut, B., Gommercy, D. et Treil, J.

¹¹⁴ انظر: لوروا غورهان، أ. أ. 1965. في نفس الاتجاه وبمعطيات حديثة جداً: تيرينسي و. دياكون؛ و. نوبل وإدفيديسون.

يكن منفصلا عن اختلافات وعدم انتظام نبضات القلب. وكما هو معروف، لقد تم على المدى الطويل توسيع قفص الجمجمة وتطوير المناطق الصدغية والجبهة.

ودون الخوض في التفاصيل التي لا تعتبر ضرورية هنا، ينعكس نمو الدماغ على سمك القشرة الدماغية الحديثة. لهذا تنتشر في هذه المناطق التكتلات التي توسع القدرات الإدراكية والتمييزية للأعضاء البصرية والسمعية، وتُحسن من التنسيق بين هاتين الحاستين وبين حركة اليدين والوجه. وبالتالي يتخصص جزء مهم من نظام الدماغ في سيطرة أفضل على الأعضاء التي تتدخل في الكلام. من هنا تقوم كل المكونات العصبية التي تنسق هذه الأنشطة، في الوقت نفسه، بتدعيم الارتباطات في ما بينها، كما أنها محددة على مستويات متعددة للتكتلات العصبية التي تبرمج وتعيد، من خلال القشرة المخية ومناطق الجبهة، برمجة العمليات التي تنشئ علاقات بين المحفزات، والعلامات، والمعاني، والمؤشرات، والمراجع والسلوكيات.

في حين أن تغيرات الجمجمة تجعل من الممكن إعادة ترتيب آخر للوجه، فينبسط هذا الأخير. لهذا يتم إنشاء شروط ميكانيكية تسمح بتدخل عوامل أخرى ذات طابع اجتماعي تصلح لتقليل حجم الفكين والأسنان، وتتدخل بشكل أساسي في الحماية الغذائية وتحضير الغذاء. لذا كانت هذه التغييرات التشريحية حاسمة لاكتساب قدرات الكلام، كما سيتضح في ما بعد.

ولم تتوقف الابتكارات المورفولوجية والعصبية للرأس على امتداد التطور الإنساني. إن نمو القدرات التواصلية، خصوصا الإنسانية، لها علاقة أساسية مع التحولات التي تُنتجها الأصناف البشرية الأكثر حداثة. وبالتالي، يوضح الشكل 1.14 بعض التسلسلات في تطور الجمجم.

3 تحول محور الورك

تنتج ثنائية الحركة إعادة ترتيب وضع الورك، فيتسع عند النساء ويزيد من حجم قناة الولادة، في حين أن التطور يميل نحو الأطفال ذوي اليوافيخ التي تجعل عظام الرأس مرنة أثناء الولادة. لهذا يجعل استمرار اليوافيخ من السهولة بمكان نمو الجهاز العصبي الذي يستمر عند الأطفال بعد الولادة. وسيستمر، على وجه التحديد، الميالون حتى المراحل التي يطور فيها الصغار تجاربهم التواصلية الأولى؛ ومن ثم ستأخذ هذه التفاعلات انعكاسا عضويا على مستوى النضج العصبي¹¹⁵.

¹¹⁵ انظر: Piaget, J. (1967) ; con nuevos datos : Damon W. ; Kuhn D. y Siegler R. , Casey et al.

4. التقنيات ذات التأثيرات التكيفية للتغيرات الجينية للأعضاء التعبيرية

تقترب إمكانات الزيادة في كتلة الدماغ إلى الحد التشريحي لدى الرجال العصريين. في الواقع، يتم نمو القدرات العقلية والتواصلية الجديدة بدون زيادات ملحوظة في الجمجمة.

وتتوفر هذه القفزة الكبيرة على قيمة عندما صنع أسلافنا الأدوات، لذا توضح مهارات أولئك الذين طوروا هذه القدرة، علاقة وثيقة بين استعمال اليد والعين¹¹⁶ (في الواقع، "الإنسان الماهر" أو أي صنف آخر في المستقبل يحدد هذا الوضع). لهذا سننم الحركات والأفعال التقنية (الضرب، والكشط، والحكة والتقسيم..... والدفع، والسحب والرمي) الضرورية لصنع الأدوات واستعمالها، في الوقت نفسه، ما تقوم به الحركات الدالة (أنت، أنا، حالا، فيما بعد، بعيدا، قريبا، إلخ).

أ) العمل، والحركية والشفوي

إن العمل بالتعاون هو المختبر الذي يتم فيه تطوير الأدوات اللسانية، بالإضافة إلى التفاعلات الإنتاجية. لكن، في البداية، فضلت خصائص العمل الجماعي الإشارات الحركية، مما يدل على أن العمليات الرمزية التي تتضمن هذه الأشكال الأولى للعمل المنظم تم بناؤها بشكل رئيس بالحركات.

ويعتقد معظم علماء الحفريات حاليا أن البشر قد عاش حتى حقب فجر التاريخ كإنسان نياندرتال، وكان يتوفر على قدرات شفوية محدودة (انظر Wind, J. et al). ولم يكن، في البداية، بسبب تشريح أعضائه التعبيرية، قادرا على خلق لغة شفوية لينة جدا ودقيقة كلغتنا¹¹⁷. إلا أن ذلك لم يمنعه على الإطلاق من امتلاك ثقافة وتنظيم اجتماعي إنساني¹¹⁸.

لقد تمت في الجزء الأكبر من الأعمال التي يمكن قراءتها الآن الإشارة إلى أن القدرة على نطق الأصوات دون صعوبات تشريحية أو فيزيولوجية، لم تبدأ فقط إلا منذ 12000 سنة. وما هو أكثر أهمية هنا هو أن اللغات المنطوقة واللغة التي تستخدم النطق المزدوج ظهرت في الوقت نفسه.

¹¹⁶ توجد هذه الملاحظة المتعلقة بأن العمل، والحركة والكلمة تتطور جنبا إلى جنب، عند أنجيلز، مورغان، ومنظرين آخرين للتطور الجدلي. وجمعها لوروا غورهان أ (Leroi-Gourhan A). في "الحركة والكلام"؛ كما عند جوهانسون، د (Johanson D) وبالك إ. (Blake E).
¹¹⁷ المقولة "تعتمد لغة الإنسان على إمكانية التحكم الدقيق في عضلات الحنجرة والفم ... يمكن للتغيرات في السلسلة (FOXP2) أن تؤثر على قدرة الشخص للتحكم في حركات وجهه ومن ثم لتطوير الخطاب المناسب.

إن التعبير الجيني الذي كان يتيح اللغة قد يكون انتشر بين الإنسان منذ حوالي 200000 سنة (قريبا من اللحظة التي ظهر فيها الإنسان المعاصر) ليصبح واحدا من المحركات الرئيسية للانتشار"، انظر Chris Stringer (2003) pag. 692-695 .A.

¹¹⁸ إن وجود الثقافة التي يتم فيها تركيب المكونات المادية مع الرمزية، والتطبيقات الاجتماعية مع القيم، ظهر من دون شك عند إنسان النياندرتال أولا لأنه يطبق التفكير المجرد في صنع أدواته؛ مثلا، عندما تتحول الأدوات الحجرية إلى الروافع عن طريق إضافة دعامة إلى الأدوات؛ لكن، خصوصا، لأنه دفن مواته بهذه الأشياء، مما يشير إلى أنه يقصد معنى دينيا معينا. انظر: Arsuaga et alt. (2000) ;

Mitchen S. ; Leroi-Gourham, A (1995). Crbonell,E ;

وبعبارة أخرى، يعتقد أنه كان هناك تواصل حركي، ولم تكن هناك قدرة على التواصل من خلال التجريدات ولا من خلال الافتراضات. لكن، يبدو لي أن هذا التفسير لا يتفق مع نمو التقنيات والتنظيمات الاجتماعية التي تحققت قبل ظهور الجنس الإنساني الحالي. فنحن نعرف أنه منذ أكثر من مليون سنة - من الإنسان الماهر إلى الإنسان العاقل - ليست الأصناف البشرية فقط¹¹⁹ هي التي صنعت الأدوات، وحسنتها وكيفتها مع تغيرات المحيط وتنظيماتها الاجتماعية. لذا فمن الضروري لقضايا الأئسنة هذه أن تترافق النمو التركيبي والمرجعي للتواصلات، مما يتطلب من المتواصلين أن يكونوا قادرين على العمل بازدواجية النطق.

استمر الإنسان، في غياب لسان مزدوج النطق، في مساره عن طريق التطور الإنساني، لكنه لم يؤسس بعد. لذلك احتاج إلى الأداة المعرفية والتعبيرية الضرورية لوضع تمثيلات العمل الاجتماعي وتبادلها.

وبسبب انعدام أي تصور توافقي لِمَا يمكن أو لا يمكن القيام به، يكون الإنسان غير قادر من الناحية التقنية على استعمال المحيط، ومن الناحية المنهجية على تنظيم أنشطة المجموعة. إذن، يضم التواصل الإنساني العوالم المرجعية المبنية للعمليات التقنية بواسطة الخيال والقيم، عندما يعمل بازدواجية النطق، وليس قبل ذلك. وبالتالي، فهذه هي الخلاصة التي تتضمنها التحليلات التي عرضتها في هذا الكتاب وفي كتب أخرى سابقة¹²⁰؛ لذا يمكن التأكيد على أن القدرة العقلية والتواصلية للعمل بازدواجية النطق قد سمحت لأسلاف الإنسان المؤنسين بمقاومة الانتكاسة بنجاح على مستوى الحالة الطبيعية.

ويشير تحليل نشأة التواصل الإنساني الذي قمنا به في هذا الكتاب إلى أن ظهور لغات مزدوجة النطق لا يمكنه أن يكون حدثاً متأخراً جداً، لذلك ينبغي اختبار احتمال آخر للتحقق مما إذا كان من الممكن إنتاجه بطريقة أخرى في حالة دمج اللغات التي تشتغل برموز مجردة:

1. معرفة ما إذا بدأت اللغات الشفوية في الاستعمال قبل ظهور الإنسان العاقل.

2. البحث في ما إذا بدأت اللغة المنطوقة في التطور داخل اللغات الإشارية.

ومن المفهوم أنهما ليستا إمكانيتين حصريتين، لذلك سنعرض المعلومات المتاحة الآن بشكل مختصر.

¹¹⁹ انظر: Tattersall, I. ; Bemudez de Castro, J.M في تصنيف أشباه الإنسان الذي اقترحه أرسواغا (J.J. Arsuaga)؛ الإنسان العامل، والإنسان السابق والإنسان الروديسيا.

¹²⁰ يعتبر الترميز المزدوج مهما للتعين خارج وضد العالم، كما أن النطق المزدوج هو الرابط التعبيري للرفض المزدوج، وهذا الأخير هو العملية المنطقية التي تقوم بالتفكير عندما يتم لنفس الفاعل ادراك كيف هو، وكيف يمكنه أن يكون، أو كيف هو وكيف يجب أن يكون. انظر:

Manuel Martín Serrano : La Mediación Social.

1. احتمالات أن تكون اللغات الشفوية قبل 120000 سنة

يعتبر سترينجر (Stringer) أن الطفرة الجينية التي جعلت من الممكن السيطرة على أعضاء الكلام حدثت منذ 200000 سنة¹²¹، بينما يعتقد كتاب آخرون أن التعبير بدأ قبل ذلك بكثير، على الرغم من أنه لم يكتمل تحويل الفك السفلي ولا حتى تقليص الحنجرة. لهذا يعتبران، حسب المتخصصين، التغييران التشريحيان الضروريان لنطق الأصوات: "الفتحة" و"الكسرة" و"الضمة". وقد حافظ على هذه الأطروحة باحثو الأتابويركا (Atapuerca) الذين يعملون مع خوسي لويس أرسواغا (José Luis Arsuaga)، والذين يعتمدون على تشكل الجمجمة الذي يرجع تاريخه إلى 300000 سنة.

2. احتمال وجود اللغة المنطوقة في الحركية كلغة أولى للإشارة إلى عالم اخترعه الإنسان

إن التاريخ الأكثر قدماً، والذي يحفز في الوقت الراهن المتخصصين على البحث في بداية اللغات الشفوية، هو منذ 300000 سنة، ولا يبدو هذا التاريخ قديماً بما فيه الكفاية للتأريخ لأصل اللغة المنطوقة، إلا أنه يظهر أن الجماعات البشرية كانت تعمل قبل هذا التاريخ دون الحاجة إلى ابتكار وتبادل مهام تنظيم معين، وأنها كانت تتشارك في استعمال المفاهيم والفرضيات. وهو شيء يصعب تفسيره. كما أنه يقال إن الأصناف البشرية كانت تحافظ على النار وتصطاد بالمصائد، وتجمع الأغذية وتحفظ بها، تصنع أدوات متخصصة في تطبيقات مختلفة، وتعيش في جماعات منظمة بحكم القرابة، ثم كان هناك بعض التقسيم التقني للعمل. وبالتالي، يُفترض من خلال هذه العمليات المعرفية والتعبيرية البسيطة، وجود استعمال عقلي وتواصلية لازدواجية النطق.

إن الاعتقاد في الأصل الحركي للغة الإنسانية تم توضيحه منذ أكثر من مائة سنة من لدن أنصار تطور اللهجات. وعندما قمت بكتابة هذا الفصل أعدت النظر في بيكيرتون (Bikerton. D) الذي يشير إلى أن الحركات هي عبارة عن لغة إنسانية بدائية؛ وكورباليس، م. (Corballis, M) الذي يبين القيمة التركيبية للعلامات، ويقدم معطيات عصبية لتدعيم فكرته التي تقول إن اللغات تتطور عن طريق الحركات؛ ومن ثم يمكن الحصول على نفس الاستنتاج عن طريق استخدام الحركات التي يقوم بها الأطفال غير القادرين على استعمال المفردات اللغوية (انظر: تهال، د. و توبياس، س) (Thal, D. y Tobias, S).

¹²¹ انظر: كريس سترينجر: "التطور البشري" على العموم تم تأريخ اللغات الشفوية في حقب حديثة جداً. انظر مثلاً: جيبسون و آخرون؛ غولوسيو أولير، د.ك، أرمسترونغ و آخرون.

ويبدو أنه من الحكمة أن نأخذ بعين الاعتبار الدور الأساس للغات الحركية في الأنسنة، لأنه حسب هذه المعطيات التي يقدمها بعض المتخصصين ليس صحيحا أن تكون الأنسنة هي نتيجة القدرة على الكلام، بل أن الأشياء في الواقع تحدث عكس التيار:

قد يصبح الكلام شكلا من أشكال التعبير الذي يميزنا عن الآخرين في مملكة الحيوان، لأن أسلافنا الآخرين طوروا المظاهر الأولى للثقافة والمجتمع دون اللجوء إلى الكلام.

(ب) التقنيات التي جعلت التغيرات الجينية التي تحتاج إلى القدرة على الكلام قابلة للبقاء

على كل حال، ساعدت التقنيات التي تم خلقها في هذه الثقافات ما قبل الشفوية على التغيرات الجينية التي تتيح الكلام للإنسان المعاصر، لذا تعتبر هذه أول مرة تتوفر فيها بعض الأصناف على قدرة تتدخل بتقنياتها في التكيف مع الوسط عن طريق التغيرات الجينية، ثم في تطور السلالات. وبالتالي، فمن الواضح في تلك المبادئ أن يتم إنتاج هذا التدخل بشكل غير متوقع، لكنه فعال جدا. لذلك يعتبر الإنسان العاقل، في الحقيقة، الخيار الإنساني الذي يتكيف مع تقنيات السلالات التي سبقته. وكيفما كان هؤلاء الأسلاف، فإن إنشاء السلالة بالنسبة إلى الإنسان المعاصر يعتبر موضوعا مثيرا للجدل¹²².

وكان لزاما الرجوع إلى عدد من الابتكارات التقنية بشكل تركيبي، مع ترجيح التحولات الجينية التي جعلت استعمال اللغات الشفوية ممكنا. فحسب عالم البيولوجيا فاوستينو كوردون (Faustino Cordón)، ما هو أكثر أهمية، يجب القيام به في المطبخ، مما يجعل من المرجح أن يكون تطور كلام "الإنسان" نتيجة غير مباشرة لذكاء وعمل النساء، لأنه، حسب ما يبينه استنتاج تحليل التجمعات المستقرة حيث يتم استعمال النار، هناك تقسيم للعمل بين الجنسين، مع ميول النساء نحو التخصص في الأعمال المنزلية، وهذا التقسيم قديم جدا¹²³.

وقد يكون من معجزاتنا أن أولى النساء كان وجودهن لتليين الصيد والجذور التي تتغذى عليها أسرهن، والجلود التي كن يلبسها. وقد كان ذلك بالحرارة، والفحم والتطعين؛ والتخليل.

¹²² عندما كتبت هذا الكتاب اقترحوا لهذا الموقف إزاء الأسلاف عدة أسماء: "العاقل" بالنسبة إلى العديد، الإنسان الواقف، والإنسان الماهر، والإنسان السابق، والإنسان الجيورجيا، وغيرها. أما التقنيات الحالية والنتائج الجديدة فهي تغير المعطيات كل يوم. انظر مثلا، Tattersall, I. y Schwartz, J. ; Stringer y Andrus. ¹²³ انظر: Mitchen, S. Y Hager, L.D (ed).

وحافظت هذه الطبقات الأولى بكل تأكيد على حياة كل طفل وطفلة حديثي الفطام، مولودين بفكين وأسنان ضعيفة جدا لتمزيق اللحوم الصلبة، وربما تم تجنب أن تصبح دون ذرية، بحيث إن الابنة كانت لديها أسنان لا تسمح لها بتحضير الجلود التي كان يلبسها صيادو المجموعة.

وبالتالي، فإن الأحفاد ذوي الإعاقة على مستوى أعضاء المضغ (في مجتمع المتشردين وأكلي اللحوم)، سيتم القضاء عليهم من قبل الطبيعة أو المجتمع. ومثل ذوي الأسنان غير الملائمة، ينتجون، ويتركون هذه الصفات الفكية والخاصة بالأسنان للأجيال المتعاقبة.

وساهمت تقنيات إعداد الطعام في أن تصبح الطفرة الجينية قادرة على البقاء داخل أعضاء المضغ، لاسيما وأن هذه الأخيرة تعتبر أيضا جزءا من الأدوات الصوتية. ويعتبر كل من الفك الرشيق الذي يتحرك بسهولة أفقيا ويسيطر على فتحات الأسنان، وفجوة سقف الفم بتجويف مناسب، شرطين ضروريين لنطق المجموعة الصوتية للكلمات.

وتتيح هذه التحليلات الربط بين التطور البيولوجي (تغيرات الوجه والأعضاء الصوتية) والتواصل (القدرة على نطق أصوات الكلام) والاجتماعي (ظهور المطبخ). لهذا لم يشك فاوستينو كوردون (Faustino Cordón) في كتابه في كون " المطبخ من صنع الإنسان"، أجل، إن هذا القول يجعل تفسير "المطبخ" بالمعنى الواسع جدا كما تم القيام به هنا، بوصفه تحضيرا للطعام مع الأخذ بعين الاعتبار الابتكارات الجينية، فرضية معبرة جدا.

5. إنتاج الأدوات من أجل التواصل

(أ) الأدوات الضخمة والمستقلة

كان هناك قبل وجود الأدوات المصنوعة من قبل الإنسان للتواصل، المكان، والزمان ثم التفاعلات المنظمة بواسطة القوانين الطبيعية:

- إن المسافة التي تجعل الحفاظ على الصلة ممكنا مشروطة بمدى وصول العلامات، وبالزمان الذي تعني فيه العلامات حضور الآخر وفق المواد التعبيرية التي تشتغل كدعامة للتعبير.
- في نهاية المطاف يتم تحديد الطاقات المستعملة عن طريق الأعضاء التعبيرية والإدراكية التي يتوفر عليها الفاعلون، والتي تعني كذلك وجود أجهزة داخلية، حيث تكمن التغييرات الحيوية.

لقد تمت مناقشة كل هذه المعوقات في فصول أخرى، وتم تحديد الشروط الموجودة في الطبيعة والتي تحقق التخصص التواصلي في استعمال العلامات والقنوات. إنها الشروط التي تؤثر بنفس الشكل في الكائنات الحيوانية والإنسانية، لكن صنفنا يعتبر الوحيد الذي توفر على القدرة على كسب هذه التحديدات.

وتزيد الإنسانية من حجم العلامات كي تصل إلى أكبر مسافة وتدوم لفترة طويلة، كما تحول بعض الطاقات التي تعتبر ملائمة أكثر من غيرها، لأنها تدور بسرعة كبيرة وتصل إلى مسافات أطول، وتستعمل العلامات التي تكون خارج أجسامها مع تلك التي تُستخدم بواسطة أعضائها الحسية. وإذا لزم الأمر، فإنه يتم اللجوء إلى القنوات الاصطناعية لدوران وتوزيع هذه العلامات، كما هو الحال مع الشبكات الأرضية للاتصالات الهاتفية، والقنوات الفضائية.

(ب) الأدوات التواصلية والمجال

تعتبر الأدوات التواصلية الأولى عناصر طبيعية تُستعمل كأدوات التي توسع من مدى وصول العلامات، وهي ما تزال ضئيلة أو دون تغيرات فيما يخص استعمالها التواصلي. مثلا، القرن أو المحارة؛ الجذع المجوف وعصا القرع اللذان يوسعان مسافة توصيل الصوت بشدة والتي تتحقق كذلك بواسطة الضرب باليدين.

ولا ينبغي التقليل من أهمية هذه الإنجازات التقنية، لاسيما وأنها تساهم، منذ اللحظة التي تظهر فيها، في توسيع الأماكن التي تنفذ فيها المجموعات الإنسانية تفاعلاتها، لهذا فالموطن الذي يوسع فيه الإنسان أنشطته لا يعتمد على قدراته الحسية.

6. الأدوات التواصلية، إنتاج وإعادة إنتاج المجتمعات

لا يمكن لأي مجموعة بشرية أن تؤسس مجتمعا خارج الحدود التي يتم فيها إنشاء اتصال سريع بما فيه أعضائه، لذلك فإن المرور من المجتمعات الأولى المنعزلة إلى المجتمعات التي تتحكم في مجال كبير، والذي يحتوي على عدد كبير جدا من الأشخاص، ينبغي أن يرافق تطوير الوسائل الإذاعة، لذلك فهي تكنولوجية ضرورية لأولئك الذين يعيشون في مجموعات متفرقة، ومع ذلك يمكن تحديدها كأعضاء من

نفس الوحدة الكبرى، إذن، قد يتوفر هذا التغيير على تأثير ديمغرافي، لكن قد يؤثر أيضا على تنظيم المجتمعات (خصوصا في التعامل مع التهجين)، ومن ثم في التمثلات الجماعية¹²⁴.

وقد كانت أولى أدوات الإذاعة المتاحة محددة عن طريق موارد المواد الأولية التي تقدمها مختلف النظم الإيكولوجية. وبدون شك، كان وجود نتوءات المحارات في الشواطئ، وقرن الحيوانات العاشبة في المراعي والجبال، ثم الأشجار في الغابات، فعلا ليتم البدء في الصناعات المرتبطة بتحضير الأدوات من خلال هذه المواد، لكن هذه الأدوات وُجدت أيضا بعيدا عن مواقعها الأصلية، وتم اختبار وجودها ونقلها، كما تحققت من خلال المقايضة والمعاملات.

ترتبط الخصائص التقنية واستعمالات القطع الأثرية عند المجموعات البشرية الأولى التي صنعت الأدوات من أجل التواصل بأنماط الحياة. وبالتالي، فنوع الضخامة مشروط بخصائص الوسط المادي، بحيث إن المحارات والقرن هي مناسبة للبيئات الجبلية. وتشتغل العلامات بشكل جيد بالنسبة إلى الإنسان في السافانا والمراعي؛ أما وسائل الإيقاع فهي ذات فعالية في المناطق الغابوية.

لكن أنماط حياة المجتمعات تشترك أيضا مع الأدوات التواصلية التي تستعملها، لذا تحتاج أنشطة جمع المحصول الزراعي، والصيد، ثم بعد ذلك الرعي والزراعة، إلى تفاعل وتعاون بين العمال الذين سينظمون في وقت قليل جدا باستعمال وسائل التواصل.

ويعتمد التخصص والتماسك الداخلي، ثم استقرار المجموعات بشكل متزايد، على أدوات التواصل الضخمة. فإن الأهمية والسرعة اللتين تنتقل بواسطتهما العلامات، والمضخمت داخل المكان، مثلها مثل استمرارية الإشارات في المضخمت داخل الزمن. وهذه هي المحاور الإثنوغرافية للبحث التي كانت مفتوحة لما ألفت هذا الكتاب. من هنا يمكن، في الوقت نفسه، القيام باقتراح ما بشأن مستويات الأنسنة التي ينبغي البحث فيها عن بصمة الأدوات التقنية التي تضخم العلامات.

وكانت الأنسنة مدعومة بالتأكيد بواسطة تقدم التكنولوجيات والأدوات من أجل إنتاج البضائع، في الوقت الذي تتطور فيه بنفس الدرجة بسبب وجود تقنيات وأدوات لإعادة إنتاج المجموعة وتنظيمها، لذا تعتبر هذه التقنيات المنتجة تواصلية بالأساس. وأعتقد أن بصمة هذه التقنيات التواصلية سيمكن العثور عليها في تطورات التنظيم الاجتماعي والسياسي، انطلاقا من المجتمعات الأولى التي صنعت الأدوات.

¹²⁴ CF. مانويل مارتين سيرانو. "مشاركة وسائل التواصل في تطور الأصناف والمجتمعات"؛ و"الإنتاج الاجتماعي للتواصل".

7. المضخات التواصلية واللغات الاصطناعية

يبلغ صوت القرن مسافة أكبر من الصراخ، لكن بمجموعة محدودة جدا من العلامات القابلة للتمييز بعضها عن البعض، وينطبق الشيء نفسه على الأدوات التي تم ذكرها (القرع والدخان) وعموما على جميع الأدوات الأخرى التي تضخم العلامات. إذن، يحتاج مكبر الأصوات إلى ابتكار لغات قد تكون مناسبة للتعبير من خلال جمع العلامات المتفرقة، ومجموعة واسعة من الإشارات، والمعلومات المتعلقة بالأنشطة (مثلا، ملاحقة الفريسة)، وبالعلاقات (مثلا، الذهاب إلى مكان الاجتماع)، وبالمفاهيم أيضا (مثلا، تلك المتعلقة بالوقت). إذن، يتعلق الأمر بضغط تقني يجبر على تطوير التجريد، ومن ثم يحد من إنشاء لغات مناسبة.

أ) الانتقال من التعيين الكلامي إلى العملي

يؤدي استعمال الأدوات إلى التحول من التعيين الكلامي (الإشارة إلى الفائدة بالاسم الذي كان مرتبطا بالحاجة التي قد يلبها)، إلى التعيين العملي (الإشارة إلى فائدة الأفعال التي تحتاج إلى استعمالها). لهذا يشجع التعيين العملي على بلورة الاختلافات المنطقية بين العلامات التي تُستعمل للتواصل، كما يؤدي، في الوقت نفسه، إلى التنوع في تشكيلات العلامات المتوافقة مع الزيادة في المواضيع والمعطيات المرجعية.

ولقد كان لوسائل التواصل تأثير كبير على الأدوات المنتجة من خلال نمو قدرات التجريد، لأن الأدوات الأخرى للغات من أجل التعبير عما ذا ينبغي القيام به من خلال الأداة"، تحتاج إلى لغات لتدبير اللغات (الرموز التواصلية). لهذا كان لزاما تحديد هذه الاستعمالات اللسانية المرتبطة بعمل التقنيات التواصلية في وقتها، بحيث إنها ترميزات معقدة ظهرت قبل وجود الكتابة بكثير.

ويقتضى توفير الأدوات اللسانية التي يحتاجها استعمال الأدوات التواصلية تحولين أنثروبولوجيين اثنين آخرين:

- نمو القدرات المعرفية الضرورية
- إنتاج التمثلات الاجتماعية المتعلقة بتطبيقات اللغات على العمليات بواسطة الأدوات.

ذلك أن التمثلات الجماعية باتت تشكل جزءا من ثقافة المجموعة ومن المعارف التي يتم نقلها إلى الأجيال اللاحقة.

(ب) اللغات التواصلية الأولى والتقسيم التقني والاجتماعي

إن التعقيد الذي يحصل عليه تدبير انتشار التواصل، في نهاية المطاف، يؤدي إلى التخصص في دور منتجي ومستقبلي عملية التواصل، وإلى بعض عناصر المجتمع الذين ليسوا هم بالضرورة أوائل مستعملي وسائل التواصل التي تم البحث عنها بالتأكيد ضمن تلك التي كانت تعطي أحسن صوت، أو أحسن سمع أو كانت تبرز في التعامل مع الأدوات.

وبما أن الترميز وفك الشفرة الصحيحين لهما أهمية كبرى، فالتقسيم التقني للعمل التواصلية سيبدأ في ارتباطه مع التقسيم الاجتماعي.

لقد أدى هذا إلى الفترات التاريخية للمجتمعات حيث كان استعمال الأدوات - على وجه الخصوص ترميز وفك شفرة الرسائل - من قبل جميع عناصرها، باستثناء الآباء الروحيين أو المؤقتين أو مرؤوسيه، لذا تعتبر المعرفة اللغوية التي تسمح باشتغال مكبر الصوت مادة محفوظة، لاسيما عندما تصبح اللغات غامضة كي لا يتم فهمها من قبل الدخلاء. وتتم وساطات التواصل ولغاته التقنية بجانب ما هو مقدس (أي ما له قيمة من أجل بقاء المجموعة، ولا يجب أن تكون تواصلية، ومعروفة ومشاركة مع مجموعات أخرى).

وهناك احتفالات تخص تعظيم وحدة المجموعة، كما هو معرف، في معظم الديانات المعروفة، بحيث إنه في بعض المناسبات تضع العادات المناسبة حيز التنفيذ التكنولوجيات التواصلية باستعمالها المزدوج، من أجل جعل التماسك ممكنا، وفي الوقت نفسه كرموز للتماسك.

8. المضخات في الوقت المحدد

تنتج كل من الوسائل التي توسع الحدود الخاصة، والتقنيات المستخدمة في التواصل، الأدوات التي توسع الحدود الزمنية للتفاعل، فهي الأدوات التي تتم بواسطتها صناعة دعائم تعبيرية تدوم ليس فقط لفترات طويلة من التاريخ الفردي، بل لأجيال عديدة.

(أ) العلامات ومجموعتها في التواصل

تقترح المستندات الإثنولوجية أن المضخات الأولى يجب أن تكون في الوقت المناسب عبارة عن علامات، لذا فإن أشياء الطبيعة متغيرة حسب المكان أو الموقع، كما هو الحال بالنسبة إلى الحجر الموضوع بشكل عمودي من أجل الإشارة إلى المنبع والممر، أو في ذات الوقت ترك مكان الاجتماع. فهي استعمالات متعلقة بالمجال حيث تربط بشكل مباشر بين تلك التي تم اختبارها بين الحيوانات.

إن هذه الاستعمالات الدالة ترسم منطقة الصيد، والموطن أو ما هو مقدس، كما أنها تسلط الضوء على التخصص الاجتماعي للأماكن المادية، لهذا فالمفهوم المجرد للفضاء باعتباره محظورا أو خاصا، يمكنه فقط أن يعطي أو يستمر عندما يمكن الإشارة إليه بشكل مستمر.

ويجب، في كل هذه الحالات، على المادة التعبيرية أن تكون مفسرة، بحيث تعتمد هذه المعرفة على الإرسال الشفوي لمعناها، لهذا السبب كانت حيرتنا وتخميننا حول استعمال وتعيين الآثار الصخرية. لذا فهي أشياء تحتاج إلى ذاكرة خارجية، ومن بين هذه المواد التي تشير لكن لا تكشف عن رسالتها، والمواد الأولى التي تدمج بطريقة مسجلة المعلومة المرتبطة بمعناها واستعمالها، تمضي فترة طويلة من الزمن، وخلال هذه الفترة كان من المتوقع إنتاج أنواع مختلفة من المواضيع التواصلية ليتم نقلها أو حفظها، كما كان لزاما اختبار "ذاكرات المواد" الأولى فيها. لذلك فإن قليلا من هذه العناصر التواصلية هو الذي وصل حتى اليوم، مما يسلب الضوء على أن أمل الإنسان في استمرار رسائله، والذي يقتصر بشدة على الوضع المضمحل الذي يتوفر عليه كل ما هو مرتبط بالمادة. فمن المعروف أن الأصداف المفتوحة، والعظام المنقوشة وأطراف الأضرحة كانت تحتفظ بالمعلومة، وربما كانت تحسب من الموارد البشرية والمادية، وتُذكر بالمهام أو تتقاسمها بين أعضاء المجموعة. فقد قامت بوظيفة مزدوجة تتجلى في دمج المعلومة والاشتغال من أجل نقلها.

(ب) القيمة الاقتصادية للمواد التواصلية الأولى

تكتسب المواد التواصلية عندما يتم صنعها ونقلها، والمعلومة التي تحتويها، القيمة التبادلية في المعنى الدقيق للمصطلح. فهي عبارة عن أنشطة تحول الحرفيين الذين ينتجونها إلى سلسلة من الوسطاء؛ كما يحدث مع الحبال المعقودة التي تحتفظ، أحيانا، بالمسافات الكبيرة على امتداد جبال الأنديز. وهو المظهر الذي تم تنظيمه من قبل المجتمع قبل الكتابة من أجل نقل الرسائل عن طريق الصناعة والتجارة المتطورتين كان من أجل التواصل.

ج) التواصل وظهور الوعي التاريخي

يسمح استخدام التواصل ببروز المنطقة (الفضاء باعتباره إمكانية جيدة قابلة للامتلاك)، والتاريخ (الفترة باعتبارها إمكانية لمدة موجودة قابلة للاستغلال).

تتغير الحدود الزمنية حيث يوجد مجتمع ما عندما توفر مكبرات الصوت في الوقت المناسب المواد التعبيرية التي ترافق الروايات الشفوية. وتعتبر هذه المواد مجموعة خارجية التي تم تحويلها، حسب ما قلناه، "منذ فجر التاريخ"، وتقوم بمهمتها لدرجة أنها تدوم خلال أجيال عديدة؛ ودائما ما كانت تحتفظ، بإخلاص، بالتمثيلات الجماعية. إذن فهي الفترة التي ترتبط فيها الروايات الأصلية، وهوية ومستقبل المجموعة من أجل بلوغ الاستمرارية بما يتكرر ويستمر طويلا. لهذا ترتبط الدورات الاجتماعية بالدورات الشمسية والقمرية، وبناء على هذا نتوفر على الاستقرار في التقويمات الزمنية للحضارتين المايا والناهوا، بالرغم من أننا نعلم بوجود أمثلة أخرى قديمة جدا في ثقافات لم تكن تتوفر على الكتابة.

د) استقلالية التعبير

سوف ينتج نمو تكنولوجية العصر الحجري تطورا مهما على مستوى مكبرات الصوت المؤقتة، لذا ستفقد طبيعة الحامل المادي أهميته كجزء من الإشارة، بحيث إن الوظيفة الإشارية يتم تحويلها إلى تعبيرات. فثمة مرحلتين اثنتين في هذا التغيير الخاص باستعمال مكبرات الصوت¹²⁵:

- الأولى يكتسب من خلالها الأصل، والحجم، واللون ثم شكل المواد التعبيرية، قيمة إشارية مقارنة مع غيرها من المواد. سواء كان هذا المظهر طبيعيا أو تم تحقيقه باللمس. مثلا، أنواع الأصداف المنظمة بطرق مختلفة.
- وقد تم في الوقت ذاته توسع الفوارق بين المجموعات التعبيرية ومن ثم بين الإشارات الممكنة، لذا تم البدء بنقش الميول التعبيري الذي بلغ ذروته عندما أصبحت الإشارات مستقلة عن طبيعة المواد. ويتم إنتاج الحامل المادي من قبل السابقين؛ واحتفظ بوظيفته كحامل للمعلومة¹²⁶.

¹²⁵ CFr. مانويل مارتين سيرانو. "مشاركة وسائل التواصل في تطور الأصناف والمجتمعات".
¹²⁶ تصبح الألواح الطينية المطبوخة، "نسخا" مستنسخة من جديد في سلسلة؛ لذا يبدو واضحا أن الكتابات المسمارية في الألواح الطينية لـ (Ur) كانت قد وصلت قيمتها اللغوية في مواد أخرى قديمة جدا، لأن تم فيها فقدان القيمة التعبيرية للمادة التي قد جعلت المادة تواصلية.

9. وسائل المترجمين والأنسنة

بين العصر الحجري ونهاية العصر الوسيط، تم إنتاج بعض التغييرات النوعية في طبيعة مكبرات الصوت، وتستجيب الأدوات النحاسية لنفس مبادئ الخشب أو القرون سابقا. وقد طورت الحوامل البريدية، وورق الأرز، والرق تقنيات نقش العصر الحجري على الخشب، والحجر ثم الطين¹²⁷.

وأنتج ظهور الطباعة بمعية القدرة على إنتاج المواضيع التواصلية بشكل شامل، مرحلة الأنسنة، حيث تأثرت من خلالها التقنيات التواصلية بباقي التقنيات الإنتاجية، وشرحت في فترة طويلة نفس القوانين التقنية والاقتصادية، وتطورت جميع الأدوات؛ ومن ثم، تختلف صناعات التواصل، والتنظيمات من أجل الإنتاج والتوزيع ومراقبة الاستعمال، ثم تفسير المعلومة، عن باقي التنظيمات الاجتماعية، ولئن استمرت المؤسسات الاجتماعية في الارتباط بشكل وثيق، وانحراف العلاقة من التبعية إلى الاعتماد المتبادل.

ونتج التحول النوعي الكبير بظهور وسائل المترجمين، بحيث إنه إجراء قابل للمقارنة مع المواد التعبيرية الأولى، بنفس الأهمية أو أكثر من ذلك. لهذا يعتبر إنجازا حديثا جدا كما هو الحال بالنسبة إلى اختراع المقاطع الأولى التي تحول وتعيد بعد ذلك تكوين العلامات الأصلية في الإلكترونيات. وكما هو معروف، إن الوسيلة الأولى للترجمة كانت هي التلغراف وكانت تعمل بواسطة دوافع ميكانيكية. وبعد ذلك بقليل قام الهاتف بالشيء نفسه مع الأصوات.

من ثم، تم تكسير الحواجز التي تحول دون نشر المعلومة التي تؤثر في وسائل مكبرات الصوت. وبالتالي، تم استغلال الانتشار، والتزامن ثم الإيقونية. إذن، تتحول مجموعات العلامات إلى مواد (حوامل إلكترونية، وصورية ورقمية، إلخ).

لقد حققت الإنسانية تجسيدا، وحفظا ونقلًا للتناقض الكبير مع وفرة المعلومات التي أنتجت خارج الأجسام. دون الحاجة إلى تغيير، ولا لتدخل الجينات، وتكونت بذلك أنسنة العالم.

¹²⁷ Cf Manuel Martín Serrano. La Mediación Social.

إنتاج المواضيع الرمزية

1. التحولات التي تتيح الاستعمالات التواصلية الخاصة بالإنسان

حققت التفاعلات خلال التطور الإنساني بعدين اثنين، كل بعد يدفع إلى استعمال أكثر للتواصل، ويحدد المهارات التواصلية لجنسنا البشري. وهما كالآتي:

(أ) القدرة على إدراج تغيرات إخبارية في كل التفاعلات، কিفما كان موضوع التفاعل.

(ب) القدرة على التحويل جزء كبير من الأنشطة التي يمكن القيام بها بشكل مستقل إلى التفاعلات.

وتتم دراستهما على هذا الترتيب.

(أ) استعمال المعلومة في التفاعلات

للتذكير، فإن التفاعلات هي عبارة عن سلوكيات اتكالية، مما يعني أن الفاعل ينشئ علاقة مع الآخر أو الآخرين، والتي تكون ضرورية لتلبية حاجياتهم (انظر الفصل 1، العنوان 2). مثلا، يعتبر الإخصاب سلوكا اتكاليا، بحيث تحتاج الأجناس الحيوانية في التمييز الجنسي إلى مشاركة الزوجة.

لهذا يعتبر استعمال العلامات مطلبا ضروريا حتى تشارك المعلومة في التفاعلات؛ لذلك يمكن لهذه العلامات ذات الاستعمال الإخباري أن تشارك في التفاعلات على مستويين مختلفين:

1° باعتبارها الموضوع الوحيد للتبادل في التفاعل. مثلا، عندما يحتاج شخص آخر إلى إخبارنا الاتجاه.

2° باعتبارها مرافقة لأي عنصر من العناصر التي يديرها الفاعلون أثناء تفاعلهم. ويمكن لهذه العناصر، كما تمت الإشارة إليه، أن تكون موادا (1.2)، وطاقات (2.2)، أو علامات أخرى تكون حاملة لمعلومة أخرى (3.2). (انظر الفصل 1، العنوان 2). لنر الأمثلة الآتية:

(1.2) عندما يشرح شخص ما كيف يعمل الشيء الذي أهدها لنا، فالمعلومة مرفوقة بتبادل شيء ما.

(2.2) وترافق المعلومة استعمال الطاقات عندما يجب على الأشخاص رفع شيء ثقيل، فيتم التنسيق بين تشغيل قواهم واستعمال جمل من قبيل "واحد، اثنين وثلاثة".

(3.2) وترافق المعلومة معلومة أخرى عندما يتم القول في محادثة: "ما أريد قوله من خلال ما أحكيه لك هو..." أو عندما تتم إضافة: "لا أعرف ما إذا كان تُسمع محادثتنا جيدا عبر الهاتف"، أو عندما يتم التأكيد: "إن ما يقوله يهمني كثيرا". لهذا يعتبر هذا الاستعمال ميثا-تواصلًا.

ويركز هذا الفصل على الاستعمال الثاني من استعمالات المعلومة: عندما ترافق عناصر أخرى، فهي القدرة التي تأخرت في الظهور. لذا يتوفر عدد قليل من الأصناف المتواصلة على الجهاز العصبي المطلوب من أجل الإخبار بأحداثها الخاصة.

إن الجزء الأكبر من الأصناف التي قد وصلت إلى هذه المرحلة التطورية كانت قادرة من خلال التفاعلات على إنتاج المعلومة التي ترافق التدبير الذي تقوم به المواد (1.2) والطاقات (2.2). لكن أقلية قليلة فقط هي التي لها القدرة على الميثا-تواصل، بمعنى، إدراج المعلومة التي تُستخدم لتدبير معلومة أخرى (3.2). لهذا، توجد من بين هؤلاء المتواصلين المتميزين الطيور والثدييات وكذلك الإنسان. وسنعود في السياق المناسب إلى نمو هذا المسار التطوري. ويجب أن نشير إلى بروز قدرتين اثنتين نتوفر عليها نحن بنو آدم:

■ الأولى: هي القدرة على إدراج المعلومة في أي تفاعل من التفاعلات. إذن، يمكن للإنسان أن يقوم بهذا الأمر بشكل مستقل عن الشيء الذي يتوفر عليه التفاعل وعن ما يقوم به الفاعلون.

■ الثانية: هي استعمال الميثا-تواصل للمعلومة في أغلب التفاعلات.

وتوفر هاتان القدرتان، خصوصا البشرية منهما، إمكانية غير محدودة لابتكار الرموز التي تشير إلى ما هو موجود في العالم (وما هو غير موجود)، وما يحدث في العالم (أو لا يحدث)، وما يمكن القيام به في العالم (أو لا يمكن القيام به)، بما في ذلك الرموز التي تشير إلى رموز أخرى. وبالتالي تجعل حرية إنتاج الرموز الاستعمالات الثقافية للتواصل ممكنة.

(ب) التحول من الأنشطة المستقلة إلى التفاعلات

إن الاتكالية هي ذلك الشكل من العلاقة التي تكون فيها تلبية الحاجيات مرتبطة بالتفاعلات مع الآخرين، وهي تعارض الاستقلالية.

أمكن لنا، أثناء تطورنا، نحن وكل الكائنات الحية، تلبية العديد من الحاجيات دون إشراك الآخرين؛ فمن حيث المبدأ نحن مستقلون في تنقلنا، وغذائنا، ولباسنا، وملاحظتنا وتفكيرنا إلى ما لانهاية له من الأنشطة. ومع ذلك فإن بعض السلوكيات المستقلة هي اختيارية؛ بمعنى أنه من الممكن أيضا القيام بها بإشراك الآخرين. ونعطي الأمثلة التالية:

❖ من الاختياري للطفل أن يعرف اللباس الذي ترتديه الأم فقط؛ وأن يعرف أن شخصا آخر يساعد في تنظيف المنزل؛ وأن شخصا ما ينقل عبر الحاسوب هذا النص لي.

باستثناء بعض الأنشطة التي هي منظمة من قبل النظام العصبي المستقل، مثل التنفس أو النوم، توجد بعض الإجراءات المستقلة التي لا تصلح للتحويل في الاتكالية؛ لهذا في ترجع جنسنا البشري السلوكيات الاتكالية بدل المستقلة إلى تطور المجتمعات. في نهاية المطاف، تتكون الحياة في المجتمع من تلبية الحاجيات فيما يتعلق بالآخرين.

يقتضي ارتفاع الاتكالية ضمنا موردا متزايدا بالنسبة إلى التواصل، لأنه، عندما يصبح السلوك المستقل نشاطا مشتركا، من الضروري أن يتم القيام بإشارات من أجل التعبير عما نريد، وكيف نريد ومع من نريد.

و يقال إن الإمكانية الإخبارية لكل التفاعل وتلبية الجزء الأكبر من الحاجيات من خلال التفاعل مع الآخرين يعتبران من المهارات الإنسانية على وجه الخصوص، والتي من خلالها أنتجت بعض استعمالات التواصل الذي يعتبر، بشكل حصري، إنسانيا.

وسيتم في الصفحات الموالية تبيان ما هي هذه الاستعمالات وكيف تم اكتسابها.

2. التواصل الإنساني وأصل مركزية الإنسان

يتم التمييز في التفاعلات الإنسانية بين شكلين من السلوك والذين لا يظهران عند أي صنف آخر:

▪ إمكانية استعمال كل الأشياء والمواضيع المتاحة كمواد تعبيرية.

▪ إمكانية استبدال أي حدث بالإشارات.

هذان الاختلافان يفصلان دائماً بين الحدود الإنسانية والحيوانية. أولاً، بسبب المزايا التي توفرها هذه المهارات من أجل التعبير وتوسيع العالم المرجعي. لكن من أجل السيطرة على التعبير والمرجع، يجب على الإنسان تطوير مركزيته، مما يدل على أنه يحدد نفسه ككائن يعبر عنه العالم، ومناطقه كأماكن حيث يوجد مركز المرجع بالنسبة إلى العالم.

ولا تتوفر مركزية الإنسان على أي معادل تطوري، كما لم تظهر "قاعدة المركزية" و "معنى المركزية"، التي تتغير بواسطتها بالسلب والإيجاب المعايير التي يتم تطبيقها للإشارة إلى نفس الشخص، وإلى الفاعلين أنفسهم، وإلى آخرين، وإلى أجنبي وإلى الفاعل نفسه؛ كما تغير الاستعمال الذي أصبح من المواد التعبيرية من أجل العمل بالمعاني والتسميات.

إنّ، تعيد مركزية الإنسان توجيه التفاعلات التواصلية بالتحول من الوسط إلى وظيفة الحاجيات الإنسانية.

وكانت هذه التغييرات مرتبطة بالتقنيات التي يطبقها الإنسان في التواصل، لكن الآثار التي أنتجت تحولت من المحيط إلى علم الإنسان والقيم.

ونستمر في عرض الكيفية التي تم بها تأصيل هذه القدرات التواصلية، والكيفية التي تم بها تحويل هويتنا وسلوكنا. والنص مجزأ إلى قسمين:

▪ الأول حول السلوكات الرمزية، بحيث يتم شرحها في هذا الفصل.

▪ الثاني حول التصرفات الدالة، وسنخصص له الفصل التالي.

3. العمل التعبيري لكل الكيانات المادية

إن السلوكات الرمزية التي تتطور بفضل القدرات التواصلية لها أصول في السلوكات الأخرى التي لا تؤدي الوظائف الرمزية. هكذا تم شرحه في هذا الكتاب.

كانت العلامات التواصلية الأولى للحيوانات قليلة وأحادية الدلالة، لهذا قد يحتاج العبور نحو الوفرة الرمزية للاتصالات الإنسانية إلى ثلاث مراحل سيتم توضيحها وشرحها:

1أ استعمال نفس الجسم كمادة تعبيرية.

2أ الفصل بين الجسم والمادة التعبيرية.

3أ استعمال التواصل من أجل حماية فردانية الفاعلين بالحفاظ على المسافة بينهما.

(أ) مؤصعة الإشارات

يعتبر الجسد أول مادة تعبيرية متاحة للمتواصلين وتوجد في الطبيعة؛ لذا فالسيطرة على الوظائف العضوية يتكيف بسهولة مع السيطرة على التعبير. وقد شكلت هذه الاستعمالات موضوع تحليل مُفصل (انظر الفصل 6).

يعرف التواصل نقلة نوعية عندما تظهر أصناف "أو تُظهر أصنافاً" قادرة على أن تعمل بمواد تعبيرية مختلفة عن الجسد نفسه.

إن الحيوانات التي تستعمل الأشياء كمواد تعبيرية قد تحولت إلى حامل للعلامات، لما كانت الأشياء الحاملة للعلامات مستمرة وتنسب لنا قيمة الرموز. وهذه الحيوانات كانت هي الأولى التي أدخلت الوظيفة "الرمزية" في النظام الإيكولوجي.

❖ تذكرنا مرة أخرى أن الكلبيات التي تمنح القدرة التعبيرية من أحجار وأشجار تحدد منطقتها عن طريق بولها؛

❖ وكذلك الغرابيات التي تجمع الأحجار والأسلحة تطبق الوظيفة التعبيرية لتحديد مساحة الاستعمال المقيدة بالنسبة إلى الآخرين.

وتصبح الإشارات مستقلة عن تلك التي تشير إلى مواد أخرى ليست هي نفس جسم المتواصل عندما تستعمل كدعامات تعبيرية.

لذلك يعتبر خيارا تطوريا يبدو مقبولا بسبب موضوعية المعلومة داخل دعامات أكثر استقرارا واستمرارية. ويتحقق هذا التوجه عند الإنسان القادر على إنتاج مواضيع تم إنتاجها خصيصا للتعبير، وتوجد من بين هذه المنتوجات التواصلية الكتب والمصاييح.

(ب) ارتفاع عدد المواد الرمزية

إن استعمال الأشياء أحيانا، الأجسام، كمواد تعبيرية يعيد توجيه تطور الممارسات التواصلية:

■ تتحول بعض السلوكات التي تؤثر في المحيط إلى معاني، وذلك لما تتحول المعاني من المواضيع إلى الأشياء، لذا فهذه التغيرات التعبيرية تؤدي إلى زيادة في المواد التي حصلت على قيم رمزية.

■ كان هناك في بدايات التواصل تشابه بين المظاهر الجسدية الملائمة والإشارات التي عملت بهذه التغييرات الجسدية، بحيث ظهر هذا التشابه عندما تم استعمال الأشياء من أجل الإشارة إلى شيء ما. وبقدر ما تصبح العلامات أكثر اعتبارية، من الطبيعي أن يكون استعمالها مرفوقا بالتحويلات المعرفية التي تعتبر ضرورية لإنتاج وتفسير الإشارات.

ويتوفر جنسنا البشري على القدرة على تحديد القيمة الدلالية لكل شيء في الطبيعة ولكل الأشياء التي تنتجها.

لكن الاستعمالات الدالة للمواضيع والأشياء ظلت منفصلة خلال الجزء الأكبر من الفترة التي وُجدت فيها الإنسانية. وأحد الثوابت الثقافية القليلة التي توجد في الأساطير هي التنبيه إلى أن **المواضيع والأشياء ليس لها نفس المعنى**، لأن هذا الفصل مرتبط بشكل واضح بأصل (سواء كان طبيعيا أو تقنيا) المواد التي تؤدي الوظائف الرمزية. وبالتالي، فإن الثقافات تحمل قيما مختلفة عن كل أصل من هذه الأصول. وما يجب أن نبرزه هو أنها ليست نفس القيم:

■ عادة ما ينسب معنى الأشياء الطبيعية إلى مبتكر ما، نتيجة لكون القيمة الرمزية التي تتوفر عليها (الأشياء الطبيعية) قد تم إضافتها. فقد يتم اكتشافها، ولكن ليس تحويلها؛ ولا يتم ذكرها حتى في

بعض المجتمعات. وبعبارة أخرى، لا يمكن لها أن تدل على أي شيء. وكما يقال، إنها مقدسة. من هنا، فإن الاضطرابات والعلاقات المتناقضة التي تتأسس أحيانا في بعض الثقافات بين فعل التواصل من أجل تدبير العالم رمزيا، ومتطلبات المتواصلين من وراء تلك العمليات الرمزية التي تحققت، لا تتجاوز الطبيعة. فهو أمر غير قابل للتحقق.

■ في المقابل، إن معنى الأشياء، باعتباره فعلا من أفعال الإنسان، يكون مرجحا لأن يشير إلى الحاجيات التي تدفع إلى ابتكاره؛ مثلا، البطل الأسطوري الذي اخترع الإناء، والملابس، وعصا البذر أو أيا من الأدوات والوسائل الأولى. وكان لزاما على الأدوات التي كانت نادرة جدا وضرورية أن تقوم بترميز المهام، والاستعمالات، والأعراف المتعلقة بالحياة والموت، وتقسيم المهام وتوقع المستقبل.

وكان من المنتظر، أثناء الجزء الأكبر من تاريخ الإنسانية، أن تكون الاستعمالات الرمزية مستقرة إلى حد ما. ففي الواقع يمكن تغيير الرموز المتوفرة في الأشياء المصنوعة الأولى، داخل حدود معينة. لهذا كانت تسميات البضائع التي أنتجها الإنسان باجتهاده اعتباطية، بمعنى أنها كانت وساطة ثقافية، لكنها كانت عادية بشكل مطلق.

وقد تم تغيير معاني المواضيع بسرعة تدريجية لدرجة أنه ارتفع الجهاز المادي للمجموعات الإنسانية، والتي يتم بفضلها تلبية معظم الحاجيات المتنوعة. في المقابل، إن الارتباط بين الأصل والاستعمالات وجدوى المواضيع والمعاني قد تم على نحو متزايد. وإذا صح التعبير، إن المعاني، مع مرور الوقت، أصبحت أقل دينامية، أو اعتباطية أحيانا¹²⁸. لذا، في هذا الكتاب لا يوجد مكان للمضي قدما بهذه التحليلات للاستعمالات التعبيرية والمرجعية للأشياء والمواضيع. فالقارئ يرغب في الحصول على هذه التطورات في كتب أخرى¹²⁹. ألخص الملاحظات التي أستحضرها الآن:

ويجزء موقع الإنسانية الرموز التي أنشأتها؛ وفي العديد من الأحيان تجهل أنه هي التيا أنشأتها. وبالتالي، إن الدافع إلى هذا التوتر هو الطبيعة المزدوجة، المادية والرمزية، التي تتوفر على المواد التي تنتجها الطبيعة والإنسان، ومن ثم يعتبر الارتباط بين هذه المواد والتي تم الإشارة إليها، سرا من الأسرار. وهذا

¹²⁸ عندما يظهر الإشهار يكون التواصل إقتناعيا، حيث تحدث نقطة تحول في إنتاج المعاني المخصصة للمواضيع. فالمقنعون يطبقون الاعتباطية الخاصة بالتعيين على اشتغال الاعتباطية التي تُدخل للسوق المنافسة بين العلامات التجارية. فتعمل، بطبيعة الحال، مع المعاني داخل نظام معين، ومع النظام الرمزي الذي اشتغل خلال العديد من آلاف السنين لكي تتطابق كرامة الإنسان ومواضيعه. وهذا الأمر مازال قائما، لأنه إذا كانت القيمة الرمزية تتأكل بواسطة الإشهار، فإنها تتم إعادة بنائها عن طريق الوعي لما نشغل بالفئات المعرفية التي نستعملها لفهم العالم.

¹²⁹ انظر. مانويل مارتين سيرانو: "الوساطة الاجتماعية"؛ "الإنتاج الاجتماعي للتواصل".

المصطلح هو للهرمينوطقيين الإغريق. لكن هذا السر مازال ساري المفعول، ويفتح الآن جدلا متكررا بين المتخصصين حول أصل المعنى.

4. التواصل باعتباره ارتباطا وانفصالا

ترافق استعمال الرموز زيادة في حركية الأفراد، وبالتالي يمكن تصور أن أصل العالم الرمزي كان مرتبطا بالانفصال بين الأفراد الذين يجب عليهم، من أجل العيش، الحفاظ على التفاعل بينهم. إذن، فهم المتواصلون.

ويفترض "الانفصال" مسافة جسدية، كذلك الوقت المناسب. لذا، فإن الأصل التطوري للتواصل هو موجود تحديدا في الجدلية بين البعد بين العينات وتعزيز التفاعل. وثمة أيضا خياران مفيديان:

■ الأول، وضع المسافة بين عناصر المجموعة يزيد من الموارد والسكان، وعندما يتشكل المجتمع من قبل الأفراد المنفصلين، تؤثر الخسائر على كل واحد على حدة، بدلا من أن تشمل كل السكان.

■ الثاني، بعد المسافة يطور أشكالاً جديدة من الاتكالية التي يبقى الصنف بفضلها على قيد الحياة.

يتيح التواصل نوعا من العلاقة التبادلية لانصهار الهويات داخل جسم واحد أو فوق جسم واحد، ومن خلاله يضمن الاستمرار عن طريق إعادة الإنتاج، والإنجاب، والغذاء، ونقل المعرفة وباقي الأنشطة الاتكالية، دون الحاجة إلى أن يكون هناك اتصال جسدي. وتساعد المقارنة بين الإسفنج والنحل على فهم هذه الاختلافات¹³⁰.

ويكتسب التفرد أهمية كبرى بالقدر الذي تطور به هذا التوجه التطوري نحو الفصل بين العينات، لذلك تفهم "الفردانية" كأنها نقيض للالتباس مع الآخر (الانصهار - مع). ولنفس الأسباب التطورية التي دُكرت للتو، من المفيد عدم استيعاب مكان وزمان الآخر حتى لا يكون مستوعبا وملموس. وكذلك لنفس الأسباب دخل الانفصال في صراع مع الخصائص شريطة أن تتمكن العينات من الوصول إليها بشكل متبادل، ولاسيما أثناء إعادة الإنتاج؛ لذا يساهم هذا التعارض أيضا في جعل العلاقات التواصلية تتطور كاستراتيجيات تطويرية.

¹³⁰ يتم وصف التبادلات بين خلايا أو أعضاء الصنف في بعض الأحيان باعتبارها أشكالاً من التواصل. وهذا الأمر يتعلق بتفسير غير صحيح.

يرجع الجزء الأكبر من النجاح التطوري للتواصل إلى أنه يتيح تفاعلات تبادلية بمجرد امتلاك الآخر كشيء، وبالاختلاط مع الآخر كموضوع.

وقد كان تصور الفردانية لدى الانسان يعتبر مكونا للموضوعية، لهذا يأتي الدور عندما تعمل مع تجربة الانفصال، باعتباره مطلبا من أجل استمرار نفس الكائن. لذا فالشعور الذي يتغذى على نفس التناقض الموجود في أصل التواصل هو الصراع غير القابل للحل بين أن تكون للآخر وأن تكون دون الآخر. هكذا، يحفظ التواصل الموضوعية لأنها تؤكد أن الانفصال بين المتواصلين مازال قائما، وتجلي التناقض الذي يحدث كلما اجتمع الأشخاص للتواصل، فيصبح الاجتماع بوجود التواصل ظرفيا وغير ضروري في بعض الأحيان.

وُستعمل الأشياء الرمزية كمواد تعبيرية لتلك المرتبطة مثل المتواصلين المنفصلين. وهذا الاستعمال التواصلية هو الذي يحددها بالإشارة الضمنية للمسافة التي جعلتها ضرورية، بشكل مستقل عن التحديد الذي تمت الإشادة به في التفاعل التواصلية،.

بالنسبة إلى التواصل، يتم الرجوع إليه فقط عندما يكون لزاما على الفاعلين أن يحققوا معا تفاعلات معينة. ويقدر ما تعقد التأثيرات العلاقات العاطفية بين الحيوانات، يشتغل التواصل ليس فقط لإعداد السلوكيات بل لاستبدالها. لذلك تتحول التجربة التواصلية إلى موضوع التفاعل التواصلية، ويصبح هذا المكون مهما جدا بين الأشخاص، حيث لا يمكن تصور إمكانية التفاعل مع الآخرين من دون تدخل التواصل، كما سيتم شرحه في الفصل التالي.

التواصل في السلوكات الإنسانية

1. تخصص التفاعلات الإنسانية في الإشارة

لقد أشرتُ من خلال التفاعلات بين الفاعلين إلى أنه يتم إنتاج نوعين مختلفين من الإجراءات: تنفيذية وتعبيرية.

- تنتج الإجراءات التنفيذية طاقات يقوم من خلالها الفاعل بشيء ما للآخر.
- تُرسل الإجراءات التعبيرية علامات يشير بواسطتها شخص ما إلى شيء لفاعل آخر. (انظر الفصل 3، العنوان 2).

تتجلى الاختلافات على مستوى استعمال الطاقات في الشكل 1.16.

وتعتبر جميع السلوكات التواصلية إجراءات تعبيرية، لذا فهذا هو المعيار المستعمل، بالخصوص، للتمييز بين التواصل وباقي التفاعلات.

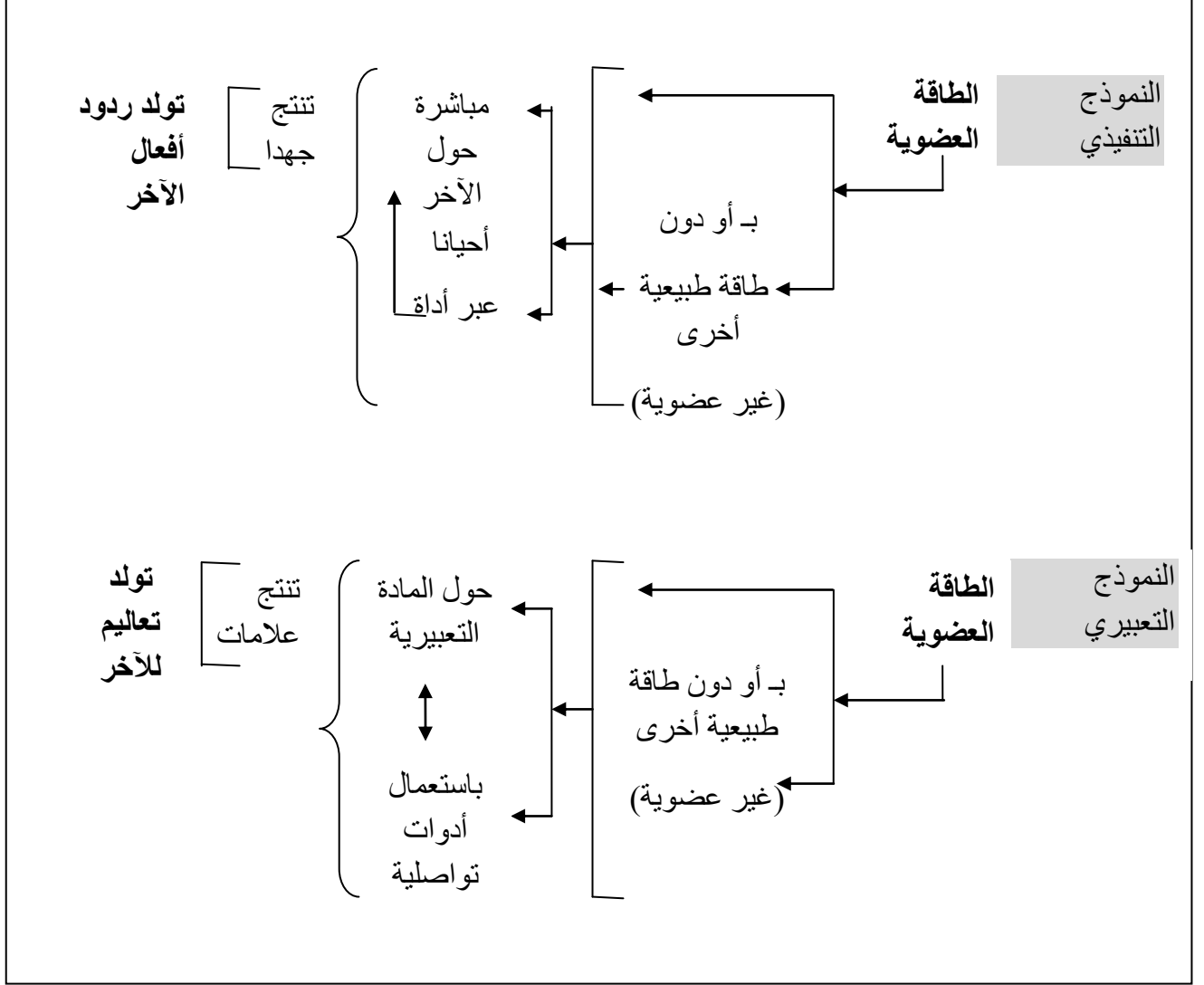
تمتلك الأصناف التي تعتمد على استعمال الطاقة في التفاعلات القدرة التنفيذية، بينما، في المقابل، تكتسب القدرة التعبيرية فقط تلك الأصناف التي تشتغل بالمعلومة التي تنقل العلامات من أجل الإشارة إلى أشياء أخرى.

ومن الممكن تقديم ملاحظة مفيدة في بعض الاستثناءات:

قانون التحويل من التنفيذ إلى الإشارة

تقوم الحيوانات في التفاعلات، من أجل التطور أكثر، بعدد كبير من الإجراءات التعبيرية، عوض التنفيذية التي تستعملها أصناف أقل تطورا.

الشكل 1.16 النموذجان الاثنان لاستعمال الطاقة في التفاعل



يتحقق هذا التوجيه مهما كانت المرحلة التي تمت دراستها في تطور السلوكيات التواصلية، مما يبدو لي أنه قانون يجب إضافته إلى الذاكرة التي تنظم الاشتغال التطوري. ونلاحظ من خلال استمرار هذا القانون دمج الإجراءات التعبيرية في التفاعلات المرتبطة بإعادة الإنتاج البيولوجي¹³¹.

(أ) التخصص التعبيري للتفاعلات الإنسانية

¹³¹ يظهر الاتجاه التطوري نحو استبدال الأعمال التنفيذية بالأعمال التعبيرية في نظم التفاعل المرتبطة بإعادة الإنتاج. مثلا، ما تزال عند الحشرات ذات الثنائية الجنسية التي تنتمي إلى مستقيمات الأجنحة، التصرفات التنفيذية يمكنها أن تلعب دورا مهما، بحيث تؤمن للذكور الشروط الفيزيولوجية للإخصاب باستخدام الشل الميكانيكي لحركة الأنتى. في المقابل من المعتاد لدى بعض أصناف قشرية الأجنحة، كما هو الحال بالنسبة إلى الفراشة المدعوة "الشيق المشترك"، أن يتم الاستعداد بواسطة التصرفات التعبيرية "للمغازلة".

ومن المحتمل أن يكون الصنف البشري هو النقطة الأخيرة لهذا التوجه التطوري الذي أدرج التعبير، إذ لم يكن هناك في السابق سوى التنفيذ. لذلك فقد ساهمنا نحن البشر في جعل الكون تعبيريا بطريقتين:

1 الزيادة في نسبة الأفعال التعبيرية، مقارنة بالتنفيذية، في معظم التفاعلات التي نقوم بها.

2 استبدال كل فعل تنفيذي بآخر تعبيرية.

وتجعل منا هذه الامتيازات الصنف الوحيد المتخصص في تحويل الأفعال إلى إشارات، لكن، كما يحدث غالبا مع جميع التخصصات، لها نقطة عدم التكيف مع التغيرات التي عرفتتها المجموعات البشرية وكل شخص على حدة على امتداد الزمن، مما يجعلنا ندفع بسبب هذا تكاليف كبيرة إلى حد ما.

لذلك نتجت المشكلة من كون كل الأفعال التنفيذية التي تشترك في السلوك التفاعلي لا يمكنها أن تكون بديلة بشكل فعال لأفعال أخرى تعبيرية.

ينسجم المرور من إجبارية التصرف إلى التواصل في الطبيعة فقط مع تلك الأنواع من التصرف التي يكون فيها التفاعل فعالا بالنسبة إلى الصنف بشكل كبير عن طريق وسائل تعبيرية بدلا من أخرى تنفيذية. كما أن التفاعلات المرتبطة بالإخصاب توضح أن العمليات التنفيذية تحل مكانا لا يمكنه أن يكون خارج التعبيرات الدالة.

❖ من المفيد في تطور العناكب استبدال الأفعال الهادفة لشل حركة الزوجة (تنفيذية)، بسلوكات طلب ممارسة الجنس (تعبيرية). ويفضل هذا التغيير، لا تكون الذكور مضطرة للرجوع إلى الأفعال التنفيذية للالتفاف حول شريكها بواسطة خيوط من النسيج لتجنب ابتلاعها، فهي تشير الأنثى إلى كونها "مخصبة" وليست "مفترسة"، وذلك من خلال علامات يمكن أن تميزها عن المحفزات التي تستقبلها الأنثى عندما تسقط حشرة في خيوطها.

على كل حال، يتحقق إخصاب الأنثى من قبل الذكر عندما تكون المواد الجينية للطرف الأول موضوعة رهن إشارة الأعضاء التناسلية للطرف الثاني، مما يتطلب تصرفات تنفيذية، أيا كانت السلوكيات التعبيرية التي تتيح إمكانية التحضير للإخصاب.

توفر الطبيعة إجراء فعالا جدا من أجل القضاء على الأصناف التي تقوم باستبدالات سلبية، أي تلك التي تختلط ولا تنقل تجمعها الجيني. لذلك تعمل هذه الآلية عند كل أولئك الذكور الذين لا يقومون بالإخصاب، بما في ذلك الإنسان. وكما هو واضح، فإن الأشخاص الذين يتخلون عن القيام بالفعل الإيجابي لدوافع دينية أو ذات طبيعة أخرى يستثنون أنفسهم كذلك من السلسلة الجينية، لكن النتائج التي تتعلق بالإنسانية مختلفة عن تلك التي تخص الحيوانات.

إن القضاء على صنف من الحيوان قد يغيّر تحقيق الفعل الجنسي بالإشارة إليه. ويلغي هذا النمط السلوكي، في الوقت نفسه، الأصناف التي تبقى خارج السلسلة التطورية. في المقابل، ينظمها الصنف البشري لأن الحد من العزّاب لا يمنع من تفاقم العزوبة. لذا، يتحول نفس النمط السلوكي إلى الجيل الموالي بواسطة سلوك ثقافي، عدا بعض الاستثناءات التي كسرت القاعدة، حيث لا ينحدر الرهبان الحاليون من الرهبان الأوائل الذين فضلوا العفة.

(ب) السيطرة الاجتماعية على الأحداث من خلال التواصل

يقوم الأشخاص على المستوى الفردي، أحيانا، بتحويل السلوكيات التنفيذية إلى مظاهر تعبيرية، عوض تسهيل الوصول إلى الإنجاز، وتقبيده أو استبعاده.

❖ مثلا، الأفراد هم أحرار في استبدال التغذية (سلوك تنفيذي) بمظهر احتجاجي (تعبيري)، ويتخلون عن الأكل عندما يعلنون إضرابا عن الطعام.

أما على المستوى الجماعي، يتيح النقل الثقافي لأنماط المجتمعات فرض الامتناع عن بعض السلوكيات على بعض العناصر، وتعزيز استبدال الفعل بالإشارة. ويتم تسمية بعض هذه الاستبدالات حسب فرويد بـ "التسامي". لذا يعتبر التخلي عن تلبية الدوافع اللبديّة نحو الزوجة من بين الأشكال الأكثر تجليا

للتسامي، بتحويلها إلى التعبير العاطفي بالتمني، والتسامي إلى الشعر أو إلى رسائل الحب كما هو معتاد أكثر. لهذا لن توجد العديد من الأجناس الأدبية وبعض الأجناس السمعية البصرية دون هذا التحويل من الطاقة اللبديية إلى الإنتاج التواصلي.

على العموم، إن المجتمع يعزز في التفاعلات الاجتماعية إعادة التحويل من العمليات الإجرائية إلى التواصلية عندما لا تكون هذه العمليات الإجرائية إنتاجية. وتسمى هذه الآلية بـ "الاضطهاد".

❖ مثلا، غالبا ما تكون العلاقات الجنسية والأطفال خارج العلاقة الزوجية موضوع رقابة أخلاقية وثقافية في حقب مختلفة. وفي حقبنا بلغت هذه القناعة ذروتها أثناء العصر الفكتوري، لذا ظهرت كتب الأخلاق والعادات الجميلة، التي تعتبر من سمات تلك الحقبة. ومن الواضح أن رفض مثل هذه السلوكيات التي تم تصنيفها على أساس أنها غير منظمة يبرر بتهديد الاستقرار العائلي، وسبب بقاء طاقات للأنشطة الإنتاجية. في حين أن العشاق والأطفال غير الشرعيين فمن غير اللائق إظهار أمرهم للعموم، وقد وجدوا لهم مكانا في مجال التواصل لأنهم أشخاص يكثر ذكرهم في الأدب الذي كان ينتمي آنذاك للطبقات الشعبية.

ويمكن فهم الآلية الأساسية لبعض الاضطرابات العصبية بمثابة تحويل سلبي للإجراء بالإشارة، فهي تلك الاضطرابات العصبية التي تدفع إلى التخلي عن الرغبة في الشيء. إذن، تعتبر هذه الاضطرابات العصبية جزءا من الثمن الذي دفعه الكائن البشري بتحويله من المتعة إلى التواصل.

والاضطهاد قد جاء لتنظيم حياة كل عنصر في المجموعات السابقة عن الإنسان قبل وقت طويل من ظهور الثقافة في المجتمعات الإنسانية. لكن هذا الاستعمال للإشارة في صنفنا البشري يتشابه مع ذلك الاستعمال الذي تقوم به الحيوانات، بينما لا يتم منع التعبير عن المطالب الأولية التي ترغب الحيوانات¹³² في المجموعات السابقة للإنسان.

¹³² تعرض بعض المجتمعات الإنسانية فرصا وعادات لكي تتمكن من إظهار متمنياتها الممنوعة ولو بطريقة مدهشة، كما أن مجتمعات أخرى تحاول إلغاء حتى ذكر الطلبات الأولى باستخدام إكراهات مدنية أو دينية.

وخلافا لما يحدث في عالم الحيوان، هناك جزء مهم جدا من الإنجازات التي تتيح هذه الأفعال، والتي تكون معروفة أو بالأحرى متاحة أو محظورة. فعادة ما تظهر هذه الإشارات عندما يتعلق الأمر بالأفعال غير التواصلية (التفيزية) التي تتعلق بشكل مباشر بأشخاص آخرين. لذلك فهي عبارة عن تقييمات مدرجة لمعالجة هذه الأحداث، بحيث يتم تقديمها بالشكل الذي تمت الإشارة إليه وبالمصطلحات التي تم وصفها بها.

إن الإشارة إلى ما يراد القيام به، يتم إخفاؤها، أو كشفها أو استبدالها، باعتبارها تعبيراً عما ينبغي القيام به. الاضطهاد لا يعمل فقط في التواصل، بل يعتبر طريقة إنسانية، على وجه الخصوص، لإنتاج التواصل.

إن الاضطهاد الاجتماعي هو آلية من الآليات التي "تتغير في طبيعتها" عندما يختلط الإنسان اجتماعياً. لذا تستخدم القدرة الإنسانية لوضع التواصل حيث كان الفعل التنفيذي من أجل الأحسن والأسوأ، المصالح الاجتماعية الأساسية على دفعات فردية. وهذا التحكم يعمل على المستوى التعبيري.

لكن الحاجة للقمع تصبح، على كل حال، ظاهرة. فمن المعروف من خلال أعمال فرويد والمحللين النفسيين اللاحقين، أن الأشخاص يعبرون عن ما يرغبون فيه وغير مسموح لهم الرجوع إلى الإشارة الجسدية، خصوصاً القديمة منها جداً. لذا تعتبر معظم الأشياء هي نفسها الإشارات التي تستعمل بين الحيوانات المتواصلة. فهي عبارة عن لغات عضوية وسلوكيات تعبيرية مازلنا مجهزين بها.

ويتجلى القمع العدوانى لعناصر أخرى من نفس المجموعة في الحالات التنافسية، وبشكل عضوي في تغير اللون والتوترات الجسدية، وفي السلوكيات من خلال التنقل من المكان الذي يتم فيه اكتشاف الأفعال؛ والاقتراب والابتعاد عن الخصم؛ ومعالجة الأشياء. وتتناسب هذه الحركات مع الإشارات المستعملة من قبل تدييات اجتماعية أخرى من أجل إنشاء التسلسل الهرمي داخل المجموعة، وذلك لما ينبغي احتلال الأرض أو النزاع لحيازة المنتجات التي تحتوي عليها.

2. المزايا التي تضع التواصل في مكان التنفيذ

وصفت بأنها القدرة على دمج إشارات في كل التفاعلات، وفتحت الطريق للقيم الاجتماعية التي تحدد ضمناً التفاعلات الإنسانية. وسنعرض بعد ذلك ما هي المزايا التي شجعت هذا الانفجار التعبيري.

يوفر ارتفاع عدد السلوكيات التعبيرية للأصناف مزايًا تطويرية مهمة جدا: منها الاقتصادية، والحيوية وتوفير الوقت.

من أجل البدء في التحليل لابد من مثال بسيط، يعتبر تفاعلا يتم فيه تحقيق هذه المكتسبات من الطاقة والوقت، باستبدال بعض الأفعال التنفيذية بأخرى تعبيرية:

كان الأب في بيت نوم طفل عمره أربع سنوات، وكان هذا الأخير يلعب في الساحة. أراد الأب أن يأتي الطفل لينام. يمكن تحقيق أغراضهما باستخدام بعض هذه الطرق:

(أ) ينتقل حيث يوجد الطفل، فيأخذه من يده ويمشيان معا نحو بيت النوم، ثم يضعه فوق السرير ويغطيه. كل هذه التصرفات هي تنفيذية.

(ب) ينادي عليه ويطلب منه أن يعود، ثم ينتظره في بيت النوم. ينومه ويغطيه. إذن، استبدل الأب الانتقال بمظاهر تعبيرية.

يقتصد الخيار الثاني طاقة (الأب) والوقت كذلك (الوقت الإجمالي الذي يستغرقه هذا التفاعل).

يجب على الطفل أن يذهب إلى بيت النوم مشيا في أي من الخيارين اللذين تم تقديمهما. ولا يمكن استبدال هذا الفعل (التنفيذي) بأي فعل تعبيرية.

ثمة احتمال أن يستلقي الطفل بنفسه على السرير ويغطي نفسه بنفسه. لذا تتحول المهمة من الأب إلى الطفل. لكن واحدا منهما سيكون ملزما بالقيام بها.

عموما، يوضح هذا المثال الأرباح الطاقية والزمنية في التواصل لما يتم استعمال إشارة ما مكان التنفيذ.

(أ) الأرباح على مستوى التوازن الطاقية

ينبغي على الفاعلين أن يستثمروا طاقتهم من أجل الارتباط بينهم، وذلك عندما يمكن استبدال الأفعال التنفيذية بأخرى تعبيرية في التفاعلات. إذن، الطاقة الإجمالية المستهلكة في هذا التفاعل عادة ما تكون قليلة.

وعادة ما يحسن هذا الربح الطاقية من مردود التفاعلات. هكذا يتضح من خلال المقارنة بين المثالين الآتيين:

❖ إن النحل الذي يحدد حقل الورد، يشير إليه لرفاقه بتنفيذ "رقصة". وهذا التصرف هو تعبيرى ويشير إلى المسافة وارتفاع التحليق الذي سيأخذها إلى المكان المناسب¹³³.

❖ في المقابل، بعض النمل، عندما توجد في نفس الوضعية، ينبغي عليها الرجوع إلى المكان الذي يوجد فيه الطعام متبوعة برفاقها.

يوفر التواصل فائضا من الطاقة التي تتيح للفاعلين تطوير أنشطة أخرى (غذائية، إنتاجية واجتماعية، إلخ).

وتشغل في التفاعلات الإنسانية المباشرة نفس الآلية، مثلا، عندما تطور الأفراد مع بعضها البعض أنشطة الحياة اليومية.

ويعتبر التواصل في حد ذاته في الاستعمالات الاجتماعية، في الكثير من الأحيان، الأساس المنطقي للتفاعلات. وبالتالي، غالبا ما يحدث أن تكون الطاقات المتاحة لخدمة الإنتاج والنقل التواصلي ضخمة، نتيجة إدراج العملية التواصلية للتنظيم الاجتماعي في شموليته، وللتكنولوجيا. لذا يعتبر مفهوم "الاقتصاد الطاقى" كذلك، على هذا المستوى مفيدا، لكن يجب تحليله في إطار مرجعي آخر بشكل أوسع من ذلك بكثير.

ب) الأرباح على مستوى التوازن الزمني

يحتاج إنجاز نشاط تعبيرى إلى فترة زمنية قصيرة من التصرف التنفيذي الذي يحل محله. ويتوفر انخفاض الوقت المطلوب لتحقيق الهدف من التفاعل على قيمة اقتصادية وأخرى من قبيل الصدفة:

- من جهة، زيادة في الفترة الحيوية بالنسبة إلى أنشطة أخرى.

¹³³ انظر . Frisch, K von.

❖ مثلا، تسيطر الغنم على الخرفان بواسطة الغناء. وتتوفر الأم على وقت للغذاء، خصوصا عندما ترضع صغارها.

❖ في المقابل، تقوم الطيور بتدفئة أفراسها في العش؛ والذئب التي ترضع صغارها لا يمكنها القيام بشيء آخر حتى تحل محلها أزواجها.

- ومن جهة أخرى، فإن اكتساب الوقت الذي يوفره التواصل باحترام التنفيذ، يقدم، في بعض الأحيان، الفرق بين الحياة والموت.

❖ من المفيد امتلاك القدرة على التقاط علامات الخطر التي يبعتها عنصر آخر من القطيع، عندما يكون الهروب هو السبيل الوحيد للفرار من المفترس، وتكون الحاجة إلى الوصول حيث توجد الصغار لنقلها واحدا تلو الآخر إلى الجحر كارثة.

في التواصل الإنساني يصبح أيضا التوازن الزمني غير ملائم بشكل جيد لما يتم اللجوء إلى التواصل، لأسباب تشبه تلك التي تمت الإشارة إليها في العنوان السابق. في المقابل، إن قيمة الصدفة التي تساعد على ربح الوقت بالاعتماد على التواصل تكون دائما إيجابية.

3. الطريقتان الممكنتان للتفاعل

لقد وضعنا أن الفاعلين لما يرغبون في إنجاز الشيء الذي يجب أن يتحقق بالتفاعل يلجؤون إلى إجبارية التصرف، وإلى التواصل أو إليهما معا. فيصبح التواصل ممكنا لتحقيق الأفعال التعبيرية، والتصرف إجباريا في حالة الأفعال التنفيذية.

يقدم الجدول 1.16 مقارنة التفاعلات التي يتم فيها الاحتفاظ في الأفعال التنفيذية بتلك التفاعلات التي تم استبدالها بالتصرفات التعبيرية.

يعتبر التواصل مرحلة أكثر تطورا من إجبارية التصرف، وقد تم توضيحه في علم تطور السلالات (ظهرت الأصناف التي تتواصل بعد تلك التي كانت مجبرة على التصرف)، وكذلك في علم التطور الجيني (تظهر التفاعلات التواصلية عند الجراء والأطفال خلال مراحل متقدمة من النمو). وتعتبر كل من إجبارية التصرف والتواصل أشكالا بديلة للفعل في التفاعلات، حيث من الممكن للفاعلين استبدال الواحدة بالأخرى. ويتم أيضا إنتاج هذه التحولات في السلوكيات النكوصية، إذ إن النكوص يظهر عندما لا يتم بلوغ التعبير، والأهداف المتوقعة، لذا يمكن في هذه الحالة لصنف أو فرد استعمال سلوك تنفيذي قديم جدا:

❖ يمر بعض الأشخاص الذين لا يتوصلون إلى إقناع أشخاص آخرين بالكلمات كي يتمكنوا من التصرف وفق رغباتهم، إلى إجراء عدواني إزاء الآخر.

الجدول 1.16 السلوكيات التنفيذية والتعبيرية في التفاعلات		
	السلوكيات التعبيرية (تواصلية)	السلوكيات التنفيذية (قسرية)
كيف يمكن تمييزها	تكون الأفعال موجهة لإنتاج العلامات التي يشير بها الفاعل إلى شيء ما لفاعل آخر.	تكون الأفعال موجهة لإنتاج الطاقات التي يقوم بها الفاعل بشيء ما للفاعل الآخر.
شروط فعاليتها	تحقق تأثيرها إذا كانت العلامات مناسبة لمراقبة الطاقات التي يديرها الفاعلين في النظام، وذلك بالاعتماد على ثلاثة أصناف من العوامل: - مادية وبيولوجية (نشأة، ونقل ثم إدراك العلامات) - معرفية (قدرة الفاعلين على تفسير التمثلات والأشياء المرجعية التي يقدمونها). - اختيارية (متاحة للآخر للرد بالشكل المتوقع على الفاعل).	تحقق تأثيرها إذا كانت الأعمال التنفيذية مناسبة لتنشيط النظام، وذلك بالاعتماد على كمية الطاقة المستخدمة وقدرة الفاعل على استعمالها.

<p>الاستهلاك الطاقي (للفاعلين)</p>	<p>يستهلك الأنا الطاقة المطلوبة من قبل الفعل التعبيري (إنتاج التعابير، وتفعيل المادة التعبيرية وتوجيه العلامات إلى الآخر). يستهلك الآخر الطاقة المطلوبة في الفعل الإدراكي (الإدراك، والمعرفة، والإسناد ثم المرجع).</p>	<p>يتوفر كل فاعل على الطاقة الضرورية للوصول إلى الهدف.</p>
<p>الاستهلاك الزمني (في النظام)</p>	<p>الوقت الذي يحتاجه لإنتاج، وتحويل ثم استقبال العلامات الدالة.</p>	<p>لا يكون الوقت الذي يستغرقه التفاعل أبداً أقل من الوقت الذي يحتاجه التنفيذ.</p>

4. تحليل الفعل. النموذج الذي يدمج التواصل والتنفيذ

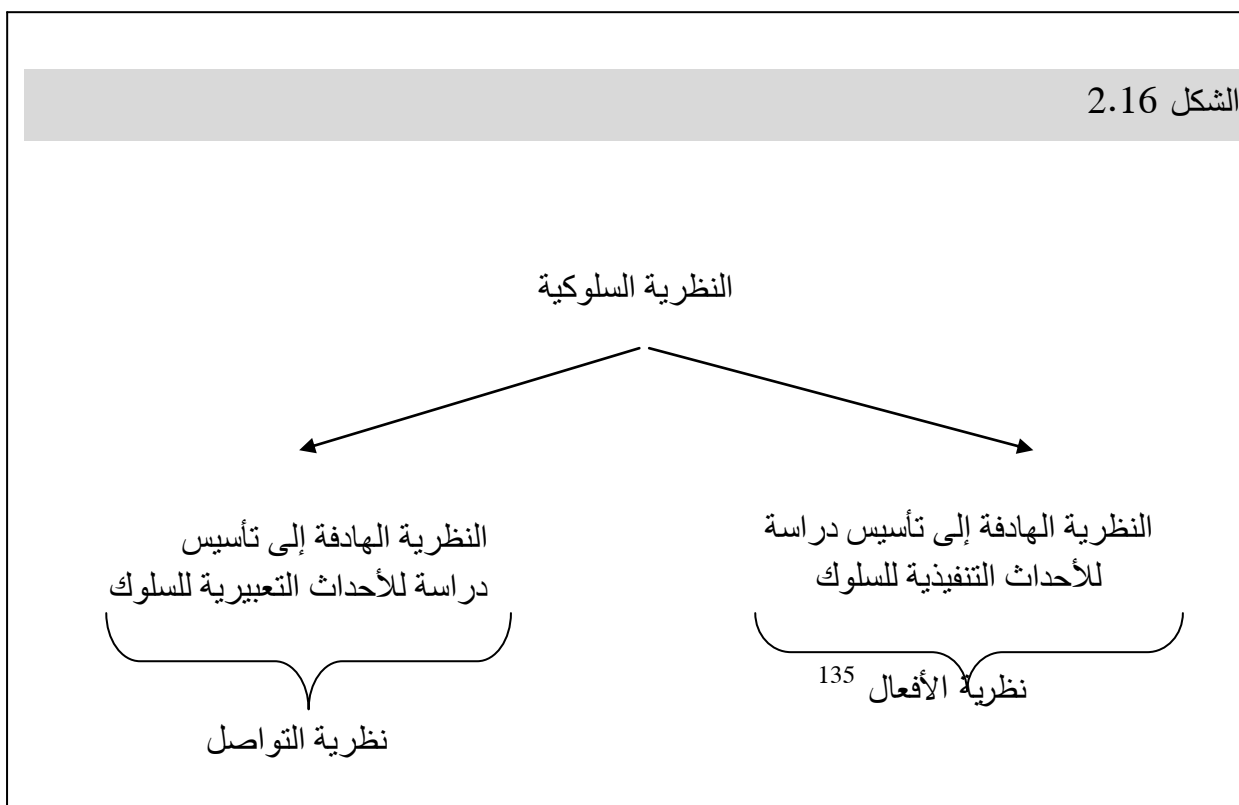
يمكن للأفعال التعبيرية أن تشكل جزءاً من العملية السلوكية، التي توجد من خلالها أيضاً أفعال تنفيذية، بحيث يتم إنشاء علاقات متبادلة بينها. تُطرح دراسة العلاقات بين التواصل وإجبارية التصرف على المستوى الذي يجمعهما، إنها الميزة المشتركة للسلوكات¹³⁴؛ ومن ثم فإن التواصل وإجبارية التصرف يتم تحليلهما معاً داخل التفاعل الذي ينتميان إليه، وبعبارة أخرى:

إن وحدة التحليل لدراسة السلوكات ليست هي التواصل ولا حتى إجبارية التصرف، وإنما هي التفاعل.

تقدم هذه الملاحظة نتائج نظرية وتطبيقية مهمة، لذا ينبغي التمييز في التفاعلات بشكل جيد بين الأفعال التعبيرية (التواصلية) والأفعال التنفيذية (الإجبارية التصرف) كما هو الحال في هذا الكتاب، وما لا يمكن القيام به هو دراسة التواصل منعزلاً عن التنفيذ، ولا العكس. ويعتبر الخبير في التواصل متخصصاً في دراسة السلوكات، التي تدخل في تحليل التفاعلات بالتركيز على الدور الذي يتوافق مع تبادل المعلومة.

ويتم التمييز في إطار أكثر شمولية للنظرية السلوكية بين تطويرين نظريين: الأول مناسب لدراسة السلوكات التنفيذية؛ والآخر ملائم لدراسة السلوكات التعبيرية، كما يتم عرضه في الشكل 2.16.

¹³⁴ يستعمل مصطلح "السلوك" في هذا السياق من أجل تعيين كل نشاط للكائن الحي يهدف إلى تلبية حاجياته. (كيفما كانت طبيعية هذه الحاجيات؛ فيزيولوجية، ومعرفية، عاطفية، قيمة أو غيرها).



يعتبر كلا الانعكاسين النظريين ضروريين لدراسة السلوك:

- لا داعي لنظرية الفعل شرح تلك السلوكيات التي يؤثر فيها بالموضوع ذو حالة مادية وبيولوجيا على موضوع آخر (يتأثر هو ماديا وبيولوجيا في حالته من قبل الآخرين). لذا يحدد هذا النوع من السلوكيات، في الطبيعة، بشكل فوري حياة وموت الإنتاج وإعادة إنتاج المادة¹³⁶.
- ولا داعي للنظرية السلوكية شرح تلك السلوكيات حيث يخاطر الفاعل باستبدال استخدامه قوة المعلومة في علاقاته مع الآخر. لهذا تحدد في الطبيعة الانتقال من التصرف التفاعلي إلى الاختياري، ويتم إدخال ثروة متزايدة داخل وبين الأنواع بتوجيه التطور نحو استقلالية الأصناف¹³⁷.

¹³⁵ يعود إسم "نظرية الأفعال" إلى أ. موليس (A. Moles) سنة 1964. وأعتقد أنه يمكن اعتماده من أجل تحليل السلوكيات التنفيذية؛ ومع ذلك يجب الأخذ بعين الاعتبار أن السلوكيات التواصلية تستخدم كذلك الأفعال، رغم أن هذه الأفعال تكون موجهة إلى إنتاج التعبير.

¹³⁶ وبعبارة تقنية أكثر: قد تخصص نظرية الأفعال في تلك التطبيقات الخاصة بالفاعلين (مستقلة أو متفاعلة) التي تفترض جهدا موجهة إلى التحكم في الحالة الحيوية للنظام الذي يعمل فيه الكائن الحي.

¹³⁷ مرة أخرى، بشكل أكثر تقنية:

يقدم التحليل المشترك بين التواصل والتنفيذ في التفاعلات المنهج والطريقة لدراسة الفعل. وهذا النموذج أدرجناه وتطرقنا إليه في الكتاب الأول لنظرية التواصل، وستتم معالجته بمزيد من التفصيل¹³⁸. لذا يدرس الفصل المقبل (الفصل 17) الاستبدالات بين الإجراءات الاجبارية التنفيذ والتواصلية. والفصل التالي (الفصل 18) توليفات التنفيذ مع الإشارة.

ستخصص نظرية التواصل في ممارسات الفاعلين (التفاعلية) التي تفترض جهدا موجها للتحكم من خلال المعلومة في التبادل الحيوي داخل النظام.
¹³⁸ انظر مانويل مارتين سيرانو: "نظرية التواصل. الاستيمولوجيا وتحليل المرجع".

الاستبدالات بين الإجراءات الاجبارية والتواصلية

1. التحليل المنهجي للتفاعلات

يعتبر التفاعل أصغر وحدة يتم فيها تفكيك السلوكيات، بحيث يمكن لأي تفاعل أن يكون مركبا فقط من أعمال تنفيذية وتعبيرية أو هما معا. وينصب اهتمامنا في هذا الفصل على التفاعلات التي تشمل كلاً من الإجراءات التواصلية والتنفيذية، ونبدأ التحليل بتعريف "التفاعل".

يعتبر التفاعل مجموعة من الإجراءات التي يقوم بها فاعلان أو أكثر من أجل الوصول إلى إنجاز معين، باستخدام الإشارات و العمليات التنفيذية¹³⁹ بشكل فردي أو جماعي.

ويتفكك كل تفاعل إلى سلسلة من الأفعال التي يشملها، وكي تتحقق العملية التي تتطور مع الوقت، يتم ترتيب هذه الأفعال في زمنيا.

أ) تفكيك التفاعلات إلى سلسلة من الأفعال التنفيذية والتعبيرية

يعد تفاعلا ما يتم القيام به في الشاطئ من أجل أخذ قارب البحر وإبعاده عن الشاطئ بسحب الحبل، فيشارك في العملية الربان الذي يدير المناورة والسحب، ومجموعة من البحارة الذين يجرون الحبل فقط. ويوضح الجدول 1.17 الفاعلين المتدخلين، والأفعال التي تتحقق وجدولها الزمني.

يتصرف الربان بشكل تعبيرى لما ينسق بصوته بين من يسحبون الحبل، ويتصرف تنفيذيا عندما يجمع جهد البحارة الذين يقومون فقط بسلوكيات تنفيذية.

الجدول 1.17 مجموعة الأفعال التعبيرية والتنفيذية التي يشملها التفاعل. مثال:						
الفاعلون / نوع الأفعال						
...	"هيا"	"استراحة"	"هيا"	الربان: تعبيرية		

¹³⁹ في التفاعلات السهلة جدا في التحليل تكون كل التصرفات منظمة نحو هدف وحيد، لكن ثمة تصرفات أخرى يتم فيها تطبيق نفس الأفعال بأهداف متعددة. وأيضا يمكن لهدف واحد أن يحشد أكثر من تفاعل، لذا توجد تقنيات مصممة لتحليل التفاعلات المعقدة في النصوص المتخصصة (انظر: مانويل مارتين سيرانو: "المناهج الجديدة لدراسة بنية وديناميكية التعلم"، و"مناهج تحليل المضمون". وقد حذفنا في هذا الكتاب الأمثلة المعقدة.

...	سحب الحبل	ترك السحب	سحب الحبل	الريان: تنفيذية
...	سحب الحبل	ترك السحب	سحب الحبل	البحارة: تنفيذية
... ون	و 5	و 4	و 3	و 2
				و 1
				الجدول الزمني:

الأفعال سواء منها التنفيذية أو التعبيرية، في التفاعل الذي وظف في المثال، موجهة نحو نفس الهدف (إيداع القارب). وهذه هي الحالة المناسبة لتلخيص المفاهيم والتحليلات المتعلقة بالتفاعل الذي تم إدراجه.

ب) وظيفة التصرفات الإجبارية والتواصلية

تقوم الأعمال التعبيرية والتنفيذية أيضا بتحريك الطاقة.

تتغذى الأفعال التعبيرية للريان من الطاقة التي تتوفر عليها عضلاته، وذلك لكي تنطق الأعضاء التي تتدخل في الصوت سلسلة من العلامات التي تكون عبارة عن كلمات.

لذلك تعتبر الكلمات التي تشير إلى البحارة عندما يجب عليهم سحب الحبل تصرفات تعبيرية فعالة لتنسيق الأفعال، لكن هذه الفعالية لا تأتي من كمية الطاقة التي تنصرف بها، بل من المعلومة التي تتوفر عليها. أما البحارة فلا يتحركون لأن الموجات الهوائية التي ترافق "هيا" الريان تدفعهم، بسبب إدراك المحفزات الناتجة عن العلامات (الكلمات)، حيث ينبغي عليهم أن يسحبوا الحبل.

أما الأفعال التنفيذية التي تتجلى هنا في سحب الحبل، فهي تتطلب الكثير من الطاقة، إذا أضفنا جهد الريان والبحارة، فالجهد الذي يبذلونه يُطبق بشكل مباشر لإنتاج تغير في الشكل، في هذه الحالة نقل القارب إلى مكان آخر.

لهذا، فالأفعال التعبيرية لا تحقق أحيانا أي تأثير، مثلا، يمكن للبحارة أن يسمعوا "هيا" ومع ذلك لا يتحركون.

وقد يحدث أيضا أن تحدث هذه الإشارات تأثيرات مختلفة عن تلك التي يتوقعها الريان. مثلا، يمكن لبعض البحارة تمثل أن "هيا" ليست إشارة للسحب، بل، في المقابل، تعبر عن شيء ما، مثلا "أنا قادم".

في المقابل، إن الأعمال التنفيذية، حينما لا تتعارض مع القوانين المادية، تحقق دائما تأثيرها بالطريقة المنتظرة بواسطة هذه القوانين.

ومن المفترض أن التطبيق الكافي للطاقة من لدن الفاعلين، لا يمنع القارب من التحرك عندما يتم سحب الحبل، ولا حتى القيام به في الاتجاه المناسب.

إن، لا شيء يمنع الفاعلين من تحقيق أغراضهم دون اللجوء إلى التواصل إذا ما تم التنسيق بين التفاعلات الإجبارية بشكل صحيح.

البحارة والريان، في التفاعل الذي يتجلى فقط في سحب الحبل، مجرد ناقلي القارب. ويمكن تصور أن غياب المظاهر التواصلية في هذا التفاعل قد يجعل بلوغ الهدف أكثر تعقيدا، وغير منظم أو طويلا، لكنه غير مستحيل، لاسيما أن الريان وحده، بسلوك مستقل، قد يصل إلى الهدف إذا كان قويا بما فيه الكفاية.

على النقيض من ذلك، تكون الأفعال التعبيرية في حد ذاتها دون وجود التنفيذية، غير فعالة.

وسيتضاعف عدد المظاهر التواصلية. مثلا، تضم حركات اليد عادة إشارة إلى "اسحبوا" أو تعابير ك "حركوا"، و"تشجعوا"، إلخ. وستكون موارد غير فعالة كالتوسل لتحريك القارب من مكانه، لذا سيتم الوصول إلى هذا الهدف بالاعتماد على الأفعال التنفيذية لسحب الحبل.

ج) استعمال تحليل التفاعلات في البحث

تستخدم المنهجيات التي تم عرضها من أجل مقارنة التفاعلات. لذلك يجب على المقارنات الأكثر أهمية، من وجهة نظر فيلوجينية وكذلك انطولوجية، مراعاة الحاجيات العامة التي يتم تلبيتها بالتفاعل بين فاعلين أو أكثر. مثلا، إعادة الانتاج، والتربية، والصيد في القطيع، ثم العمل المنظم.

ويتم اللجوء إلى مجموعة كبيرة من التفاعلات من أجل تلبية كل هذه الحاجيات:

- في مملكة الحيوانات يتم المقارنة بين متغيرات التفاعلات التي توجد بين الطيور التي تلجأ إلى المغازلة على امتداد نمو السلوكات الجنسية، أو تصنيف متغيرات التفاعلات بين القرود عندما يكون الهدف من ذلك هو إعادة تنظيم التسلسل الهرمي لمكونات المجموعة.

■ ويمكن القيام في حالة الإنسان بمقارنات شابهة، باستثناء كون المجموعات ستكون على العموم وفيرة جدا ومرنة. فمن خلال الإشارة إلى المثاليين اللذين يقدمان تشابهات مع الأمثلة السابقة، تكون تلك المناهج قابلة للاستعمال لتحديد ومقارنة أنواع التفاعل التي يتم تنفيذها في حفلات الزفاف، أو للقيام بمجموعة من الإجراءات التي يستعملها الأشخاص في صراع داخلي.

ويمكن للمقارنات التي تم القيام بها بين التفاعلات الإنسانية أن تشير إلى سلوكيات المجموعات المختلفة في الحالة التي تتوفر فيها على قيمة اثنوغرافية وثقافية، ويمكنها أيضا أن تُطبق في علم النفس لمقارنة المراحل التطورية لمؤانسة الأطفال، وتعتبر في الأمراض النفسية وطرق العلاج نماذج مناسبة لتشخيص الصراعات التأويلية؛ وفي الأخير، لتصميم التدخلات.

2. استراتيجيات الفعل

يتم إجراء دراسة استراتيجيات الحدث بواسطة تحديد وتحليل ومقارنة التفاعلات البديلة التي تم ترتيبها لنفس الهدف، ويمكن فهم هذه البدائل مثل كل الاستراتيجيات للوصول إلى هدف معين.

تتيح وجهة النظر هذه إمكانية البحث في، ومتى، وما الأهداف، ثم بأي طريقة، تم إدراج استعمال التواصل باعتباره استراتيجية تطويرية أولا، ثم اجتماعية.

وسيكون التحليل، على كل الحال، دياكرونيًا وسنكرونيًا:

■ تُطبق الدراسة الدياكرونية لمقارنة أشكال التفاعل القديمة جدا مع تلك التي ظهرت في الآونة الأخيرة.

❖ مثلا، في الألعاب مع أطفال آخرين، حيث يدبرون العلاقات مع زملائهم باستخدام استراتيجيات مختلفة حسب الأعمار، إذن فتلك نماذج من الفعل تحدث في النظام على امتداد المراحل القائمة.

■ تُستعمل الدراسة السنكرونية عندما تتم مقارنة أشكال التفاعل في شعوب مختلفة.

❖ على سبيل المثال، توجد أنواع من السلوكيات التي تبدأ في تناول المخدرات، والتي تعتبر مختلفة حسب مجموعات من الشباب المراهقين الذين يعيشون في أحياء ثرية ومهمشة.

على العموم، يتم التمييز بين استراتيجيتين ممكنتين للفعل:

(ب) جمع بعض الأفعال مع أخرى	//	(أ) استبدال بعض الأفعال بأخرى
-----------------------------	----	-------------------------------

وسيتم شرح استبدال بعض الأفعال بأخرى في هذا الفصل الذي تم تخصيصه أيضا لتحليل الجمع بين الإجراءات التعبيرية والتنفيذية.

3. الاستبدالات بين الإجراءات الاجبارية والتواصلية

يعني استبدال بعض الأفعال بأخرى في التفاعلات أن بعض المظاهر التواصلية تسمح بتنفيذ وتغيير اللجوء إلى عملية إجبارية أخرى، أو العكس بالعكس؛ ومن ثم تقدم هذه الاستراتيجية متغيرين متعارضين:

البديلان الاثنان لاستبدال بعض الأفعال بأخرى والتي يمكن تحقيقها في التفاعلات
▪ تغيير فعل تنفيذي بأخر تعبيرية؛ أو: ▪ استعمال فعل تنفيذي بدلا من آخر تعبيرية.

في بعض الحالات، سيكون الاستبدال خيارا قابلا للتطبيق، بمعنى أن الفاعلين سيصلون إلى الهدف الذي من أجله يتفاعلون بفضل هذا الاستبدال (أو بالرغم منه)، لكنه يحدث كذلك، في بعض الأحيان، أن يحول التغيير دون بلوغ الهدف.

وتعتبر مواصلة الاستبدالات القابلة وغير القابلة للتطبيق من أجل التواصل بالتصرفات الاجبارية، والعكس بالعكس، فعلا تقنيا مهما يفتح طريقا جديدا في دراسات الفعل بشكل عام، والتواصل بشكل خاص، مع الاستمرار بنفس المنهجية.

أ) من التنفيذ إلى التعبير

يهدف المعنى العام للتطور إلى وضع مظاهر تواصلية كان يتم فيها اللجوء سابقا إلى حلول إجبارية. هكذا تم شرحه في الفصول السابقة.

أ.1. أنواع الأفعال التنفيذية

توجد في التفاعلات بعض الأفعال التنفيذية التي يتم استبدالها بأخرى تعبيرية، وإذا كانت هي الأخرى مستبدلة، فإنها تقضي على نجاح التفاعل. لذا يتم توضيح الفرق بالرجوع إلى مثال التفاعل لتحريك القارب:

(1) الأفعال التنفيذية القابلة للاستبدال بأعمال تعبيرية.

يمكن أن يكون السلوك ناجحا ويصل إلى هدفه. وذلك عندما يتم استبدال الأفعال التنفيذية الهادفة لتنسيق دفعة البحارة - مثلا، تموضعهم واحدا تلو الآخر - بالإشارات اللفظية التي تؤدي إلى نفس النتيجة.

(2) الأفعال التنفيذية غير القابلة للاستبدال بأفعال تعبيرية.

لا يمكن للسلوك أن يصل إلى هدفه. مثلا، إذا كان هناك استبدال دفعة القارب من قبل البحارة بالتعبير "حرك".

لذلك تكتسي المقولة الآتية طابع قاعدة تمت صياغتها بهذه الطريقة:

قاعدة الحاجة إلى الفعل التنفيذي لتغيير العالم.

عندما يشمل التفاعل الهدف الذي يتضمن تعديل أي شيء في النظام الإيكولوجي، فمن الضروري إدراج أي فعل تنفيذي للوصول إلى الهدف الذي يتوقعه الفاعل.

وهذه هي القاعدة التي يتم تطبيقها في هذه الحالة: "تحريك القارب".

ب) من التعبير إلى التنفيذ

ب.1. أنواع الأفعال التعبيرية

تظهر إنشاء الاختلافات أيضا عن طريق التحقق مما إذا كانت استبدالات الأفعال التعبيرية بأخرى تنفيذية قابلة أو غير قابلة للتطبيق.

وسيتيح المثال الجديد توضيح التمييز المتشابه بين الأفعال التعبيرية.

يكون التفاعل موجها لتعليم "تربية جيدة على الطاولة"، لذا يشارك فيه الأب الذي يربي الإبن، والإبن. والجدول 2.17 يضم الفاعلين، وكل الأفعال التي ينجزونها وجدولها الزمني.

الجدول 2.17 مجموعة الأفعال التعبيرية والتنفيذية التي يضمها التفاعل. مثال:						
الفاعلون / نوع الأفعال						
الأب/ تعبيرية	"اجلس على الكرسي"		"لا تأخذه كالخنجر"		هل تعرف أنها "طرق جيدة"؟	...
الأب/ تنفيذية		توجيه الأيدي إلى الابن أثناء استعمال الغطاء				...
الابن/ تنفيذية	يجلس	يستعمل الشوكة والسكين	يختبر استعمال الغطاء	سحب الغطاء		...
الجدول الزمني	: و 1	و 2	و 3	و 4	و 5...	و... و

▪ إن الفعل التعبيري و1 للأب قابل للاستبدال بآخر تنفيذي (مثلا، يُجلس الأب الابن على الطاولة).

▪ يمكن استبدال فعل الأب التنفيذي و2 بأفعال تعبيرية أخرى، الأب، بدل توجيهه يدي الابن، يصف له كيف يستعمل الغطاء.

▪ يمكن تغيير أفعال الأب التعبيرية و3، ثم و5، بصنف آخر من الإشارات. مثلا، إشارات ذات طابع تقليدي، لكنها غير قابلة للاستبدال بأفعال ذات طبيعة تنفيذية.

(3) الأفعال التعبيرية القابلة للاستبدال بأخرى تنفيذية.

يمكن أن يكون السلوك ناجحا ويصل إلى هدفه.

❖ عندما يُجلس الأب الابن على الطاولة، بدل أن يشير إليه بالعبارة: "عليك بالجلوس".

(4) الأفعال التعبيرية غير القابلة للاستبدال بأفعال تنفيذية

لا يمكن للسلوك أن يبلغ إلى هدفه.

❖ مثلا، إذا كان المقصود من استبدال الإشارة إلى مفهوم "طرق جيدة" بأفعال غير تعبيرية.

وهذا يعكس مرة أخرى وجود قاعدة تكميلية لما ورد في الفقرة السابقة:

قاعدة الحاجة إلى الفعل التعبيري للدلالة على العالم.

عندما يضم السلوك تحقيق الهدف ذي الطابع التجريدي، من الضروري إدراج أي فعل تعبيرى للوصول إلى النتيجة التي يتوقعها الفاعل.

فهي القاعدة التي تطبق في هذه الحالة ("تعليم ما هي التربية").

ج) الاستبدالات القابلة وغير القابلة للتطبيق

من أجل توضيح التحولات، من السلوكيات الإيجابية إلى التواصلية، القابلة وغير القابلة للتطبيق، نلخص في الجدول 3.17 بعض الأمثلة التي تم استعمالها في هذا الكتاب.

الجدول 3.17 أمثلة الاستبدالات القابلة وغير القابلة للتطبيق في التفاعلات			
1 . استبدالات الفعل التنفيذي			
نوع الفعل		الفعل التنفيذي	
تواصل زائف	غير قابل للتطبيق	أ . تحريك القارب	
تواصل	قابل للتطبيق	ب . مطاردة الفريسة	
2 . استبدالات الفعل التعبيري			
نوع الفعل		الفعل التعبيري	
تنفيذي زائف	غير قابل للتطبيق	أ . إقناع الآخر	
تنفيذي	قابل للتطبيق	الجري حتى الوصول إليه . ب .	

4. التواصل والإنجاز

أ) التحولات النوعية للتواصل في التفاعلات

يظهر التواصل على امتداد التطور:

- باعتباره، أولاً، صنفاً من الأفعال السلوكية التي يتم استبدالها بشكل متكرر بالأعمال التنفيذية في التفاعلات.

ويكون الاستبدال أحياناً قابلاً للتطبيق، حتى يجعل التفاعل أكثر فعالية، لكن ذلك لا يحدث في كل المناسبات. فمن الضروري للاستبدالات غير القابلة للتطبيق أن تكون القاعدة في مسار التطور، السبب الذي جعلها لم تستمر.

وتتعايش في المجتمعات الإنسانية الاستبدالات القابلة للتطبيق والتي تؤدي بالتفاعلات إلى طرق مسدودة، لذلك تم تجاوز تحليل العديد من السلوكيات داخل المجموعات الأولية والثانوية التي تشوش عليها وتواجهها؛ وتتعايش كذلك في العلاقات بين المجموعات التي تولد درجات من العنف.

▪ في الأخير، يقتضي التصرف التواصلي بشكل حصري إنجاز الأهداف التي تحتاج إلى استعمال الأفكار، والمفاهيم، والمجردات والقيم. فهذه هي اللحظة التي يتحول فيها التواصل الحيواني إلى تواصل إنساني، وعندما ينطلق التطور الإنساني تبدأ الثقافة.

يلخص الجدول 4.17 ويرتب منهجيا هذه المفاهيم والتحليلات:

الجدول 4.17 تحولات الأفعال التنفيذية إلى التعبيرية في التفاعلات، والعكس بالعكس.		
	الأفعال التنفيذية (المعيقات)	الأفعال التعبيرية (التواصلية)
القابلة للاستبدال	تلك التي تتوفر على التنفيذ: <ul style="list-style-type: none"> ▪ يمكن تحويلها إلى الآخر. ▪ يمكن الاستغناء عنها دون تأثير على الإنجاز. ▪ يمكن استبدالها بأخرى تنفيذية دون تأثير على الإنجاز. 	تلك التي تتوفر على تعبير: <ul style="list-style-type: none"> ▪ يمكن توجيهها إلى الآخر. ▪ يمكن الاستغناء عنها دون تأثير على الإنجاز. ▪ يمكن استبدالها بأخرى تعبيرية دون تأثير على الإنجاز.
غير القابلة للاستبدال	تلك التي تتضمن تغييرا لشيء ما في النظام الإيكولوجي، مثلا: <ul style="list-style-type: none"> ▪ الإخصاب. ▪ الزراعة. 	تلك التي تتضمن إنجاز هدف مجرد، مثلا: <ul style="list-style-type: none"> ▪ نشر المعتقدات أو التقييمات.

(ب) الاختلافات بين وظيفة التواصل وإجبارية التصرف

تتشارك التصرفات السلوكية القابلة للتغيير بتصرفات أخرى إجبارية في أهداف التفاعل، لكنها تقوم بتحويل الإجراءات التي يستعملها الفاعلون من أجل الوصول إلى الإنجاز.

وتجدر الإشارة إلى أن التواصل هو آلية من آليات التصرف البديل للتصرف الإجباري، لهذا السبب تحديدا يتوفر الفاعلون، في العديد من التفاعلات، على إمكانية الاختيار بين الإشارة التواصلية أو الإنجاز التنفيذي، هكذا تم توضيحه في العناوين السابقة. لذا يتميز التواصل والتصرف الإجباري في هذه الحالات بإجرائيتهما، ويتقاسمان الهدف نفسه.

❖ مثلا، إذا قال الأب للأب في الفجر: "الطفل يبكي"، لا توجد في هذه العبارة بشكل صريح إشارة إلى فعل. ومع ذلك، فمن الممكن أن يتم تحقيق الغرض الضمني، أي أن الأم تقوم من السرير وتأخذ الابن بين ذراعيها لإسكاته.

❖ وستكون، بدلا من ذلك، أفعال استيقاظ (الأب)، وأخذ الابن، وإيقاظ الأم ووضعها بين ذراعيها، خيارا آخر (تنفيذا) سيحصل على نفس النتائج بالرغم من أن الأم قد تشعر بالانزعاج من هذا السلوك المفاجئ.

ج) التواصل والفضل

يزيد استعمال التواصل من أجل تحقيق الإنجازات التي تعتمد على سلوك الآخر من مخاطر الفضل. ولا تعمل الاجراءات التواصلية كالإجراءات التنفيذية في التفاعلات، لذا عندما يطلب الفاعل شيئا من فاعل آخر، فهذا الأخير يكون في وضعيات تفاعلية بطرق مختلفة. في المقابل، عندما يريد القيام بشيء للآخر، فهو مجبر على التصرف بطريقة معينة. إذن، فالتواصل يزيد من درجات الحرية التي يتوفر عليها نظام التفاعل، أو بعبارة أخرى، يزيد أن خطر الفضل من التفاعلات التي تستعمل التواصل، وهناك مثال سيبيح توضيح هذه الاختلافات:

تكون الأم مهتمة بجعل ابنها الصغير يتناول الدواء، ومن أجل تحقيق غرضها ستقوم بإجرائين ممكنين: الأول تنفيذي والآخر تواصلية:

- لديها خيار سد أنف طفلها وإجباره بهذه الطريقة على تناول الجرعة، مع الاعتقاد بأن قدرة الفاعل الأول تفرض بالقوة على الفاعل الثاني (كما يحدث في هذه الحالة)، أما التصرف الاجباري فليس معرضا للفشل، لذا تغيب الحرية في استجابة الابن.

- بدلا من ذلك، ستحاول الأم، بالنسبة إلى الذي يكره استعمال القوة، إقناع الابن بضرورة تناول الدواء، وسوف تلجأ إلى حجة معقولة، وإلى الاستمالة، وإلى الرشوة، ثم إلى التهديد من أجل الوصول إلى الهدف. ومع ذلك (وإذا لم يتم المرور إلى الأفعال، تنتهي العلاقة التواصلية في هذه الحالة) قد تفشل الأم في تصميمها لعدة أسباب:

_ قد يكون الطفل صغيرا جدا ولا يفهم ما تنوي الأم القيام به؛

_ وإذا ما فهم الطفل، يمكن في هذه الحالة أن يختار العصيان.

وبعبارات تواصلية، فالصغير هو حر في الأخذ أو عدم الأخذ بعين الاعتبار المعلومة التي تقدمها له الأم بالنسبة إلى سلوكه الخاص، إذن، فهي تسمح له ببعض الحرية.

يعمم هذا المثال على جميع أنواع الحالات التي يتم فيها استبدال التواصل الاجباري، والخطر هو أن التواصل يكون إجراء غير فعال من أجل تحقيق أهداف الأنا، الأمر الذي يظهر من خلال عدة أسباب:

▪ لأن العلامات التي يستعملها الأنا لا يتم التقاطها؛ أو لا تكون الإشارات مفهومة من لدن الآخر الذي تتوجه إليه.

❖ لذلك لا نلتقط نحن الإنسان طول الموجة التي تمتلكها الأصوات التنبيهية، التي تتواصل بها بعض الثعابين التي تغزو موطنها. وربما سيمر الحيوان من التحذير التواصلية إلى الفعل العدوانية. فأحيانا المرات يفشل مسار التواصل بوصفه إجراء تفاعليا لدرء الدخيل.

يظهر التواصل، في هذا المثال وأمثلة أخرى كثيرة قد تتبادر إلى الذهن، في الطبيعة باعتباره بديلاً للعدوان. وبعبارة عامة، تمر الأصناف القادرة على التعبير على حاجياتها لآخرين بواسطة إجراءات تواصلية (كالصنف البشري)، إلى العمل بالقوة عندما ينهار التفاعل التواصلية. فمن المحتمل أن يكون هذا هو أصل تطورا التواصل. وخلافاً مع الرأي الذي يتبناه بعض الإثنولوجيين عندما يعتقدون أن السلوكيات التواصلية مستمدة من أنماط العدوان، أعتقد أن هذا خطأ.

■ يلتقط الفاعل ممن يتواصل معه العلامات، ويفهم التعبيرات، ومع ذلك لا يوافق تفعيلاً لحريته، على تلبية توقعات الآخر.

❖ مثلاً، يختار الحيوان الذي يؤدي رقصة المغازلة المسار التواصلية من أجل ضمان تكاثره، لذا تحتوي هذه الآلية على مخاطر الفشل إذا كانت الزوجة لا تقبل التزاوج.

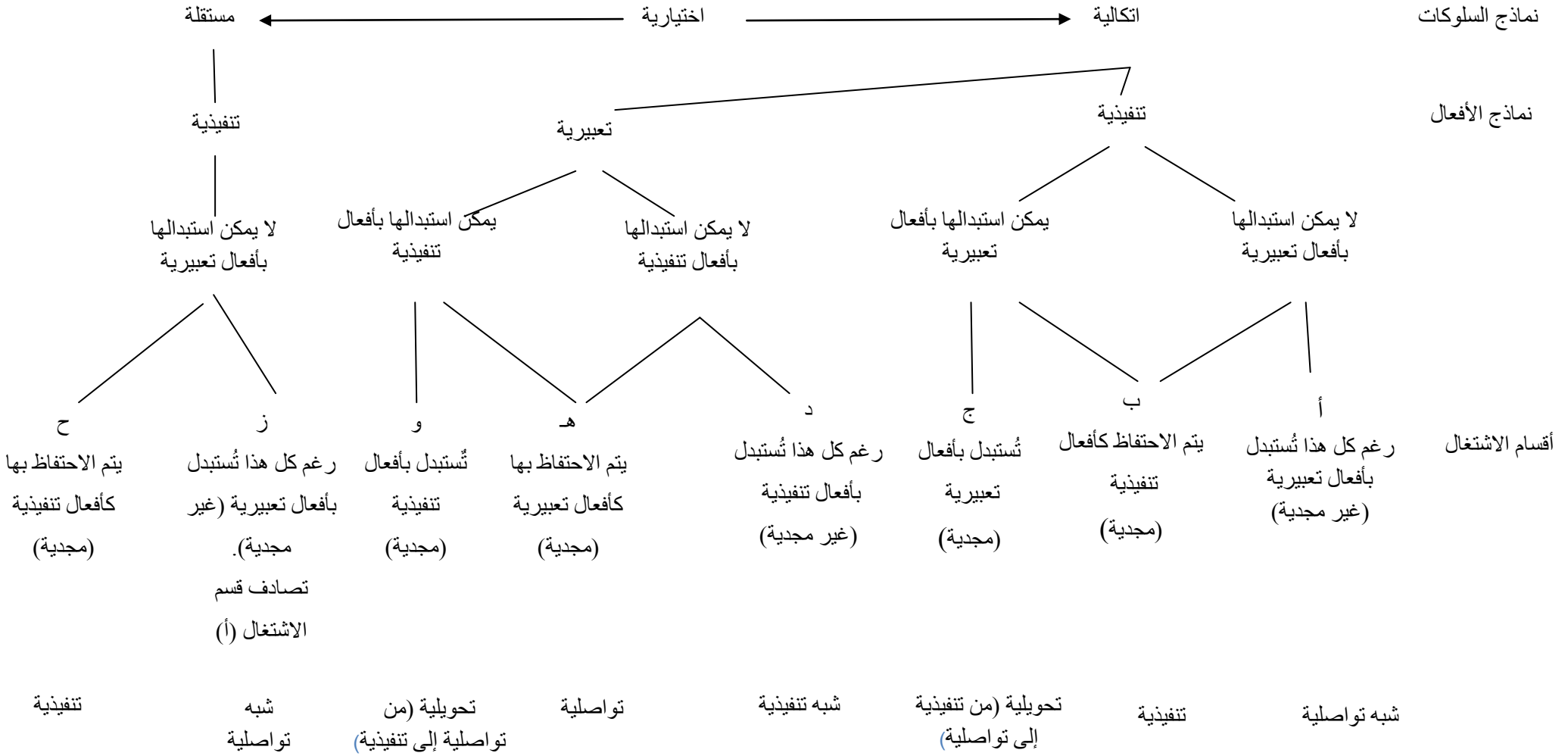
❖ في المقابل، يوفر أن الصنف الذي يتكاثر بطريقة تنفيذية (مثلاً، زرع جينات الذكر في الوسط البيئي الذي يحيط بالأنثى) آلية تجعل الفشل لا يحدث إلا بعدم وجود إناث غير قادرة على الإخصاب.

من المعلوم أن ميزة المسار التواصلية لتكاثر الأصناف تكمن في كون اختيار الأنثى يتيح اختياراً أفضل للجينات التي أتت عن طريق الصدفة.

5. نموذج تحليل الفعل وقابلية تطبيق السلوكيات

لقد تم في هذا الفصل ذكر وتحليل كل التحولات الممكنة، من الإجماع إلى التواصل (والعكس بالعكس)، ويتم عرضها في الجدول 5.17. مع تقديم الآليات التي تحقق كلا من السلوكيات وبدائل التصرف التي تكون قابلة وغير قابلة للتطبيق.

الشكل 17.5 نموذج لتحليل الفعل وقابلية تطبيق السلوكات



سلوكات توصلية: أ، ج، هـ، ز
سلوكات تنفيذية: ب، د، و، ح

تركيبات التنفيذ بالإشارة

لا تدل القدرة على استعمال التواصل في التفاعلات على أن الفاعلين استبعدوا، من خلال سلوكياتهم، التصرفات التنفيذية، وخصوصا عندما لا يكونون مجبرين على الوصول إلى إنجاز معين، حيث تجتمع في الجزء الكبير من التفاعلات الأفعال التنفيذية والتعابير التواصلية.

1. التسلسل في جمع الأفعال التنفيذية بالتعابير

يمكن للجمع بين الأفعال التعبيرية والتنفيذية من أجل تحقيق نفس الهدف أن يحدث بشكل تعاقبي وآني:

(أ) يتم الجمع تعاقبيا بين سلسلة من السلوكيات عندما تتبع بعض (أو عدة) مظاهر تعبيرية، بعض (أو عدة) أفعال تنفيذية (أو العكس بالعكس)؛ لكن الأفعال التنفيذية والتعبيرية لا تظهر في الوقت نفسه.

❖ لذلك يشير المشارك في ألعاب المبارزة إلى الآخر "أنه مستعد"، فكلاهما سيمر من خلال ذلك التواصل إلى التنفيذ. مثلا، تكون التسلسلات في سباقات الأطفال مختلفة، "مستعدون"، و"جاهزون" ثم "نعم".

تعتبر التركيبات التعاقبية في مملكة الحيوانات جزءا من بعض التفاعلات الاعتيادية، وتعد سلوكيات نادرة نوعا ما بين الإنسان.

(ب) جرت العادة على أن تكون هناك آنية بين المظاهر التعبيرية والأفعال التنفيذية، بمعنى أن التواصل والتصرف الاجباري يتم القيام بهما في الوقت نفسه¹⁴⁰.

¹⁴⁰ من الممكن أن يكون التواصل عن طريق شيء ما، والقيام بشيء آخر في الوقت نفسه لا يراعي الموضوع المرجعي للتواصل. وتظهر هذه القدرة عند السيدات اللواتي ينسجن القمصان ويدردشن في الآن نفسه. لذا يتم بهذه السلوكيات إنشاء علاقات آنية على مستوى وتيرة التنفيذ

2. وظائف الأفعال التعبيرية والتنفيذية عندما تجتمع في التفاعل

تُستعمل الإشارات والتصرفات الإجبارية على حد سواء أحيانا للإشارة للتفاعل، والاستمرار فيه أو إنهائه. لذا تتحقق الضوابط التواصلية للتصرفات من خلال التعريف بالإشارات.

وسنقدم تلك الوظائف التي تؤديها الأفعال التعبيرية والتنفيذية في الجدول 1.18 كما سنقوم بشرحها.

(أ) يمكن للعمليات التنفيذية تأكيد المعلومة التي تحتوي عليها أو تنفيذها التعبيري.

(ب) وعلى نحو مماثل، يمكن للتعبير تقديم معلومة عن الأفعال التنفيذية أو التعبيرية التي تدخل في التفاعل.

(أ) تأكيد أو نفي ما يتم التعبير عنه بما يتم القيام به

1. يحدث غالبا أن يكون كل فعل تنفيدي من أجل تعزيز قيمة أو معنى التعبير، أو يستعمل لجعله ممكنا.

هكذا توضح الأفلام أن الكلمات تتشعب في التصريحات الغرامية بقبلة، حتى لو كانت الأفعال التنفيذية تهدف بشكل حصري إلى تهييء الظروف الضرورية للتواصل.

❖ يكون هذا الصنف من أفعال كثيرا في العادات، فمن المفترض أن يعتبر تناول بعض المخدرات (مثلا، المسكاليين أو البيوت)، وأداء بعض الرقصات (مثلا، أثناء الاحتفالات برأس السنة) سلوكيات سابقة عن العلاقة التواصلية مع العناصر الأخرى داخل للمجموعة.

❖ يستعمل الأشخاص الخجولين والفوضويين، في الاتصالات الشخصية، نفس الآليات من أجل نفس الهدف (يمكن أن يكون للتدخين وشرب الخمر هذا المنطق عند المراهقين).

والتواصل. في هذه الحالات يكون النظام الفرعي للسلوك الذي تنتمي إليه الأفعال التنفيذية، مبدئيا، مختلفا عن النظام الفرعي الذي تتدخل فيه الأفعال التعبيرية، مما يدل على أن الأمر يتعلق بتحليل مختلف عن ذلك الذي تم عرضه الآن.

لذا فإن استعمال الأفعال التنفيذية باعتبارها تعزيزا للتواصل يعتبر متواترا إلى حد كبير عند تلك الأصناف من أجل أن يتوفر التواصل على قيمة في حد ذاته، بغض النظر عن وظيفته العملية. فيتم في هذه الحالات إنتاج عكس الغاية البيولوجية البدائية (يستعمل التعبير في الأصل للحفاظ على الفعل التنفيذي؛ وبعد ذلك يستعمل الفعل التنفيذي لتحريك التواصل)؛ لذا ظهر هذا الاستبدال لأول مرة عند الحيوانات اللعوبة، بحيث إن اللعب يمكن أن يفسر بوصفه تعليما لتقنية التواصل عن طريق التصرف الإجباري.

الجدول 1.18 وظائف الأفعال التعبيرية والتنفيذية لما تجتمع في التفاعل

التعبير	التنفيذ	الوظائف
مثلا، الإهانة في المعركة.	مثلا، الدفعة في لعبة الحيوانات.	إنشاء وبدء العلاقة
مثلا، العبارة "أنا أحبك" التي يليها التمثيل الجنسي.	مثلا، التمثيل الجنسي الذي تليه العبارة "أنا أحبك".	تطوير التفاعل. تأكيد ما حدث أو/ و ماتم التعبير عنه.
مثلا، القول: "لا أخاف"، عندما يهرب.	مثلا، يستمر في المهمة عندما يقول "تحلوا لي رؤيتك".	تعريف أو إعادة تعريف المواقع أو/ و وظائف الفاعلين. نفي ما يحدث و/أو ما يتم التعبير عنه.
الإخبار من خلال: أ) التفاعل نفسه (تعبير العلاقة). مثلا، نقر الدجاج. ب) موضوع العلاقة (تعبير الإنجاز). مثلا، ▪ "حصلنا عليه بالفعل" ▪ "مازلت جائعا"		السيطرة أو التوجيه. أ) تطور التفاعل. ب) حالة النقص أو التخمة.
مثلا، "مع السلامة"	مثلا، النهوض من الكرسي.	إنهاء. إغلاق التفاعل.

2. قد ينفي أو يعارض الفعل التنفيذي في بعض الأحيان المعلومة التي يوفرها التعبير التواصلي، أو يُستعمل لاستبعادها.

❖ مثلا، سيتم رفض تحية مهذبة على مستوى الصيغة اللفظية بسبب سلوك شخص لا يتخلى عن المهمة التي كان مشغولا فيها عندما تم تقديمها من قبل الآخر.

تنفي العمليات التنفيذية، عند الإنسان، العمليات التواصلية الكاذبة.

❖ لذلك، فكذبة الطفل الصغير الذي ينفي أنه كسر شيئا ما، يكشف عنها حينما يغادر جريا. من هنا يسلط هذا النوع من التصرفات الضوء على أن التواصل لا يتحكم دائما في التنفيذ؛ مثلا، الأعمال الفاشلة.

إن الحيوان الذي يلعب يعبر أيضا عن شيء ما أحيانا، ويقوم في الوقت نفسه بشيء آخر مغاير لما يشير إليه.

❖ تظهر التناقضات بين المعلومة التي يقدمها الحيوان عبر سلوكه التعبيري والتنفيذي بشكل جلي للغاية في لعبة الكلبيات. هكذا تعبر الجراء جسديا عن مواقف العدوان (مثلا، تنقض على الآخر)، عندما تستعد في الواقع لهروب زائف، إلخ.

إذا ما تم الفهم من "الكذبة" الخلاف الموجود بين ما يعبر عنه الفاعل وما يقوم به، فلا يعتبر استعمالها ميزة خاصة بالإنسان. وتعارض هذه الملاحظات مع ما يقوله بعض الكتاب الذين تكون لهم القدرة على الكذب، وهذه سمة خاصة بالتواصل الإنساني.

3. هناك أيضا أفعال تنفيذية تهدف بشكل حصري إلى إنهاء التفاعل التواصلي.

❖ على سبيل المثال لا الحصر، يعتبر النهوض من الكرسي أثناء المحادثة والمغادرة في نهاية المطاف، موردين تنفيذيين لإنهاء المحادثة المملة أو المخرجة.

(ب) الإخبار عن الأفعال التي تشارك في التفاعل

يستحق هذا الفعل التواصلي تحليلا مفصلا سيتم عرضه فيما بعد.

3. التعابير الأساسية والمتعلقة بالتأثيرات. الاختلافات

(أ) دمج الإشارات العملية بشكل عام لما يتواصل الفاعلون

الإشارات العملية هي تلك المظاهر التواصلية التي تتيح للفاعلين عملية:

1. تحديد، والاتفاق حول ما تتم معالجته، ووصفه ثم تقييمه.

فهي عبارة عن الإشارات التي يجب أن تراعي هدف المرجع التواصلي، وذلك عندما يقال: "مريد هي عاصمة إسبانيا".

2. وصف، واقتراح، ثم شرح متى وبأية طريقة يجب التصرف مع الأدوات، والمواضيع والأشخاص في حالات مختلفة.

إذان، تعتبر جميعها إشارات تستخدم لتنسيق تصرفات الفاعلين، وذلك عندما يقال: "أنا أنظف الجراء وأنت أعد الأسرة".

ب) يمكن كذلك للتواصل أن تدمج إشارات أخرى متعلقة بتأثير التفاعل

لقد ميزتُ في هذا النوع بين استعمالين مختلفين للتواصل، اللذين يتعلقان بـ:

1° الإنجاز الذي يأمل الفاعلون تحقيقه، ويحصلون عليه أو لا يحصلون عليه بمشاركة الآخرين.

وستتم الإشارة إلى الإنجاز بتلبية أو عدم تلبية الحاجة، والرغبة، والتنقل، والتوقع الذي تقتضيه العلاقة. مثلا، عندما يقول الابن لأمه: "اعطيني المزيد من الكعكة لأنني مازلت جائعا"، وعندما يقول المعلم للتلميذ: "أنا مسرور جدا بتقدمائك".

2° العلاقة بين الفاعلين.

تشير هذه المظاهر التواصلية إلى ظروف التفاعل وسلوكاتهم. ويتم تحقيقها بقبول أو رفض الأنا من قبل الآخر؛ والعكس بالعكس، وذلك عندما يقول نفس الطفل: "إذا لم تعطيني المزيد من الكعكة، فلن أستمّر في أحبك".

4. التطبيقات الوجودية للتواصل

نلاحظ أن تخصص الإشارات يتوافق مع أربعة حقول متواجدة ومختلفة، فعندما يصل التواصل إلى نموه الكامل في التفاعلات الإنسانية، لا يبقى أي إنسان أجنبيا، لاسيما وأنه يتدخل في المعرفة، والممارسة، والإرادة وضرورة الوجود.

الجدول 2.18 الإشارات العملية والمتعلقة بالتأثيرات	
الإشارات العملية:	<ul style="list-style-type: none"> ▪ اعتمادا على المواضيع المرجعية التي يمكنها أن تكون محددة؛ مجال الحالة ▪ اعتمادا على السلوك لتدبير المواضيع. مجال الفعل
الإشارات المتعلقة بالتأثيرات:	<ul style="list-style-type: none"> ▪ الإنجاز: بالنسبة إلى مظهر الحاجة أو حالة تلبيتها. مجال الرغبة ▪ العلاقة بالنسبة إلى مظهر التفاعل أو نموه مجال النمط أو القاعدة

وتتطلب التوصلات المرتبطة بالتأثيرات تحليلا مفصلا جدا سيتم تطويره في الفصل الموالي.

التواصل المرتبط بالتأثيرات

لقد وضعنا في الفصل السابق الاختلافات الموجودة بين الإشارات الفعلية، وتلك المتعلقة بالتأثيرات، كما حددنا هذه الأخيرة التي تتضمن صنفين يرتبطان بالإنجاز وبالعلاقة بين الفاعلين.

تظهر الإشارات إلى الإنجاز وإلى العلاقة على حد سواء بشكل ضروري باعتبارها أفعالاً تعبيرية، بمعنى أنها تتعلق بالتواصل.

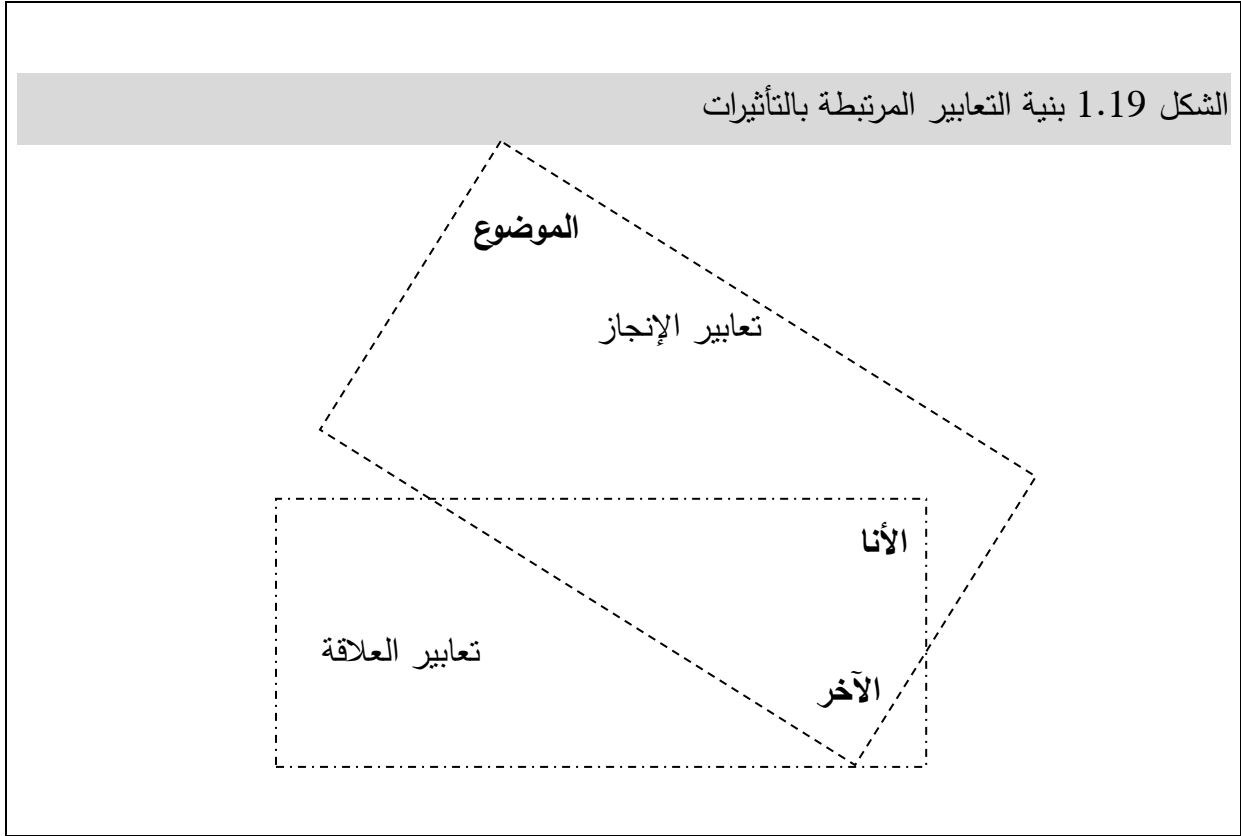
لا يتم استبدال التعابير المرتبطة بالتأثيرات في التفاعل بالفعل التنفيذي، لذا فإن تطور التفاعل نفسه هو موضوعها المرجعي.

عموماً، يمكن التمييز في التواصل بين الأشخاص بين المظاهر التواصلية وتلك التي تشير إلى العلاقة من خلال الإنجاز، باستثناء تلك الحالات التي يكون فيها الإنجاز هو الهدف الذي يسعى إليه الفاعل على وجه التحديد من خلال العلاقة مع الآخر أو تغييره بآخرى موجود¹⁴¹. لذلك يتوفر هذا التمييز على أهمية كبرى لأنه يستحيل في التفاعلات الإنسانية أحياناً بلوغ الإنجاز والحفاظ على العلاقة في الآن نفسه. وهذا هو الاختلاف الذي سيتم الرجوع إليه في وقت لاحق، والذي دائماً ما يحفز السلوكيات التواصلية.

أما التمييز بين التواصلات الفعلية وتلك المرتبطة بالتأثيرات فهو تحول تطوري مهم وأساسي بالنسبة إلى تطور الإنسان. ويبين الشكل 1.19 بين الاختلافات البنوية والخصائص التي تميزها.

¹⁴¹ في بعض الأحيان من الصعب معرفة أين يمكن ملاحظة وجود التعابير المرتبطة بالتأثيرات لدى الحيوانات، هل تشير إلى الإنجاز أو إلى العلاقة؛ مثلاً، في سلوك كلب صغير أثناء الرضاعة؛ إذا ما كان الحيوان يتغذى بشكل دون أن يدخل في نزاع مع أي من إخوته، فالصغير يلعب بثدي أمه بين الفينة والأخرى، وهذا السلوك ليس تنفيذياً بل تعبيرياً، وليست له وظيفة أساسية، لكنه مرتبط بالتأثيرات. ومن الصعب معرفة أن تعابير هذا الصغير المرتبطة بالإرضاء المكتسب بالتفاعل من خلال الرضاعة (مستوى الإنجاز يوافق مظهر التخمّة الغذائية) أو مرتبطة بالفعالية التي تربط الصغير بأمه (مستوى العلاقة) يمكن أن تكون تعابير الرضاعة تتضمن بشكل توافقي الإشارة إلى كلا التأثيرين؛ لذلك قد يمكن تقادي الشكوك بتصميم اختبار يكون فيه الإنجاز الذي يسعى إليه الحيوان في التفاعل مع الآخر يدخل في نزاع يحترم العلاقة مع الآخر، بمراقبة نوع التعابير التي قد تستخدم الموضوع التجريبي واستعماله في هذه الحالة؛ ولا أعرف أي تواصل يأخذ بعين الاعتبار التصميم التجريبي لهذا النوع.

الشكل 1.19 بنية التعابير المرتبطة بالتأثيرات



1. المؤشرات المرتبطة بالإنجاز

تعتبر "مؤشرات الإنجاز" تلك التي يوجهها بعض الفاعلين للآخرين والمرتبطة بدرجة تلبية أو عدم تلبية الانتظارات أو الأهداف التي يتوقع تحقيقها من خلال ذلك التفاعل.

ويتضمن الإنجاز (انظر الشكل 2.19):

- وجود عند نية (فيزيولوجية، تأثيرية ومعرفية) الفاعل.

❖ مثلًا، الجوع، الحاجة إلى الحنان، الفضول لمعرفة شيء ما¹⁴².

¹⁴² عادة ما يحاول كذلك الآخر أو الآخرون الحصول على الإنجاز عبر التفاعل مع الآخر؛ كما يعتبر الوضع في هذه الحالات متناظرًا، ومن أجل غايات هذا العرض يكفي تحليل سلوك الفاعل.

▪ وجود موضوع، وحالة، وصلة، وهدف، الذي هو الإنجاز أو ما هو ضروري للإنجاز في الوسط الطبيعي أو ذلك الذي خلقه الإنسان).

❖ مثلاً، يمكن للإنجاز أن يتكون من الحصول على الأشياء المادية، كالأغذية والكتب؛ وعلى حالات البحث، والوضع الاقتصادي والسلطة؛ وعلى العلاقات المطلوبة، مثل الاستقبال، والخطوبة والصدقة؛ وعلى معارف أو تعاليم لموضوع معين ولهجة ما.

يتم التعرف على هذه الإنجازات، وكل إنجاز آخر يتبادر للذهن، لأنها تحفز على مشاركة الفاعل في التفاعلات مع الآخر، ولأنها تخفض من التوتر بمجرد تحقيقها.

من المنطقي أن سلوك أي فاعل أثناء التفاعل من أجل البحث عن الإنجاز سينتهي بالنجاح أو الفشل.

❖ مثلاً، ينجح أو يفشل الإوز، بواسطة تعابير المغازلة والمرتبطة بفعل تغطية الأنثى، في تلبية الحاجة إلى التزاوج.

❖ يحصل الطفل أو لا يحصل، بواسطة الحساء المرتبط بنوبة غضب، على الهدف العاطفي للفت انتباه الأم.

❖ يصل التلميذ أو لا يصل، بواسطة الأسئلة الموجهة للأستاذ والمرفوقة بتمارين على السبورة، إلى الهدف الفكري لفهم حساب التكامل.

2. المؤشرات المرتبطة بالعلاقة

تتجلى مؤشرات الفاعل المرتبطة بالعلاقة مع الآخر أو الآخرين في طبيعة وحالة الارتباط الذي تم إنشاؤه.

يدمج الفاعلون في التفاعلات التواصل المرتبط بالتفاعلات للتعبير عن القبول، أو الرفض أو اللامبالاة؛ وللتفاوض حول مطالب القبول، أو طلب الرفض أو اللامبالاة اللذين يتحولان إلى قبول، لذا يتم الاستمرار في هذه المواقف أحيانا ارتباطا بطبيعة الآخر، وما يقوم به، ويقوله ويفكر فيه.

- تدل مؤشرات القبول أيضا على أن الفاعل يوافق على أن يكون ضمن إنجاز الآخر أخذا بعين الاعتبار الوظيفة التي تم تحديدها. مثلا، يوجد قبول:

-
- ❖ في سلوك القرد المهيمن الذي يتيح للفاعل تجنب العقاب بفسح المجال له لتتقيته من الديدان.
 - ❖ عند الدجاجة التي توافق على أن تكون منقورة من قبل أخرى تسعى إلى تثبيت مكانتها العليا داخل حظيرة الدجاج.
 - ❖ عند العصابي الذي يتعاون بخصوص تأكيد كون افراد عائلته بصحة جيدة، وذلك بانخفاض في أعراضهم كلما تقرر له عائلته ذلك.

-
- تتجلى علاقة الرفض في التواصل في شكلين اثنين:

1/ رفض الآخر للتفاعل

-
- ❖ مثلا، لامبالاة أنثى الإوز إزاء مغازلة الذكر، والفتاة إزاء من يدعوها للرقص.

2/ سلبه الفاعل من أجل تولي الوظيفة التي اقترحها عليه الآخر في التفاعل.

-
- ❖ مثلا، بين الحيوانات، القرد المهيمن الذي يختار العدوان عوض السماح بتتقيته من الديدان، والدجاجة التي تفضل القتال من أجل السيطرة.

❖ وفي حالة الإنسان، المراهق الثرثار الذي يرد على التحية بالإهانة، وعض أن يتفاعل العُصابي مع أزمة الاكتئاب لإنصاف أسرته، يناقش الوضع الطبيعي لبعض العلاقات المبنية على السيطرة.

يجب على التواصل في صنفنا مراعاة العلاقات بين الفاعلين بالامتثال إلى القواعد، والأمر نفسه يحدث عند الأصناف الحيوانية. لذا يكمن الفرق في كون قواعد الحيوانات تحكمها الأنماط، والإنسانية تحكمها المعايير.

__ تقدم الأنماط التي تنظم التفاعلات الحيوانية بعض المتغيرات بين مجموعات مختلفة داخل نفس الصنف؛ وتتغير بشكل بطيء جدا و بمعدل عال من الامتثال.

__ في المقابل، عادة ما تكون المعايير التي تطبقها المجموعات الإنسانية في التفاعلات مختلفة، فهي تغيرها في فترة قصيرة جدا نسبيا وغالبا ما تتجاوزها.

ولا يتم تقييم الآخر، سواء في التفاعلات الحيوانية أو الإنسانية، فقط بما يقوم به، بل أيضا بما تدل عليه المكانة التي يحظر بها داخل المجموعة. لذا تعتبر لعبة المواقع بيننا معقدة جدا، لأنه تتدخل في الوقت نفسه الأدوار، والحالات وأشكال أخرى من التقسيم والطبقة الاجتماعية، وكيف يفقد الإنسان والحيوان القيمة التي يتوفران عليها أو يحصلان على أخرى أفضل منها، مع الصعود أو النزول في التسلسل الهرمي داخل المجموعة.

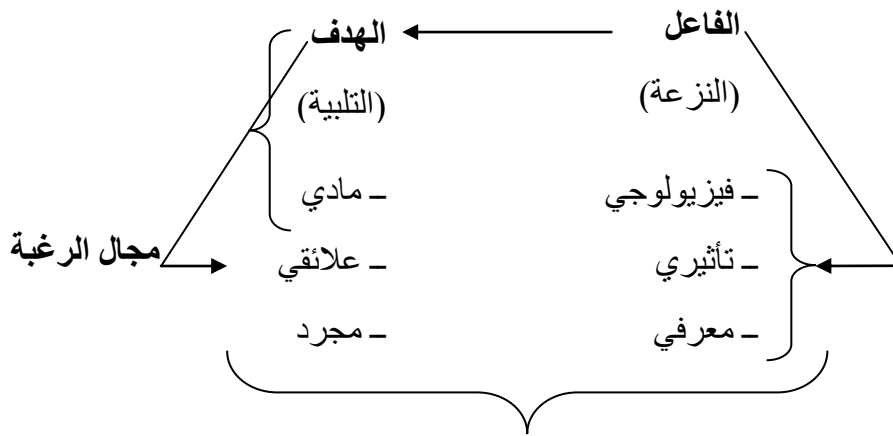
ويقدم ويلخص الشكل 2.19 هذه التحليلات.

الشكل 2.19 التواصل من خلال تأثيرات التفاعل

■ السلوكيات

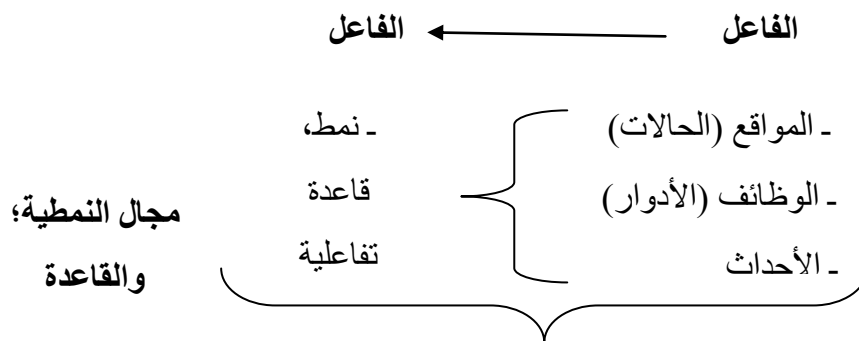
الإشارة إلى { الإنجاز } التواصل المرتبط بالتأثيرات

■ يضم الإنجاز:



عندما يعمل الآخر من أجل لإنجاز أو هو الإنجاز في حد ذاته، والسلوك هو اتكالي

■ تضم العلاقة:



3. الاستعمالات التواصلية الإنسانية المرتبطة بالتأثيرات

كما هو معلوم، يوجد داخل أصناف الحيوانات القطيعية تنظيم صارم شيئاً ما يحدد لكل عنصر من المجموعة مكانته لذلك يشترط بين الطيور الداجنة، وقطيع الخيول، والأبقار، والفيلة، ومجموعات القروء، المكان الذي يحتله كل حيوان، وهل له الحق أو لا في تحقيق (الأكل، والتناسل، والانضمام إلى المجموعة وإزالة الديدان) وبأي ترتيب، كما يحدد هذا التنظيم عناصر المجموعة التي لها الحق في الانخراط في العلاقات، ويجب أن تكون هذه العلاقات أفقية أو هرمية (للتعاون أو للهيمنة أو للخضوع).

وتستعمل التفاعلات في كل الأصناف لتلبية حاجيات عناصرها لكنها تعتبر التفاعلات أيضاً في الحيوانات القطيعية الفرصة التي تتم فيها إعادة إنتاج تنظيم المجموعة، لأنه في تطور التفاعل يتم إدراج تغيرات مكانة العناصر عند الضرورة. لهذا السبب، من المعتاد، بل ومن الضروري، أن يضم التفاعل التعابير المرتبطة بالإنجاز والعلاقة. انظر بعض الأمثلة لهذه المؤشرات:

❖ لعق الذكر المهيمن عندما يتم قبوله في الأكل وإشباع جوعه (بين الغرباء والقطط).

❖ طقطة الشفاه عندما يتم الحصول على الإذن لإزالة الديدان للآخر (بين القروء).

❖ وضع الرأس بشكل مخالف على عنق الآخر (بين الخيول والفيلة).

تتألف وظائف تلك المظاهر التعبيرية، تحديداً، من تأكيد أو تغيير الإنجازات، ومن طبيعة العلاقة التي تناسب كل حيوان داخل المجموعة، لذلك فإن بإمكان هذه الأدوات ذات التعابير المرتبطة بالتأثيرات أن تكون الدافع الذي تم بواسطته تطويرها بسرعة كبيرة، في الوقت الذي أصبح فيه تنظيم الأصناف الاجتماعية أكثر تعقيداً.

ويعتبر ظهور المؤشرات المرتبطة بكلا التأثيرين أثناء عملية التفاعل هو المعيار بالنسبة إلى الإنسان، ويقصد هنا بمصطلح "المعيار" شيئين اثنين:

- إن الجزء الأكبر من التفاعلات الإنسانية يضم مظهراً من خلال الفاعلين، والتقييم من خلال الإنجاز الذي تم الوصول إليه، والعلاقة نفسها.
- هناك قواعد اجتماعية تفرض على الفاعلين التعبير عن تلك التقييمات.

ومن غير المعتاد معالجة العلاقات التي يجب أخذها بعين الاعتبار من قبل الأشخاص مع الآخرين من أجل الحصول على شيء ما دون اللجوء إلى المظاهر المرتبطة بالتأثيرات.

❖ مثلاً، الأكثر شيوعاً هو أن تتم صياغة ملاحظات وأحكام متعلقة بالشخص نفسه، وبالآخر أو بالوضع، عندما يعمل، أو يأكل أو يمارس الجنس، رغم أن الإنجاز الذي حصلت عليه هذه السلوكيات يمكن تحقيقه دون أي تعبير نظري.

يقصر الفاعلون، في هذه الحالات، أو في حالات أخرى قد تكون ضرورية للتكاثر الاجتماعي، على الفعل التنفيذي أو استخدام التواصل بطريقة عملية بشكل حصري، كما أنه سيتم أخذها من قبل أشخاص همجيين وغير لائقين.

4. إدراج القيم في التوصلات الإنسانية

(أ) الأنماط ما قبل الإنسانية في القيم الإنسانية

لا توجد العادة فقط بين الإنسان، بل توجد كذلك أحياناً ضرورة التواصل عن طريق نفس السلوك أو من خلال سلوك الآخر في التفاعلات. وقد تم فرض هذه المعايير على الأنماط السلوكية التي كانت موجودة من قبل.

تظهر تلك الاستمرارية بين الأنماط والمعايير حيث تستجيب الإكراه المعياري للأسباب المماثلة لتلك التي تمت الإشارة إليها بين الحيوانات القطيعية، لأن صنفنا البشري هو اجتماعي. كما أن كل مجموعة بشرية تصف لعناصرها نوع العلاقات والإنجازات المطلوبة، والمتاحة أو الممنوعة، ويعتبر كذلك التفاعل بين الإنسان الفرصة التي يتم فيها إعادة تحديد العلاقات والانتظارات لكل فاعل¹⁴³.

وعندما يتحول النمط ما قبل الإنساني إلى معيار اجتماعي، يدرج آليات جديدة ضرورية لفرض اللجوء إلى المؤشرات المرتبطة بالتأثيرات على المتواصلين (انظر الشكل 3.19):

¹⁴³ بالتأكيد، يكون الإنسان في بعض المناسبات أكثر حرية من الحيوان لتجاوز قواعد المجموعة؛ لكن إذا ما أمكن احترامها يمكن اختراقها، فيكون من الضروري أخذها بعين الاعتبار، لأن نشاطها يتطور في الإطار الاجتماعي، كما تبدو مناسبة لتبرير ذاته، أمام الآخر أو الآخرين، كما هو الحال بالنسبة إلى إنجازاته وعلاقته.

- يعتبر نظام المواقف بين الإنسان نتيجة تعزيزات (سلبية أو إيجابية) للتجربة التي سترتبط بالتفاعل مع الآخرين، لذا سيستمر الحيوان في تلك التفاعلات التي توفر له الاكتفاء أو تحافظ على العقوبة، وفي المقابل، سيمتنع عن تلك التي تتم بالعقوبة أو سيتم تغييرها.
- تشارك هذه الآليات أيضا التي تقوم على الاكتفاء والإحباط بين الإنسان، في التفاعلات، لكنها تصبح مدمجة في نظام علم قيم التعزيزات، لذلك يعمل هذا النظام الجديد للمراقبة بالقيم، مثل "الموافقة أو عدم الموافقة التي يتلقاها الشخص"، و"مشروعية أو عدم مشروعية السلوك حسب الأشخاص والأشياء".
- في الوقت الذي يجب على الحيوانات المرتبطة بالإنجاز أن تأخذ بعين الاعتبار الآخرين وما إذا كان التفاعل قد بلغ إلى النجاح أو الفشل، على الإنسان كذلك أن يبين ما إذا كان سلوكه مشروعا.
- بينما يمكن ويجب على الحيوانات المرتبطة بالعلاقة أن تأخذ بعين الاعتبار أولئك الذين يقبلون، ويرفضون ويخضعون، سيكون لزاما على الأشخاص أيضا التعبير عن الموافقة أو عدم الموافقة، والاستفسار حول المواقف وغير المواقف.

ب) الصراع بين تحقيق الإنجاز والحفاظ على العلاقة

يُلاحظ ضمن الحيوانات القطيعية، في بعض الأحيان، أن المجموعة تفرض على بعض أعضائها التخلي عن الإنجاز للحفاظ على العلاقة، أو على العكس، تجبرها على التخلي عن العلاقة لقبول الإنجاز، بل تحرمها في بعض الأحيان من الأمرين معا؛ إذن، هذا مظهر للصراع ما قبل الإنساني بين الإنجاز (تلبية الرغبة) والعلاقة (الحفاظ على التنظيم والاستغلال الجماعي).

ويتجلى التعارض عند الإنسان بين الإنجاز والعلاقة في العديد من الأشكال، لذا تضم الرغبات احتياجات عديدة ومعقدة، أما التنظيم الاجتماعي فيقوم بوظائف أكثر تنوعا وضرورية بناء على ترتيب أعضائه.

تنتج الصعوبات بين الإنجاز والعلاقة عن التعارض بين "الغرائز الطبيعية و متطلبات المجتمع". وقد أشار إليه المحللون النفسانيون باعتباره صراعا بين "مبدأ اللذة" و "مبدأ الواقع".

وليس ضروريا هنا الرفع من حدة الاضطرابات التي تكمن في السلوك الإنساني، إذ يكفي الإشارة فقط إلى أن الرجال والنساء يتعلمون مخالفة رغباتهم والتخلي عن علاقتهم في الحياة مثل الحيوانات، ولكنه يتم كذلك تعزيز ضبط النفس من خلال التنشئة الاجتماعية عندما تتم تربية الشباب على القيم التي تبرر تلك الصعوبات. من هنا يتم تسليط الضوء من جديد على أن التواصل، عندما يقوم به الإنسان، يؤدي إلى زيادة حجم الصراع بين احتياجات الأفراد وتكاثر الصنف.

يوضح الشكل 3.19 الفرق بين ما يجب أن يعبر عنه الإنسان والحيوان

الشكل 3.19 التواصل المرتبط بالتأثيرات عند الإنسان والحيوان



ج) الوسيلة التي تدخل بها القيم في التفاعلات الإنسانية

تبين التحليلات السابقة إدراج القيم الاجتماعية من أجل تنظيم التفاعلات، بحيث يؤدي هذا التنظيم إلى الممارسة عن طريق التواصل المرتبطة بالتأثيرات؛ وبالتالي، فإن دراسة كيفية اشتغال هذه التواصلات وما هي أصولها التطورية تقدم معرفة حول الارتباطات بين أنماط الحيوانات والمعايير الاجتماعية.

5. التفاعلات الإنسانية التي تتطلب مشاركة التواصل

لقد تم إبراز وجود التعابير التواصلية المرتبطة بالتأثيرات في التفاعلات الإنسانية من قبل كتاب مدرسة (بالو ألتو)، بالرغم من أن أعمالهم كانت تولي اهتماما كبيرا للتعابير المرتبطة بالعلاقة التي يتوفر عليها بواسطة الإشارة إلى الإنجاز. فقد برزت أعمال المؤسسين ج. باتيسون و ب. واتزالويك (G. Bateson y P. Watzlawick) المنشورة، في كثير من الأحيان، في كتب جماعية بمشاركة أعضاء آخرين من المجموعة.

ويجب تعميم حضور مثل هذا النوع من التعابير، حسب هذان الباحثان، في كل تفاعل، ويؤكدان على أنه "من المستحيل عدم التواصل".

لقد أثرت فرضية مدرسة "بالو ألتو" في نظرية التواصل، وأتاحت كذلك لكتابتها تقديم بعض التحليلات المهمة جدا حول صعوبات التواصل داخل المجموعات الأولى. ومع ذلك - حسب رأيي - فهذا التأكيد مجحف، إذ لا يمكن تطبيقه على معظم التفاعلات الإنسانية ويؤثر في تطوير نظرية التواصل. وليس مهما الآن الإلحاح على النقد الذي تم في وقته، لكن الاهتمام مازال قائما بالبحث عن الفرضيات التي كانت وراء هذا الاعتقاد في حتمية المظاهر التواصلية، وذلك لسببين:

■ الأول، لأنه لم يتم بعد توضيح الأسباب التي تجعل من المستحيل عدم التواصل في بعض الأحيان (لكن فقط في بعض الأحيان).

■ الثاني، لأن الباحث في التواصل يجب أن يتضح له أنه من الممكن عدم التواصل. فعندما تظهر الشكوك بهذا الصدد، يتم حدوث خطأ نظري للعديد من الكيانات.

ونتيجة لذلك، سيتم التمييز بين تلك التفاعلات التي يكون فيها ضروريا بالنسبة إلى أحد الفاعلين اللجوء إلى التعابير التواصلية (سواء كانت أساسية أو مرتبطة بالتأثيرات) وتلك التفاعلات الأخرى التي يكون فيها إدراج الأفعال التعبيرية اختياريا.

أ) متى ولماذا يكون من المستحيل (أحيانا) عدم التواصل؟

يكون من المستحيل ارتباط الإنسان مع الآخرين دون تواصل في الحالات الآتية:

أ1) إدراج التمثلات أو القيم من قبل الفاعل في التفاعل

وتتجلى هذه الحالات في الحالات الآتية:

1. عندما يتضمن التفاعل سلسلة مجردة ما، والتي ينبغي أن يتم ذكرها للآخر عن طريق استخدام التواصل (انظر الفصل 17، العنوان 3).

2. إذا وجدت في التفاعل الإشارة إلى التأثيرات، مثلما تم شرحها في نفس الفصل. فمثل هذه الإشارات تكون ضرورية:

- عندما يجب على الفاعل أن يشرعن حقه في الإنجاز.

- عندما يجب التحقق مما إذا تم قبوله أو لا من قبل الآخرين.

ليست الأفعال التنفيذية للفاعل في حد ذاتها في تفاعلات النوعين (1) و(2) كافية لتحقيق انخراط الآخرين بشكل فعال في الإنجاز الذي حققه الأول، ويظهر هذا الفشل في الحالات الآتية:

- عندما لا يعرف الآخر أو لا يفهم الإنجاز، أو بالأحرى العلاقات التي يحتاجها الإنجاز، أو الوسائل التي تؤدي إلى الإنجاز، أو عندما يعرفها ويفهمها، لكن لا يقبلها.
- عندما يشمل التفاعل سلسلة معينة غير مرغوب فيها من قبل الآخر، والتي ينبغي بالضرورة أن تتم مناقشتها بين الفاعلين الذين يتواصلون.

2) عندما يكون سلوك الفاعل مرتبطاً بالضرورة بمظهر مؤشر معين

إن هذه الحالات لها أهمية بالنسبة إلى كل علوم السلوك، لذا سيتم البدء في تحليل بعض الأمثلة المعروفة من المظاهر التعبيرية التي ترافق بعض تصرفات الأشخاص:

❖ احمرار وشحوب الوجه، وعرق الجسم والتنفس السريع غير منفصلين عن العديد من الأفعال. فمن غير الممكن بالنسبة إلى الفاعل تفادي (حتى لو قصد ذلك) هذه التعبيرات التي ترافق الفعل التنفيذي.

يظهر المظهر غير الإرادي لأية إشارة أثناء التفاعلات، في سلوكيات الفاعلين الذين يتوفرون على حضور جسدي وهي تلك التي تضع عادة الجهاز العصبي اللاإرادي في نشاط. إذن، هذا هو السبب الذي يجعل هذه المؤشرات تخرج عن السيطرة الإرادية للفاعل، لذا ستتم دراسة أصله والأسباب التي من خلالها ظهرت على ضوء الدراسة الجينية للتواصل التي تم تطويرها في هذا الكتاب.

يعبر الجسم، رغم أن الشخص لا يريد، كلما توفرت هذه الشروط الثلاثة:

■ **الشرط الأول:** هو أن الإنجاز الذي يتبعه الفاعل في التفاعل مع الآخرين يجب أن يراعي تلبية الاحتياجات الأساسية.

ويقصد بـ "الاحتياجات الأساسية" تلك التي تظهر بواسطة المحفزات الذاتية، الأيض والمحفزات الهرمونية وهي تتعلق أساساً بالغذاء، والجنس، والتربية، والانتماء إلى المجموعة، ثم آليات استجابة الجسم إزاء الوضعيات التي تعرض حياة الفرد أو المجموعة للخطر.

■ **الشرط الثاني:** يحرك حضور الآخر أو الآخرين، أو بالأحرى ما يقومون به أو يقولونه، الحاجة أو النقص الأساسي لدى الفاعل.

وتظهر حاجة الأنا بطريقتين مختلفتين:

- ظهور رغبات الآخرين عندما يقوم الآخر بشيء ما بنية إظهاره للأنا. مثلاً، عندما تعرض الأم الحلويات أمام الابن؛ وعندما يقدم الرجل أو المرأة تلميحات جنسية.

- لكن هذا التصرف يظهر أيضاً لدى الأنا عند غياب المحفزات الواعية للآخر، حيث إن هذا الأخير يحفز رغم أنه لا يعرف ما يقترحه المظهر التعبيري للاحتياجات الأساسية للأنا (إفراز اللعاب واحمرار الوجه...)، وذلك عندما ينشط حضوره ومظاهره الأنماط التواصلية القديمة من حيث النشأة والتطور، وخصوصاً الأنماط التي تظهر في المرحلة الثانية من أجل الإشارة إلى عالم الموضوع. (انظر الفصل 12، العنوان 2).

وقد تم الاحتفاظ بهذه الأنماط التواصلية ما قبل الإنسانية في صنفنا البشري، ويتم تفعيلها في اللحظات المناسبة أثناء تطور الجنين، لذا ستبدأ في الاشتغال كلما وجدونا الأشخاص أنفسهم في حالة الحاجة التي ترتبط بها هذه الأنماط.

■ الشرط الثالث: كون تلبية هذه الحاجة تكون محددة بواسطة الضوابط الاجتماعية التي يستوعبها الشخص.

ويوجد هذا التحديد دائماً، ما عدا في بعض الثقافات وخلال عصور معينة فقط . وكما هو معروف جداً، تلبية الاحتياجات الأساسية في جنسنا تتوسطها التنظيمات وطرق إنتاج الموارد الملموسة وغير الملموسة. لهذا السبب، بالتحديد، تعتبر احتياجاتنا إنسانية ونسميها رغبات.

(ب) المظاهر الاعتيادية للرغبات

ينعكس تحديد الرغبات على الطرق التي تُظهرها الأنا، وعلى الشروط التي تعتمد عليها، والتي تتم تلبيتها أو عدم تلبيتها من قبل الآخرين؛ لذا تصل المجتمعات لإنشاء تلك السلوكيات التواصلية والتنفيذية بين عناصرها الأصغر سناً أثناء التنشئة الاجتماعية، لاسيما توعيتهم من أجل تعلم بعض التقاليد اللائقة التي يجب القيام بها عندما يتم ذكر وتلبية رغباتهم، فعادة ما تحتاج هذه التقاليد إلى مظاهر ضمنية لضبط النفس. وأعني هنا وظيفة التنشئة الاجتماعية التي تتعلق بالتقاليد اللائقة، بحيث يتم إنشاؤها لكي تعيد العناصر الجديدة إنتاجها في حياتها الخاصة، والابتعاد عن الطبيعة التي تم إنتاجها على مستوى الصنف.

تقدم الثقافة للأشخاص مجموعة غنية ومتنوعة من الموارد التواصلية من أجل تنفيذ هذه المظاهر التقليدية للاحتياجات الأساسية. مثلاً، الجمل، والإيماءات ثم الأشكال المهذبة وغير المباشرة للكشف عن الحاجة والطلب. لذا تعتبر هذه المؤشرات المكتسبة من خلال التنشئة الاجتماعية، في الوقت نفسه، مؤشرات الإنجاز والعلاقة.

ويتدخل المعيار الاجتماعي الذي ينظم مظهر الرغبة، على كل حال، في النمط التواصلية الذي يشكل جزءاً من إرثنا الحيواني، والذي لا يمكن استبداله. لهذا السبب، كثيراً ما تقوم الشروط التي تكون النمط في التفاعل بإظهار الأشكال غير الإرادية للتعبير عن طلب الآخر، والذي لا يتعلق، في الوقت نفسه، بالفاعل الذي يدير بكفاءة وقناعة الطرق المقبولة اجتماعياً للإشارة إلى الجوع، والجنس، والحاجة إلى القبول والمرافقة، والخوف، والهيمنة والخضوع.

غالباً ما تفرض المعايير الاجتماعية على الفاعل تأجيل أو التخلي عن الإنجاز، وعادة ما يتم تطبيق هذه المبادئ على أساس الجنس، والسن، والمكان، ثم الالتزامات العائلية والاجتماعية لكل فرد. وبشكل

منطقي، توجد أيضا مجموعة غزيرة ومتطورة من الموارد التواصلية التي تتيح للشخص المحبط التعبير عن المصلحة، والتقدير الاجتماعي، وإيلاء الأهمية لنفسه، وللآخرين أو للمجتمع برمته، ويكون مستعدا من جهته للتخلي عن الإنجاز، في حين أن جسده سيعلن عن الاحتياجات الأساسية التي يمكن السيطرة عليها، لكن ليس إلغاؤها¹⁴⁴.

ج) مظاهر اللاوعي التواصلية

تشتغل هذه الآليات عندما يوجد ارتباط غير واع، تم اكتسابه خلال السنوات الأولى من الطفولة، ضمن مجموعة من التجارب المعاشة من قبل الطفل أو الطفلة في التفاعلات مع الآخرين ومجموعة التعابير الجسدية الفطرية، لذا تنتمي لهذه الفئة المؤشرات التي تسمى بشكل غير صحيح "الأعمال الفاشلة" وكذلك "زلة اللسان". ووفقا لما قيل، يُفهم أنها مؤشرات تم العثور عليها في الأنماط التواصلية ما قبل الإنسانية، وتشكل فرصة من أجل مواصلة السعي لتلبية الاحتياجات الأساسية والضرورية.

- عندما توجد إشارة إلى التمثلات أو القيم (في حالات النوع 1) يعتبر إدراج المظاهر التواصلية للتفاعل عن قصد من قبل الفاعل؛
- في المقابل، عندما تكون للتعابير ارتباطات جسدية (في حالات النوع 2) تظهر تلك المؤشرات بشكل غير إرادي.

وبالتالي، توجد في بعض أنواع التفاعلات الإنسانية التي تحرك الأنماط التواصلية قبل الاجتماعية، مظاهر اللاوعي التواصلية.

وسوف تكون هذه المؤشرات أو لا تكون فعالة بالنسبة إلى إنجاز الفاعل، لكن من غير الممكن عدم ظهورها في التفاعلات؛ لهذا جاءت لتأكيد سلسلة من التيارات الفكرية المعتمدة على التحليل والطب النفسي، ومن بينها مدرسة "بالو ألتو". كلنا نحافظ على وجهة النظر هذه، ونستعمل الفرضيات الفرويدية المتناقضة يوميا في العمل الإكلينيكي.

¹⁴⁴ إن دراسة ما يسمى "اللغات الجسدية" يفتح حقا جديدا لم يتم استغلاله بشكل كاف من أجل فهم التحولات التطورية لدى الإنسان، والذي كان يتوفر على مظاهر تعبيرية مرتبطة بالعالم الموضوعي.

تعتبر التعابير اللاواعية مظاهر تواصلية حقيقية، لأنها تتشكل في المادة التعبيرية التي عادة ما تكون هي الجسم أو أحد أعضائه؛ أو في الشيء الرمزي الذي يقدمه الجسم، كما تعتبر مؤشرات مشابهة تعيد إنتاج الأعمال التنفيذية التي تم طلبها من قبل الآخر.

هناك شيء آخر مختلف، هو أن هذه التعابير غير الإرادية تصل ذروتها مع نجاح التفاعل. في الواقع، نادرا ما يحصل هذا، لأن القواعد التي تحدد كل التفاعلات المتعلقة بالاحتياجات الأساسية تكبت الوعي الذي يوجد عند الشخص نفسه أو عند الآخر، والنمط الذي يعمل باستقلالية ويشير إلى شيء ما. ولكي تكون المظاهر غير الإرادية للرغبة مدمجة كمكونات في التفاعلات، من الضروري أن تكون الأنا والآخر قادرين على اعتبار هذه التعابير اللاواعية (احمرار الوجه، والعرق، والعمل الفاشل...) طلبات، وأن يتعرفا (بنجاح أو فشل) على أن الطلب له محتوى يخضع للرقابة.

ويتحقق ذلك التعرف بواسطة ميثاق تواصل، أي عندما يريد الفاعلون، تحليل "ماذا يعني" هذا التعبير غير الإرادي (احمرار الوجه، والعرق والعمل الفاشل...)، لكن عندما يتم هذا يتحكم الفاعلون في أقوالهم في مستوى آخر؛ لذا قلنا إن الحاجة الأساسية والاكتفاء عبارة عن مرجع للتواصل عن قصد في النوع 1أ. يجعل الضابط الاجتماعي من الصعب أن تكون التفاعلات التي تم تطويرها وفقا للقواعد ذات مظاهر غير واعية، والاختبار يتم في مهن الطب والعلاج والتحليل النفسي.

6. التفاعلات الإنسانية التي لا تكون فيها مشاركة التواصل ضرورية

لا تشير معظم التفاعلات الإنسانية إلى الاحتياجات الأساسية، ولا تحرك الأنماط التواصلية الوراثية، وليست محظورة أو مقيدة، وبالتالي، تحدث معظم التفاعلات دون أن تظهر تعابير غير إرادية (النوع 2أ). وحتى العديد من هذه التفاعلات يتم دون أن يكون لزاما الرجوع إلى التعابير المقصودة (النوع 1أ)، لذا، يمكن التفاعل في هذه الحالات دون التواصل عن طريق سلسلة مكونة بشكل حصري من أعمال تنفيذية.

❖ يتطور العمل المتسلسل بشكل فعال دون وجود أي تعبير إرادي أو غير إرادي؛ ولو أن لا شيء يحول دون دمجها معا.

❖ توجد حالة مماثلة بين المتحاربين الذين لا يتمكنون من إطلاق النار رغم ظهور التعابير اللاواعية للخوف أو الإشادة بإعدادهم.

❖ يظهر في بعض الحالات الإغماء بوصفه غيابا لكل مظهر تعبيرى في التفاعل، دون ذلك يصبح الشخص المريض غير قادر على الارتباط تنفيذيا مع الآخرين.

7. الخلط بين الإخبار والتواصل

تعتبر جملة مدرسة "بالو ألتو": "من المستحيل عدم التواصل" عبارة متميزة، ورغم أنها خاطئة فقد أثارت اهتماما بالنسبة إلى مظاهر الرغبة اللاإرادية. فإذا كان من الخطأ أن تكون كل التفاعلات مكونات تواصلية، فإنه من الصواب مشاركة التعابير الأساسية والمرتبطة بالتأثيرات في العديد من التفاعلات الإنسانية.

ويكمن العيب في كون تلك الجملة تستدل بالخطأ النظري، بحيث يتم الخلط بين المعلومة التي يحصل عليها الفاعل عندما يواجه وجود الآخر، وبين الإشارة التي يستقبلها الفاعل عندما يرتبط تواصليا مع ذلك الآخر. ولقد شرحنا في الجزء الأول من هذا الكتاب الاختلافات الموجودة بين الاستعمالات ذات معنى للمعلومة (قبل التواصلية) وبين الاستعمالات الدالة (التواصلية). وللتذكير:

كل شخص يقدم معطيات لشخص آخر قد يتفاعل معه أو لا يتفاعل، لذا يتم تقديم تلك المعلومة للآخر بواسطة عمل بسيط يكون قابلا للملاحظة.

يكون الملاحظ في وضعيات محددة لتحديد معنى ما لتلك المعطيات الصادرة عن الملاحظ. مثلا، يتوفر على إمكانية لاستعمال المعطيات من أجل تكوين فكرة عن حالة ذلك الشخص، أو عن احتياجات الآخر، أو نواياه، أو طبيعة كيانه. والأمر نفسه عندما يرى ذلك الملاحظ سحابة داكنة، يحصل وهو على معطيات تتيح له استنتاج قدوم مطر.

إن لهذا النوع من المعلومة التي تأتي عن طريق الملاحظة (من شخص ما ومن سحابة) معنى، لكنه غير تواصلية.

يعتبر الشخص والسحابة موضعين في ما يتعلق بتأملات الملاحظ، ولا يعتبران فاعلين في التواصل.

يتم تدبير المعلومة في التواصل، ولكن يتم الحصول على كل المعلومات عن طريق التواصل.

ويتم كذلك خارج التواصل الحصول على المعلومة وتدبيرها:

- عندما تتم ملاحظة المحيط وما يحدث فيه؛

- عندما تتطور المعطيات عكس ما نعرفه عن الأشياء، ونستنتج معطيات جديدة تغير تمثنا السابق للعالم؛

- عندما نختبر بالمواضيع كيف، مثلاً، يعمل الباحثون على جمع المواد الكيميائية، أو الكيفية التي يدير بها الأطفال الصغار ألعابهم.

تصلنا المعلومة عن طريق:

- ملاحظة الأشياء،
- رد فعل إزاء الأشياء،
- استعمال الأشياء،
- المرجع الذي يشير إليه الآخرون من خلال الأشياء. وهذا النموذج الأخير من الاكتساب هو الوحيد الذي يتبع طريق التواصل.

ونقدم هذا الجدول 1.19 من أجل تجنب الخلط بين التواصل والمعلومة:

الجدول 1.19 أشكال الحصول على المعلومة والاشتغال بها

الملاحظة	مما يوجد، ويظهر ويحدث
التجربة	استعمال التجربة في البحث عن العلاقات بين (الأفعال وردود الأفعال)، و(المحفزات والاستجابات)، و(السبب والنتيجة)، وفي البحث عن البنية، والوظيفة، وسلوك الأشياء، والفاعلين، والشخص نفسه، والأفعال والحالات.
رد فعل	إعادة بلورة المعطيات الموجودة في الذاكرة و / أو المعطيات الافتراضية أثناء الاستدلال والموافقة.
التواصل	المعطيات التي يوفرها الآخر من خلال موضوع المرجع.

مراجع التواصل الإنساني

1. العالم المرجعي للتواصل الإنساني

لقد تم استعمال "الموضوع المرجعي" في هذا الكتاب للإشارة إلى ما يتم التواصل حوله. (انظر الفصل 11، العنوان 1).

وتعتبر القدرة المرجعية للإنسان إحدى السمات التي ابتعدت أكثر بكثير عن سابقها الحيوانية، حيث أن الحيوانات التي تتواصل، بما في ذلك الأكثر قدرة، تشير فقط إلى المواضيع التي تكون مرتبطة بشكل مباشر بتلبية احتياجاتها في حدود محيطها الإيكولوجي.

ووفقا لذلك توفر الحيوانات معطيات مرتبطة بإمكانية تزاوجها، وبوجود الأعداء وبامتداد مجال صيدها، إلخ.

تبين التجربة اليومية أننا نحن الكائنات الإنسانية نتواصل مع أناس آخرين حول ما يحلو لنا، لذا يشير التواصل في الصنف البشري إلى أي كيان، بحيث يتم التواصل حول الكائنات التي كانت موجودة، والتي توجد، والتي ستوجد (أشياء في الطبيعة، ومواضيع اصطناعية، ونباتية، وحيوانية وكائنات بشرية)؛ وحول كائنات لم توجد، ولا توجد ولن توجد (الكائنات الخيالية والأسطورية، والكائنات المستحيلة التي تفتقد إلى طابع الأشياء، والمواضيع أو الكائنات الحية)؛ وحول جودة الملاحظات، والأشياء غير القابلة للملاحظة، والقابلة للإدراك أو غير القابلة لذلك، التي تعيينها لأي كائن حقيقي أو مثالي، فردي أو جماعي، وممكن أو مستحيل، ومنطقي أو متناقض.

لذلك فكل ما يمكن تمثيله يمكن ذكره؛ وكل ما يمكن ذكره يمكن أن يكون موضوعا مرجعيا للتواصل. لهذا السبب يفتح التواصل الإنساني، وعالم الإشارات والكائنات المرجعية بعض على البعض، لذا لا يخضع الموضوع المرجعي للتواصل في صنفنا لشرط الوجودية ولا لشرط عدم التناقض؛ ورغم وعي الفاعلين

بعدم وجود الموضوع يكون التواصل¹⁴⁵ (باستثناء التواصل الوهمي). وبنفس الطريقة يعتبر الوعي بالحالة غير المنطقية للموضوع المرجعي المتناقض شرطاً للتواصل¹⁴⁶ (باستثناء التواصل الانفصامي).

1. أنواع الكيانات التي يشير إليها التواصل الإنساني

أ) التمييز بين العلاقة المرجعية والعلاقات الأخرى غير التواصلية

يمكن القول إن أي كيان (بمعنى، كل ما قد يكون وجوده حقيقياً أو مثالياً) يمكنه أن يكون موضوعاً مرجعياً للتواصل الإنساني؛ لهذا يتم التمييز، من وجهة نظر العلاقة بين الذات الإنسانية والكيانات التي تقيم معها تجربة معرفية، بين الكيانات في ثلاث مجموعات تتلخص في الشكل 1. 20:

¹⁴⁵ عندما يقول المخاطب لآخر أن: "وحيد القرن يتوفر على قرن مطوي"، والآخر يرد أن "قرن وحيد القرن ناعم"، يمكن أن يتعلق الأمر بحديث حكيم جداً بين شخصين باستعمال مثالي للعقل؛ ففي هذه الحالة كلاهما واعيان بأن مناقشتهما تتعلق بوصف ثقافي وتاريخي مؤسس على الخصائص التي تميز هذا الكائن الخرافي. في الواقع، تأكيد المخاطب الأول يفترض التحليل المرجعي التالي: "هناك وصف لكائن غير موجود، تظهر من بين خصائصه أنه يمتلك قرناً مطوياً"؛ وأما الثاني فيفترض أن التحليل المرجعي يعادل "وصف كائن ليس موجوداً يسمى وحيد القرن، عوض التوفر على قرن مطوي، يتوفر على قرن قائم". لذا فنفس هذا الحوار قد يكون توأماً وهماً إذا ما ابتكر كلا المتكلمين أنه قد يمكن العثور على صنف موجود لوحيد القرن كمرجع لتأكيديه.

قد يمكن حدوث أنه لم يوجد اتفاق مسبق بين المتكلمين حول الطبيعة الأسطورية أو الحقيقية لوحيد القرن؛ في هذه الحالة سيكون التواصل مستحيلاً مادام أن الميتا-تواصل (التواصل من خلال التواصل) لم يعد إنشاء الاتفاق بين المتكلمين حول وجود أو عدم وجود وحيد القرن، وكلاهما (عن صواب أو خطأ) قد يشير إلى الموضوع المرجعي الحقيقي أو الأسطوري؛ وبالتالي، يمكن للمواضيع المرجعية غير الموجودة أن تكون مرجعاً لتواصل منطقي وموضوعي عندما يكون الفاعلون واعون بالطبيعة المثالية للموضوع؛ والحالة التواصلية هي نفسها تلك التي توجد عندما يتم التواصل من خلال الأصناف المعرفية، مثلاً، "التجريد"، و"الصفة" و"الفضيلة"، إلخ.

يمكن للمواضيع المرجعية غير الموجودة أن تكون مرجعاً لتواصل وهمي (منطقي أو غير منطقي) لما لا يكون للفاعل وعي بأنهم يشيرون إلى كيان أسطوري؛ لذا يعتبر التواصل الوهمي، في كل الأحوال، توأماً؛ وهذا الصنف من التواصل يحدث في العديد من المصاحبات العقلية؛ مثلاً، الهدف من إظهار هذه أو تلك الصفات الخاصة بالملائكة كان موضوع اللاهوت والميتافيزيقا؛ لذلك فإن علماء اللاهوت وعلماء الملائكة الذين تشاركوا في مناقشات لا نهاية لها حول جنس الملائكة، قد اعتقدوا أن الأمر يتعلق بكانات حقيقية مثل الدجاج.

إن الطرف الوحيد الذي لا يكون فيه التواصل ممكناً حول الموضوع المرجعي هو عندما يعتقد أحد الفاعلين أنه يشير إلى كيان حقيقي والآخر إلى كيان مثالي؛ ويمكن فقط للميتا-تواصل أن يبتكر الشروط المسبقة كي يمكن القيام بالتواصل (الموضوعي أو الوهمي)؛ من ثم، غياب الموضوع المرجعي، وجهل أو خطأ الفاعلين بعدم وجوده، لا يكون مرتبطاً بإمكانية التواصل، والتقييد الوحيد يأتي من تناقض الميتا-تواصل بين الفاعلين حول الطبيعة الحقيقية أو المثالية للموضوع المرجعي (ما عدا في حالات الاتفاق وعدمه؛ مثلاً، عندما يعتبر الطفل سوبرمان كأنه كيان حقيقي، والأب خبير في الميزة "المثالية" لهذا المرجع، يتبنى وجهة نظر الابن).

¹⁴⁶ نفترض أن نفس المتكلمين يتناقشون حول دائرة المربع، الأول يقول إن "مساحة دائرة المربع تساوي ba (أي أن القاعدة مضروبة في الارتفاع)؛ والثاني يقول إن "مساحة دائرة المربع تساوي pr_2 ؛ والمخاطب الثالث يقول إن "كلاهما على صواب ويقولان نفس الشيء: دائرة المربع ba قد تكون تساوي pr_2 ؛ إذا كانت هناك إمكانية تدعيم أن الدائرة هي في نفس الوقت المربع، سيكون غير مهم الحصول على المساحة عن طريق صياغة الأول أو الآخر؛ من خلال هذه الملاحظة، قد يستنتج مخاطب رابع فصامي: "من الممكن فيما بعد أن تصبح في نفس الوقت المربعيات دوائر، والدوائر مربعات؛ أما مخاطب أخير سليم العقل فقد يحصل على خلاصة ليست فصامية: "قد يتم استنتاج، من خلال خصائص الدائرة المربع، بشكل منطقي، أن $[pr_2 = (ba)]$ ، وفيما بعد ليس منطقياً افتراض أنه في عالمنا توجد أو يمكن رسم دوائر مربعة". يبين المثال أن الطابع المتناقض للموضوع المرجعي لا يمنع التواصل حول نفسه، بقدر ما لا يتم الخلط بين المنطق الذي يمكن أن يمتلكه المنطقي حول هذا الموضوع، بالإسناد إلى موضوع الطبيعة المنطقية، وما بهم كي يكون التواصل ممكناً هو احتفاظ الفاعلين بالوعي الطبيعي المتناقض الذي يميز الموضوع المرجعي.

الشكل 1.20 أنواع الكيانات التي يشير إليها التواصل الإنساني

المواد	المدرجات	الكائنات المنطقية
من الممكن الإشارة إليها، وملاحظتها والتعامل معها خلال التجربة.	من الممكن الإشارة إليها، وملاحظتها بواسطة أي وسيلة بيولوجية أو تكنولوجية للإدراك.	من الممكن الإشارة إليها.

- تكون كل مادة قابلة للتجريب (يمكن أن تتم معالجتها، واستعمالها وتحويلها) إما بشكل مباشر
- - بواسطة الأعضاء البيولوجية مثل الأيدي والأسنان - أو بشكل غير مباشر (من خلال الأدوات)، بالإضافة إلى كون المواد القابلة للتجريب هي قابلة للملاحظة والإشارة إليها.

❖ أمثلة عن المواد: السائلة، والغازية، الصلبة (الحجر، النباتات، وجسم الحيوانات وجسم الإنسان).

- كل ما يتم إدراكه هو قابل للملاحظة (يُدرَك بشكل مباشر بواسطة أعضاء الحواس أو بأي وسيلة تكنولوجية قد توسع قدراتها)، بالإضافة إلى كون المدرجات القابلة للملاحظة هي قابلة للإشارة إليها.

❖ أمثلة عن المدركات: الطاقية، والسائلة ثم الصلبة، والقدرة على تحفيز الحواس التي لا يمكن أن تكون معالجة لا بشكل مباشر ولا غير مباشر. ومن بين المواد الطاقية هناك الموجات الآتية من الفضاء الخارجي؛ ومن بين المواد الصلبة هناك الشمس.

▪ كل كائن عاقل هو قابل للإشارة إليه.

❖ أمثلة حول الكائنات المنطقية: الجمال، والمجد، والتجريد، والوظيفة، والعلم، والرغبة الجنسية، وأحادي القرن والحركة المستمرة.

وبالتالي، يتبين أن العلاقة المرجعية هي عبارة عن شكل شامل للعلاقة المعرفية مع الكائنات التي توجد في عالمنا المادي، والاجتماعي والثقافي. أما الملاحظة فهي عبارة عن شكل من العلاقة المعرفية الخاصة، ورغم أنها أكثر خصوصية إلا أنها تجريبية من وجهة نظر عدد الكيانات التي تصبح معروفة حسيا وتجريبيا؛ ومن وجهة نظر أخرى، فإن استعمال الكائن المادي يتضمن إمكانية ملاحظته؛ كما أن الاستعمال والملاحظة يتضمنان المرجع (لكن ليس العكس).

▪ كل كائن عاقل أو مادي يمكن تصوره حتى عندما لا تتم الإشارة إليه في العملية التواصلية، لذا فهذا النوع من العلاقة المعرفية هو الشكل الأكثر شمولية مقارنة بالأشكال الأخرى؛ لكن دراسته لا تتناسب مع نظرية التواصل، بل مع نظرية المعرفة.

(ب) طبيعة العلاقة المرجعية

لا تشكل العلاقة المرجعية إلا إحدى الطرق الممكنة للعلاقة بين الإنسان والكيانات.

تتميز العلاقة المرجعية بين الكيانات والفاعلين عن غيرها من أشكال العلاقة بكونها تحقق التواصل، وتتطلب بالضرورة وضعا تواصليا.

تولد كل حالة إجبارية أخرى تشارك فيها الكيانات في التفاعل الذي تدخل فيه الكائنات الحية علاقات غير مرجعية بين الكائن الحي والموضوع.

تعتبر كل من العلاقات المرجعية وغير المرجعية للكائنات الإنسانية أشكالاً من خلالها يتعرف ممكنة الكائن على العالم (المادي، والمجرد) الذي يوجد فيه من أجل تغييره أو التكيف معه. ولا تستبعد العلاقات المرجعية (التواصلية) التي تنشأ بين المواضيع والأشياء الأشكال الأخرى الممكنة للعلاقات غير المرجعية. تختلف أنواع العلاقات الممكنة بين المواضيع والأشياء حسب الطبيعة العقلانية أو غير العقلانية للأولى، وحسب الطبيعة المادية أو المجردة والطبيعية أو الاجتماعية للثانية؛ وبالتالي، من الضروري، للحد من مجال العلاقة المرجعية التي يقيمها الفاعلون الإنسان مع العالم الذي يحيط بها، فحص كل نوع من الأنواع الموضوع المرجعي بشكل مستقل، أما في ما يتعلق بالعلاقة المرجعية فإننا نفترض أنها تخص الفاعلين الإنسان.

2. الكيانات التي يمكن إنشاء علاقات مرجعية وغير مرجعية معها

من وجهة نظر التواصل (ليس من وجهة نظر ميتافيزيقية أو علوم أخرى)، الكائنات التي يمكن ربطها مرجعياً بالأشياء الإنسانية يمكن تصنيفها على النحو التالي:

(أ) الكيانات الطبيعية.

(ب) الكائنات الإنسانية.

(ج) الكائنات العاقلة والكائنات غير العاقلة.

(د) الأفعال.

وفي كل حالة يمكن التمييز بين أصناف العلاقات التالية:

1. علاقات خارج نفس النظام التواصلية.

2. علاقات الشيء - الموضوع المرجعي؛ فالفاعل يكون داخل النظام التواصلية وخارج نظام الموضوع المرجعي.

3. علاقات ذات طابع مرتبط أساساً بالنوع التنفيذي أو المعرفي (غير تواصلية).

أ) العلاقات مع الكيانات الطبيعية

تضم الكيانات الجامدة أو المتحركة، والنشيطة أو غير النشيطة، والتي تعتبر أشياء أو كائنات حية طبيعية، متحولة أو غير متحولة إلى مواضيع، ووسائل أو أدوات في خدمة النشاط الإنساني.

❖ المغناطيس قطعة معدنية، ويمكن في هذه الحالة أن يشارك في التواصل كمادة تعبيرية، والإشارة إليه كموضوع مرجعي أو استعماله كأداة.

1. العلاقات الداخلية لنظام التواصل

يصبح للمغناطيس استعمال تواصلية عندما يُستعمل كمادة تعبيرية.

❖ مثلا، تعتقد جماعة من الروحانيين أن "حركة / عدم حركة" الحجر في حضور الحديد، تعبر عن "ظهور / عدم ظهور" القوى العقلية في "الوسط".

يحدد المغناطيس موضوعا مرجعيا آخر (القوى العقلية في الوسط) في هذا الاستعمال التواصلية، والواضح أنه لا يعتبر مرجعا للتواصل، بل المادة التي تسمح بالاستعمال التعبيري.

2. العلاقات المرجعية

عندما يشير الإنسان إلى المغناطيس يقوم بدور الفاعل في التواصل.

يعتبر المغناطيس في عالم المرجع الموضوع الذي يتم إنشاؤه من خلال العملية التواصلية، لذا يمكن لهذه "الإشارة إلى" أن تأخذ بعين الاعتبار أي شكل ممكن لربط (أو عدم ربط) الحالة مع كائن آخر حقيقي أو مجرد (بما في ذلك الإنسان)¹⁴⁷. على أي حال، تنتج العلاقة التواصلية للفاعلين مع المغناطيس، في

¹⁴⁷ مثلا، كيف (لا) يتم ربط المغناطيس بالمركبات الأخرى للحديد بين المعادن؟

الحالة التي يعتبر فيها موضوعا مرجعيا، المعلومة حول الشيء، ولكن لا تغييره. لأن "الإشارة إلى (طبيعة المغناطيس) لا تؤثر في المادة ولا تدرج أي تغيير طاقي بين ذلك المعدن وأشياء أخرى.

3. التمييز بين العلاقة المرجعية واستعمال المواضيع

لقد تمت الإشارة إلى كون الموضوع المرجعي يظل دائما خارج التواصل، كما أن هذا الأخير لا يؤثر فيه¹⁴⁸؛ ومن خلال التعريف، يصبح الشيء أو الموضوع موضوعا مرجعيا للتواصل عندما يتم إنشاء عملية تواصلية يشارك فيها الفاعلون، والوسائل، والمواد التعبيرية والتمثلات بين الإنسان، كل هذا من أجل الإشارة إلى شيء ما من خلال ذلك الموضوع. وبعبارة أخرى، لا يستعمل مرجع موضوع التواصل من أجل التواصل حوله رغم أنه موجود أمام الفاعلين¹⁴⁹.

عندما يقوم الفاعلون باستعمال مباشر للموضوع المرجعي باعتباره جوابا لحالة تواصلية، يفقد وظيفته كموضوع مرجعي، ويصبح موضوع استعمال، ويعمل كمحفز، ومنتج، وأداة، وتجربة ومادة تعبيرية؛ لكن التواصل من خلال ذلك الموضوع المرجعي تم استبداله بالاستعمال في حد ذاته¹⁵⁰.

ونعود إلى مثال مماثل قد تم استعماله في الفصل 11، العنوان 1، لتوضيح هذا الاختلاف:

لنفترض أنه على طاولت مكتبي توجد قطعة من المغناطيس، ويسأل الآخر: "كيف هو المغناطيس؟". سوف يثير هذا السؤال، حسب مزاجي، جوابا عن طريق الأعمال التنفيذية أو عن طريق التواصل:

■ يمكن أن أجيب عن طريق الأعمال التنفيذية، إذ الآخر بجانبني، فأخذ المعدن وأقدمه أو أظهره له وأصمت. في هذه الحالة، يمكن تدخلني في عمل النقل الذي يضع الآخر في اتصال مع

كيف (لا) يتم ربط المغناطيس بمصادر أخرى للطاقة الحديدية، والكهربائية والكيميائية؟

كيف (لا) يتم ربط المغناطيس بتطوير الملاحه؟

¹⁴⁸ على الرغم من نتيجة التواصل حول هذا الموضوع المرجعي، يمكن للفاعلين تنفيذ أفعال تؤثر عليه؛ مثلا، تعجبك هذه الفطائر؟، "نعم"، إذن "تناول واحدة منها"؛ لذا فالفعل الذي قلل من عدد الفطائر في العلبه، هو فعل تنفيذي لأكل فطيرة وليس فعلا تعبيريا للإشارة إلى الفطيرة.

¹⁴⁹ على الرغم من أي مادة أخرى (إذا كان الموضوع المرجعي مادة) يمكن أن يستخدم حاملا تعبيريا لتواصل آخر حول موضوع مرجعي آخر، مثل ما تم في العنوان (1) في نفس هذا الفصل.

¹⁵⁰ يجب تمييز الاستعمالات التطبيقية للمواضيع عن التواصلية، فيمكن للمغناطيس أن ينشئ العلاقات التطبيقية الآتية مع مستعملي المنتج،:

- أ) مادة خام للحصول على الحديد، بإخضاعه إلى نار شديدة؛ وهذا النوع من الاستعمال بهم العلوم التكنولوجية.
- ب) أداة لتصميم المعدن في شكل إبره للاستفادة من التوجه المغناطيسي للبوصله؛ وهذا الاستعمال بهم التكنولوجيا.
- ت) باعتباره سلعة تقايض كمية معينة من المنتج بكمية أخرى معادلة من منتج آخر؛ مثلا، المال باعتباره نمط التعامل؛ وهذا الاستعمال بهم العلوم الاقتصادية.

كل طرق استعمال المغناطيس ليست تواصلية ولا حتى مرجعية، بحيث تؤدي فيها العلاقة بين الإنسان وهذا المعدن إلى امتلاك الشيء، أو تحويله؛ وهذا الشيء يتأثر بواسطة علاقة الإنسان على مستوى مادته أو طاقته. فالاستعمالان (أ و ت) يؤثران على مادة المغناطيس؛ أما الاستعمالان (ب و أ) فيؤثران على الطاقة التي ترتبط بالمغناطيس، والذين يستخدمون الطاقة التي يمتلكها الشيء (ب) أو يحولونه إلى الطاقة التي توجد في المصدر (أ).

الموضوع، وسيحصل الآخر على المعلومة التي تتعلق باختبار أو معالجة الموضوع نفسه؛ ولكن مثل هذا الإجراء يفترض اللجوء إلى الاشتغال المباشر على المادة، لذلك لا يعتبر التجريب شكلا أشكال من التواصل، لأنه لا يؤدي لأية معلومة من لدن الفاعل الذي يتناول الموضوع عبر مادة تعبيرية أخرى.

■ بدلا من ذلك يمكن أن أجيب الآخر عن طريق التواصل بتقديم وصف سهل عن خصائص المعدن، وربما يرافق هذا الوصف إظهار المغناطيس للآخر، ولكن التواصل لا يحتاج لمرافقة هذا العمل. في هذه الحالة، يمكن تدخل في التواصل الذي يقدم المعلومة للآخر حول الموضوع بواسطة تعابير لغوية.

- يعتبر إظهار الموضوع وفعل شيء ما بهذا الموضوع نشاطا ينتمي إلى مجال الممارسات التنفيذية؛ بل في بعض الأحيان يعمل لتحقيق التواصل، لكنه ليس بتواصل للسبب نفسه.

- في المقابل، يعتبر وصف الموضوع والإشارة إلى شيء من خلال الموضوع المرجعي نشاطا ينتمي إلى مجال التواصل؛ فغالبا ما تعمل المعلومة التي يتم الحصول عليها من خلال الموضوع عبر التواصل، وتفرض على الفاعلين القيام بأشياء تتعلق بتلك المواضيع؛ لكن الإشارة إلى شيء ما لا تعتبر ممارسة تنفيذية، بل تواصلية للسبب نفسه.

لا يتواصل الفاعلون حتى عندما يكون الموضوع عبارة عن شيء مادي وموجود باستخدام المواضيع المرجعية، بل من خلال المواضيع المرجعية.

عندما يرتبط الفاعلون في ما بينهم باستخدام المواضيع المرجعية، يتحول مسار التواصل إلى مواضيع أخرى للتبادل المادي، ونوضح هذا الاختلاف بمثال جديد:

❖ يقول بائع المعادن: "أعطني عشرة أورو مقابل الحجر المغنط"، فأجيبه: "موافق على ذلك". أنا في هذه المحادثة فاعل في المسار التواصلية من خلال المال والبضائع؛ ولكن عندما أمنح للبائع عشرة أورو، فهو يسلم لي الحجر، إذن أنا فاعل في مسار التبادل التجاري الذي ربما قد تم تحضيره أو تشكيله من قبل بواسطة المسار التواصلية السابق، لكن الأمر لا يتعلق بتواصل.

يكون هذا التمييز بين التبادل المادي والتواصلي ضروريا فقط عندما يكون الموضوع المرجعي أيضا موضوعا ماديا له جسد يجعل منه موضوعا يتوفر على قيمة الاستعمال وقيمة التبادل، وعندما يكون الموضوع المرجعي كائنا عاقلا يتم استبعاد التبادل المادي بطبيعة الحال. وبالتالي، إذا ما سألني أحد، "ماهي الفضيلة؟" أو "ما هي القيمة؟"، لا يمكنني، كما هو الحال في السؤال عن المغناطيس، اللجوء إلى إظهار الموضوع المرجعي له ¹⁵¹.

ويوجد، في الأخير، استعمال غير تواصلي للأشياء أو المواضيع التي تتوفر على أهمية كبرى من أجل التواصل، عندما يتم استعمالها كأدلة للتواصل من خلالها.

❖ مثلا، يؤكد أستاذ مادة الفيزياء أن أي قطعة من المغناطيس تجذب جزيئات الحديد؛ ويستخدم الموضوع (الحجر الممغنط) من أجل إظهار حقيقة تأكيده (على الأقل في ما يتعلق بتلك القطعة المعدنية التي استعمالها الأستاذ كي تكون معلومته صحيحة).

عندما يُستعمل الموضوع كاختبار، فالذي يتم اختباره هو الاسناد المناسب - أو الصحيح - للإشارة إلى الموضوع؛ وبالتالي، فالعلاقة بين إظهار الأشياء والمواضيع تعني مسبقا وجود علاقة تواصلية أو، بمعنى آخر، لكي يستخدم الموضوع باعتباره اختبارا تجريبيا يجب أن يستعمل مسبقا كموضوع مرجعي للتواصل.

(ب) العلاقات بين الكيانات التي هي كائنات إنسانية

يمكن للكائنات الإنسانية أن تكون مرتبطة عن طريق التواصل كفاعلين، ووسطاء أو متدخلين ومواضيع مرجعية.

1. علاقات داخل نظام التواصل

يمكن أن يتفاعل الأب مع ابنه باستعمال الوظائف التواصلية الآتية:

¹⁵¹ قد يمكن الإشارة إلى مثال فعل "الموهبة" أو "الشجاعة"، لكن الموضوع المرجعي قد يرتبط ويمكن كذلك القيام بشيء يعبر عن موهبة أو شجاعة، إذن في هذه الحالة يمكن الانتقال من التواصل إلى الفعل التنفيذي.

ك دور الآخر في العلاقة التواصلية، مثلا، أثناء المحادثة. فقد تم تخصيص الفصل 5 لوصف من هم هؤلاء الفاعلون؛ لذا يجب تمييز هذه المواقع التواصلية التي يشغلونها أولئك الفاعلون أنفسهم في التفاعلات الاجتماعية، فمن الممكن داخل المجموعات أن تظهر: (أ) باعتبارها خصما (أو منافسا في علاقة تطبيقية عاطفية أو اجتماعية)؛ (ب) باعتبارها معارضا (تشارك في العلاقة التطبيقية العاطفية أو الاجتماعية)؛ (ج) باعتبارها شاهدا (مساعد سلبي في علاقة تطبيقية، عاطفية أو اجتماعية).

2. العلاقات التي تؤثر على النظام التواصل من خلال النظام الاجتماعي

- يمكننا نحن البشر أن نتدخل كوسطاء في المسار التواصل، مثلا، عندما يقرأ الأب حكاية على الابن؛ وكمراجع للتواصل، مثلا، عندما يمنع الأب ابنه من التكلم وفمه مملوء.

- يمكننا نحن البشر التأثير على نظام التواصل من خلال النشاط الذي نقوم به في النظام الاجتماعي (سواء كمراجع أو كوسطاء)، وفي الآن نفسه، يمكن أن تشكل جزءا من نظام التواصل باعتبارنا فاعلين، ومن الممكن أيضا أن نقوم بوظيفة المواضيع المرجعية للتواصل؛ لذا سيكون، في هذه المراحل لتحليلنا النظري القارئ والقارئ في حالات يمكنهما التمييز بين مختلف هذه الوظائف في أي ممارسة تواصلية.

تبقى الدراسة المفصلة لهذا الصنف من العلاقات البين نظامية خارج هذا الكتاب، لذلك قد تم تطويره بشكل مفصل في نصوص أخرى للكاتب¹⁵².

3. العلاقات المرجعية

يمكن للتواصل أن يشير إلى أي كائن بشري باعتباره موضوعا مرجعيا، مثلا، عندما يتواصل الابن مع أبيه أو فاعل آخر.

4. الوظائف الحقيقية

تقوم الكائنات البشرية بوظائف حقيقية لا تتوفر عليها الحيوانات، لذا فاللجوء إلى شهادة أناس آخرين يتطلب بشكل أساسي التواصل وتوسيع معايير المؤسعة التي تشير إلى المسار التواصل.

يشترك شخصا ما في التحقق من التواصل بطريقة من هذه الطرق:

¹⁵² مانويل مارتين سيرانو، أعمال من خلال مناهج أخرى للبحث في العلوم الاجتماعية؛ الإنتاج الاجتماعي للتواصل.

▪ بوصفه "متحكماً"، عندما يرجع الابن، في المثال السابق، إلى شهادة الأب للنيل صحة المعلومة من خلال أي موضوع مرجعي.

▪ وباعتباره مختبراً، عندما يكون والده الموضوع المرجعي للتواصل حيث يشارك الابن، فتظهر المعلومة من خلال الأب عن طريق اللجوء إلى المرجع، وكذلك عندما يبرر الابن تأكيده أمام طفل آخر أن والده يتوفر على شارب.

يختبر الشخص حقيقة المعلومة التي تمت الإشارة إليها، مثلاً، إذا ما أكدت أننا البشر نتوفر على خمسة أصابع في كل يد، فيكفني أن أظهر يدي لإثبات هذا التأكيد، لكن تستخدمنا الأشخاص أيضاً كبداية للاختبار من خلال أي موضوع مرجعي في جودة التحكيمات عندما لا يمكن اللجوء إلى الموضوع المرجعي حول من يتواصل لسبب من الأسباب.

التأكيد، مثلاً، على أن "الماء يتكون من جزئيين من الهيدروجين وجزء واحد من الأوكسجين" يمكن التحقق منه من قبل كل واحد منا عن طريق التجربة حيث يتم في السائل المرجعي فصل مكوناته، لكن نقبل في غالب الأحيان أن تلك المعلومة يتم تخويلها عن طريق تأكيد أستاذ مادة الكيمياء؛ لذا، إن الامتياز الذي يمتلكه الصنف الإنساني بالحصول على المزيد من المعرفة من أي فرد قد يكتسبها من خلال تجربة خاصة طوال حياته، يكمن على وجه الخصوص، في قدرته على الاستفادة من معرفة الآخرين بسلطة واثقة؛ لذلك يعتبر هذا الإجراء المتعلق بالتحقق الإنساني أساس الثقافة.

(ج) العلاقات مع الكيانات المنطقية أو المجردة

يمكن للكيانات المنطقية أو المجردة أن تشارك في التواصل كمعطيات مرجعية، ومواضيع مرجعية وتجارب.

1. علاقات داخل نظام التواصل

يمكن للكائن المجرد "جيداً" أن يتكون في نظام التواصل على مستوى تمثلات أي موضوع مرجعي الذي تنسب له هذه الجودة، أو كتمثل للجودة نفسها التي ستكون موضوعه المرجعي.

2. العلاقات المرجعية

يقوم "الجيد" بوظيفة الموضوع المرجعي عندما يتم من خلاله إنشاء التواصل، مثلا، عندما تسأل: ماذا فهمت من "الجيد"؟

3. العلاقات الأساسية ذات الطابع الحقيقي¹⁵³

يمكن استخدام "الجيد" كتجربة لحقيقة التواصل من خلال الموضوع المرجعي الجيد، مثلا، عندما يقول المتواصلون "لنر ما هو الجيد"¹⁵⁴. وباعتباره جيدا، في حالة الكيان المجرد، لا يكون له وجود مادي، وأن "رؤية من هو" لا تتم تليبيتها بتجربة حسية ناتجة من ملاحظة جيدة ومشتركة من قبل فاعلي التواصل.

تتكون "رؤية من هو" (الكيان المجرد) من إنشاء اتفاق بين الفاعلين، على مستوى ميتاتواصل حول استعمال "الجيد" الذي يعتبر مناسباً، كما يمكن لهذا الأخير الاعتماد على الاستعمال اللساني، والمعرفي، والأخلاقي أو التواصلية.

يعتبر اتفاق الميتاتواصل خارج التواصل، بالرغم من أن الوصول إلى تحقيقه يكون من الضروري الاعتماد على تواصل جديد يعتبر الموضوع المرجعي الجديد فيه هو التطبيق المناسب للجيد؛ ومن الممكن أيضا لهذا التواصل الجديد أن يحتاج إلى اتفاق آخر ميتاتواصل (يهدف إلى الاستقرار على أن الاستعمال الذي يعتبر مناسباً عن الجيد فهو مناسباً)، وبهذه الطريقة وكما هو ممثل في الجدول 1.20، يبدأ المسار غير المحدود للرجوع إلى ت 1، وت 2، وت 3... ت.

يتوقف هذا التجديد فقط عندما يبلغ الفاعلون لإنشاء اتفاق مرضيا حول الاستعمال الصحيح للمرجع المجرد، إذ يفهم بشكل سهل أن النقاشات حول المواضيع المرجعية مثل التي تعمل كمثال، تكون غالبا غير منتهية؛ كما يشتغل هذا التجديد لإبعاد المواقع حتى تدخل كيانات مثالية جديدة مجردة على نحو متزايد.

¹⁵³ توجد استعمالات أساسية أخرى لكيانات عاقلة أو مجردة، ومن بينها:

(أ) الاستعمال الأخركيبي، الدلالي أو البرغماتي الذي يهتم علوم اللغة.

(ب) صفة تعيين بعض الكيانات الحقيقية أو المجردة وخصائصها أو سلوكها من خلال الذي يصنفها أو ينظمها، إنه الاستعمال الذي يهتم نظرية التواصل.

(ت) تعيين الموضوع لتحقيق ما يتم نسبه إلى بعض الكيانات الحقيقية أو المجردة، فهو استعمال يهتم نظرية القيم.

¹⁵⁴ إن التعبير "نرى" فهو معتاد، لكن غير صحيح الإشارة إلى كيان غير مرئي؛ وثمة هناك صياغة أكثر دقة "نقارن ما لكل واحد منا يفهم من أجل "الجيد".

الجدول 1.20			
	(ت) التواصل	(م) المرجع	(تج) التجربة
المستوى 1	(ت1) من خلال	(م1) جيد	(تج1) إنشاء ميتاتواصل الذي يعتبر تطبيقاً "للجيد".
المستوى 2	(ت2) من خلال تطبيق الجيد كما تم الاستقرار عليه في (تج1).	(م2) الاستعمال المناسب لجيد بالنسبة إلى (تج1)	(م2)
...
المستوى ج	(ت ج) من خلال الاستعمال ل (تج ن 1)	(م ج) الاستعمال المناسب ل (م ج ل) ل (تج ج 1)	تتشئ (تج ج) ميتاتواصل إذا ما كان الاستعمال الذي تم إنشائه (م ج 1) مناسباً ل (ت ج 1).

بالرغم من ذلك يوجد صنف معين من الكيانات المجردة لها استعمال مناسب راسخ بشكل جيد، فهي تلك التي وصلت إلى مكان المواضيع المرجعية للتواصل العلمي، مثلاً، يعتبر الموضوع المرجعي الأنتروبي كيانا عاقلاً يُختبر بواسطة اتفاق ثابت على صيغة رياضية.

يعمل هذا الصنف من المراجع المنطقية بالاختبار لأن استعمالها يكون مشفراً، وأن هذا الرمز يصبح مقبولاً من قبل الجميع، وفي الحالة التي لا يعرف الفاعلين الاستعمال المشفر للموضوع المرجعي، ستأثر بالتحقق من صحة تواصله، لكن لا يتغير معيار الاختبار المقبول على مستوى التواصل العلمي؛ وتكمن بالضبط الصعوبة التي يقدمها الاستعمال كاختبار للجيد في غياب التشفير الأحادي الدلالة المشترك اجتماعياً، لذا تعتبر في هذه الحالة التجربة الوحيدة التي يمكن للفاعلين تشاركها حول الموضوع (المجرد) نفس التمثل لذلك الموضوع. وأن الاستعمال الحقيقي لهيئة مجردة هو دائماً معرفي (رغم أن تجريب

الموافقة لمثل هذا الاستعمال المعرفي يجب اختباره في تأثيراته التطبيقية)، ولكي يصل المتواصلون إلى هذا الاتفاق المعرفي فيكون ضروريا اللجوء إلى التواصل.

قد يكون هذا التواصل يشير إلى مرجع عاقل تم ابتكاره من قبل فاعلي التواصل، مثلا، إذا اقترحت الأنا أن "نتكلم عن السنافر..."، والآخر يجيب، "أن السنافر تتميز بالتسنفر"، ثم يكرر الأنا، "ماذا فهمت من تسنفر؟" فبقدر ما يتم توليد تعارف التي يحتاجها الاستعمال الصحيح (في إطار هذه اللعبة التواصلية) للمعطيات المرجعية، يتم ابتكار كيان مثالي يعمل بالتجربة؛ ومن ثم يبدأ المسار في غياب رمز الاستعمال المعمول به، ويصبح مغلقا بشكل أحادي إذا ما تم اقتراحه من قبل الفاعلين بشكل فعال، مثلا، إذا ما وصلوا إلى الاتفاق أن السنفور هو عبارة عن قزم أزرق الذي يمكنه فقط تصريف الفعل "سنفر"، فهذا المثال يبين أن في التواصل نفسه عبر الكيانات العاقلة (وخصوصا في هذا الصنف من التواصل)، يكون في حالات من ابتكار الاختبار¹⁵⁵.

د) العلاقات مع الكيانات التي تعتبر أحداثا

يمكن للحدث أن يرتبط بالتواصل باعتباره موضوعا مرجعيا أو اختبارا.

1. العلاقة المرجعية

تتوفر العديد من التوصلات على الفعل كموضوع مرجعي .

يتكون الفعل عن طريق تغيير العالم ومواضيعه في المكان و/أو الزمان.

تتجلى هذه التغييرات في شكل حيث تظهر أثناء كل لحظة الأشياء، والمواضيع، والأشخاص، والمؤسسات ثم الأفكار أو أي موضوع مرجعي آخر ممكنا.

قد تؤثر تغييرات المحيط على الأفراد، وعلى أعمالهم ثم على تمثلاتهم، لهذا السبب يخضع الفعل إلى مراقبة مستمرة من قبل كل شخص، ومن قبل المؤسسات الاجتماعية؛ وأن معرفة المحيط لا تتيح تغييره، وإذا ما كان من الممكن تحويله، فهذه المعرفة توضح الطريقة التي يجب علينا تغيير أنفسنا من أجل تأمين بقائنا على قيد الحياة، لذا يحتوي التقييم الدقيق لحالة المحيط على أهمية كبرى بالنسبة إلى كل

¹⁵⁵ ما تم اختباره بواسطة التواصل أنه يوجد تمثّل مشترك ن قبل الأنا والآخر، الذي يمكن في شرط الكيان العاقل أن يتم معالجته كأي موضوع مرجعي آخر؛ في هذه المناسبة لا يتم التعمق بتفصيل في المشاكل المنطقية التي تثير الكيانات المثالية في علاقتها مع نشأة التواصلية للتمثلات.

كائن على وجه الخصوص، وبالنسبة إلى المجموعة، سواء كان إنسانا أو حيوانا؛ السبب الذي من خلاله تتوفر على جزء كبير من التواصل الخاصة والعامة عن طريق الموضوع المرجعي للحدث.

يحدد التعقيد التقني الذي تكتسبه العلاقات الاجتماعية أن المحيط الذي يؤثر علينا يصبح في كل مرة على نطاق واسع، (مثلا، يمكن للتغيير السياسي لمنطقة جغرافية بعيدة ما كالشرق الأوسط أن يحرمننا من البترول). فهذا السبب سيتضمن التواصل، يوما بعد يوم، مواضيع مرجعية صادرة عن الفعل في كلما تتزايد في العدد والنوع.

يعتبر تقنين البنزين حدثا كنتيجة لحروب الدول الناتجة، وموضوعا مرجعيا للتواصل الذي يتعامل بالفعل، وذلك عندما يكتب الصحفي في الجريدة حول تقنين الوقود¹⁵⁶.

2. العلاقة الحقيقية

يعمل الفعل عبارة عن اختبار حقيقي للمعلومة من خلال الفعل (مثلا، عندما يتيح النقص في البنزين - يتضح في بعض الدول بواسطة توزيع البطاقات التموينية - ظهور أنه صحيحا التأكيد على أن البنزين مقننا).

يجب التمييز بين ثلاثة أنواع من الأفعال من أجل تحليل عمل الفعل بوصفه اختبارا:

2.1. الفعل التام والقابل للتكرار.

2.2. الفعل التام وغير القابل للتكرار.

2.3. الفعل غير التام بعد.

2.1. الفعل التام والقابل للتكرار

يقدم في الأول هذا الفعل فرص متكافئة التي تقدمها المواضيع والأشياء التي تعمل كاختبار، لدرجة أن تكرر الفعل ينتج نفس الحالة حيث يقع الفعل لأول مرة.

¹⁵⁶ توجد استعمالات أخرى ممكنة للحدث، من بينها:

(أ) باعتباره المحفز الذي سيحدد في الفاعل استجابات معينة؛ فيمكن التفاعل مع تقنين شراء أو بيع البنزين في السوق السوداء ؛ لذا فهذا الاستعمال يهتم علوم السلوك.

(ب) باعتباره تأثير يفسره وجود أحداث أخرى لأشخاص آخرين أو أشياء أخرى، أو وجود أي كيان آخر حقيقي أو عاقل أو كسبب لآثار أخرى؛ فهذا الاستعمال يهتم العلوم التاريخية؛ مثلا، يمكن للفاعل أن ينسب الأزمة الحالية للطاقة عدم عقلانية الأجيال السابقة في الاستعمال للمواد الخام.

يُستعمل الفعل باعتباره اختباراً عندما أُشرتْ إلى اخفاقات السنة الماضية بالتأكيد على أن " الذين تم حرقهم في 19 مارس في مدينة فلينسيا الاسبانية، فهي عبارة عن عادة"، والإشارة إلى 19 مارس المقبل من أجل الاختبار. (من الواضح أن الاحتفال في السنة المقبلة يمكن أن يتوقف أو يتغير التاريخ).

2.2. الفعل التام وغير القابل للتكرار

من الممكن في هذه الحالة أن يرتبط الاختبار الذي تم شرحه بالمراجع المثالية.

مثلاً، عند غرق سفينة التيتانيك، كان هناك صحفيين الذين قاموا بتقرير للأحداث، لذا لا يمكن للمعلومة التي تم التوصل بها من خلال هذا المرجع أن تظهر باللجوء إلى غرق جديد لسفينة أخرى مشابهة وفي ممر مشابه.

2.3. الفعل غير التام بعدُ

يمكن اختبار حقيقة أو زيف التأكيد أو الفرضية حول الحديث بالرجوع إلى تأكيده في المستقبل.

لقد أكد، على سبيل المثال، ماركس منذ 1860 أن المجتمع الرأسمالي في كل أزمة دورية لاحقة، يتمركز على الرأس المال في عدد قليل من المؤسسات (أبنائك، تعددة الجنسيات ... إلخ.)، ثم كتب كذلك، وكنتيجة لهذا التمركز والتغيرات في علاقات الإنتاج، أن التنظيم الاجتماعي في المستقبل سيكون اشتراكياً؛ إذن، لقد تم التحقق من الجزء الأول من التأكيد في التاريخ؛ وأن الجزء الثاني من الفرضية الماركسية يجب عليها انتظار التاريخ لقبولها أو رفضها. يفهم، إذن، أن هذا الصنف من الفرضيات يحتاج إلى اختبارات موضوعية ليست في الواقع الحالي بينما في الواقع المستقبلي¹⁵⁷.

3. مواضيع الاختبار التي تعتبر مراجع حاضرة والنائبة عنها

يعتبر التواصل طريقة متميزة يستخدمها جنسنا البشري لتحديد موقعه داخل العالم، باستبدال التجربة على الكيانات بالمعلومة التي نتلقها من الآخرين حولها؛ فيتم اكتساب اختبار حقيقة التواصل من خلال معالجة الموضوع المرجعي. فهذا هو الإجراء الذي نتقاسمه مع الحيوانات (التعلم أو الاختبار عن طريق التجربة أو الخطأ)، لكن يتوفر جنسنا في هذا المورد على نموذج غير تام (إن المواضيع المرجعية التي لا تعتبر أشياء ولا سلوكيات مادية فهي ليست قابلة للمعالجة).

¹⁵⁷ من هنا يتطلب إخفاق معيار الحقيقة والموضوعية الوضعية، إلى إظهار فوري لأي نظرية، الأمر غير الممكن في نظريات ذات الطابع التاريخي.

أما الاختبار فهو قابل للاستبدال بتحقيقات تعتمد على تجربة الآخر، وتستعمل الحيوانات العالية المورد الذي تم ابتكاره فقط بدرجة صغيرة ودائماً في إطار التقليد. فهذا لا يعني أن المعلومة التي تم الحصول عليها من الآخرين تكون بالضرورة حقيقية، ولم يعد من الضروري الرجوع إلى التجربة نفسها من أجل تأكيد حقيقة التواصل.

تجدر الإشارة إلى أن منهجية التحليلات السابقة في تطبيق التواصل الإنساني تستعمل كاختبار:

(أ) الموضوع المرجعي نفسه من خلال الذي يتواصل

❖ مثلاً، عندما أؤكد في التواصل حول نسخ هذا الكتاب أنه يتوفر على عدد معين من الصفحات، وموضوعه الخاص يؤكد المعطى الذي تحققتُ منه وأن القارئ والقارئة يتواجدان في موقع الاختبار لأنهما يتيحان لي موضوع آخر مشابه.

(ب) الكيان المماثل للمرجع الذي يتواصل (شيء آخر، وشخص آخر، وكيان عقلي آخر ثم الفعل الآخر الذي يمتلك نفس ميزات المرجع).

❖ ذلك عند حضور الابن (في محادثة متعلقة بالأب) أقول أن له نفس لون شعر أبيه.

(ج) الكيان العاقل ذو التمثل المثالي الذي يشمل أو يحدد صفات الموضوع المرجعي؛ لذا يمكن لكل موضوع مادي أو غير مادي، وكل حدث، استبداله على مستوى التواصل بالإشارة التي يحددها، وبشكل موازي يمكن لأي موضوع مرجعي (موجود أو غير موجود، حقيقي أو غير حقيقي) استبداله في العلاقة المرجعية بموضوع آخر يمثله.

لذلك ليس من الضروري الحصول على المغناطيس الحقيقي لإلقاء محاضرة حول هذا المعدن، بالقدر الذي يتوفرون الحاضرين "في الاعتبار" على كيان مجرد يضم ميزات الذرة والجزئية ... إلخ، التي تتميز في المادية عن غيرها من هذا المركب. ففي غياب الشخص المحبوب يمكن تمثله والتواصل حول لون عينيه، بقدر ما أن الفاعلين يتشاركون صورة ملونة في ذاكرته؛ إذ يتم التواصل أيضا حول جودة النظرة (مثلا، عذبة) إذا ما كان المتواصلون يتقاسمون التمثل التقريبي لما هو مقصود في ثقافتنا بجودة كيميائية تم تطبيقها على وظيفة بيولوجية.

يكون في كل هذه الحالات موقع الكيان الذي يعمل بالموضوع المرجعي مشغولا من قبل كيان آخر مثالي، ذلك من خلال ما تعمل عليه كل المحادثات التي تمت الإشارة إليها في نفس عنوان هذا الفصل.

كما يمكن في التواصل أن تكون المواضيع المرجعية حاضرة أو غائبة لاختبار حقيقة التواصل (ضرورية أو ظرفية).

تقوم الكيانات المماثلة للموضوع المرجعي، وتلك التي تعتبر تمثالا مثاليا أو عقليا (لموضوع مرجعي مادي أو مثالي) بوظيفة المراجع النائبة. والمقصود من هذا القول إن الكيان المرجعي في التواصل حول الذي يتواصل غير قابل لاستعمال أغراض حقيقية.

لذلك يجب إبراز الأهمية التي تتوفر عليها قدرة الإنسان التواصلية حول المواضيع المرجعية الغائبة من خلال المراجع النائبة؛ فمن المعتقد أن الحيوانات العليا قادرة فقط على فعل الشيء نفسه في ما يتعلق ببعض السلوكيات التي تشير إليها عن طريق التعبير المماثل، بحيث إن هذه الميزة التي يمتلكها جنسنا البشري، تقدم لنا القدرة على استيعاب التعلم من الآخرين كما لو كنا قد اكتسبناها من خلال تجربتنا الخاصة؛ ومن أين أتت، والكيفية التي تمت الإشارة إليها، والطابع الآخراكي ثم جيلا بعد جيل من معرفتنا.

يعمل التواصل في هذا الصدد بالنسبة للإنسان كنظام بديل للتجربة الشخصية التي تتيح له معرفة من خلال ما لا يعرفه بنفسه، والاعتماد على ما لم يختبره بنفسه، واللجوء إلى تجربة الآخر. بحيث إن هذه التجربة تم نقلها شفويا ومتأخرة من حيث الآخراكم على مستوى المنتجات التواصلية المختلفة التي تم اختراعها من أجل أرشفة الاكتسابات التطبيقية، والعلمية ثم الثقافية لجنسنا البشري؛ فهي تعتبر دعامات مثل الكتاب، والقرص، والشريط المغناطيسي، وشريط الفيديو ثم الأقراص المدمجة والرقمية... إلخ.

يقدم الفصل الموالي تحليل الاختلافات الموجودة بين التواصل حيث يكون ممكنا القيام بالفحص من خلال الموضوع المرجعي وآخر حيث تكون هذه الطريقة من الفحص غير ممكنة.

الحقيقة والكذب في التواصل الإنساني

1. موضوعية، ومدلولية وصلاحيّة المعطيات المرجعية

(أ) المقاربة المنهجية للتحليل

يمكن للمعطيات المرجعية أن تقدم فقط المعلومات الجزئية حول الموضوع المرجعي الذي يرتبط بالتواصل، لذا يفترض هذا التحديد أن لا وجود لتواصل تام إذا كان الهدف منه توفير كل المعرفة الممكنة حول الموضوع المرجعي.

يطرح عدم اكتمال، وجزئية ضرورة التواصل، سلسلة من التساؤلات: هل يمكن للتواصل أن يتيح الموضوعية حول العالم؟ وكيف نحن واثقون من أن المعلومة التي تقدمها معطيات الموضوع المرجعي هي ذات دلالة؟ ثم بأي طريقة يمكن تأمين أن التواصل حقيقي؟

تتوفر هذه الأسئلة، في شكلها المتضارب، على أهمية تطبيقية كبرى، لذلك تعتمد علاقتنا الشخصية، والعلم، والحياة اليومية، على افتراض ضمني بأن التواصل يكون موضوعي، ودال ثم حقيقي.

تطرح المشكلة بعبارات دقيقة للتحليل المنهجي، تساؤلات تحتاج إلى أجوبة وهي كالاتي:

1. كيف (لا) يمكن للمعطيات المرجعية أن تقدم معلومة موضوعية حول المرجع الذي تغيره؟ وماذا تعني "الموضوعية"؟

2. كيف (لا) يمكن للمعطيات المرجعية أن تقدم معلومة دالة حول المرجع الذي يمكن أن يأخذ بعين الاعتبار مجموعة من الآراء؟ وماذا تعني "الدلالة"؟

3. كيف (لا) يمكن للمعطيات المرجعية أن تقدم المعلومة الحقيقية للفاعلين الذين يتابعون أهداف مختلفة حول الموضوع المرجعي الذي يرتبط بالآخرين؟ وماذا تعني "الحقيقة"؟

سيتم استعمال مثالا حقيقيا من أجل تبسيط التحليل، قد يكون الموضوع المرجعي للتواصل تظاهرة تعقدها الأحزاب السياسية، فتخبر التلفاز عن هذا الفعل للمشاهدين بإدراج في معلوماتها برنامجا مصورا أثناء

حدوث المظاهرة؛ لذا تقدم المعطيات المرجعية التي تظهر أثناء البرنامج "لمحة عامة حول رئيس المظاهرة وشعاراته"، و"مكان المراقبة" حيث وضع المشغل الكاميرا أمام الموضوع المرجعي، فموضع هذه الكاميرا يسمح بالحصول على معلومة حول نصوص الشعارات، وتحركات المتظاهرين الموجودين في الصفوف الأمامية للتظاهرة، إلخ؛ ويستثنى "موقع المراقبة" الحصول على معطيات أخرى بديلة، إذا تم، على سبيل المثال، وضع الكاميرا في مروحية، وتصوير عبر الجو المظاهرة، فيتم التقاط معطيات مرجعية مختلفة. فمن خلال هذه المعطيات التي تم التقاطها عبر الجو لا تصل المعلومة حول الشعارات أو القيادات، لكن في المقابل يمكن الإخبار عن مدى طول وكثافة المظاهرة. وبرنامج التصورات يكون مرفوقا بالوسيط الذي يضيف معطيات مرجعية أخرى حول القصة، حول تلك التي نشير إليها في الوقت المناسب في النص. لذلك إن القارئ أو القارئة سيران بسهولة القراءة إذا ما تم جمع التحليلات التي ستأتي في الجدول 1.21.

2. تحليل الموضوعية

1.2. مفهوم الموضوعية

تعتبر "الموضوعية" طريقة للإشارة إلى أن المعطيات المرجعية يمكن أن تكون منسوبة بشكل شرعي إلى المرجع الذي حددته.

تكن مشكلة تحليل الموضوعية في الاستقرار على أنها "نسب مشروع".

- تعتبر في المثال الذي قد برز كل من الصور الأمامية وكذلك التي تم أخذها من الجو، معطيات مرجعية موضوعية، لأن بعضها الآخر يأتي بشكل مباشر من التعبيرات المحصل عليها بمساعدة الموضوع المرجعي نفسه (المظاهرة).
- يضيف وسيط التواصل للمعطيات المرجعية المتوفرة من خلال الصور، معطيات أخرى متوفرة من قبله أثناء الكلام. يحكي أن "المظاهرة بدأت في العاشرة صباحا وانتهت في الثالثة بعد الزوال؛ ثم جالت في الطريق الموجود بين هذا المكان وذاك المكان الآخر. تأتي هذه المعطيات مباشرة من الفعل المرجعي (بطبيعة الحال تكون دقيقة) ويمكنها أن تكون منسوبة بشكل شرعي للموضوع المرجعي؛ ومن ثم فهي أيضا معطيات موضوعية.

■ يربط الوسيط هذه الأفعال بأخرى مماثلة، لافتا الانتباه إلى خصوصيات نفس الشيء. تقديم، على سبيل المثال، المعطيات المرجعية التالية في الكلام، "لم يكن في أية لحظة على طول المظاهرة وجود فعل القوة العمومية، ولم يتم تسجيل أي حادث". في حال أن هذه المعطيات هي دقيقة فيمكنها أن تكون مستندة بشكل شرعي من المرجع¹⁵⁸، لذلك يمكن اعتبار أنها معطيات موضوعية.

كيفما كان معيار استعمال المعطيات المرجعية الذي اقترحه الوسيط في التواصل، فطابع المعطيات الموضوعية فهو غير مشكوك فيه؛ لذا لا تبدو موضوعية هذه المعطيات متأثرة بالممارسة العلمية التواصلية، أي، بالأهداف التي اقترح تحقيقها الأنا وألتر بالاعتماد على التواصل من خلال هذا الموضوع المرجعي.

تنتج موضوعية المعطى عن الذي يصدر عن الموضوع المرجعي؛ والذي يمكن أن يكون منسوبا للموضوع المرجعي؛ أو الذي يمكن أن يستند على عدم امتلاك الموضوع المرجعي، والشروط التي تشير إلى المرجعية، أي، الإسناد الشرعي.

تعتبر موضوعية المعطيات المرجعية واحدة من الصفات التي تعتمد على المرجعية، وبالتالي، فهي مستقلة عن الاستعمال الذي تقوم به تلك المعطيات أثناء التواصل.

2.2 الموضوعية والوساطة

لا يعني أن موضوعية المعطيات التواصلية، بأي حال من الأحوال، يمكنها أن تحصل على تلك المعطيات دون مشاركة سلسلة من الوسطاء التكنولوجية والمهنية.

- لقد تم جمع المعطيات المرجعية المطابقة للصور الملتقطة للتظاهرة من قبل الفريق الذي اختار الموقع الذي يبدو مراقبا للتظاهرة ثم لحظة التصوير؛ فيوصلها إلى المتلقي بواسطة الكاميرا ذات عدسة، وتعمل بتحديد المساحة الحقيقية التي تأتي منها المعطيات؛ ربما يتم طبع الصور في شريط يعالج تحديد الحد الأدنى للوقت الذي ستنتهي فيه لكي تكون المعطيات متاحة.

¹⁵⁸ إن إسناد الجودة بخصوص الموضوع يمكن أن يشير إلى عزو وعدم عزو الأولى بخصوص الثانية.

إن حتمية وجود الوساطة في التواصل، يعني أنه عندما يتم الحديث عن "موضوعية المعطيات المرجعية" يجب افتراض تدخل بعض الأدوات وفاعلين آخرين؛ فإذا تم تفسير "الهدف" بـ "دون وسيط"، فالموضوعية الوحيدة الممكنة هي الاتصال المباشر والشخصي بالموضوع، لكن تعتبر هذه العلاقة مع الموضوع استعمالاً أو تجربة، بحيث الاستعمال يشير إلى التحول والتجربة إلى الاختبار. وفي كلتا الحالتين، لم يعد الموضوع مرجعاً والعلاقة لم تعد هي أيضاً تواصلية كما تم توضيحه في الفصل السابق.

مع ذلك فإن الوساطة هي قابلة للتصرف فيها من أجل تحريف مرجعية المعطيات بخصوص الموضوع المرجعي.

- مثلاً، يستخدم الوسيط عدسة تحريف الشكل المطبوع في الشريط إلى وجوه بشعة أو وحشية، وبعد ذلك، عند مسار التركيب يغير الوتيرة، وشكل المتظاهرون الذين يتحركون بطريقة مجازية أو مجنونة. فتتكرر أيضاً بعض اللقطات ويتوقف السرد السمعي البصري من أجل بروزها، مثلاً، يتم إعادة إنتاج صور متظاهر يصرخ ويشتم عشر أو اثنتي عشر مرة.

يتحول الوسيط، في كل هذه الحالات، إلى متدخل مقصود له علاقة بالاستعمال التواصلية، حيث تؤثر هذه التدخلات، خصوصاً، على صحة المعطيات وسيتم فحصها أثناء معالجتها.

3. تحليل المدلولة

1.3. مفهوم المدلولة

تعتبر المدلولة طريقة الإشارة إلى المعطيات المرجعية المختارة بشكل شرعي بخصوص معيار الاستعمال الرئيسي للمواضيع، والأمر نفسه:

أن المعطيات المرجعية هي مناسبة للإشارة إلى الموضوع المرجعي انطلاقاً من وجهة نظر معينة.

تعد موضوعية المعطيات المرجعية شرطاً ضرورياً لكي تكون نفس هذه المعطيات دالة، لكنها ليست شرطاً كافياً.

- إن المعطيات المستعملة في (1.2) كلها موضوعية، مما لا يكفل أنها دالة في كل إشارة ممكنة للموضوع¹⁵⁹؛ فإذا كان الوسيط يستخدم هذه المعطيات للإشارة إلى المظاهرة انطلاقاً من وجهة نظر القدرة على استدعاء النقابات، ومسار ومدة الفعل ثم المطالب التي يتم عرضها في اللافتات، فقد تم تقديم معطيات دالة؛ وإذا كان استخدام نفس هذه المعطيات للإشارة إلى المظاهرة متأملاً في تغيرات الرأي الذي قد يتم إنتاجه في مجمع سكني، فنفتقد هذه المعطيات المدلولة.

هناك انتقاء شرعي للمعطيات المرجعية (انطلاقاً من وجهة نظر استعمال رئيسي لهذه المعطيات) في الحالات التالية:

- عندما تأتي المعطيات المرجعية مباشرة من التعابير المحصل عليها من المادة التعبيرية بمساعدة الموضوع المرجعي (الشرط الذي يؤمن موضوعيته)، وأيضاً تناسب وجهة نظر التي تشتغل بالمعيار من أجل التواصل.

❖ مثلاً، تعتبر الصور الأمامية للتظاهرة دالة من خلال وجهة نظر الوسيط الذي يشير إلى المطالب المكتوبة على اللافتات؛ والصور عبر الجو هي دالة أيضاً من خلال وجهة نظر المعيار الذي يرغب في الإشارة إلى طول وكثافة المظاهرة.

-
- عندما تكون المعطيات منسوبة بشكل شرعي للموضوع المرجعي (الشرط الذي يؤمن موضوعيته)، وموافقة وجهة نظر التي تعمل بمعيار التواصل.

❖ مثلاً، تعتبر المعطيات المقدمة من قبل المذيع حول غياب الشرطة دالة، إذا أراد أن يخبر عن المظاهرة من خلال معيار موقف السلطات.

¹⁵⁹ يشير معيار الإسناد الشرعي (أساساً للموضوعية) إلى طبيعة الموضوعي المرجعي، كيفما يكونوا فاعلي التواصل ونواياهم؛ في المقابل، يشير معيار الاختيار الشرعي (أساساً للمدلولة) إلى وجهة نظر الذي يتقاسمها الأنا والآخر في الاستعمال الرسمي للتواصل كيفما تكون مراجع التواصل ونوايا الفاعلين.

إن المعطيات المرجعية (الموضوعية) التي تتوافق مع وجهة نظر رسمية المعتمدة على المرجع فهي ملائمة.

إن، تعتبر مدلولية المعطيات المرجعية صفة لها علاقة بالمعيار المرجعي وأنها مستقلة عن الأهداف التطبيقية التي يحاول الفاعلين الذين يتواصلون تحقيقها من خلال هذا الموضوع المرجعي.

2.3. المدلولية والوساطة

إن الضرورة الحتمية لاختيار المعيار المرجعي عند انتقاء المعطيات الدالة، تحدد الوجود الحتمي للوسيط؛ ومن ثم، فاستعمال وجهة نظر من أجل التواصل حول الموضوع المرجعي، هو خيار بخصوص وجهات نظر أخرى ممكنة، التي يمكنها، بدلا من ذلك، أن تأخذ بعين الاعتبار الوسيط. فإذا تم بواسطة "المعنى" تفسير "غياب الوسيط" فقد تكون المدلولية الوحيدة التي يمكن تقديمها لألتر، تجربة مباشرة للموضوع المرجعي، في هذه الحالة يتم التحول من التواصل إلى الفعل، والموضوع لا يكون أكثر من موضوع مرجعي، بينما موضوع مادي أو مُدرك.

ومع ذلك فالعمل الذي يتعين عليه وجود وجهة نظر يسمح بإمكانية التعامل مع المعطيات المرجعية.

- مثلا، يشير الوسيط إلى المظاهرة من وجهة نظر الآثار المترتبة عن حركة المرور، فهذه الوجهة النظر تحدد، على سببي المثال، أن الكاميرا تجمع معطيات متعلقة بالسيارات التي تبقى في الشوارع المملوءة بموكب المتظاهرين، لكن مثل هذه المعطيات تقدم معلومة موضوعية ومناسبة (من تلك وجهة نظر)، وربما يعمل انتقاءها لاستبعاد معطيات أخرى. ففي هذه الحالة، يتم التحول من الوساطة إلى التدخل المقصود الذي له علاقة بالممارسات العلمية التواصلية، التي سيتم تحليلها في العنوان القادم.

4. تحليل الصلاحية

1.4. مفهوم "الصلاحية"

تعتبر "الصلاحية" شكلا للإشارة إلى أن مجموعة من المعطيات المرجعية التي يتم تقديمها هي كافية لتحديد موقع هذا الموضوع المرجعي في سياق تلك المراجع الأخرى التي يرتبط معها. يمكن لهذه العلاقة أن توجد على المستوى المادي، والمعرفي، والاستعمال أو أي شيء آخر.

تعتبر الموضوعية ودلالة المعطيات المرجعية شرطان ضروريان لصلاحية نفس هذه المعطيات، لكن ليس شرطان كافيان.

إن المعطيات المستعملة في (1.2) كلها موضوعية؛ وفي (1.3) قد تمت الإشارة إلى المعايير الرسمية التي تجعلها دلالية من وجهات نظر معينة. لكن ليس لهذا السبب يتم ضمان أن مثل هذه المعطيات تكون صالحة عند كل إمكانية استخدام التواصل.

مثلاً، يقوم منظمو المظاهرة والشرطة البلدية بحساب عدد الحضور، ويقوم المنظمون بحسابهم عندما يصل الجزء الأكبر من المظاهرة إلى المكان المحدد والتمركز في نقطة الالتقاء؛ أما شرطة البلدية تقوم بحسابها عندما تصل مقدمة المظاهرة لتوها إلى نقطة الالتقاء والمتظاهرين الأواخر يغادرون مكان المحدد؛ لذا يتم في كلتا الحالتين اللجوء إلى التصوير الجوي، فالمنظمون يأخذون بعض الصور من نقطة التجمع، والشرطة في مكان ما على طول الطريق، والبعض الآخر يحسب العدد الإجمالي للمتظاهرين بمضاعفة كثافة المظاهرة بواسطة طولها؛ إذن، النتيجة التي حصل عليها المنظمين أعلى بعشر مرات عن التي حصلت عليها الشرطة، فكل طرف يتهم الآخر أن المعلومات ليست صحيحة وعلى استعداد لإثبات ذلك من خلال اختبارات "موضوعية"، ويتم شرح الطرق التي استخدمت للحصول على عدد الحضور.

يتيح العرض الذي قمنا به، تحليل المشكلة المطروحة موضحاً في الواقع أن كل من المعطيات المرجعية للمنظمين والشرطة ليست صالحة؛ فمن الواضح أن الجهتين يستعملان معطيات موضوعية، من قبيل أن في الساعات س1- س2، وفي الأماكن م1- م2 كان هناك العديد من الأشخاص كما هو ظاهر من خلال الصور الجوية؛ ثم بعد ذلك يمكن أن تكون المعطيات في كلتا الحسابين منسوبة إلى الموضوع المرجعي.

في الواقع، أن المعطيات المرجعية التي تم تقديمها هي دالة، لأنها تتعلق بالعدد التقريبي لحضور المظاهرة، لكن يحتوي حساب كل من المنظمين والشرطة على انحيازات، وإن انحياز المعطيات المرجعية التي يقدمها المنظمين يُستمد من استقرار أطول مسيرة المظاهرة، والكثافة التي توجد في مكان التجمع عندما تتوقف المظاهرة، فهذا الانحياز يزيد في أرقام المعطيات. أما انحياز المعطيات المرجعية التي تقدمها الشرطة يُستمد فقط من أنها تأخذ بعين الاعتبار المتظاهرين حيث يشغلون مكان ما من المسيرة

أثناء فترة الصورة، دون احتساب الذين قد وصلوا إلى الوجهة، وتجمعوا في نقطة الموعد، وأولئك الذين لم يدمجوا بعد، بالاحتفاظ بهم حول مكان الانطلاقة، لذا هذا الانحياز يقلل من رقم المعطيات. وفي ما يخص الانحيازات فهي السبب في أن معطيات البعض الآخر تكون أيضا غير صالحة.

من المعلوم أن الانحياز قد يكون نتيجة لتصوير غير مناسب للشكل حيث يجب جعل الحساب أو الحيلة المقصودة أن تختار الزمان والمكان المناسبين، إما يكون للزيادة في نتائج حساب عدد الحضور أو النقصان منه إلى الحد الأدنى الممكن.

قد يتعلق الأمر حسب أصل الانحياز الناتج عن خطأ أو حيلة، بالتواصل الذي يكون غير صالحا بسبب سوء استخدام المعطيات المرجعية أو عن طريق استخدامها غير الشرعي. إذ تكمن المشكلة في كلتا الحالتين في الاستعمال الذي يقوم به التواصل، أو إذا تم تفضيله في البعد الاجتماعي للممارسات التواصلية.

إن كل من الاستعمال الخاطئ وغير الشرعي للمعطيات المرجعية فهما ممكنان في التواصل، لأن الوسيط يشير إلى الموضوع باستعمال معطيات غير كافية أو غير تامة، رغم أن كل معطى يكون على وجه الخصوص موضوعي ودال؛ وعندما يستعمل الوسيط معطيات غير موضوعية (مثلا، صور لمظاهرة أخرى مختلفة) أو غير مناسبة (مثلا، تقديرات "بالعين" أحد شهود عيان) فيكون التواصل غير صالح، لكن عدم الصلاحية تكون في هذه الحالة نتيجة لغياب موضوعية وملاءمة المعطيات، عوض أنها نتيجة مباشرة للممارسات العلمية التواصلية غير الصالحة.

ويفهم أن الصلاحية عبارة عن جودة التواصل الذي يعتمد على مجموعة من المعطيات المرجعية، لذا عندما تكون هذه المعطيات كافية لكي يضع المرسل إليه بشكل صحيح هذا الموضوع المرجعي في التواصل في المكان، والزمان ثم في العلاقة مع المواضيع الأخرى، فقد ينزعج التواصل من أن تكون المعطيات المرجعية كاملة كنتيجة ممكنة؛ وعندما تكون المعطيات المرجعية غير كافية (عدم وجود معطيات بسبب الانحياز المعلوماتي أو الإخفاء) لأنها لا تتيح وضع هذا الموضوع المرجعي في المكان، والزمان ثم في العلاقة مع مواضيع أخرى بشكل صحيح، إذن، يكون التواصل هنا غير كامل.

إن الشروط التي تضمن أكبر اكتمال للمعطيات المرجعية تكون كالاتي:

■ عندما تصدر المعطيات المرجعية من التعابير التي تم الحصول عليها، يتم إشراك مباشرة الموضوع المرجعي أو بالأحرى مواضيع مرجعية، التي تتوافق مع وجهة نظر ومجموعة من المعطيات التي تكون غير خفية أو مع الانحياز إلى المعطيات المناسبة.

نفترض أن الوسيط له نية إظهار أن المظاهرات النقابية المرخص لها تدعمها الديمقراطية، كما أنها تتبنى كوجهة نظر رسمية تقرب المظاهرة بوصفها تعبيراً عن الحريات؛ وتتوفر على معطيات موضوعية للصور المتعلقة بمسار هذه المظاهرة، والمتطورة قانونياً، وخلال تظاهرات أخرى التي تتطور دون ترخيص قانوني؛ كما أن ظهورها يدل على المقارنة بين الفعل الحالي والماضي، ليس فقط بالإشارة إلى الموضوع الحالي (المظاهرة الحالية)، لكن يجبره على الإشارة إلى موضوع آخر (اعتراف التظاهرات السابقة بحق التظاهر).

يمكن للوسيط أن يشمل المعطيات التي تصدر بطريقة مباشرة عن بعض المواضيع المرجعية الأخرى، مثلاً، الصور التي تناسب الإخبار عن السلوكات المختلفة للمتظاهرين والقوة العمومية، أو النشر المختلف لمحتوى اللافتات، والأعلام أو المختصرات.

■ عندما تنسب المعطيات المرجعية للموضوع المرجعي أو مواضيع أخرى، تتوافق مع وجهة نظر ومجموعة المعطيات التي تكون غير خفية أو مع الانحياز إلى معطيات مناسبة.

■ عندما يمكن تأكيد أن المعطيات المرجعية لا تنتمي إلى الموضوع المرجعي أو لمواضيع أخرى، وتتوافق مع وجهة نظر ومجموعة المعطيات التي تكون غير خفية أو مع الانحياز إلى معطيات مناسبة.

يركز الوسيط لإتمام الممارسات العلمية التواصلية السابقة على الإشارة إلى المعطيات الإحصائية، مثلاً، يتم إدخال كمعطيات مرجعية العدد الإجمالي للمظاهرات التي وقعت في الفترة حيث لم يكن هناك حق في التعبير والتجمع، والتي فعلت منذ تم الاعتراف بتلك الحقوق في الدستور؛ وعدد الموقوفين، والمصابين أو المتوفين، بإسناد (أو عدم إسناد) تلك المعطيات إلى بعض المراجع الأخرى، ودائماً ما يتم بدقة، حيث سيحصل الوسيط على مجموعة من المعطيات التي تلبي حاجة الإتمام، ومن ثم، تكون صالحة. وفي هذه الحالة، قد تظهر ممارسته التواصلية أن الترخيص للمظاهرات تدعمه الديمقراطية.

ينبغي على مجموعة من المعطيات المرجعية (الموضوعية والدالة) للوصول إلى ممارسة علمية تواصلية معينة، أن تشكل المعطيات التي تكمل تلك الممارسة العلمية، ومن ثم تكون صالحة؛ لذا فصلاحيّة مجموعة المعطيات المرجعية عبارة عن صفة ذات علاقة بالإتمام.

إذن، تتطلب كل ممارسة تواصلية معايير الإتمام الخاصة بها، وبعبارة أخرى، من المعروف أن مجموعة من المعطيات غير كافية عندما تفتح أو تغلق شرعياً المعلومة التي تقدمها العلاقات التي يتوفر عليها تلك المرجع مع مراجع أخرى انطلاقاً من وجهة نظر تلك الممارسة التواصلية.

■ سيُفهم من "الانفتاح القانوني للمرجع على مراجع أخرى" أن نظام المعطيات المرجعية الذي ينشئ مرجعاً لكل العلاقات، أنه يحتفظ بمراجع أخرى، التي تعتبر مناسبة من منظور الممارسة التواصلية.

■ سيُفهم من خلال "الإغلاق القانوني للمرجع" أن نظام المعطيات المرجعية الذي ينشئ مرجعاً لكل الحالات المرجعية التي لا تعتمد على العلاقات التي يحتفظ بها مع الآخرين، التي تعتبر مناسبة من منظور الممارسة التواصلية.

إن إدراج، في المثال الذي تم استعماله أخيراً، في نظام المعطيات المرجعية مرجعاً لمعطيات إحصائية حول حوادث وصور تظاهرات أخرى غير مرخص لها، يعتبر انفتاحاً قانونياً كلما أرادت الممارسة العلمية التواصلية إظهار أن ترخيص التظاهرات تدعمه الديمقراطية؛ فإذا فعل أن شخصاً ما في تظاهرة خاصة قد أسفر عنه بعض الفوضى، قد يتعلق الأمر بأحمق أو محرض، فقد يكون إغلاقاً قانونياً يقدم المعطيات المرجعية التي تخبر بطبيعة الطارئ لتلك الحادث في تظاهرة خاصة.

وبعبارات عامة، أن المعطيات المرجعية التي تدخل في الأخير لتشكيل جزءاً من التواصل الموجه ببعض الممارسات العلمية التواصلية، تقدم نظاماً من المعطيات، مثل أي نظام آخر، يكون قابلاً للتعبير عنه بالوسيلة التي يتم بها دراسة الصلاحية، أو إذا تم اختيار اكتمال أو عدم اكتمال مثل هذه المعطيات؛ لذا قد تم تطبيق هذه التحليلات في هذا الكتاب (انظر الفصل 24).

2.4 الصلاحية والوساطة

لقد تم تحقيق الإشارة إلى الممارسات العلمية بطريقة عقيمة دون الإشارة حتى الآن إلى أن بعض الممارسات التواصلية هي مقبولة ومرغوب فيها، في حين أن البعض الآخر منها يكون غير مقبول أو غير مرغوب فيه.

يبين المثال الذي تم استعماله، الممارسة التواصلية التي تتبع الهدف المقبول، أو حتى المرغوب فيه، عندما تكون قيمة الحريات الديمقراطية في التعبير والتجمع مفهومة بشكل غير كافي. إذا كانت، في المقابل، الممارسة التواصلية بواسطة موضوع يشتغل بهذا التواصل من خلال ذلك الموضوع المرجعي، من أجل خلق كراهية وانقسامات بين الحضور، فقد تبدو غير مقبولة وغير مرغوب فيها، بيد أن المعايير "المقبولة / غير المقبولة" و"مرغوبة فيها / وغير المرغوب فيها" تشير إلى ميدان القيم؛ لذا ينبغي دون الدخول في هذه اللحظة في دراسة القيم الملموسة التي يجب الدفاع عنها من أجل ممارسة التواصل، إبراز ما يلي:

تكون القيم معقدة بشكل أساسي في المسار التواصلية، بشكل مستقل عن الوسطاء الذين يعتزمون أو لا القيام بالتقييمات.

لا توجد أي ممارسة تواصلية لا تقوم على غلق أو فتح المعطيات من خلال تلك التي تنشئ، بشكل ضمني أو غير ضمني، أحكام قيمة عن الحقيقة حول الذي يتواصل؛ ومن ثم، وبقدر ما أن فاعلي التواصل يختارون الاستعمال التطبيقي الذي يمنحونه للمعطيات المرجعية، التي تكون ملتزمة بالآثار المادية، والمعرفية والاجتماعية التي تنتج التواصل (على الرغم من أن هذه الآثار تكون متميزة عن تلك المرجوة).

إن الظرفية التي يُطبق فيها التواصل بهدف (ضمني أو غير ضمنى) موجه للحصول على آثار معينة حول العالم المادي، والاجتماعي أو الثقافي، لديها نتيجة أن هناك وساطة مقصودة، بحيث يعبر المنتج التواصلية الذي تقدمه مجموعة من المعطيات المرجعية عن القيم، والمصالح، والدوافع ثم حاجيات مستعملي التواصل. وإذا تم بواسطة "الصالح" تفسير "غياب الوسيط" فقد تكون الصلاحية الوحيدة الممكنة التي يمكن تقديمها لتلك التي تتحول بواسطة التجربة الروحية بين الموضوع المجرى الذي طالما يظهر مطابقاً لنفسه، والموضوع المجرى الذي يُخصّص للتأمل. وكلما غابت كل من المواضيع والأشياء (على

الأقل في فضاءنا الحي وفي زمننا التاريخي) يغيب كذلك نظام المعطيات لأولئك الذين يستخدمونها بدون وساطة.

ومع ذلك، فإن عمل أي تواصل يفترض الممارسة التي تدرج وساطة للاستعمال المقصود، ويعمل بالقاعدة من أجل التعامل مع نظام المعطيات المرجعية بتشويه اكتماله، لذلك قد تمت الإشارة إلى عدة أمثلة التي توضح هذه التشوهات على امتداد الصفحات السابقة.

وبعبارات أخرى، يتم إنتاج التدخلات حول مجموعة المعطيات المرجعية التي تتقاسم مع صلاحيتها كنتيجة لإجرائن:

■ يتم إخفاء الاستعمال المقصود للتواصل، مثلاً، يبرمج الوسيط في التلغاز أفلاماً تبدو بهدف التسلية ليالي أيام السبت. ولكن إذا كان ينتمي إلى حزب سياسي أو إلى المذهب الذي يعارض الطلاق، في اللحظة التي يتم مناقشة هذا القانون في البرلمان، يمكن اختيار فصول بالحجة التي تبين بخطوط سوداء أن الطلاق له تبعات على الأسرة. لهذا يؤثر، في هذا المثال، غياب الاستعمال التواصلي على شفافية المسار التواصلي كلما تجاهل المستقبلون أنه تم استعمال الوسيط للقيام بحملة ضد الطلاق.

■ يتم تصريح بالاستعمال المقصود للتواصل، لكن لا يلبي نظام المعطيات المرجعية الذي قُدم شروط الاكتمال، مثلاً، تتم الإشارة تعبيرياً في برنامج "الرأي العام" إلى أنه سيتم القيام بدراسة استقصائية حول الطلاق بين السكان؛ فإذا كان نموذج الانحياز الذي تم اختياره (يتزايد بشكل مقصود عدد الصغار أو الكبار جداً، والمتزوجون أو المطلقون، والنساء أو الرجال، والذين يتوفرون على مداخل مرتفعة أو منخفضة، والذين يقطنون في المناطق الحضرية أو البدوية ثم الذين هم من الكاثوليك أو غير المؤمنين) سينتهي هذا الانحياز عند المعطيات المرجعية التي لا تمثل مرجع التواصل (رأي مجموعة السكان الإسبان).

5. مفهوم التواصل الحقيقي

يشير التحليل العلمي لحقيقة التواصل إلى تدبير المعلومة في الإشارة والمرجع.

يتمركز مفهوم التواصل الحقيقي في أبعاد المنطق – الرسمية للحقيقة، حيث تم تدقيقه انطلاقاً من الاتساق الداخلي للمعطيات؛ وفي عمليات تكوين المعنى ثم في الاتساق المرجعي. فمن الواضح أن هذه ليست جميع الأبعاد ذات حقيقة؛ لكن أي بُعد آخر غير قابل للتقييم قبل أن يتم اعتبار هذه الاستعمالات التواصلية للمعلومة، ويتم تلخيص كل هذا في التعريف الآتي:

يعتبر التواصل الحقيقي ذلك الذي يستعمل المعطيات المرجعية الموضوعية، والدالة ثم الصالحة.

- يمكن للتواصل أن يكون موضوعياً ومع ذلك ليس دالاً ولا صالحاً، فلكي يكون موضوعياً سيمكن القول إنه يستعمل معطيات مرجعية تنتمي إلى الموضوع المرجعي لكن لا يكون حقيقياً.
- ويمكن أيضاً أن يكون دالاً ومع ذلك يفتقر إلى الصلاحية، فلكي يكون موضوعياً سيمكن القول إنه يستعمل معطيات مرجعية تنتمي إلى الموضوع المرجعي؛ وأن هذه المعطيات فهي مناسبة للإشارة إلى ذلك الموضوع، غير أنه لا يكون حقيقياً.
- ويمكن للتواصل الموضوعي والدال أن يكون صالحاً، فلكي يكون موضوعياً سيمكن القول إنه يستعمل معطيات مرجعية تنتمي إلى الموضوع المرجعي؛ وأن تلك المعطيات المرجعية تعتبر مناسبة للإشارة إلى الموضوع وأنها ذات شفافية من خلال وجهة نظر الاستعمال الذي يتلقاه التواصل، إذن يمكن من خلال هذا التواصل تأكيد أنه حقيقي.

توجد تحليلات حول التواصل التي تخط بين الموضوعية والدالة وكلاهما مع الصلاحية، وتوجد كذلك تحليلات أخرى تعتقد أن حقيقة التواصل آمنة عندما تقوم المعطيات المرجعية ببعض هذه المتطلبات. ومن وجهة نظر ابستمولوجية، تظهر مثل هذه التحليلات باعتبارها وضعية أو مثالية ساذجة:

- عندما يتم الاستقرار على أن المعلومة هي موضوعية، يتم فقط إظهار أن المعطيات المرجعية التي استعملت يمكن الوثوق فيها، بمعنى، يمكنها أن ترتبط بالموضوع المرجعي، ولم يتم بعد إظهار أنها دالة أو مقبولة.

■ عندما يتم الاستقرار على أن المعلومة الموضوعية كذلك دالة، فيتم توضيح أن المعطيات التي استعملت بالإضافة إلى أنها موثوقة فهي توضيحية، أي، أن المعطيات المرجعية إلى جانب أنها موثوقة وتوضيحية فهي كافية للعمل بالممارسات العلمية التواصلية، إذن يمكن الحديث هنا على التواصل الحقيقي.

إن مفهوم الحقيقة التي تم تقديمه هنا فهو نسبي وليس اعتباطي.

■ نسبياً بخصوص الحالة حيث يوجد الموضوع المرجعي، الحالة التي تعتمد على شرعية الإسناد الصحيح للمعطيات المرجعية لتلك الموضوع.

❖ مثلاً، تكون المعطيات المرجعية الواردة في صورة من ساحة اسبانيا التي تم أخذها في هذا اليوم موضوعية، لكن سوف تخفي تلك الموضوعية اليوم حيث إن المكان يحتله الآن ثمنال أو نافورة تحتل أي أثاث منزلي حضري آخر.

■ نسبياً بخصوص معيار استعمال المعطيات المرجعية، المعيار الذي يعتمد على شرعية الاختيار الصحيح لتلك المعطيات.

❖ مثلاً، تكون المعطيات المرجعية التي تخبر عن زيادة في عدد سكان البلاد دالة، إذا كانت الإشارة إلى أن ذلك العدد من خلال وجهة نظر النمو الديمغرافي؛ لكن هذه الدلالة تغيب إذا ما تم التواصل حول نفس ذلك العدد من السكان من خلال وجهة نظر التغييرات على مستوى أفكارهم السياسية.

■ نسبيا بخصوص الاستعمال المقصود لنظام المعطيات المرجعية، حيث يطبق اعتمادا على شرعية فتح أو غلق تلك المعطيات على الحقيقة المادية، والاجتماعية والثقافية.

❖ مثلا، يكون نظام المعطيات المرجعية الذي يتيح الإشارة إلى القيمة الإخبارية للدراسة من أجل تعزيز الاهتمام نحو التربية بين الشباب مقبولا. ويكون، في المقابل، غير مقبول إذا كان اهتمام المتواصل يتكون من تعزيز العدد المحدود وارتفاع الرسوم الدراسية.

يتم تقديم في الجدول 1.21 نموذج يلخص تحليل "التواصل الحقيقي" الذي اقترحتة في هذا الفصل.

جدول 1.21 مستويات تزييف المعطيات المرجعية

قسم التحليل	النظام الاجتماعي العلاقة بالاستعمال المقصود للتواصل (الممارسات العلمية التواصلية).	نظام التواصل العلاقات مع معيار الاستعمال الرسمي للموضوع المرجعي للتواصل.	النظام المرجعي العلاقة مع الموضوع المرجعي.	نظام التواصل المعطيات المرجعية
تحليل انتماء المعطى المرجعي للموضوع المرجعي.	تعتبر موضوعية المعطى المرجعي مستقلة عن الممارسات العلمية التواصلية.	تعتبر موضوعية المعطى المرجعي مستقلة عن معيار الاستعمال الرسمي للموضوع المرجعي للتواصل.	<ul style="list-style-type: none"> تأتي مباشرة من الموضوع المرجعي؛ يمكن أن تكون منسوبة للموضوع المرجعي؛ يمكن أن تكون مرفوضة من قبل من يمتلك الموضوع المرجعي. 	(أ) الموضوعية: جودة المرجعية (الاسناد، ورفض الاسناد الشرعي لمعطى الموضوع المرجعي).
تحليل ملائمة المعطى المرجعي بالموضوع المرجعي.	تعتبر دلالة المعطى المرجعي مستقلة عن الممارسات العلمية التواصلية.	وتتوافق مع وجهة نظر. وتتوافق مع وجهة نظر. وتتوافق مع وجهة نظر.	<ul style="list-style-type: none"> تأتي مباشرة من الموضوع المرجعي؛ يمكن أن تكون منسوبة للموضوع المرجعي؛ يمكن أن تكون مرفوضة من قبل من يمتلك الموضوع المرجعي. 	(ب) الدالية: جودة الملائمة (الاختيار، واستثناء الشرعي لمعطى الموضوع المرجعي).
تحليل ملائمة المعطى المرجعي بالموضوع المرجعي.	تعتبر دلالة المعطى المرجعي مستقلة عن الممارسات العلمية التواصلية.	توافق مع وجهة نظر. تتوافق مع وجهة نظر. وتتوافق مع وجهة نظر.	<ul style="list-style-type: none"> تأتي مباشرة من الموضوع المرجعي أو من مواضيع مرجعية أخرى؛ يمكن أن تكون منسوبة لموضوع مرجعي أو لواضيع مرجعية أخرى؛ يمكن أن تكون مرفوضة من قبل من يمتلك الموضوع المرجعي أو من مواضيع مرجعية أخرى. 	(ج) الصالحة: جودة الاكتمال (الانفتاح، والانغلاق الشرعي لنظام المعطيات المرجعية).
	لـ "ما يتعلق بالصلاحيات"	لـ "ما يتعلق بالدلالة"	لـ "ما يتعلق بالموضوع"	الأبعاد:

(الحقيقي)

ما يخص الإنسان في التواصل الإنساني

لقد تم في هذا الكتاب تسليط الضوء على أن التواصل جاء نتيجة لابتكارين: الأول تمتلكه الطبيعة عندما تحدد مجموعة لا منتهية من الخيارات الجينية لاختبار قدرتها على الاستمرار في الحياة في العالم؛ أما الثاني فيتجلى في ابتكار الفكر الذي تم خلقه وإعادة خلقه بواسطة الاشباع عندما يعلم الإنسان الطرق الممكنة للعيش في العالم.

ظهر التواصل الإنساني حينما جعل جنسنا البشري تاريخه في علاقة جدلية مع الطبيعة، لذلك فقد أتاح هذا النوع من الارتباط إمكانية تعايش نظامين تم تنظيمهما من خلال قوانين مختلفة، والتي جعلتهما في الآن نفسه غير منفصلين وغير متضاربين.

وتوجد هذه الجدلية في تغيرات الطبيعة والمجتمعات التي تبتكر أشكال الواقع عن طريق تلك التي تتعارض معها، فهي طرق جديدة ليكون العالم وتكون في العالم، حيث يتم التغلب على التناقضات، بمعنى أن الطبيعة تتحول بفعل النشاط الإنساني، وينكشف كونها في علاقة مع الأنسنة، مثلاً، في التنوع الجيني للنباتات والحيوانات التي ظهرت بالتدجين؛ وتتحول المجموعات الإنسانية بواسطة تغيرات الوسط، ينكشف كونها إنسانية بخصوص الطبيعة، مثلاً، تنوع نماذج الأسرة وتكيفها للبقاء على قيد الحياة في العصور الجليدية وبينها. إذن، يعتبر انقراض جميع أصناف البشرية السابقة، أثناء تدميرها والحفاظ عليها من خلال الاستبدال، أحسن اختبار لهذه الجدلية.

ويتعارض خلال الأنسنة النظام الذي يتحول بنفسه من أجل الحفاظ على التوازن (الطبيعة) مع الأنظمة الأخرى التي تغير التوازنات لتتحول هي الأخرى (المجتمعات الإنسانية)؛ ويتعارض مع ذلك الذي يعيد توليد الترتيب (الطبيعي) الذي لا يستجيب لأي برنامج، والذي يحدد البرامج التي تغير الترتيب؛ فثمة مسارين تتبعهما الطبيعة في تطورها والإنسانية في تاريخها، واللذين يشغلان بالمعلومة: في الطبيعة لأنها عندما تتطور تصبح أكثر تعقيداً؛ وفي المجتمعات لأنها تصبح أكثر وعياً من كونها طبيعية فقط.

1. استعمال المنهج الجدلي في نظرية التواصل

يُستعمل المنهج الجدلي لتحليل المسارات التي تتعارض فيها الأنظمة التي تشارك مع بعضها البعض، رغم أنها تخضع لقوانين مختلفة.

إن فرضية التحولات التي تم أخذها من حالة الحيوان والإنسان، والتي عملت بطريقة جدلية، تم اقتراحها من قبل أنصار التطور خلال أواخر القرن التاسع عشر، والذين قرؤوا لداروين عن رؤية العالم التي أدت إلى مؤلف هيجل (Hegel). ومع ذلك، لم يحاول إلا كل من مورغان (Morgan) وبدرجة أقل إنجليس (Engels) تدشين هذا المسار من البحث.

لقد تم في هذا الكتاب استعمال منهجيات جدلية إلى جانب أخرى نسقية وظاهرانية، وذلك بالاعتماد على خصائص هذه المسألة، لاسيما وأن الانتقال من التواصل الحيواني إلى الإنساني يعتبر الموضوع الوحيد الذي تم تناوله في هذا المؤلف الذي يرتبط بتطبيق المنهجية الجدلية، لأنه يؤدي إلى التعارض بين قوانين التطور الطبيعي والتنظيم الاجتماعي. وسيتم في العنوان 4 من الفصل 24 عرض تحليلات هذه المنهجية حول الاستعمالات المناسبة وغير المناسبة في نظرية التواصل.

2. الآلية التطورية التي تشكل أصل التواصل الإنساني

يعتبر التواصل الإنساني نتيجة للتغلب على التناقض، ويبدأ في التبلور عندما تحقق آلية تواصلية معينة نجاحا خارقا في اختيار الطبيعة، ويستوعب معنى الطبيعة عندما تصل اللحظة التي يلزم فيها ذلك النجاح وظيفة الاختيار، لاسيما أن مبدأ التناقض يحدث في المرحلة التطورية الثالثة للإشارة، فهي اللحظة التي تكتسب فيها الحيوانات المتواصلة القدرة على معرفة الغيرية، كل هذا يتم توضيحه في هذا الفصل.

أ) التواصل المرتبطة بالآثار وظهور الوعي

لقد تم في هذا الكتاب إنجاز دراسة مفصلة حول تحولات الإشارة (انظر الفصل 11، العنوان 2). وللتذكير فقط، منح التواصل، في المرحلة الثالثة، الفضاء للإشارة إلى الآخرين، بحيث إن هذه المرجعية تحددهم في علاقة مع فاعلين آخرين وليس باعتبارهم فاعلين في التفاعل، وذلك عندما يتم التعرف على الغير (بالنسبة إلى الآخر باعتباره الأنا الآخر) وعلى الهوية في الوقت نفسه (بالنسبة إلى الآخر باعتبار الآخر). وهذا ما يدل على أن الفاعلين قادرين على الإشارة إلى طبيعة الارتباط بينهم، باعتباره الموضوع

الذي يتم حوله التواصل، بمعنى أن التوصلات يمكنها أن ترتبط بالتأثيرات وتدمج التمثلات، والأمر نفسه يقول إن ظهور التواصل قد نتج عن الوعي.

إن وعي الفاعلين (الوعي بأنفسهم، والآخرين بأنفسهم كذلك) وجاء في حقبة معينة من التطور، وذلك عندما اكتسبت المجموعات الحيوانية تعقيدا ما يتطلب التواصل المرتبط بالتأثيرات من أجل اشتغال تلك المجموعات وتكاثرها. لهذا أكد على ضرورة دراسة ظهور الوعي والتواصل معا من خلال التأثيرات (بعد ذلك التطور)، سواء على مستوى البحث في علم تطور السلالات أو في تطور الجنين.

ب) التنظيم الرمزي للمجموعات الحيوانية

إن ظهور هذه المرحلة الثالثة من التفاعلات التواصلية يعطي الخريطة الطبيعية للتنظيم الرمزي للمجموعات الحيوانية وللتمييز الرمزي بين أفراد المجموعة؛ وقد جلب هذا الابتكار نتائج حاسمة بخصوص اشتغال الطبيعة. فمن بين نتائج أخرى هناك ظهور الأجناس للتحكم في الطبيعة، باعتبارها أجناسا إنسانية؛ وهذا هو الجانب التحولي للإشارات المهمة حاليا.

ج) تطور التوصلات المتخصصة في العلاقات الداخلية

إن التواصل الذي يستعمله الفاعلون من أجل إخبار أنفسهم عن العلاقات الداخلية يعتبر من حيث التعريف توصالا داخليا؛ بمعنى أنه يعتمد على التمييز بين من هم أعضاء داخل المجموعة، ومن ليسوا كذلك ما يتعلق بالمجموعة وأعضائها. لذا يبين تطور بعض التوصلات المتخصصة في العلاقات الداخلية وجود مكتسبات مهمة من بينها تطبيق الصراعات، وتنظيم توزيع الموارد والمهمات. ولذلك يعتبر الاشتغال الداخلي أكثر فعالية؛ وسينعكس ذلك التحسن، مبدئيا، على الجوانب الايجابية المتكيفة الخاصة بالمجموعات الأخرى التي تتنافس معها على الموارد.

ومن المفترض، كما تمت الإشارة إلى ذلك، أن يكون الوعي بالذات على علم بالآخر، باعتباره موضوعا مختلفا عن نفسه وعن أي شيء آخر؛ ومن ثم ليست العينات التي تضم مجموعات حيوانية قابلة للمقارنة. إذن، فهذا التمييز ذو طبيعة رمزية تم إنشاؤه على مستوى التمثلات، لكن تأسيسها كان بعدم التكافؤ بين أفراد المجموعات المنظمة، لاسيما من خلال ظهور المتواصلين الأوائل المنتظمين في مجموعات داخل مملكة الحيوان. لذا يتم إنتاج عدم التكافؤ التالي:

(أ) في المواقع التي يحتلها كل فرد في المجموعة أثناء تلبية الحاجيات، مثلا، حسب نظام أكل كل واحد أو الوصول إلى الإناث.

(ب) وفي التقاربات، وقد أدخل مصطلح "التقارب" لتحديد المكون العاطفي الذي تمت برمجته عند الأصناف التي تتكاثر:

يدل "التقارب"، في سياق التطوري الأول، على إنشاء علاقات حصرية ذات طبيعة عاطفية بين بعض العينات. وهي العلاقات التي تعتبر، في حد ذاتها، حصرية على أفراد المجموعة الأخرى.

تعزز هذه العلاقات العاطفية الصلات بين الأزواج حيث يتم تشكيلها، بينما تحتاج التربية إلى التعاون بين الأفراد، وتكون أيضا بين الأبناء وآبائهم، وكذلك بين الأبناء كلهم أو فقط مع واحد منهما. وتكون على العموم مع الأم، لذا تستمر هذه العلاقة منذ ولادة الأبناء حتى يصبحوا في حالة الدفاع عن أنفسهم. وتشتغل التقاربات في الأخير بين الإخوة من نفس السلالة خلال فترة التربية.

عموما يختفي التقارب بين الزوجين عندما يقومان بوظيفتهما التنشيطية عند الأصناف التي تحتاج من أجل تكاثرها إلى تغيير عملية التزاوج، مثلا، عند الأصناف التي تعاني من ارتفاع نسبة موت الذكور؛ وتلك التي تنقر إلى أماكن مستقرة للتزاوج؛ وتلك التي اختارت خلال فترة التكاثر استبعاد جزء من الذكور لصالح آخرين. لذلك يمكن لنفس الشيء أن يحدث مع التقاربات بين الأمهات وأبنائهن في الأصناف التي تتطلب من الإناث تربية العديد من الأولاد، مثلا، عند تلك الأصناف التي تستمر عنها فترة الحمل لمدة طويلة، وتمتد الخصوبة فيكون لها أولاد قلائل. إنها ثلاث ظواهر تحضر جنبا إلى جنب، لذا يؤثر نفس انقراض الارتباطات العاطفية على الإخوة عندما تستكمل، باللعب مع بعضها البعض، اكتساب مهارات الكبار، ومن ثم سيؤدي التحرر إلى استبدال الألعاب بالمنافسة في عالم الكبار.

إذن، تكون الميزة التطورية للتقارب مرتبطة بشكل واضح باستعمالها الإنجابي، وما هو أكثر أهمية الآن هو انقراض التقاربات المطلوبة بسبب التكاثر؛ والذي يكون كذلك منتظرا.

لذلك تعمل تلك الآلية عبر وسيلة تواصلية، ونقوم بتحليلها الآن بتفصيل أكثر.

3. التحولات التطورية للتقاربات في الهويات

عندما تدخل التقاربات في التفاعلات، يتم إدراج العواطف من خلال آليات الاختيار والتكاثر.

ويعني هذا قفزة نوعية في الوظائف التي يؤديها التواصل في عالم الطبيعة، لأن السيطرة التطورية للعواطف، من أجل أن تكون في خدمة تكاثر الصنف، تحقق تحولاً للأنماط التواصلية.

أ) الوظيفة التكاثرية للتقاربات

لا يظهر التواصل المرتبط بالتأثيرات فقط في اللحظة التي يحتاجها من أجل الإشارة إلى التقارب، عندما تكون لهذه العلاقة قيمة تطويرية؛ كما أن التواصل يكف عن الاشتغال، عندما تقوم العلاقة العاطفية بدورها في التكاثر، لاسيما وأن استخدام التواصل يخضع لمتطلبات التكاثر على النحو التالي:

يتطلب الوصول إلى إظهار الإشارات التي يخلقها الارتباط الذي ينشئ فيه الفاعلون تقاربات إظهار علامات معينة من شأنها أن تخبر كل فاعل بشيئين: الأول يتجلى في وصول اللحظة المناسبة لإنشاء تلك العلاقة؛ والثاني في أن الآخر هو الشريك المناسب.

وتحدد هذه الآلية التفاعلات التي تعزز التقاربات بتطبيقات ذات قيمة إنتاجية، وتشتغل، مثلاً، في طقوس المغازلة، كما أن لها أساس عضوي في الأنماط التواصلية المفتوحة ذات برامج عملية تكون محددة بشكل كبير، بمعنى أنها تنشط فقط عندما يصل الحيوان إلى مرحلة النضج، ويتم العمل بها فقط حين يوفر الآخر علامات مناسبة في التواصل. (انظر الفصل 4، العنوان 7).

ب) بناء الهويات من خلال المواقع والتقاربات

لقد نظمت المواقع والتقاربات المجموعات الحيوانية دون الحاجة إلى أن تكون محددة من خلال التمثلات، ومسيطرًا عليها بواسطة الوعي؛ لكن، وكما أشرت إليه، يعرف تنظيم المجموعات، في لحظة ما، تغييرات لهذه الطبيعة، حيث إن مشاركة الوعي تكون مفيدة، كما في كل حالة من الحالتين التاليتين:

الحالة (أ)

تتكون هويات أفراد المجموعة من خلال الوعي بالاختلافات في المواقع وبذلك يتم تعزيز الآليات العامة للاختيار من الداخل.

❖ مثلا، يصبح من الأسهل أن تكون الذكور التي تنقل المجموعة الجينية أكثر نشاطا، أو تلك التي تصبح مفترسة بمهارة أقل.

يجعل تحول المواقع في الهويات الضوابط الخارجية التي تفرضها الطبيعة تتضاعف في وعي الفاعلين باعتباره مراقبة ذاتية، لذا فهذا التكيف التطوري يتمثل عمقه في آليات القمع الذاتي للإنسان الذي يكون أيضا منضويا ومرتبطا ببناء هويته الخاصة وهويات الآخرين.

الحالة (ب)

لا تمر المزايا التطورية التي ساهمت في بناء الهويات باستغلال التقاربات وآلياتها العاطفية، بواسطة تعزيز الآليات العامة للاختيار، لاسيما وأنها تدخل في صراع مع بعضها البعض.

لذا كان لزاما أن ترتبط التقاربات بوعي المتواصلين، لأن الضوابط التواصلية التي تقتضيها هذه القدرة على خدمة تكاثر الصنف لم يكن ممكنا المحافظة فيها على هذا الارتباط بشكل حصري¹⁶⁰. فكانت بعض الاختلافات "الخاطئة" للنمط مفيدة.

❖ مثلا، لقد كانت مفيدة لبعض الأصناف التي تستمر فيها التقاربات بين الأحفاد والأجداد عندما تنتهي التربية؛ وتمتد على مدى عدة أجيال؛ كما أن الارتباطات العاطفية بين أفراد السلالة تستمر حتى يصبحوا كبارا.

¹⁶⁰ كما كتبت، تنتقل مراقبة الغايات إلى أنماط تواصلية منفتحة، حيث إن هذه الأنماط تتطلب تطورا أنتوجينيا معينا، وآخر معينا ثم علامات معينة؛ لذا فأنماط السلوك التي يتم تنظيمها من قبل هذه الأنماط تقدم العديد من درجات الحرية، خصوصا كي يكون الفاعلون قادرين على العمل في الحالات التي تتغير أكثر.

وتدل مثل هذه التغييرات على أن العواطف لم تعد مرتبطة حصريا بالتكاثر، إذ تم تعميمها على مجموعة من الأفراد والتفاعلات، مما يدل على أن الأنماط التواصلية المفتوحة أصبحت فعالة، وأن المعلومات التواصلية التي تشغل بالتمثلات تتوفر على فرصة من أجل التطور، ومن خلال الوعي.

4. الاختلاف بين التقاربات والآليات الشاملة للاختيار الطبيعي

يميل الاشتغال بالتقاربات التي ترتبط بكل التفاعلات إلى تكييف المجموعة مع أفرادها، فبهذه الطريقة يتم استثمار نمط التطور العام.

يصير هذا الاستثمار منتجا عندما يصبح التقارب هوية؛ والعكس بالعكس، أي عندما يتعرف كل حيوان على ما يتميز به من خلال ارتباطاته العاطفية مع الأفراد الآخرين.

ويعتبر أيضا، من ضمن بعض الحدود، إشراك العلاقات العاطفية في تنظيم المجموعات ابتكارا إيجابيا، مثلا، تفضيل استمرار العلاقات العائلية، وتعزيز الارتباطات والسلوكات "الغيرية".

لذلك تعطي آلية الاختيار لأفراد المجموعة مزايا أكثر "أهمية"، كما يمكن أن تكون من الناحية النظرية وسيلة فعالة من أجل اختيار العينات الأكثر "تكيفا"، وذلك عندما يتم تحويل النظم الإيكولوجية، لكن من الممكن أن يحدث عكس ذلك. على أي حال، سوف تعزز الارتباطات العاطفية التفاعلات التي تعرقل اشتغال آليات الاختيار التي تتحكم في التكاثر، مثلا، يمثل رابط ما وسيلة لانتقاء الخيار المنتج حصريا بين الأفراد بحيوية متزايدة؛ لذا ستصبح التقاربات على المدى البعيد الخيار المتكيف الذي يدخل في صراع مع الآليات الشاملة للاختيار.

وقد يتحول التعارض المحتمل إلى حقيقة، عند وصول هذه اللحظة، لذلك تتدخل القوانين التطورية من جديد، بحيث سيبقى تكاثر الأفراد والمجموعات الخاصة خاضعا لإمكانية البقاء التي حققتها هذه المجتمعات الحيوانية؛ مما سيؤدي إلى خيارين متكيفين متعارضين:

1/ تستعمل المجموعات المكونة من أفراد القدرة التواصلية للتعامل مع الغيرية، لتحديدها بالمواقع التي تشغلها في التسلسل الهرمي حين تلبية الحاجيات.

وستكون لهذه المجموعات ميزة تطويرية، فبهذه الطريقة يستمر وعي العينات في الاشتغال بواسطة غريزة البقاء على قيد الحياة، بحيث يعتبر هو الخيط الذي يحافظ على التواصل والمتواصلين في الوضع

الطبيعي، لأن مراجع التفاعلات التواصلية تبقى عبارة عن الحاجيات الأساسية، ولا تهم فقط المجتمعات الإنسانية.

2) تستعمل المجموعات نفس هذه القدرة التواصلية للتعامل مع الغيرية من أجل تعزيز الارتباطات المعتمدة على التقاربات.

ستتقرض أغلب هذه المجموعات باستثناء تلك التي اختارت التقاربات من بين مكوناتها، وأصبحت منظمة وقادرة على البقاء، كما توفرت على القدرة على التطور، كما سنوضح ذلك في ما بعد.

5. بداية الأنسنة

إن المجموعات الحيوانية التي تستعمل التواصل من أجل الاستمرار في الخيار الثاني، والتي تتوفر على النجاح التطوري، هي عبارة عن أسلاف المتواصلين الإنسان.

يتولى الوعي، منذ الوهلة الأولى، مراقبة تنظيم المجموعة، بحيث إن هذه الأخيرة تحتاج إلى تلبية مختلف حاجيات كل واحد من أفرادها؛ لذلك يعتبر الوعي الرابط الذي يؤدي بالتواصل والمتواصلين إلى التطور في المجتمع. وتوفر المراجع العاطفية الطريق لعلماء القيم من أجل ملاحظة التفاعلات. إذن، فالوعي هو ببساطة التكيف الطبيعي الذي يجعل من الممكن بداية أصل الإنسان.

وقد يبدو أن الوعي بالأنسنة ظل خارج نطاق السيطرة بالنسبة إلى الطبيعة، لكن في الواقع حدث العكس بشكل دقيق، لأن وعي الكائن الإنساني في مجتمعه يعتبر منتوجا عاليا لأنواع المجتمعات. وخلال المراحل الأولى للأنسنة، لم تكن القوانين العامة للتطور غائبة، مما يدل على أن نجاح أو فشل تجارب المجتمعات يظهر في الأخير من خلال مجموع الاختبارات القادرة على البقاء في مختلف النظم الإيكولوجية، كما قامت المجتمعات الإنسانية في هذه البدايات أيضا باختيار القيم.

خلال فترة الأنسنة، هناك مستويات متتالية للتناقض بين الطبيعة والوعي؛ فقد تغلبت الإنسانية باعتبارها تجمعا للمجموعات التي تم تنظيمها من أجل تلبية حاجة أفرادها على هذه التناقضات بواسطة الحق الذي يمثل اندثار جميع الأصناف ماعدا صنفنا؛ كما أنها محكومة بالتناقض الأصلي الذي تتبع منه الإنسانية وتحفظ بالابتكار، والتطبيق، والاستبدال ثم تعدد أشكال التنظيم، والتي بقيت حتى الآن في التاريخ، والتي ستظهر أولا تظهر وجود هذا التاريخ.

يبين التحليل السابق أن التواصل الإنساني هو نتيجة لعدم التكيف وليس لإعادة التكيف، وهو في هذه الحالة نتيجة لعدم تكيف الرابط التطوري للتواصل الحيواني من أجل الاستجابة إلى القوانين العامة للتطور. وبدقة أكثر:

يعتبر التواصل الإنساني تطوراً ضد طبيعة الاتصالات المتعلقة بالتأثيرات، بحيث يظهر عندما تحقق بعض الأصناف التي ستوقف عن كونها حيوانات التكيف بعدم التكيف، أي عندما تحصل على الحياة في التنظيمات الاجتماعية الضعيفة دائماً.

لذلك يعتبر هذا الابتكار الذي يجعلها قادرة على المراقبة داخل بعض الحدود قوة طبيعية على جميع الكائنات، إذ إنه خيار تطوري يظهر فيه صنفنا البشري من بين الأصناف القادرة على الحياة حتى الآن.

يحدد التواصل الحيواني التواصل الإنساني، حيث يمكن القول إن الأول يكتسب بعض الميزات التي تؤدي إلى التحولات التطورية التي ستعطي الأصل للتواصل الإنساني، لكن ينبغي توضيح كون نتيجة هذا التطور لا تعتبر تواصلاً حيوانياً، لذلك تم افتراض طريقة نوعية أخرى مختلفة للتعبير، ولإشارة إلى العالم، ثم لاستعمال المعلومة المشتركة في التفاعلات. وعلى ضوء ما سبق، فإن الإنجازات التي وصل إليها التواصل بين الحيوانات تم اكتسابها أثناء فترة التطور الذي تسيطر عليه الطبيعة فقط؛ في المقابل، فإن إنجازات التواصل الإنساني هي تجاوز لهذه الإنجازات وليس استمراراً مجرداً (بخصوص مفهوم "التجاوز" انظر العنوان 4 من الفصل 24).

ونقدم في العنوان الموالي نظرة شاملة حول تحولات التواصل الحيواني إلى الإنساني، ويتم تصور تلك التحولات على أنها تؤدي إلى تجاوز الاختلافات بين تغيرات المحيط وتطور المجتمعات.

6. ما يتوفر عليه التواصل الإنساني بخصوص الإنسان

أ) التشكيل الرمزي للعالم الطبيعي

تُضاعف الإنسانية مجموعة من المواد التعبيرية، كما أنها تستخدم للتعبير عن الأشياء الطبيعية، كما هو الأمر عند العديد من المتواصلين الحيوان، لكنها تعتبر الصنف الوحيد الذي يحقق الاستعمال الرمزي لكل الأشياء المادية التي توجد في النظم الإيكولوجية.

بهذا الشكل، يعتبر الاستعمال الدلالي لما هو موجود في العالم أحد تحولات الفعل في العالم الذي يشتغل بوجود المتواصلين ويصل إلى أقصى مستوى ممكن؛ لذا يشكل النشاط الإنساني النظم الإيكولوجية باعتبارها الخزان الهائل من الأشياء المادية التي يمكن أن توظف وتتحول إلى مواد مفيدة، وفي الآن نفسه، باعتبارها المحيط الذي تتبلور فيه الإشارة.

عموما، لقد فهمت الأساطير أن اشتغال الأشياء لتلبية الحاجيات والتعبير عنها عبارة عن أنشطة تتداخل في ما بينها، وأن كلاهما يعتبران ضروريان لوجود المجموعة؛ ولذلك يجب، بطريقة ما، على معالجة الأشياء لتحويلها إلى وسائل أو بضائع أن تكون نشاطا دقيقا، لكي يدل كل شيء في العالم على أنه لم يتم إتلافه ولا تشويهه، وذلك باحترام التشكيل الرمزي للعالم الذي نسميه "بالسحر"، الذي استمر منذ بدايات الأنسنة حتى الاستغلال الاقتصادي للموارد؛ ومن ثم فقد حددت الطريقة الإنتاجية بالعلاقة المباشرة أن العمل الإنساني تم الاحتفاظ فيه بالأشياء عندما تمت معالجتها، والتي تدمر في مسار وحيد النظم الإيكولوجية والمادية ومحتواها الرمزي.

ب) الدمج غير المعروف لعالم مراجع التواصل

لقد وسعت الاستعمالات الإنسانية التواصلية العالم المرجعي؛ بينما أن النظام الإيكولوجي يفتقر إلى المواد التعبيرية الواضحة إلى حد ما من أجل الإشارة إلى كل ما يجب الإشارة إليه، مثلا، للتعبير عن ما تحتاجه المجموعات الإنسانية للإشارة إلى الموت. رغم كل هذا، استنفد الإنسان الامكانيات الدالة للأشياء، من قبيل وضع النصب التذكاري، ونحت الممرات ورفع المناطير. فهي، بدون شك، أعمال تعبيرية سمحت للأشياء أيضا بالاشتغال من أجل التواصل حول ما لا يمكن أن يظهر ولا يمكن القيام به، فهذا هو المرجع الذي - حسب ما تم افتراضه - لم يتم الإشارة إليه قط بين الحيوانات المتواصلة.

إن استنفاد الأشياء التي تستخدم لبلورة ما يريد الإنسان الإشارة إليه يجب أن يراعي الصعوبات التطبيقية؛ فعندما يريد المتواصلون التعبير عن غموض العالم يجب عليهم توظيف المواد التي تكون إخبارية، وخصوصا بسبب وجود قليل من الغموض في مظاهرها. وعندما يريدون الإشارة إلى الجديد، وإلى ما ليس موجدا، وإلى الاستثناء أو المنفرد، يجب عليهم استخدام مظاهر كثيرة للأشياء من أجل أن يكون للمعلومة معنى واضح.

يعتبر الجهد الذي يبذله الإنسان للتعرف على ما هو غير معروف، وللاشارة إلى كيف يمكن أن يكون الذي لا يمكن الإشارة إليه، ميزة مهمة لتعارضنا مع حالة المتواصلين، والتي يتم من خلالها بروز المظهر التالي:

إن الدمج الفائق الوصف لعالم مراجع التواصل له نتائج ملموسة؛ ويعتبر أحد العوامل التي تضع الاجتهاد والفوائد وتنظيم العمل الإنساني في خدمة إنتاج المواضيع الرامية إلى الاستعمالات التواصلية.

لا تعتبر المواضيع التي أشرتُ إليها حالياً أدواتاً للتواصل، والتي تتطور كذلك في الآن نفسه، بل هي مواد تم صنعها بشكل واضح للتعبير عن الأشياء التي لا يتم التعبير عنها؛ لذا يشير القناع اللامع للوجه والقناع الأسود وجه آخر إلى العلاقة بين شروق وغروب الشمس؛ أما الدائرة المستحيلة فتشير إلى لغز الحياة الذي يجلب الموت، وإلى الموت الذي تولد منه الحياة. لهذا فإن المخطوطات والكتابات الأخرى التي تستمر حتى الآن هي عبارة عن مواد كان يحتاجها أولئك الذين غادروا هذا العالم من أجل الإخبار عن ما ينبغي القيام به في عالم آخر.

وسيكون إدماج المواد من أجل التواصل منذ بداياته بواسطة الترتيبات التي يتوفر عليها كل نموذج من نماذج الإنتاج. إذن، يعتبر هذا الاعتماد من بين أفضل الخصائص التي تحدد التواصل الإنساني، كما تم توضيحه في هذا الكتاب.

ج) التناقضات التعبيرية بين الحركة والكلام

تعتبر الأجسام المواد التعبيرية الأولى، وأعضاؤها الأدوات التواصلية الأولى. فالمواد والأدوات الجسدية غالباً ما يتم دمجها في الأجزاء التي تؤدي كلتا الوظائف، مثل اليد والوجه. لذلك يبدو أثر التواصل عند الكائنات واضحاً بشكل كبير كلما تم تكييفها مع الوظائف التعبيرية والإدراكية التي تؤديها، مما يجعل أجسام الإنسان كائنات طبيعية مصممة للتواصل أكثر تطوراً مما هي عليه.

وتسود في الأعضاء الإنسانية التي تؤدي وظائف أخرى، بالإضافة إلى الوظائف التواصلية، الاستعمالات التواصلية في بعض المناسبات، مثلاً، تؤدي التحولات الجينية لسقف الحلق والفك السفلي والمساحات، في الوقت نفسه، وظائف في التنفس والابتلاع والنطق؛ لذلك تم نقل هذه الطفرات التي أصبح بفضلها ممكناً نطق الأصوات، مع القدرة على الكلام؛ وهذا هو أعظم إنجاز للكائن الإنساني، وقد كانت له بعض التكاليف من قبيل خطر اختناق المتحدث.

لقد تم تشكيل الجسم الإنساني أساسا من أجل الحركة، فحتى ظهور الإنسان الحديث والحركة كانت الطريقة التعبيرية الأساس للإدراك والتنظيم؛ لذا فإن التعبير الحركي للإنسان قد تطور إلى درجة أنه أصبح الشكل الأول والطريقة الوحيدة للإشارة إلى ما أنسن. ونحن لا نعرف كيف كانت لغة الحركات لتحديد الأفعال التقنية، والعلاقات الاجتماعية، والمعتقدات، والمخاوف مما هو طبيعي وما فوق طبيعي، لكن نعرف أن هذه المراجع كانت موجودة وكان تتم الإشارة إليها بواسطة حركات الجسد.

عندما تنتقل أهمية التعبير الحركي إلى الكلام يتم خلق مفارقة عضوية، فيمكن للتعبير الشفهي أن يرتبط تماما بالجسم غير المتحرك، ماعدا بعض تجاعيد الأنف أو الشفتين والكلام الذي حدث من داخل الأصوات، ومع ذلك كان الجسم مصمما للتعبير بالحركات، الذي وضع الحلق والوجه المطلوبان للصوت المنطوق، وأن هذا الجسم التعبيري المرن لم يبق ساكنا عند الكلام. لذا، ثمة علاقات وتنسيقات عصبية أنشأت القدرة الشفوية من خلال البنيات العصبية التي تعمل بالحركة أو بالارتباط معها، لذلك عندما يرى المتحدث، يمكن للإشارة الشفهية أن تظهر معززة في الحركة.

ومن الممكن لهذه المبالغة في التعبير، والتي لم يتم تحديدها، أن تكون معروفة عندما تتم الإشارة إليها، أو العكس بالعكس، كما تساهم أيضا في كثير من الغموض، وعدم التركيز والاضطراب الذي يتميز به التعبير الإنساني، لأن التعزيز الحركي للكلام لا يجعله يتزايد دائما، بل قد يتعارض أيضا الكلام والحركة، في كثير من الأحيان، بخصوص من وكيف يتم تحديدهما. وهذه الظاهرة تمت معالجتها في هذا الكتاب.

تهدف هذه المضاعفة التعبيرية التي تجلب قوة إضافية للتفاعلات الإنسانية إلى التعرف على معلومة ذات مصداقية؛ لهذا تغزو الإشارات المؤكدة تطور الخطابات.

للتذكير أن العلامات المؤكدة تظهر داخل عالم الحيوانات في بداية التفاعلات، وذلك من أجل الحماية من الفاعلين الذين قد يكونون مفترسين بواسطة المعلومة الخادعة؛ كما يؤدي الأشخاص أثناء المحادثة دورا موازيا، كما في أغلب المظاهر التي تسمى عادة "الميتاتواصل" من قبيل "فعلا؟"، و"لا تخدعني"، و"أعتقد ذلك؟" و"لا يمكنني أن أصدق ذلك"، إلخ.

د) تحديد العوالم الخارجية والعوالم المضادة والتشفير المزدوج

تحتاج الإشارة إلى ما هو ظاهر، وإلى لحالات التي يمكن ملاحظتها والسلوكات التي يتم اختبارها إلى مجموعات دالة وشاسعة، مثلا، للتمييز بين الإشارة إلى الجوع، وإلى إمكانية التزاوج، وإلى التعشيش أو

الهجرة. لكن داخل المجموعة هناك ذاكرة الإشارات ومراجعها التي تكون بينها التوافقات مستقرة (تتأخر كثيرا في التغيير) وشاملة (صالحة لكل مستعملي اللغة) ومحدودة (خصوصا الخطأ) - الذي يحدث في هذا المستوى المرجعي - الموجود سابقا). من ثم تعتبر هذه التوافقات في نهاية المطاف مظهرا آخر للاستقرار الذي تتوفر عليه القوانين الطبيعية.

ويعيد التواصل الإنساني بناء العالم المرجعي ليدمج كذلك ما هو غير ظاهر، وما لا يمكن ملاحظته ولا حتى اختباره، أما ما له تأثيرات مادية فلا يظهر من خلال التعريف، أي من خلال ظهور تغيير مادي في الطبيعة؛ ومن ثم لا توجد توافقات طبيعية (أي غير مصطنعة) بين مجموعة هذه المواضيع غير الملموسة ومجموعة الإشارات التي يحتاجها المتواصلون كي يتمكنوا من تحديدها.

وعندما تتخطى التمثلات الإنسانية الحدود الواقعية والممكنة، يصبح لزاما في الآن نفسه إعادة تكوين الرموز التعبيرية.

لكن هذا التشكيل الجديد للإشارة فقد العلاقة المباشرة بوظيفة الأشياء الطبيعية، فهو ليس مستقرا، ولا حتى صالحا للجميع، ولم تتشكل انحرافاته من قبل؛ لذلك ينبغي على الرمز التعبيري الإنساني أن يكون مصحوبا برمز آخر يفسره، ويحتاج بالتأكيد أيضا إلى القدرات المعرفية لتدبير الرمز الذي يتعين والذي يفك شفرة التعيين في نفس الوقت. إذن، يعتبر استعمال الرموز هذا من أجل فهم الرموز إجراء لا نهاية له، كما أنه لا يحافظ على التعديل الكامل بين المظاهر والتفاهات (كما تم توضيحه في العنوان 2 من الفصل 20)، لكنه يؤدي بالتواصل الإنساني إلى أبعد حد، والذي ابتعد بكثير عن غيره بخصوص أصوله الطبيعية.

لذلك كتب اللسانيون أن هذه الرموز اللغوية تعمل بواسطة عمليتي النطق أو النطق المزدوج؛ كما تشير إلى الكلام باعتباره اللغة الطبيعية الوحيدة التي تعمل عن طريق الألسنة التي تلجأ إلى مثل هذه الرموز. وفي الواقع، إن "طبيعة" الكلام الإنساني توجد في أصله، وفي الأعضاء التي تعبر، لكنه تم فقدانها تحديدا في الرموز التي تستعمل لتشكيل الخطابات.

ه) ابتكار الأدوات التواصلية والتقسيم التقني

إن الأدوات المستعملة من أجل التواصل هي دليل على أن التواصل الإنساني قد تطور منذ وقت مبكر جدا باعتماده على العمل والتقنيات؛ لذا يعتبر استعمال الأدوات الكثيرة الأولى والبسيطة جدا، كما هو

حال الجذع المجوف، وحرق العصا، والقليل من التغيرات التي تم إيجادها في المحيط والمستعملة للإشارة إلى الأشياء غير المرئية، استمرارا واضحا للاستغلال الفعال للأشياء التي تتم ملاحظتها من قبل الحيوانات المتواصلة الأكثر قدرة على ذلك. وهذه هي الاختلافات:

■ يتجلى الاختلاف الأول في كونها أدوات، لأنها تستعمل بعض القواعد التي تبدو مستقرة بواسطة رموز انتاج واستقبال العلامات. وتتبع إيقاعات الجذع وحركات المشعل نمطا معيناً، وليست عشوائية.

■ أما الاختلاف الثاني فيمكن في كونها مندمجة في العمل المنظم؛ فكيفما كانت غاية العلامات، يحتاج التواصل الذي يستعمل وسائل تقنية إلى التنسيق، في الزمان والمكان، بين الذين يعملون بها والذين يتلقون المعلومة.

■ وأخيراً، إنها عبارة عن بضائع، لأنها تدخل في تشكيل جزء من المعدات الجماعية؛ لذا أصبحت أشياء تم تحويلها إلى مواضيع.

يوجه رمز الاستعمال وشكل الاقتران بين المستعملين اختراع الإنسان نحو تصميم أدوات التواصل التي تعمل بنفس طريقة الأشياء التي تقلدها، لكنها ستفقد بشكل تدريجي أوجه التشابه معها، وهذا حقل آخر من الحقول التي يعيد فيها العمل الإنساني، من حيث أصوله، تشكيل الأشياء الطبيعية دون أن يؤدي ذلك إلى منع استمراره واستمرار المواد التي توفرها الطبيعة على الإطلاق.

مثلاً، لفهم المنطق الذي يتم بواسطته تصميم وظهور الصفير والتطبيق لابد من معرفة كيف ولماذا يستعملان، وهذا ما يؤدي إلى التخصص في استعمال الأدوات التواصلية، وإلى تقسيم العمل وإلى ما يترتب عن ذلك من ظهور متخصصين في التواصل.

(و)التوفيق بين الأصداء، والأزمنة والعلاقات

تسمح الأدوات للتواصل الإنساني بأن يؤدي في حدوده الوظائف التي يتوفر عليها أي تواصل، كما توسع المساحة التي يتفاعل فيها الفاعلون وتمدد الفترة الزمنية التي يرتبطون خلالها. لذا يتم إعادة طرح الأصداء والأزمنة، البعدين اللذين يحددان الوجود، بالنسبة إلى الأصناف التي تستخدم التواصل، والذي هو عبارة عن علاقات، لأن التواصل، عندما يربط افتراضيا زمان ومكان الفاعلين، يتم فيه توسيع

الأصداء وتمديد الأزمنة؛ لذلك تتغير المساحة الفعلية وفعالية السلوكات الإنسانية في وظيفة الوصول ومدة العلامات. وأما أماكن التفاعل فهي تتزامن مع المساحات التي يتم إدراكها واختبارها، وزمانه لا يتناسب مع ذلك الذي يتشارك معه.

وتعيد الأدوات التواصلية تشكيل الأبعاد التي تُوَطر الأنشطة الجماعية، فتعكس النتيجة على المجموعات الإنسانية القادرة أكثر من الحيوانات السابقة على الغرس والاجتثاث، والغياب والرجوع شريطة أن يتم الاحتفاظ بالعلاقة. لذا يتحول تعزيز العلاقة من خلال التواصل إلى وجود تعاون؛ وموازاة مع ذلك سمح تقليص الفصل بين الأفراد بإمكانية تقاسم الأحداث.

ويحتاج هذا التحول من مجموعة ذات نفس الانتماء أن تتوحد كموضوع، بمعنى أن تكون لديها خصائص، وصفات وعلامات أخرى تحددها (والتي تحتفظ بالتطابق عندما تكون بعيدة). لذا يتم استيعاب الآخر الذي يمثل كل الآخرين في المجموعة؛ ومن ثم يظهر في مجموعة الانتماء عشق الإقليمية في علاقة مع أولئك الذين كسروا حدود الإقليم، وعشق الفترة الزمنية التي تعود على نفسها في علاقة مع أولئك الذين فقدوا بوصلة التجارب الموجودة. فهما عشقان يعتبران مكونين للتمركز العرقي، لذلك يتم الاحتفاظ بعنصر الربط بين أفراد المجتمعات البشرية ويكون حاضرا في أي تواصل عندما يتعلق الأمر بها وبغيرها.

__ يعتبر "الإقليم" في عالم الحيوان والإنسان الفضاء الخاص، لكن الحيوان يقتصر على إيصال معلومة بأن "هناك مالك لا يقبل المنافسين"؛ أما الإنسان فيشير كذلك إلى كيف تتم تسمية هذا الفضاء، والاستعمالات المتاحة والممنوعة، وما هي المحظورات التي تحمي انتهاكه.

__ تتداخل الأزمنة في نفس المكان، بحيث تعتبر المواقع مجموعة من الأحداث التي تربط في التواصل بين ذاكرة ما حدث هناك بالصبر، أو الخوف مما يمكن أن يحدث مرة أخرى.

يعتبر التمركز العرقي بين الأصداء (الإقليم)، والأزمنة (التاريخ) والعلاقات (الجزء المشترك من العلاقة)، على الأرجح، التجربة الأكثر أصالة للمقدس، بحيث إن المقدس يمكث في الغابة، والمنبع والجبال؛ ويعود مع البدر أو تحول الشمس، لكن يتم تشييبه فقط عن طريق العلاقة ومن أجل العلاقة التي هي التواصل.

ز) توليد الحقيقة

يتميز التواصل الإنساني عن الحيواني أساسا بأنه يولد "الحقيقة".

لذلك تعتبر حقيقة التواصل اليقين الذي تعتبره الآن موضوعا (يمكن الوثوق بأنها توجد بشكل حقيقي، وقد توجد أو يمكن وجودها)؛ ودلاليا (تكون تفسيرية لما هي عليه الأشياء أو كيف هي)؛ ثم صالحا (هي كافية لتدبير الحالات والأشياء)؛ لذا تعتبر هذه التحققات ضريبة لا مفر للإنسان من دفعها مقابل امتياز وجود اختراع ما لا يمكن أن يكون والتعبير عنه.

7. التواصل، الحياة والمجتمع

لقد بينت أن الأصل البشري كانت له مرحلة حدثت خلالها تغيرات تقنية وثقافية مرتبطة بتحويلات أخرى في الجسم والسلوكيات التي جعلتنا إنسانا، إنها الحقبة التي تطورت فيها الأنسة وتطور فيها الإنسان جنبا إلى جنب، وقد شكلت على الأقل 90 % من تاريخ عرقنا؛ من هنا يمكن أن نعتبر أنها قد انتهت لما أصبح الصنف الذي ننتمي إليه هو الممثل الوحيد للإنسانية. لهذا كان للتواصل، خلال ذلك التحول الطويل، القدرة على إعادة إنتاج بعض الأصناف التي تتحول حين يتم تغيير في محيطها.

لقد ظل ارتباط التقنيات بالطبيعة ثابتا حتى الثورات الصناعية الأولى، وهي ملاحظة جعلت تقنيات التواصل واسعة النطاق. ومن المؤكد، كما هو الحال الآن، أن التقنيات حولت النظم الإيكولوجية إلى درجة أن الإنسانية أنتجت عالمها الخاص بها، لكن هذا التدخل للتقنيات في الطبيعة لم يتحقق بنفس الطريقة التي تحقق بها في مجتمعات الثورات الصناعية، ولا يستجيب أيضا إلى تصاميم قابلة للاختبار¹⁶¹. ومع ذلك، فإنه من المعتاد أن تشتغل بتلك التقديرات الاستقرائية التي ربما يتم إجراؤها بغير قصد، وبذلك يتم تطبيق أشكال من تدبير الطبيعة التي تتميز بتقنياتنا من خلال تلك التطبيقات الأولى للتكنولوجيات. وحسب رأيي الشخصي، لا يوجد هذا التوازن لأنه إذا كان الإنسان الأول قد جاء على نحو مماثل، فقد لا يصل أبدا لتحرير الديناميكيات التطورية التي وصلت إلى الإنسان المعاصر.

أنا مقتنع، من الناحية العلمية، أنه تم تفسير معنى التطور الإنساني بصفة عامة والتواصل الإنساني بصفة خاصة بشكل سيء، وذلك عندما يُعتقد أن تأصيلهما وشرحهما يتمان بشكل حصري عن طريق علاقاتهما بالمجتمع والثقافة. ومما لا شك فيه أنه في حالة التواصل الإنساني تتشكل سلسلة من المقابلات

¹⁶¹ انظر مانويل مارتين سيرانو: "الوساطة الاجتماعية".

بين التطور الإنساني والتاريخ الاجتماعي، فهي إحدى الفرضيات التي تؤدي إلى تلك الجدلية بين الاضطرابات التي تنظم الطبيعة والمجتمع. وباعتباري كائنا إنسانيا له حاجيات ورغبات طبيعية، لا أستطيع أن أفرح في العمق بأن الطبيعة كذلك كانت لها علاقة مع ما يحتويه التواصل الإنساني.

في نهاية المطاف، ما يزال ظهور التواصل الإنساني وتطوره موردا من أجل توسيع نطاق الحياة بواسطة إجراءات أخرى مختلفة عن تلك التي تُوظف في الطبيعة حتى الآن. وأعتقد هكذا أنه يمكن أن يستمر في البقاء، على الرغم من أن كل التدخلات التي تدمج معلومة جديدة في اشتغال نظام ما - في هذه الحالة الطبيعة باعتبارها النظام المبتكر لأشكال الحياة - تقلل من تنوع الخيارات، والتي تنعدم في بعض الأحيان.

ويبدو لي أيضا أن تجاهل العلاقات الضمنية التي يتوفر عليها التواصل مع الطبيعة قليل العلمية وإصرار خطير، لأنه يمر دون ملاحظة بعض الجوانب التي تتطور فيها القدرة الإنسانية على التواصل نحو التدمير. وكما يقال، إن المورد البشري بالنسبة إلى التواصل يمكن أن يتوقف عن كونه نشطا من أجل الحياة، ومن أجل تقديم نشاط للموت، فمثل هذا السيناريو سيتحقق إذا ما عمل التواصل الإنساني مع الطبيعة، وليس باعتباره الخصم الذي تم توليده والتغلب عليه سواء كان في خدمة الطبيعة أو خصائصها. لذا، في هذه الحالة، ستكون الاستعمالات التواصلية الجديدة للمعلومة غير إخبارية، وإنتروبية وغير منظمة لتعقيد العالم، وقد تساهم في انقراض صنفنا أو كل الأصناف، وربما في أكثر من ذلك بكثير.

ومن الممكن أن يكون التواصل الإنساني قد وصل إلى إلغاء هذه الجدلية القائمة مع الطبيعة، والتي هي حاضرة ونشيطة في أجسادنا وعقولنا، لكن التواصل الناتج عن ذلك قد يشكل قطعة لا إنسانية، سواء في المعنى التطوري/التاريخي، أو في المعنى الأخلاقي.

ويعمل التنظير كذلك للتحذير من أنه من غير الجيد أن يراقب التواصل الطبيعة دون أن يسمح لها في نفس الوقت بمراقبته؛ لذا سيتم، مع خطر التواصل الإنساني، تغيير الطبيعة وطبيعتنا. إذن، تتوفر نظرية التواصل، من بين تطبيقات أخرى، على فائدة تبيان هذا التحول المدمر ليس حتميا.

مناهج نظرية التواصل

التقديم: الإنتاج القابل للفحص في نظرية التواصل

الفصل 23: البناء النظري للتواصل

الفصل 24: التواصل في دراسة الحياة والمجتمع

التقديم: الإنتاج القابل للفحص في نظرية التواصل

يتعلق هذا الجزء الأخير بالإجراءات التي يتم استعمالها في الإنتاج العلمي في حقل التواصل. فمن المعروف أن الأعمال العلمية تصبح بالشكل الذي يكون قابل للتحقق، لهذا يبدو لي أنه من المجدي والضروري كون هذا الكتاب يوضح أنه من الممكن إنشاء نظرية للتواصل قابلة للفحص، كما يشرح كيفية إنشائها.

لقد وضعت في الفصلين المواليين أفكار العمل النظري والمنهجي الذي أطبقه بصفتي باحثاً وأستاذاً، لذلك يتيح مستوى المحتويات استعمالها بأهداف أكاديمية أو علمية، لكنني حاولت أن يكون العرض واضحاً للأغلبية الساحقة من القراء وليس فقط المتخصصين.

يشرح الفصل 23 الموسوم بـ "البناء النظري للتواصل" إجراءات تطوير فضاءات جديدة للمعرفة والأفكار الجديدة، كما يعرض منهجياً المبادئ والقواعد التي تستخدم لتحديد مواضيع الدراسة، ويبين كيف تم استعمال تلك المعرفة لتأليف هذا الكتاب. لذا، فالقارئ والقارئة يقدمان، في الآن نفسه، المعلومات التي تسمح بتقييم الإنتاجات النظرية، بما فيها تلك التي تم عرضها هنا.

أما الفصل 24 الموسوم بـ "التواصل في دراسة الحياة والمجتمع" فيشير إلى المستويات (الحياة، والمجتمع) التي يتم فيها دراسة التواصل بشكل أهم، وإلى الوظيفة التي يؤديها في كل واحد منها، ثم يحدد النظم التي يؤثر فيها التواصل ويتأثر بها في نفس الوقت، كما يصف النماذج التي تستعمل من أجل البحث في هذه العلاقات وكيفية تطبيقها.

1. كيف تصبح نظرية التواصل قابلة للفحص

يتحقق العمل النظري المتعلق بالتواصل بالمنهج، أو بالأحرى بالمنهج، لأن النظرية تم العثور عليها بالتواصل في مستويات مختلفة، بعضها أكثر عمومية والبعض الآخر خاص؛ لذا تحتاج أي درجة من الملاحظة منهجية مناسبة إذا أرادت أن تعمل بمعايير علمية أما المنهج فتكون مناسبة عندما تحدد

بشكل مباشر مواضيع الدراسة؛ لهذا يعتبر الاستعمال علميا عندما تكون كل من الكفاءة التي يتم بواسطتها تطبيق المناهج وصلاحيه النتائج المحصل عليها قابلة للفحص.

لذلك عرضت نظرية التواصل في هذا الكتاب من أجل أن يتم فحصها، بحيث يمكنها أن تخضع للضوابط التي تخلق الموضوعية، والأهمية مع اكتمال مقترحاتها. وهذه المعايير الثلاثة قد تم وصفها في الفصل 21؛ لذلك يمكن، بواسطة البحث الإمبريقي، اختبار ملاءمة (أو عدم ملاءمة) الفئات، والمعارف والقوانين لكي تتحقق الموضوعية، لأنه من الممكن تقييم الأهمية بالاختبار إذا ما كانت تستند (أو لا) إلى علوم التواصل في الفضاء الخاص بالمعرفة؛ وتكون النظرية، في الأخير، قابلة أيضا للتحقق حسب اكتمالها، من أجل اختبار ما إذا تم تشكيلها في المستوى الذي تعمل فيه العلوم المتصلة بنتائج ما هو تواصلها؛ وما إذا كانت قادرة على توضيح القيمة التواصلية لتلك المعارف.

وتعتبر نظرية التواصل القابلة للتحقق أمرا جديدا في حقلها، ومع ذلك، فهذه هي الطريقة لإنتاج ونشر المعرفة التي تعتبر صالحة في كل حقل، والتي تخضع لقواعد الإنتاج العلمي؛ لذا، ستكون لدمج نظرية التواصل إلى جانب المعارف التي تستعمل المنهجيات حسب المعايير العلمية آثار إيجابية. لهذا يتم توضيح القراءة، والدراسة، والتعليم والبحث في التواصل؛ كما أن هذه المعرفة الواضحة تتوفر على تطبيقات في محيطات أخرى للمعرفة التي تتطلب تفسيرات قابلة للتحقق بالنسبة إلى الظواهر التواصلية. وأشير هنا إلى كل تطور من هذه التطورات الآتية.

2. كيف للتحقق الواضح أن يقيم ويعرض نظرية التواصل

يتم توضيح الأشياء عندما تتبع النظرية مناهج العلوم، لأنها تكتسب الوضوح من العمل العلمي. ويتم التصرف بوضوح بالإشارة ضمنا إلى الكيفية التي يتم التصرف بها لتحديد موضوع نظرية التواصل، والإجراءات المطبقة لإنتاج المضامين، ثم الأشكال التي تُستعمل بها المناهج أو الأسس التي تؤدي إلى الاستنتاجات. إذن فتطبيق الوضوح له أبعاد إبستمولوجية، لكن الذي ينبغي عليه أن يتوفر على تكوين في هذا الجانب هم الكتاب وليس قراؤهم؛ فليس من الضروري وجود الإبستمولوجيين من أجل تقييم الإنتاج النظري الذي تم عرضه في حقل التواصل أو أي حقل آخر، بل كل ما هو ضروري هو أن يلتزم الكاتب تجاه القراء بتطبيق هذا الوضوح في إنجاز وعرض عمله. أما بالنسبة إلى المستعملين فيجب أن

يكون ما يقدمه هذا العمل من معرفة واضحة لهم؛ لذا فالمنهج العلمي للعمل يطبق هذا المبدأ سواء على المستوى المهني أو الأخلاقي:

__ يشتغل ذلك الذي يقدم لقرائه المعلومة الضرورية كأنه عالم من أجل تقييم كفاءة الكاتب في الموضوع، بحيث إن هذه المعلومة لا تشير إلى الكفاءة المجردة التي يفرضها (كما في حالة الجنود) وذلك الذي يعمم وينشر نصوصه ويستعملها كمدرس أحيانا، فهي المعلومة الملموسة التي تحتاج إلى معرفة ما إذا كان محتوى هذه المواد قابلا للفحص.

__ يشتغل ذلك الذي يوفر المعلومة الضرورية بوصفه عالما لكي يقيم مساهماتها المعرفية؛ فليس من الضروري أن يكون محتوى المؤلف محصولا خاصا يوقع عليه الكاتب؛ لذا فالذين يكشفون، ويطبّقون ويطورون الإبداع العلمي الأجنبي يقومون بدور علمي. في المقابل، من الضروري للمنشورات التي تستعمل الأفكار، والمفاهيم، والتحليل، والنتائج الصادرة عن عمل كُتاب آخرين، تحديد ذلك الكاتب والمحتويات التي يستعملها بوضوح.

يتطلب هذا الوضوح الاستعمال الصحيح والأمين في الشكل والمضمون للمراجع البيبليوغرافية والاقْتباسات، وتستخدم هذه الأخيرة لكي تستمر المعرفة ويمكن تطويرها من قبل العلماء الآخرين الذين يأخذون منها؛ وهي تعتبر، في الوقت نفسه، الاعتراف الذي نظره للذين احتفظوا لنا قدر المستطاع بالمعرفة لنعكس سموهم.

وتكمن القيمة العلمية للمراجع والاقْتباسات في جودتها وليس في كميتها؛ لذا يعتبر الكاتب غشاشا عندما يستعمل مراجع ومقتبسات لإخفاء النحل، حيث إن هذا الأخير يشير إلى المصدر لكي يتم بعد ذلك دمج المواد التي تم أخذها منها، وعرضها بالطريقة التي تحدث الالتباس، كما لو كانت مساهمة للكاتب الذي استفاد منها. عموما، تكتمل هذه المهارة المغشوشة "بالتناص" الذي يلمع، وينقح أو يرجع إلى العمل الآخر لأن الابتكار الخاص يظهر هكذا.

وتعد الشفافية معيار أخلاقية المهنة التي تحمي المستخدمين من الخداع، وبدرجة أقل ضحايا قرصنة المطبوعات والأعمال الرقمية، وتقوم بالحماية لأن الاقتباس المنتحل غامض، بذلك يحتاج المنتحلون لذلك الغموض من أجل إظهار الموهبة التي يفتقرون إليها؛ ومن ثم يجدون ذريعة أمام أولئك الذين سيكشفون

له، من قبل أو بعد، أنهم واعون بأن الانتحال هو سرقة بالنسبة إلى كاتب آخر، وغش وجريمة بالنسبة إلى القارئ.

3. كيف يجعل تحقيق الاستعمال العلمي للمعارف توصليا ممكنا

إن التواصل يتطور ويكون له تاريخ يجعله موضوعا للبحث الإمبريقي، وتعتبر هذه الخاصية شرطا ضروريا لإنتاج نظرية تواصل قابلة للفحص، لأنها تتيح اختبار نجاح أو فشل تحليلاتها؛ ومن ثم تخلق النظرية فضاء خاصا من المعرفة للدراسة العلمية للتواصل، حيث يمكن وجود علوم التواصل بالمعنى الدقيق لمصطلح "العلم"¹⁶².

يعتبر العمل النظري فنا لمعرفة إنشاء العلاقات، لذلك تشتغل نظرية التواصل بالمعيار النموذجي الذي تم اختباره مسبقا، كما تحدد موضوع الدراسة رغم أنه لم يكن يتواجد ويتناسب مع أي موضوع آخر. إذن، يمكن أن يكون المؤلف مجزأ ومكونا من فهرس كبير ومتنوع من التخصصات التي تأخذ بعين الاعتبار التفاعلات التواصلية، من اللسانية إلى الاقتصادية السياسية، ومن الجمالية إلى سوسولوجية القيم.

إن العثور على العلوم التواصلية في فضاء المعرفة ليس بحاجة إلى غزو حقول علوم أخرى، ولا يتم استبدالها بها؛ لذا فدراسات التواصل تشتغل بالمعيار والطريقة الخاصتين بها بالنسبة إلى كل المستويات التي تتضمن التواصل؛ فتكون بشروط لتوضيح الأبعاد التواصلية للظواهر الطبيعية دون تحويلها إلى بيولوجيا؛ والاجتماعية دون تغييرها إلى سوسولوجيا، في حين أن التخصصات الأخرى التي تم خلقها بالتواصل في حقول دراستها كان من أجل الحصول على معلومة صحيحة لأنها أنتجت وفق إجراءات العلوم.

لذلك يعطي دمج التواصل في الفضاء النظري للمعارف القابلة للفحص المكان المناسب له في التشكيل الحالي للمعارف.

¹⁶² يكون البحث التجريبي للظواهر التي تتطور ولها تاريخ، في شروط التباين لنجاح أو فشل النظريات التي تشرحها، والفرضيات التي تقدم النماذج التي تصفها؛ لقد أشرت إلى نموذجين اقتراحين نظريين قابلين للتحقق: يتم اختبار تجريبي القانون الذي تم تشكيله في هذا الكتاب للتطابق التطوري بين الإشارة والمرجع، حيث بواسطته توجد هذه العلاقة بين العوالم المرجعية والتعبيرية حتى اللحظة حيث تظهر التمثلات (انظر الفصل، 11، العنوان 3). وستكون أيضا قابلة للفحص في وقتها، (بملاحظة التاريخية الاجتماعية) الفرضية التي تم اقتراحها في "الإنتاج الاجتماعي للتواصل" للأشكال الحالية لإنتاج واستعمال التواصل التي تكون، أولا، متناقضة وغير متوافقة مع تكاثر المجتمعات التي قامت بإنشائها.

البناء النظري للتواصل

يجعل وجود التواصل منه ظاهرة حقيقية، لكن وجوده لا يحوله إلى حتمي. فلم يكن حدثاً تطورياً حتمياً، حيث إن بعض الكائنات الحية قد تطور القدرة على العمل بالمعلومة في التفاعلات مع كائنات حية أخرى، إذ لا يمكن لاستعمالات المعلومة التي تفتح عالم المدلولات أن تكون قد حدثت أبداً.

لقد كانت النتيجة إلى حد الآن أقل حتمية بين بعض المتواصلين الذين توصلوا للإشارة إلى أشياء أخرى عن طريق متواصلين آخرين، لذلك على الأرجح لم تكن تلك التطبيقات التواصلية للمعلومة قد ظهرت أبداً، ولم يظهر أبداً العالم باعتباره مرجعاً ولم يتحول إلى عالم رمزي بالنسبة إلى أي شخص.

كانت احتمالية اختراع بعض الأصناف التواصلية عوالم رمزية غير موجودة ومستحيلة، وتحفظ ثم تنقل المعارف من خلال رموز أخرى إلى الأجيال الموالية، وهي غير دالة.

ومع ذلك يتم إنتاج تلك الأحداث، مما يدل على أن المنطق يسقط بسهولة في الخطأ الأنطولوجي؛ لذا لم يكن العالم الواقعي كما نعرفه ممكناً دون وجود التواصل، لا يحتاج وجوده لشرح. إذن، تسمى تلك الطريقة من التفكير "بالأفانوم"، كما أنها تميز نشأة الكون، لذلك يتم تصور التواصل فيه باعتباره سبباً وليس مسبباً، ويتم تقديمه أيضاً كسبب غير مسبب. "كان في الأول الفعل"، فخالق الكون المادي يمنح الوجودية للأشياء عندما يسميها.

1. منهج بناء نظرية التواصل

يؤدي أفانوم القدرة على التواصل إلى التفكير في أن "يتم التعرف" على ما هو التواصل عندما "يتم التعرف" على كيفية التواصل. ومع ذلك، قيل إن "الذي يتم التعرف عليه" ليس هو الحد، بينما بداية المعرفة التي يتم نقلها تتحقق بواسطة السؤال المنهجي ما هو، وكيف ثم لماذا (في هذه الحالة التواصل). إذن، بهذه الطريقة يتم تحقيق نظرية وعلوم التواصل. (انظر الجزء الأول، التقديم).

تتوفر الفينومينولوجيا على منهج لطرح ذلك السؤال، الذي لا يعتبر الإجراء الوحيد الممكن، لكنه مناسب جداً عندما يستخدم لتحديد ما هو التواصل؛ فحسب هوسرل (Husserl)، يجب أن نضع جانباً، بشكل

مؤقت، كل ما يعرف حول موضوع طبيعي قيد البحث للتركيز في التحليل عن "ما هو أساسي"، ويتابع الكاتب¹⁶³، من أجل الوصول إلى ما هو أساسي في التواصل سيجب "وضع بين قوسين" كل الأشياء التي تبشر به، ما عدا ما يميزه عن اللاتواصل؛ ويفهم من هنا أن التطبيق الفينومينولوجي ينعكس على الطريقة التالية في النظرية:

يمكن فهم النظرية باعتبارها فنا لتشكيل السؤال الأساسي والعتور على الجواب الصحيح.

يعتبر السؤال الأساسي في حقل التواصل، في الوقت نفسه، اقتراحا أساسيا، إذ بفضلها أصبحت نظرية التواصل قابلة للفحص، لذلك تتشكل الأجوبة على السؤال الأساسي بشكل دقيق كي يتم تحقيقها¹⁶⁴؛ وعندما تصبح نظرية التواصل قابلة للتحقق، فإن التأملات والخطابات النظرية هي الأخرى لا تتوفر على أي إجراء يتيح تبيان أين تم تأسيسها.

أ) السؤال والجواب الأساسيان لنظرية التواصل

إن السؤال الأساسي الذي يشكل ويوافق نظرية التواصل، حسب ما أعتقد وما أشرت إليه، هو كالتالي:

كيف يمكن (أحيانا) للتواصل أن يكون ممكنا؟ أو بدلا من ذلك: كيف يمكن (أحيانا) للتواصل أن لا يكون ممكنا؟

إن قارئ وقارئة الفصول السابقة يعرفان الجواب وكيف تم الوصول إليه:

يكون التواصل (في بعض الأحيان) ممكنا عندما تصبح السلوكيات ذات دلالة.

وقد نجد جوابا للسؤال الأساسي عندما يتم تفكيك مجموعة من المسائل الأكثر واقعية؛ لذا يلتقي مضمون نظرية التواصل في جزئها الأكبر مع مجموعة من المواضيع التي تُطرح لإجراء ذلك التفكيك. فمنذ أن بدأت العمل النظري حتى انتهيتُ إلى هذا الكتاب، حاولت العثور على أجوبة أساسية لهذه المسائل

¹⁶³ يعتقد هوسيرل أن شرح الكائن للأشياء يشمل فهم توجهه داخل العالم للمواضيع المتبقية (1962-81)، فيتبعه في هذه الأطروحة كل من برينتانو (Brentano) وهيديجر (Heidegger). هناك جزء مهم من المنهجيات الحالية التي تسمى نفسها بـ "الفينوميلوجية" تدرك أن هوية الأشياء هي من تؤدي بشكل فوري إلى الملاحظة. من ثم يتبعون طريق معارض للمؤسسين.

¹⁶⁴ تعتبر المساهمات العلمية القابلة للتحقق، "قابلة للدحض"، لذا فهذا المصطلح الجديد الوضعية سيء جدا، يدل على أنه يمكن إظهار أنها خاطئة، وأنها الطريقة حيث تعرف التقدم؛ هكذا يظهر عند ك. ر. بوبر (K. R. Popper).

الأساسية¹⁶⁵؛ بناء على هذا تعرض الفصول السابقة، سواء بشكل صائب أو لا، لكن دائما بطريقة قابلة للتحقق، كيف يكون التواصل (أحيانا) ممكنا، وما يجعله ممكنا أو غير ممكن:

- إن الأشياء والكائنات تكون مصدر المعلومة بالنسبة للآخرين، يظهر المعنى في العالم المادي أو العضوي.
- تظهر السلوكيات الدالة، بعض الكائنات الحية تكتسب القدرة على التواصل.
- الحدث الذي يغير العالم يكون قابلا للاستبدال، أحيانا، بواسطة المعلومة التي تصفه، ويتدخل التواصل في السيطرة على المحيط بالنسبة إلى الآخرين والسيطرة على النفس.
- الكائنات، والأشياء الطبيعية، والمنتجات الصناعية تصبح مواضيع رمزية، كل الكيانات المادية يمكنها أن تكون دعائم للمعلومات غير المادية.
- تصبح الأجسام تعبيرية وإدراكية، والأعضاء تعمل كوسائل للتواصل، وأن يتطور المتواصلون بشكل منفرد في أعضائهم وسلوكهم.
- تكون الأنماط التواصلية العصبية مراقبة من قبل التمثلات.
- تقوم أشياء بالإشارة إلى أشياء أخرى، توجد في بعض الأحيان علاقة بين ما يحدث، وما يتم التعبير عنه وما تتم الإشارة إليه.
- يمكن أن يدمج كل شيء في العالم المرجعي بواسطة فعل التواصل، كما أن المتواصلين يتقاسمون هذا العالم ويتوافقون حول التعرف على نفس المرجع.
- يكون التواصل ممكنا حول أي موضوع مرجعي، بما في ذلك الأشياء، والأشخاص، والصفات، والحاجيات، والأفكار، والأعمال، والأحداث الحقيقية وغير الحقيقية، في الحاضر، والماضي أو المستقبل، الممكنة أو غير الممكنة.
- يتحول التواصل إلى موضوع في حد ذاته، ويتحول أيضا إلى إجراء لتلبية الحاجيات.

¹⁶⁵ يعتبر كتاب "نظرية التواصل، الإبيستمولوجيا وتحليل المرجع" سنة (1981) الأول حيث أعلنت السؤال الأساسي وطورت الاستجابات؛ لقد واصلت هذا العمل النظري لتبيان صلاحية تلك الاقتراحات، وتوضيح الأسئلة لتلك التي لم يكن لها بعد إجابة وتطوير قضايا جديدة الناجمة عن الانعكاس.

- ينخرط التواصل الحيواني في تطور الأعضاء والسلوكات والاختراعات التقنية.
- تحتفظ المعلومة التي تم إنتاجها من قبل الإنسانية بدعائم مادية وغير مادية؛ هذه "الذاكرات الاجتماعية" تخترق الأجيال.
- يتم تضمين تقييم الأشياء والأشخاص، والسلوكات والأحداث والاعتقادات باعتبارها مؤكدة، أو غير مؤكدة أو خاطئة في التواصل.
- مفاهيم الحقيقة والكذب التي تم توليدها في التواصل تُدخل في العالم معيارا جديدا من النظام الذي يواجه الإنترنت والغاية.

وتتناسب هذه التطورات مع المشروع الذي تم ذكره في "التقديم": أولا، يتم التوصل إلى طبيعة التواصل منذ بداياته عندما تلبى حاجيات الحيوانات المتواصلة في غياب المجتمع والثقافة؛ وثانيا، تم السعي إلى توضيح كيف تمت مشاركة التواصل في خصائص الإنسان ومجتمعاته في وجود عالم مجرد وقيمي. فالوقت الذي غطاه "التواصل، الحياة والمجتمع" انتهى عندما أخذ التواصل طابعا مؤسستيا¹⁶⁶؛ ومنذ الآن، ساستمر في هذا الكتاب في تحليل الإنتاج الاجتماعي للتواصل، وجزء آخر مختلف من نفس العمل العلمي الذي أخته بأجوبة عن هذه الأسئلة الأخيرة:

- كيف يمكن للتواصل أن يصل إلى مأسسته؟ وما الذي يجعل من الممكن أو غير الممكن الإنتاج الاجتماعي للتواصل؟
- كيف يمكن، في بعض الأحيان، للتواصل أن يتدخل بواسطة مواد أخرى؟ وما الذي يجعل من الممكن أو غير الممكن استقلالية التواصل الخاصة والعمومية؟
- وكيف يكون من الممكن، أحيانا، للتواصل أن يتوسط مواد أخرى؟ وما الذي يجعل من الممكن أو غير الممكن السيطرة من خلال التواصل على السلوكات الخاصة والجماعية؟

¹⁶⁶ يتم مأسسة التواصل عندما توجد تنظيمات خاصة في الحصول على تجهيز وتوزيع المعلومة التي تهدف إلى التواصل العمومي التي يتوفر على مميزات ووظيفة يكونان ضمنيا شرعيان ومنظمان؛ وإلى تلك تعين موارد مادية وإنسانية معينة.

▪ كيف يكون من الممكن أو غير الممكن إنتاج التحولات التواصلية، وإعادة إنتاجها ثم ربطها مع التغيرات التاريخية للمجتمعات؟ وما هي الطرق التي توصلت بها المعلومة، والتنظيم والحدث لإنشاء علاقات غير القابلة للانفصال في كل الأحوال؟

(ب) تحقق نظرية التواصل

يعتبر التواصل أحد مواضيع الدراسة التي تم إجراؤها وتطويرها مع الوقت، كما أنه يتطور بالطبيعة ويؤنس بالمجتمع، فقد بدأ ووصل إلى ما هو عليه مع زمن التطور. وتم إعادة تحقيقه في اللحظة التي أنتجته فيها الإنسانية بواسطة الزمن التاريخي، وهكذا دواليك. وكما أشرتُ إليه إن الظواهر التي تتطور وتتوفر على تاريخ هي موضوع للدراسة العلمية.

2. الحقل العلمي الذي تنتمي إليه الظواهر التواصلية

توجد وجهات نظر عديدة من أجل تحديد مكانة دراسات التواصل بين المعارف؛ مثلا، يمكن أن نأخذ بعين الاعتبار لماذا يتم استعمال التواصل، وفحص المكونات التي تشارك في الأنشطة التواصلية، وتحديد ميزات موضوع الدراسة والقوانين التي تنظمه، ثم توضيح الوضع الابدستيمولوجي لنظرية التواصل. وكل هذا سيتم وصفه على هذا الترتيب.

(أ) استعمالات التواصل

هناك استعمالان للإشارات: من جهة، في تبادل المعلومة التي تكون لخدمة إعادة إنتاج الأفراد والأصناف (عمل المعلومة الذي يقوم به كل المتواصلين، بما في ذلك الإنسان)، ومن جهة أخرى، في التبادلات المرتبطة بوجود ووظيفة المجتمعات الإنسانية بخصوص ابتكار، وحفاظ ونشر الثقافة وقيمتها.

(ب) تنوع العناصر المشاركة في التواصل

تتفتح نظرية التواصل على دراسة عناصر متنوعة جدا:

- إن المتواصلين باعتبارهم فاعلين إنسان، والآخرين أشباه إنسان وحيوان مختلفون جدا بخصوص قدراتهم واستعمالاتهم التواصلية؛
- إن الفاعلين يعملون بالمواد الطبيعية أو الاصطناعية من أجل التعبير؛

- يتم تدبير طاقات ذات تشكيل صادر عن العلامات؛
- مشاركة الوسائل البيولوجية وأحيانا التكنولوجيا تجعل إنتاج واستقبال العلامات الدالة ممكنا؛
- يتم جدولة مثل هذه العمليات في العالم الخارجي عبر عمليات أخرى ذات طابع عصبي تربط سلوكيات الفاعلين؛ وفي الوقت نفسه يتم توجيه هذا الارتباط بواسطة أنشطة معرفية وتمثلات.

ج) القوانين التي تنظم التواصل وطبيعة موضوع الدراسة

تكون التفاعلات التواصلية منظمة بقوانين ذات طبيعة مختلفة، نظرا لنتافر أصل المكونات التي تشارك فيها، فهي مادية، وبيولوجية ونفسية؛ وترتبط كذلك بأنماط التصرف الحيواني والسلوك الإنساني؛ وفي حالة التواصل الإنساني، ترتبط إضافة إلى هذا بمتطلبات الإنتاج ومستلزمات التكنولوجيا، ثم الضروريات الاجتماعية والقواعد التي تنشئ نظم القيم.

د) الخصائص الإبيستيمولوجية لنظرية التواصل

لا تعتبر نظرية التواصل الوحيدة، ولا حتى الأولى، التي لها موضوع دراسة مركب من عناصر ذات طبيعة مختلفة، وموضوعا لمجموعة متعددة من التحديدات¹⁶⁷. لكن، في كل الأحوال، هذه الخاصية تتدرج ضمن "النظريات غير المتجانسة"، بحيث تختلف جميعها لأنها تقوم ببعض الوظائف الإبيستيمولوجية.

تعتبر النظريات غير المتجانسة أشكالا من التفكير في الكيفية التي يتم تنظيم بها واشتغال الفوارق في العالم.

كما تُطبّق في هذه الحقول حيث توجد عناصر ذات طبيعة مختلفة تعمل بالضرورة من خلال العلاقة بعضها ببعض.

إن النظريات غير المتجانسة، بما في ذلك نظرية التواصل، تكون ممكنة عندما يتم جمع مجموعة من الأشياء المتفاوتة في حقل الدراسة، لذا فإن الشرط الضروري هو أن تشكل العناصر غير المتجانسة جزءا

¹⁶⁷ ظهرت المناهج والنماذج الهيكلية والمنهجية في أواسط القرن 19، حدة ذلك الحين كانت تفنقر إلى المفاهيم والأدوات الضرورية لجعل العلوم يكون موضوع دراستها ذات طبيعة غير متجانسة؛ توجد بالإضافة إلى نظرية التواصل، معارف أخرى التي تعمل بمواضيع تتوفر على مكونات ذات طبيعة مختلفة؛ من بينها، نظريات التطور، والاقتصاد السياسي. لذا يمكن مواجهته عند مانويل مارتين سيرانو: لدراسة أصل وتغيرات التحليل النظامي: "تطبيق النظرية والمنهج النظامي في العلوم الاجتماعية"؛ وللدراسة الإبيستيمولوجية للمناهج النظامية، "المناهج الحالية للبحث الاجتماعي".

من نفس النظام؛ مثلا، يعتبر موضوع دراسة النظريات غير المتجانسة دائما نسقا، كما أن جميعها تُطبق نظاما معيناً، بمعنى أنها تخضع لبعض المبادئ المنطقية المطلوبة لتحديد وتحليل النظم؛ وسيتم وصفها في ما بعد¹⁶⁸.

3. التحليلات النسقية للتواصل

الأنساق عبارة عن مجموعات منتظمة مشكلة من عنصرين أو أكثر، مثلا، الحن الموسيقي عبارة عن مجموعة منظمة من النوتات الموسيقية التي تشكل نسقا؛ أما المجموعات التي تفتقر عناصرها إلى التنظيم فهي مجموعة مضافة، مثلا، يتم إضافة مجموعة من أصوات ضوضاء الشارع.

ولا تعتبر العناصر التي تكوّن النظام قابلة للتبادل، بحيث إن تنظيم النظام يحدد لها مواقع معينة وترتبا معيناً للظهور، لذلك يتم التعبير عن هذه الخاصية بالقول "إن مكونات النظم غير مجتمعة"، في المقابل، العناصر التي تجتمع في مجموعة تكون مجتمعة، فهي تشغل موقعا وتُرتب بطريقة ما، والأمثلة الآتية توضح هذا الاختلاف:

- [الأستاذ → يطلب الإجابة عن سؤال من المقرر → من التلميذ → الذي يجيب عنه]، لذا فتدخل الأستاذ يسبق التلميذ؛ والسؤال يتم تشكيله قبل الجواب، إذن يعتبر هذا الترتيب نظاما.
- (التلميذ الأول الذي أنهى الامتحان الكتابي / يضعه فوق مكتب الأستاذ ويغادر القاعة / ثم التلميذ الذي أنهى بعده التمرين يضعه فوقه / وهكذا دواليك)، لهذا فأي ترتيب للتسليم يكون ممكنا، وتشكل التمارين في الكثير من الامتحانات مجموعة.

هكذا، يدل ما هو مكتوب بين معقوفتين على "مجموعة منظمة" أو "عناصر غير مجتمعة"، وقد تم استعماله من أجل تحديد النظام والعناصر التي تشكله، أما ما هو موجود بين قوسين يدل على "مجموعة غير منظمة" أو "عناصر مجتمعة"، وتم استعماله للإشارة إلى الإضافات وإلى العناصر التي تشملها.

إن التحليلات النسقية عبارة عن منهجيات متطورة من أجل تحديد النظم، ومن أجل توضيح الكيفية التي تم تشكيلها بها والطريقة التي تشغل بها.

¹⁶⁸ تعتبر مناهج الاشتغال بمجموعات غير متجانسة تطبيقات مباشرة أو غير مباشرة لمنطق الطبقات؛ فالتطور المعروف كثيرا الصادر عن ل. فون بيرتالانفي (L. von Bertalanffy)، وي باريل (Y. Barel) (1971) يعتبر توجها مهما. لذا تعتبر النماذج الرئيسية والقواعد لدراسة نظم التواصل التي تلخصها وتطبقها هنا، مساهمتي الخاصة التي توجد في المؤلفات السابقة. انظر مانويل مارتن سيرانو: الأعمال من خلال نماذج أخرى للبحث في العلوم الاجتماعية، وفي نظرية التواصل: إبستمولوجية وتحليل المرجع، الفصلين 5 و6.

أ) التطبيقات الصحيحة للتحليلات النسقية

يختلف شيء عن شيء آخر بطريقة معينة، وكل شيء يمكنه أن يرتبط بشيء آخر وفق وجهة نظر ما؛ وبالتالي، عندما يتم وضع نظرية حول نظم التواصل يجب الاعتماد على عناصر، سواء كانت علمية أو لم تكن كذلك. لذا توفر المنهجية النسقية بعض المبادئ والقواعد التي تُطبق عندما نريد إجراء دراسة تكون صالحة؛ ويكون التحليل النسقي صالح في ما يلي:

أ) عندما نختار مكونات نظام التواصل بشكل صحيح، حيث إن الاختيار الاعباطي لعناصر متفرقة يولد المجموعة.

ب) وعندما نحدد المعيار الذي تم استعمال مظاهره الملموسة التي تميز كل مكون عن المكونات الأخرى في نظام التواصل، والعلاقات الخاصة التي تكون في هذا النظام؛ أما الافتقار إلى المعيار، وتعدد المعايير واعتماد معيار وحيد يتناسب مع نظام آخر مختلف أو لا يتناسب معه، يحول التحليل النظري لنظم التواصل إلى خطابات حول التواصل.

تتكون المنهجية النسقية من مجموعة من المبادئ والقواعد التي تتيح القيام بتحليلات نسقية صالحة.

لقد أُوجدت المنهجية النسقية من أجل أن لا يتم الخلط بين المجموعات والنظم، ومن أجل أن لا نعمل بالمجموعات كما لو كانت نظاما، ثم من أجل أن نتعرف على المكونات، ونحدد سماتها وعلاقاتها المتميزة. فقد قمنا بإشارة وجيزة إلى المبادئ والقواعد، في هذا الإطار، كما وضحنا كيف تُطبق في نظرية التواصل.

ب) مبادئ التحليل النسقي

I^1 يكون هناك نظام عندما تكون في شموليتها أكثر تعقيدا من اجتماع العناصر.

❖ لذلك يعتبر [الحاسوب] شيئاً آخر مختلفاً عن المواد التي يعمل بواسطتها؛ أما [الأشكال التي نتصورها باعتبارها مدركات] تأتي من التشكيل وليس من مجموعة المحفزات الحسية؛ كما أن استبدال [محادثة وجهها لوجه] بـ [محادثة افتراضية] يغير تشكيل واشتغال التواصل.

وتختلف خصائص [النظام] في شموليته عن خصائص مكونه أو مكوناته؛ لهذا عندما يتم الخلط بينها يتم تجاوز مستوى النظام.

❖ من المعلوم أن الأشخاص الذين يتدخلون كفاعلين في التواصل يتميزون حسب صفاتهم الفردية، لكن شخصية الأفراد لا تنسب إلى نظام التواصل الذي تنتمي إليه ولا تشرح كيف يعمل.

² إن تطبيق التحليل النسقي يتم لتحليل المجموعات التي تكون مشكلة كنظام بشكل حقيقي، أما في حالة المجموعات فلا يمكننا تطبيق هذا التحليل.

❖ يشكل [التواصل عبر الحائط] باعتباره مكونات من نفس النظام، مجموعة تضم [الشخص الذي ينتج ويرسل → رسالة → عبر الأنترنت → والشخص الذي يستقبل ويستجيب].

لا يمكن لمجموعة المكونات المرتبطة بالتواصل في نفس الشكل أن تتحول إلى نظام، إذ ليست منظمة في نفس النظام ومن خلال طبيعتها، فإن التحليلات المنهجية النسقية غير صالحة في هذه الحالة.

❖ يجب على الطيور أن تقوم بشيء ما أثناء التواصل في الأوقات التي تحقق فيها توددها، وعلى الأطفال الذين يكتبون الرسائل إلى الحكماء الثلاثة، والأقمار الاصطناعية للتواصل، ولافتات الملاعب ومراقبة الصحافة؛ لذلك يمكن معالجة هذه المجموعة كأنها إضافة بطرق لا تعد ولا تحصى، مثلا، إجراء (لائحة من الأعمال في نهاية الدرس)، لكنه من غير المرجح أن تكون هذه العناصر منظمة في نفس المجموعة، فيكون من الاعتباطي الإشارة إليها باعتبارها مكونات النظام، ومن الخطأ تحليلها بالطريقة التي يتم بها تحليل النظم.

3° يعتبر العنصر جزءا من النظام عندما يتم شرح السمات التي يتوفر عليها كنتيجة لانتمائه لهذا النظام.

ويتم تطبيق هذا المبدأ النظامي باستعمال ثلاث قواعد، بحيث تستخدم لتحديد ما إذا كان العنصر يتوفر على السمات التي يتضمنها نظام معين.

ج) قواعد التحليل النسقي

أ) القواعد التي تحدد مشاركة العناصر في النظام، ويكون حضور المكونات المشاركة ضروريا لوجود، واستمرارية أو اشتغال النظام.

❖ يتم بالضرورة إشترك فاعلين يشغلان موقعين الأنا والآخر ويؤديان وظيفتهما في نظام تواصلية، رغم أن كون المتواصلين إنسانا أو حيوانا أمرا ثانويا.

يوجد في محيط التواصل عدد غير محدود من العناصر التي تظهر معه وفي الوقت نفسه، لكنها لا تتوفر على الخصائص التي تنتج عن انتمائها للنظام التواصلية، لذا يمكن للمحلل أن يدرج أيا منها لأنها تبدو له مهمة أو لأي سبب آخر، لكنه يوضح أن العناصر المدرجة لا تنتمي إلى النظام التواصلية، بالرغم من أن وجودها ضمنى في التواصل ويعتمد عليها؛ والأمثلة الآتية تناسب المكونات المدرجة:

❖ كل المتواصلين لهم أم، ويحسون بالجوع ولهم نوايا، لذلك تعتبر الأمهات، والحاجيات الأساسية والمقاصد أشياء أولية ومهمة، لكنها لا تعتبر مكونات في نظم التواصل.

❖ الطفل لا يريد تقبيل خالته، إذ لم تطلب منه ذلك، والمستهلك لا يشتري إن لم ير المنتج في الإعلان؛ وفي بعض الأحيان تتوصل الخالات إلى تقبيلهن من لدن أبناء أخواتهن، ولا بعض المستهلكين يشترون من صانعي المواد المعلنة، لأنهم أظهروا من قبل سلوكيات تواصلية، لكن القبلات والمشتريات تعتبر مكونات في نظم تواصل.

(ب) القواعد التي يقوم بها التحليل من أجل تمييز عناصر النظام، ويتعلق الأمر هنا باختلاف المواقع التي يتم احتلالها أو الوظائف التي يتم القيام بها والتي تكون ضرورية لكي يوجد ويعمل النظام.

❖ يعتبر الموقعان المختلفان لأننا والآخر تمييزا ناتجا عن البنية التي تتوفر عليها النظم التواصلية.

❖ ينتج التمييز بين السلوكيات التواصلية والتنفيذية عن الوظائف المختلفة التي تتم في التفاعلات، لهذا يعتبر كل من [التواصل] و[الإجراء] مكونين لنظام آخر أكثر شمولية [نظام التفاعل].

تعتبر التمييزات بين مكونات التواصل، حسب المواقع أو الوظائف التي يتوفر عليها أي نظام آخر، معيارا غير مناسبة؛ تمنع في هذه الأمثلة:

❖ يمكن القيام داخل العائلة بتفاعلات تواصلية، بينما المواقع العائلية [أب"، و"أم" و"أخ"]، والمواقع التواصلية [أنا والآخر] ليست قابلة للاستبدال لأنها تتناسب مع نظم مختلفة؛ وينطبق الشيء نفسه على المواقع التي يحتلها الأفراد في التنظيمات والمؤسسات؛ ولا تعتبر، في هذه الأمثلة، وجهة النظر التي يتم بواسطتها اختيار عناصر النظام معيارا خاصا.

ج) القواعد التي تنتج عن التبعية بين عناصر النظام، لاسيما أن العلاقات بين المكونات هي نتيجة لطاقة نفس النظام.

أما بالنسبة إلى التبعية التي توجد بين الأفعال التعبيرية والإدراكية، فهي تنتج عن وظائفها في المسار التواصلي.

يتم بواسطة التواصل الربط بين العديد من الأشياء، ويكون بعضها مرتبطا في ما بينه؛ لكن لا يتم اعتبارها كمكونات نظام التواصل إلا عندما يتم شرح هذه التبعية بواسطة الانتماء إلى هذا النظام؛ وعندما تعتبر كل علاقة مناسبة لإنشاء نماذج التواصل، تصبح منهجا للتواصل.

❖ يرتبط بواسطة التواصل التغير المناخي، والزكام، وارتفاع نسبة الأمل في الحياة، وعموما كل ما يحدث في العالم؛ لذا يمكن للتواصل أن يشير إلى هذه التغيرات والتأثير في سلوكيات أولئك الذين يشاركون فيه بأية طريقة، لكن تلك التغيرات هي نتيجة لتلك السلوكيات، وليست للتواصل.

يعرض هذا التحليل بعض التعريفات الدقيقة للنظم والتحليل النسقي.

- النظم عبارة عن مجموعات مكونة من عناصر ضمنية متباينة وتوجد بينها تبعية.
- التحليل النسقي عبارة عن دراسة تنظيم النظم، ويحدد المكونات التي توجد في كل نظام، وكيف تتميز عن بعضها البعض، ثم العلاقات التي تم الاحتفاظ بها في النظام.
- يتميز التحليل النسقي الصالح بكونه يحدد النظم التي يصفها بالشكل الذي تكونت به.

نلخص في الجدول 1.23 هذه الخصائص المنهجية النسقية.

الجدول 1.23 تحليل التنظيم في النظام

مستوى التحليل	السمة الخاصة لتمييز المكونات	النقيض النسقي الذي يمكن أن يؤثر في كل مستوى.
اختيار عناصر المكونات (أ)	متضمنة	يتيح تمييز العناصر التي تعتبر أو لا تعتبر مكونات في النظام.
التمييز بين المكونات (ب)	متباينة	يتيح تمييز العناصر المتميزة التي تدخل في تشكيل جزء من النظام.
العلاقة بين المكونات (ج)	تبعية	يتيح تمييز التدخلات المختلفة لكل مكون أثناء اشتغال النظام.

د) النظم والمعياري النظري

تحتل النظريات التي تعمل بالنظم موقعا في مستوى أكثر شمولية مقارنة بالعلوم المتخصصة في كل مكون من المكونات، كما تقدم المعيار، أو بالأحرى، وجهة النظر التي يتم من خلالها تصميم وإجراء دراسة علمية لما هو غير متجانس، فهو عبارة عن معيار نظري يحدد حقل المعرفة بشكل صائب؛ لهذا تتعكس هذه الصفة على ثلاثة مظاهر:

1° تفادي تجزيء المعرفة (فهي متكاملة)، ويصبح من الممكن دراسة العناصر الأكثر تباينا والتي تدخل في التواصل وفق وجهة نظر وحيدة.

2° تفادي النظرية التي يتم استبدالها بالمنهجية (فهما مرتبطتان)، ويتم تحديد فضاء المعرفة الذي يناسب التواصل، ولا يغزو فضاءات أخرى، ولا يعالج استبدالها يسهل الربط بينها.

3° تطبيق التحليلات النسقية على الوجه الأصح (فهي عملية)، وتعتبر المعيار الصالح لإنشاء نماذج تحترم المبادئ المنهجية والقواعد التي تم وصفها في العنوان السابق.

يمكن تصور نظرية التواصل كعمل يساهم فيه المعيار الخاص بالنسبة إلى الدراسات العلمية للظواهر التواصلية.

4. المعيار الذي يدمج دراسة التواصل

توجد نظرية التواصل ضمن النظريات الأخرى التي تتناول الظواهر التطورية والتطور الإنساني، لأن التواصل من الطبيعة، كما أنها مرتبطة بنظريات عديدة تعالج الأنسنة، لأن التواصل الإنساني من العقلية، والمجتمع والثقافة؛ ومن ثم تعتبر المكونات التي تأخذ بعين الاعتبار نظرية التواصل والمسارات التي تحللها كذلك مادة للدراسة في هذه الحقول الأخرى.

لذلك، لا توجد الخصوصية التي تتوفر عليها نظرية التواصل في الحالة الحيوانية أو الإنسانية، والتطورية أو التاريخية، والطبيعية أو الاجتماعية، للعناصر والمسارات التي تدرس. ويكون استخدام معيار مختلف عن أي تخصص آخر، سواء كان طبيعياً أو ثقافياً، من أجل فهم الظواهر التواصلية وتحقيق علوم التواصل؛ وعندما يغيب هذا المعيار يكون من المستحيل ربط المظاهر البيولوجية والثقافية للتواصل¹⁶⁹. لذا تتشكل هذه الاختلافات باستعمال مفهومي المنطق:

- "المواضيع المادية": كل تلك التي لها علاقة بالتخصص الذي يعالجها.
- "الموضوع الرئيسي": وجهة النظر التي يدرس من خلالها هذا التخصص المواضيع المادية.

1 تتقاسم نظرية التواصل مع نظريات أخرى كل موضوع من المواضيع المادية التي تدرسها:

- تتناول مكونات ومسارات غير إنسانية، ومن بين هذه العناصر هناك الأشياء الملائمة؛ والفاعلون الحيوان وأعضاؤهم التعبيرية والحسية؛ ثم أنماط السلوك. وهي تتقاسمها كمواضيع مادية مع الفيزياء، والإيكولوجيا، والبيولوجيا، وعلم الأعصاب، وعلم الحيوان، والإيثولوجية، وبيونولوجيا الحيوانات والكثير من التخصصات الأخرى.
- تضم كذلك مكونات ومسارات إنسانية، ومن بين هذه العناصر هناك الأفراد والتنظيمات الاجتماعية، المواضيع والوسائل الاصطناعية للتواصل، التمثلات والعقلية، ثم محتوياتها وآفاقها

¹⁶⁹ في غياب المعيار المحدد، فدراسة التواصل تأرجحت خلال وقت طويل بين توجهين متناقضين وغير كافيين: وهما المثالية أو البيولوجية. قد تخصص التوجه المثالي في الخصائص التي تميز بين الفاعل الإنساني والحيواني، لكن تتجاهل الأسس التطورية المشتركة؛ ومع ذلك سيكتسب التواصل الإنساني الخصائص التي ستجعل منه وسيلة الثقافة من خلال بعض القدرات لتدبير المعلومة الموروثة من الأصناف غير الإنسانية؛ فهذه التطورات تنتج في عالم مازال غير مضيء بسبب مجرد، ولا حتى معذبة بواسطة القيم الإنسانية. أما التوجه البيولوجي فقد أخذ بعين الاعتبار السمات المشتركة التي يتوفر عليها التواصل الإنساني والحيواني؛ ومع ذلك، ومنذ اللحظة حيث يتفاعل المتواصلون في عالم منظم بقواعد وقيم، وسمات مشتركة بواسطة التواصل الحيواني والإنساني، تشتغل بطريقة أخرى؛ لقد تم توضيح أن التقنيات، والعمل والتنظيم الاجتماعي تحول قدرات المتواصلون، وطرق إنتاج التواصل والاستعمالات التواصلية. بالنسبة إلى مقاربات المثاليين، تواجه: ماكس شيلير (Max Scheller)، وكاسير (Cassire)؛ وبالنسبة إلى البيولوجيين لورنز (Lorenz)؛ هناك تحليل مفصل للمثالية والبيولوجية عند مانويل مارتين سيرانو في: "نظرية التواصل: الإستمولوجية وتحليل المرجع".

المرجعية. كما تتقاسم هذه المواضيع مع السيكولوجيا الجينية، والتطورية والتفاضلية؛ وأما نظرية السلوك تتقاسم مع السيكولوجيا الاجتماعية والتحليلية؛ ومع الأنثروبولوجيا، والإثنوغرافيا، والتخصصات الاجتماعية والتاريخية الاجتماعية؛ ومع علم القيم ونظريات الثقافة. وهذه القائمة قابلة للتوسيع.

² في المقابل، لا تتقاسم نظرية التواصل مع أية نظرية أخرى وجهة نظرها، فهي تقوم بتحليل المواضيع المادية بطريقتها الخاصة.

▪ تقدم نظرية التواصل طريقة خاصة لتحليل المواضيع المادية، بحيث تؤخذ بعين الاعتبار حينما تشارك في الإنتاج والاستعمال الدال للمعلومة؛ لذا فإن هذا المنظور هو الموضوع الرئيسي الخاص بنظرية التواصل.

لذلك تتيح خصوصية الموضوع الرئيسي تعريفاً إبستمولوجياً لنظرية التواصل:

تعتبر نظرية التواصل نموذجاً للمعارف المرتبطة بالأنشطة الدالة.

يعتمد وجود علوم التواصل على تطوير النظرية، لأنها النموذج الذي يتيح لها التخصص في حالة كل موضوع مادي، ولأنها تتميز عن العلوم الأخرى¹⁷⁰.

5. النماذج التي تقدم أشكال التواصل¹⁷¹

تتكون نظم التواصل من أشكال وتعمل بالشكل الذي يناسب المعيار الذي حددته. ويمكن تصميم نماذج نسقية عندما يتم التعرف على المعيار ويُطبق على دراسة التواصل.

يعيد النموذج النسقي إنتاج شكل النظام، ويمثل المكونات التي يعتمد عليها وجود هذا النظام؛ والاختلافات والتقاطعات بين هذه المكونات التي تنتج عن الانتماء إلى نفس النظام.

¹⁷⁰ لا توجد على الأقل حالياً، نموذجاً عام يمكن استعماله نظريتين أو أكثر غير متجانسين؛ لهذا السبب كل واحدة منهما تعتبر، في حد ذاتها، نموذجاً خاصاً يتوفر على تطبيق فقط بالنسبة إلى العلوم التي أسستها، ونفس الشيء يحدث مع نظرية التواصل. يفهم بعض الكتاب أن نظرية التواصل هي النموذج العام الذي يتيح بخياطة التمزق الموجود بين معرف حول الطبيعة وحول الثقافة؛ فقد كانت نحو نصف قرن فرضية السيميولوجيين من قبيل رولان بارت (Roland Barthes). فقد كان لاختبار هذه الإمكانية معنى في الحقبة حيث كانت الإبستمولوجية تعيد الضبط نتيجة لظهور نظرية النظم، والسيميولوجيا ثم نظرية المعلومة. (انظر مانويل مارتن سيرانو: "الأسس الإبستمولوجية للمناهج الحالية للبحث الاجتماعي"). وفي الأونة الأخيرة يوجد بعض كتاب ما بعد الحداثة في نفس خط رولان بارت، لكن يمكن إظهار أن نظرية التواصل هي نموذج آخر خاص جداً، لأن التواصل يشير إلى التصرفات التعبيرية، وتلك التي تكون فقط من بين الطرق الممكنة لارتباط التفاعلات؛ كما تعتبر نظرية السلوك نموذج آخر أكثر عمومية، بحيث يضم السلوكيات التعبيرية والتنفيذية، لكن لا يتعلق الأمر بنموذج عالمي يناسب كل النظريات التي تعمل على المواضيع ذات المكونات غير المتجانسة.

¹⁷¹ تم تطوير مفهوم النماذج، وأنواعها ثم تطبيقها عند مانويل مارتن سيرانو في: "إبستمولوجية التواصل وتحليل المرجع" الفصل 6.

لقد تم تناول النماذج النسقية في هذا الكتاب لتوضيح الأشكال التي تتوفر عليها بنية التواصل، ومساراته ووظيفته:

- يكون تحليل بنية التواصل في مستوى المكونات التي تشكل كل النظم التواصلية. وقد عرضنا هذا النموذج ووصفناه في العنوان 2 من الفصل 13.
- يقع تحليل مسارات التواصل في مستوى المكونات التواصلية وغير التواصلية التي تتوافق مع طريقة تبادل المعلومة. وقد وصفنا النموذج في العنوان 3 من الفصل 13.
- يكون تحليل وظيفة التواصل في مستوى شكل استعمال الإشارات في التفاعلات، أما نظم التفاعل فتشمل العلاقات التي تم القيام بها عبر الإشارات (التواصلية) وكذلك اللجوء إلى الإجراءات التنفيذية (غير التواصلية). ومن أجل فهم كيفية اشتغالها في التفاعلات يتم دراستها جنباً إلى جنب؛ لذا يكون التواصل في هذا المستوى مندمجاً في نظام الحدث، هكذا تم شرحه في الفصل 17. والنموذج المناسب يظهر في العنوان 5.

التواصل في دراسة الحياة والمجتمع

أظهر الفصل السابق كيف يحدد العمل النظري حقل التواصل الذي يعثر فيه على موضوعه الخاص؛ أما في هذا الفصل، فنقوم بتحليل تكميلي، مع تطبيق النظرية لتحديد حقول أخرى يكون فيها التواصل ضمنياً. تظهر التطبيقات الدالة في العديد من الخطوات المختلفة، في مملكة الحيوان، وبين أشباه الإنسان، ولدى الإنسان؛ لهذا السبب كان لوجود نظرية التواصل قيمة بالنسبة إلى العديد من العلوم التطورية والتاريخية الأخرى.

وتقوم نظرية التواصل، لإنشاء فضاء معرفي خاص، بتوضيح مدى أهمية الدراسات المناسبة، بحيث إنها لا تغزو فضاء علوم أخرى رغم إنشائها لعلاقات علمية مع العديد منها؛ مثلاً، ميزت دراسة التواصل بين الحفريات الحيوانية والإنسانية ونتائجها؛ والأمر نفسه فعل بخصوص السيكولوجيا الجينية ودراسات أخرى لتطور الجنين؛ فمن خلال ما تم إنجازه في العلوم الاجتماعية، تم التعرف على أنها مختلفة بالنسبة إلى التواصل وأن جميعها تحتاج إليه؛ لذا يمكن توضيح هذه الأهمية في العنوانين الآتين، وذلك في مسألتين مراتبتين:

1° مستويات دراسة التواصل

2° النظم غير التواصلية التي يجب أخذها بعين الاعتبار لشرح وظيفة التواصل.

1. مستويات تحليل التواصل

(أ) المستويات التي تمت دراستها، والموقع الذي يحتله التواصل في كل مستوى

إن التوفر على معيار خاص يتيح تحليل التواصل على مستويات متعددة، لأنه لا يعتبر نظاماً منعزلاً؛ لذا يظهر التواصل في بعض المستويات الأكثر عمومية كأنه نظام فرعي لنظم أخرى، أما في مستواه الخاص فيكون مفتوحاً على نظم أخرى، وتوجد داخله مكونات تعتبر بدورها نظاماً؛ لذلك جعلت هذه الارتباطات ممكنة في هذا الكتاب:

- I. تحديد أصول التواصل وتحولاته، وهذه دراسة جينية للتواصل تم تطويرها في الجزء الأول.
- II. وضع سمات ووظيفة النظم التواصلية، وملاءمة دراسة تخصص التواصل، وتم القيام بهذا في الجزء الثاني.
- III. التعرف على كيفية تحول التواصل الحيواني إلى الإنساني وتغيراته، وتشكيل الدراسة الأنتروبوجينية للتواصل التي تم عرضها في الجزء الثاني.
- IV. تحليل العلاقات بين التواصل وإجبارية الفعل، يتعلق الأمر هنا بدراسة الفعل، قد قمنا بها في الفصلين 17 و 18.

يحافظ التواصل في كل مستوى على خصائصه الأساسية؛ ويتشكل ويعمل بالمعيار الذي يعتبره خاصا، لذلك تستمر الدراسة في الانتماء إلى فضاء المعارف التواصلية، بينما، في المقابل، تعتبر العلاقات مع النظم الأخرى خاصة بالمستوى المناسب؛ ويبين الجدول 1.24 المستويات التي تمت دراستها في هذا الكتاب، والمكانة التي يحتلها التواصل في كل واحد منها وكذا نوع الدراسات، حسب المستوى، حول التواصل والذي يمكن القيام به.

الجدول 1.24 المستويات التي تمت دراستها في هذا الكتاب والمكانة التي يحتلها التواصل في كل واحد منها
<ul style="list-style-type: none"> ■ يظهر التواصل أولا في التحليل التعاقبي بوصفه آلية متكيفة (في المستويات من 1 إلى 4)؛ ثم بوصفه تخصصا تطوريا (من 5 إلى 6)، وبعد ذلك كآلية أنتروبوجينية (من 7 إلى 9)؛ لذا فهي سلسلة تمتد من أصول التواصل ومظاهره الأكثر بساطة، حتى الأشكال الأكثر تعقيدا والتي تم اكتسابها على مر الزمن التطوري والتاريخي. ■ يظهر التواصل من خلال المنظور التزامني باعتباره نظاما فرعيا على مستوى الفعل. (IV)
<p>I. من أجل دراسة جينية للتواصل باعتباره آلية متكيفة</p> <p>اتباع المسار التطوري من العام جدا إلى الخاص جدا:</p> <ol style="list-style-type: none"> 1. تعتبر أشكال التواصل التي فعلت منذ ظهور الأصناف الأولى للمتواصلين حتى صنفنا، تغيرات متكيفة (ذات نجاح تطوري) تميز التغيرات الأخرى التي لم تكن تكيفية. 2. يعتبر التواصل ضمن التغيرات التكيفية تغييرا للاتكالية (بالنسبة إلى التفاعلات)، هناك تكيفات

تطورية للأجسام أو/و السلوكيات التي تُدخل في العالم نماذج جديدة من الاستقلالية.

3. يعتبر التواصل ضمن التكيفات التفاعلية (الالتكالية) تغيرا تكيفيا في استعمال المعلومة، بدلا من تكيفات تطورية أخرى تحول استعمال المواد أو الطاقات.

4. أما ضمن تكيفات التفاعلات المعلوماتية، فقد يحدد "التواصل" كل التكيفات التطورية في الاستعمال الدال للمعلومة، فهي إذن تكيفات بديلة للتغيير التطوري للاستعمالات الدالة للمعلومة.

II. من أجل دراسة التواصل بوصفه تخصصا تطوريا

يستمر المسار التطوري للتواصل بتحويل تحليل نشأة التواصل إلى دراسة التخصص التطوري له؛ لذا ظهر نوعان من التخصصات التطورية:

5. **التواصل المنظمة فقط من خلال قوانين التطور (جميعها قبل الإنسان)**، إذ يتم التمييز بين نوعين من التخصصات:

- تكيفات التواصل التي تحول الإشارات الأساسية؛
- الابتكارات التطورية التي تخصص التواصل في التأثيرات المترتبة عن التفاعل (الإنجاز والتفاعل).

6. ظهرت في ما بعد التواصل التي أدرجت أيضا قوانين حاسمة (الإنسان وأشباهه)، لذا يرتبط التخصص التطوري للتواصل مع التخصص الاجتماعي، ويدخل في أصل الإنسان.

III. من أجل دراسة أنثروبوجينية للتواصل

يظهر التخصص الأنثروبوجيني للتواصل في رابطتين:

7. **التكيفات التواصلية التي تطورت.** بدأ هذا المسار مع التطور الإنساني وانتهى (في الوقت الراهن) مع الإنسان العاقل. وتجدر الإشارة إلى أنه من خلال هذه المرحلة يتم إنتاج التغيرات التطورية التي تعمل بمثابة دعامة للتواصل الإنساني والقوانين الطبيعية التي تنظمها؛ وفي الوقت نفسه، لا تستجيب استعمالات وتنظيمات التواصل إلى القوانين التطورية، بل إلى الأشكال الاجتماعية للتكيف (انظر الفصل 14).

في حين أن الرابط الجديد للتخصص، أنهى التواصلات في **التكيفات التي تأنسنت**، ويستمر هذا المسار ويتوفر بدوره على سلسلة من التخصصات:

8. **التحديث التواصلي:** يشمل التغيرات التطورية الأخيرة التي تكتسب قيمة تكيفية في سياق

المجتمعات الإنسانية المنظمة؛ ثم إدراج الوسائل والمهارات التواصلية التي جعلت هذه التكيفات ممكنة.

9. *المأسسة التواصلية*: تضم الإنتاج الاجتماعي للتواصل، وتزيد المعلومة، والفعل والتنظيم الاجتماعي في ارتباطها، ومشاركة التنظيمات الاجتماعية المتخصصة في تلبية الاستعمالات الأنثروبوجينية السابقة للتواصل¹⁷².

IV. من أجل دراسة الفعل

يمكن من منظور الفعل، تفكيك سلوكيات الفاعل أو الفاعلين ضمن مجموعة من الأفعال، وحسب طبيعته، فالأفعال هي إما تنفيذية أو تعبيرية؛ لذا، فالتواصل هو نوع من السلوك المتخصص في إنتاج الأفعال الدالة (التعبيرية)، إذن فهو واحد من النسقين الفرعيين اللذين يشملان نظام الفعل؛ أما النظام الفرعي الآخر فهو من الأفعال الإجبارية (التنفيذية).

ب) النظرة المشتركة لمستويات تحليل التواصل

يعتبر المستوى التطوري الأول والأكثر عمومية مقارنة بجميع مستويات دراسة التواصل¹⁷³، حيث يتم فيه اعتبار التواصل في علاقته مع الحياة الدافع الذي ظهر من خلاله مصطلح "الحياة" في العنوان الفرعي لهذا الكتاب. إذن، يعتبر التواصل، من منظور الحياة، آلية تكيفية متأخرة جدا؛ وكما تم شرحه، فهو ناتج عن التخصص التطوري للتفاعلات؛ كما أن الابتكار يتكون من المعلومة الدالة التي تتكيف من أجل الإشارة، أما من حيث التطور فهو خيار تكيفي بديل أو مكمل مع كل التكيفات الأخرى للأجسام أو/و السلوكيات.

يخضع التواصل على مستوى الحياة إلى إجراءات الاختيار الطبيعي، وبعد هذه التحولات النسقية يقوم التواصل بإشارة وحيدة إلى الأفعال التطورية¹⁷⁴.

¹⁷² يعتبر هذا التخصص التواصلية موضوع كتاب آخر. انظر: مانويل مارتين سيرانو: "الإنتاج الاجتماعي للتواصل".
¹⁷³ يمكن الرجوع بكل تأكيد إلى المستويات السابقة، حيث تظهر الحياة في هذه الحالة كطريقة خاصة من تنظيم التعقيد؛ والتعقيد كأنه تخصص للمادة والطاقة؛ وهكذا دواليك. هناك مسار معرفي رائع لكنه في غير محله للقيام بنظرية التواصل.
¹⁷⁴ تكون أليات التطور عبارة عن قوانين حيث يتم الجمع بين القوانين الطبيعية والحظ؛ فالنظم التي تطور "القانون الذاتي" و"الحظ" يكونان في تعارض مستمر، لكنهما لا ينفصلان؛ أما في الطبيعة تحدد ردة فعل العناصر الحية على الأفعال الخارجية، مسارات الاستجابة العشوائية انطلاقا من تلك التي ستظهر نظام منتهي عن طريق الصدفة؛ ومن ثم تتحول المجموعات المكونة من عناصر حية مختلفة، من استجابة العشوائية إلى المنظمة، وتبدأ الاشتغال مثل النظم؛ وتشرح حالة النظم التي تتطور، بشكل تبادلي، لماذا تم إنتاج فعل معين في الماضي ولماذا هذا العمل يقوم بالعديد من الوظائف الرئيسية حتى يستمر النظام؛ لذا، فالفرق بين "وضع" و"نهاية" تغيير النظام، هو مجرد مسألة وقت ليشملة التحليل. فكل هذه المقاربات هي من أصل التحكم الآلي وتوجد في عمل مجموعة من المتخصصين في التطور الذين يطبقونها في مجاله نماذج وينير

تحتوي دراسة التواصل في مستواه على كل النماذج التواصلية التي ظهرت منذ النشأة حتى النظم التواصلية الحالية؛ وأيضا على التخصصات التي تطورت أو تحولت، ثم تلك التي انقرضت؛ لذا تسلط هذه التغيرات الضوء على القدرة التكيفية الهائلة التي يتوفر عليها الاستعمال الدال للمعلومة بالنسبة إلى الأصناف الحيوانية من جهة، ثم الإنسانية¹⁷⁵ من جهة أخرى.

تم الانتهاء من النظم التواصلية خلال التطور الإنساني عندما تم تقديم خطة في تنظيمها ووظيفتها، بحيث يبدأ التطور الإنساني، بالشكل الذي تم وصفه في هذا الكتاب، في الوقت الذي يتأثر فيه الترتيب الطبيعي أيضا بالمعايير غير الطبيعية. لذلك لا تحل لأول مرة الاضطرابات بين الكائنات الحية وحالة العالم فقط مع الطفرات الجينية أو تكيفات الأجسام والسلوكيات؛ فقد ظهرت أصناف وصلت في بعض الأحيان إلى تغيير محيطها كي لا يتم استبعادها؛ لذا يتيح هذا المنعطف البالغ الأهمية تكيفات عديدة وسريعة دون الحاجة إلى التحول الجيني.

وكما تم توضيحه، أصبحت التدخلات في الوسط تعطل الدور التكيفي للتحولات، عندما بدأت أيضا نظم التواصل، المحددة بالطبيعة، في كونها تكون منظمة من خلال الفعل الإنساني. فمنذ ذلك الحين أصبح التواصل إحدى الآليات الأنتروبوجينية؛ وهذا هو سبب الإشارة في العنوان الفرعي لهذا الكتاب إلى "المجتمع"¹⁷⁶.

إن ظهور التواصل باعتباره شكلا من أشكال السلوك يفتح منظورا آخر على مستوى نظام الفعل، فأغلب الأفعال التعبيرية تظهر بجانب أفعال تنفيذية أخرى؛ لذا توضح التركيبات والتبديلات في ما بينها هذه السلوكيات (انظر الفصل 17 و 18).

(Wiener)(1949-1948)؛ ويتوفر باريل (Barel) (1983) على عرض متميز للمفاهيم التي تمت الإشارة إليها؛ لذلك يوجد اختبار مفصل لهذا المسار من الدراسات عند مانويل مارتين سيرانو: في المناهج الحالية للبحث الاجتماعي.

¹⁷⁵ ستتخذ التخصصات التواصلية، أولا وظائف حيوية ثم اجتماعية، كلما انتشرت أكثر وتعقدت؛ لذا يتحول النجاح التطوري للتواصل آلية طبيعية التي قد تفرض في الجمع مع الذكاء، سيطرة معينة للطبيعة حيث يتم تشكيلهما.

¹⁷⁶ تتدخل النهاية في ترتيب النظم المتأثرة وفي اشتغالها، وفي نهاية المطاف تصل إلى تدميرها؛ وتنتهي إنسانية أشباه الإنسان مجتمعاتها، وأنشطتها التي تتطور ثم النظم الإيكولوجية التي تشغلها؛ وكذلك تؤثر عليها بنفسها. تعتبر كل النظم غير الطبيعية بواسطة التعريف، منتهية، وتكون مادية (الساكنة) أو غير مادية (كل نظم الأفكار). على امتداد نشأة الإنسان كانت النهاية تدخل نماذج في عدد ينتشر أكثر كل مرة من النظم الطبيعية. تم إتاحة عروض منهجية حول النهاية في منشورات عدة لمانويل مارتين سيرانو (انظر تطبيق النظرية والمنهج النسقي في العلوم الاجتماعية).

2. انفتاح التواصل على نظم أخرى 177

يحتفظ التحليل النسقي بمفهوم "الانفتاح" بالنسبة إلى النظام الذي يؤثر في الآخر يتأثر به، وبينيته و/أو وظيفته؛ لذا فهذه التأثيرات هي محددة والتواصل هو نظام منفتح.

إن معرفة النظم التي يفتح عليها التواصل تسهل استعمال المفاهيم والقواعد التي يتم تلخيصها في الجدول 2.24. كما تقوم أيضا بالإشارة إلى التجاوزات المنهجية التي ينبغي تجنبها، باستعمال أمثلة ذات صلة بالتواصل.

الجدول 2.24 قواعد لتحديد النظم الأخرى التي يفتح عليها نظام التواصل	
القواعد	التجاوزات المنهجية
(أ) لا يفتح النظام الذي يتم تحليله على كل النظم المفترضة.	التفكير في كون كل ما يتغير في العالم مرتبط بشكل خاص بتغيرات التواصل. الافتقار إلى المعيار.
	إدراج الوقت، أو الفضاء في النموذج النسقي للتواصل باعتبارهما النظامين اللذين يرتبط التواصل بفضلهما، رغم أن التواصل يفترض الوقت والمكان كأى نشاط آخر. الخلط بين ما هو عام وما هو خاص.
(ب) لا يفتح النظام الذي يتم تحليله على النظام الكلي الذي يشكل جزءا منه أو يحتوي عليه.	معالجة العلاقات الناتجة عن للتواصل باحترام النظام الكلي الذي يشملها باعتباره تفاعلات بين نسقين في نفس المستوى. تجاوز مستوى التحليل.
(ج) عندما تتم دراسة النظام الذي يتم تحليله كجزء من النظام الكلي الذي يتكون منه، فالنظام الذي تم	نسب خصائص النظام الذي يشكل التواصل جزءا منه إلى نظام التواصل.

177 إن المعلومة التي يتم عرضها هنا حول انفتاح النظم والمنهجيات رقيقة التي يتم التعرف عليها، يمكن توسيعها في منشورات أخرى لمانويل مارتين سيرانو في: "الوساطة الاجتماعية"؛ والمناهج الجديدة لدراسة بنية وديناميكية الثقافة؛ و"الإنتاج الاجتماعي للتواصل"؛ و"إبسيمولوجية التواصل في أربعين سنة من عمره"؛ و"التغيرات الواقعة في وظائف التواصل وفي قيمة المعلومة" ثم "التحولات الاجتماعية المرتبطة بالحقبة السمعية البصرية".

خطأ الاستدلال.	تحليله هو الذي يتكون منه.
إلغاء انفراد العناصر التي تشكل جزءا من نظام كلي ما والذي يشكل التواصل جزءا منه، ويفترض أن العنصر الذي تم إلغاؤه، له علاقات مباشرة مع نظام التواصل. تحليل اختزالي.	(د) تبقى العناصر التي تتصرف بشكل أحادي في نظام ما منفردة عندما ترتبط بعناصر أخرى من النظام.
تفسير كون كل علاقة يمكن أن يقوم بها المحلل هي صالحة لإنشاء نموذج نسقي. تمثلاث اعتباطية.	(هـ) تفتح النظم فقط على تلك النظم المحددة. (تكون التأثيرات التي تدخل في البنية أو في الوظيفة محددة؛ كما أن كل النظم الأخرى التي تتوفر بواسطتها على نوع آخر من العلاقة لا يشملها هذا التحليل).
تجاهل كون المعيار الذي يكون صالحا لشرح النظام الفرعي يكون دائما غير صالح لشرح النظام الذي يشكل جزءا منه. التعميم المفرط.	(و) لا تفتح النظم على النظم الفرعية التي تتوفر عليها.
اعتقاد كون ما هو مرتبط بنظام التواصل وينظم أخرى يعمل بنفس الطريقة في كلا النسقين. الخلط بين الموضوع المادي والرئيسي.	(ز) لا يفتح النظامان اللذان يتوفران على معيار موازي الواحد على الآخر. أما النظامان اللذان يتوفران على معيار مختلف فهما غير متوازيان.

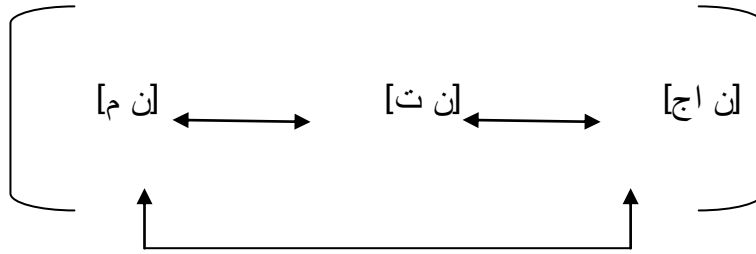
من خلال هذه القواعد يتم التعرف على وجود نظام منفتح على كل نظم التواصل، سواء كانت طبيعية أو منتهية؛ إذن فهو نظام المواضيع المرجعية [ن م]؛ وكذلك يتم تحديد نظام ثاني حيث تفتح كل نظم التواصل المنتهية؛ إذن هو نظام اجتماعي [ن اج]. لذا يتم عرض هذه العلاقات في النماذج 3.24.

3.24 نماذج النظم التي تكون مفتوحة على نظم التواصل الطبيعية والمنتية مفتوحة.

(1) تكون النظم التواصلية المنظمة بالقوانين الطبيعية فقط (إن ت] غير منتية) مفتوحة فقط على نظام المواضيع المرجعية [ن م].



(2) تكون النظم التواصلية التي تدمج القوانين المعتمدة (إن ت منتية) مفتوحة على نظام المواضيع المرجعية [ن م] والنظام الاجتماعي (ن ا ج).



لقد ظهر النموذج (1) لأول مرة في هذا الكتاب من أجل عرض انفتاح النظم التواصلية المنظمة فقط بالقوانين الطبيعية؛ أما النموذج الثاني قد بني وانتشر في نظرية التواصل، وأما بالنسبة إلى اليبستيمولوجية وتحليل المرجع فهما، على وجه الخصوص، لعرض انفتاح نظم التواصل على نظم أخرى تدمج قوانين معتمدة. يبدو لي صحيحا وكاملا¹⁷⁸.

(أ) الانفتاح على نظام المواضيع المرجعية [ن م]

تشكل مجموعة كل ذلك من خلال ما يتواصل نظام المواضيع المرجعية [ن م]، بحيث يكون أي نظام تواصل [ن ت] مفتوحا على كل ما يمكن الإشارة إليه بواسطة الأصناف التواصلية المناسبة؛ لذلك يتطور في التواصل الحيواني التشكيل العالم المرجعي، والتواصل بشكل منفرد ثم يتطابقان في المضمون

¹⁷⁸ يمكن الاطلاع على مظاهر ايبستيمولوجية النموذج في منشورات سابقة ولاحقة، بالإضافة إلى "نظرية التواصل: اليبستيمولوجية وتحليل المرجع". يمكن لمانويل مارتن سيرانو دراستها في: اليبستيمولوجية الجدلية الاجتماعية، وأعمال نماذج أخرى للبحث في العلوم الاجتماعية" ثم "الإنتاج الاجتماعي للتواصل".

والشكل؛ وكما تم توضيحه، فيمكن التواصل بين الإنسان حول الكيانات التي وجدت، وتوجد وستوجد (أشياء طبيعية، ومواضيع اصطناعية، ونباتية، وحيوانية ثم كائنات إنسانية)؛ وحول الكيانات التي لم توجد، ولا توجد ولن توجد (كيانات خيالية أو أسطورية، وكائنات مستحيلة، والتي تنسب لها طابع الأشياء، والمواضيع أو الكائنات الحية)؛ ثم حول الصفات، والمظاهر، والعلاقات، والأفعال، سواء ملحوظة أو غير ملحوظة، مدركة أو غير مدركة، التي تم تحديدها لكل كيان حقيقي ومثالي، وفردى أو جماعى ثم ممكن أو مستحيل؛ لهذا قد تم معالجة تحليل العلاقات بين المتواصلين والمرجع في الفصول 11، 12 و 20؛ لذا يمكن لتغيير المواضيع المرجعية أن تؤثر في العلاقات بين مكونات نظام التواصل، إذن فالنشاط الدال للتواصل يمكن بدوره أن يعيد تشكيل تنظيم المراجع.

(ب) انفتاح النظام الاجتماعي [ن اج]

يفترض ظهور نظم التواصل المنفتحة على النظم الاجتماعية أن المجموعة الإنسانية وصلت إلى مستوى التفاعل حيث يتأسس التعاون والتضامن في المعايير الموضوعية لانتماء المجموعة، بحيث تجسده هذه الأخيرة، أي، يمكن أن يكون مدركا ومتمثلا كموضوع الحاجيات والحقوق، وكيانا في الوقت نفسه مختلفا عن أفراد المجموعات الأخرى؛ ذلك عندما يفتح نظام التواصل [ن ت] على انتهاء التنظيمات الاجتماعية [ن اج] التي تم تشكيلها مع تطور الإنسان، فيتم، من وجهة نظر المجموعة، تجميع التنظيمات الاجتماعية في النظام الكلي الذي يشملها والذي هو النظام الاجتماعي [ن اج]؛ لهذا ينبغي في هذا المسار الانفتاحي للتواصل على المجتمع التمييز بين مرحلتين:

- الأولى: تطبيق انتهاء التنظيمات الاجتماعية الأولى، حيث كانت المجموعات المنظمة وفق القرابة والوقت لتقسيم المهام¹⁷⁹، على الأرجح هي التنظيمات الأولى التي أنهت التواصل.
- الثانية: إضافة المؤسسات الرسمية للانتهاء التي طبقت التنظيمات الأولى، إذن يفعل هذا عندما يتم مأسسة الأنشطة التواصلية. وكما هو واضح، تتدخل في التواصل تنظيمات متخصصة في كل أنواع الأنشطة الاجتماعية، والإنتاجية ثم الإنجابية¹⁸⁰.

¹⁷⁹ تبدأ القولة "يمكن افتراض أن أصل النظم الاجتماعية الأولى للتواصل مرتبطة ارتباطا وثيقا بإعداد نظم العلاقة؛ فكلا التغيران - للكلمات والنساء - يعتبران اجتماعيين انطلاقا من اللحظة حيث يتم تنظيمهما بواسطة قواعد وليس بأنماط التصرف، كما لا يمكن لأي منهما أن يقوم بالفقرة النوعية التي قد تحوله من التطبيق الطبيعي إلى النشاط الاجتماعي، دون ارتباط الإعداد بقواعد الآخر" انتهت القولة. المصدر: مانويل مارتن سيرانو: "الإنتاج الاجتماعي للتواصل"، الطبعة 3، ص. 88.

¹⁸⁰ تبدأ القولة "كان من الضروري على التغيرات الاجتماعية القادرة على أن تكون النسخة الأصلية لشكل التواصل المؤسساتي، أن يكون منظما بشكل اعتيادي، وبشرك جميع عناصر مجموعة أو عدة مجموعات ويحتفلون بشكل مستمر ومتكرر. توجد تفاعلات بهذه الصفات وبالتالي من

يحول الانتقال من مرحلة إلى أخرى في الوقت نفسه، النظم التواصلية والاجتماعية، فتظهر علاقات خاصة بينهما لتسيير التواصل العام، لذا في الإحالة¹⁸¹ يتم إعادة إنتاج الإشارة إلى التحولات.

لذلك يعمل التواصل المنتهي عن طريق التنظيمات لهذا نفسه، من أجل استعمالات المعلومة التي انتهت في المجتمع، ذلك باستعمال المصطلحات التي اقترحتها، *التواصل الوسيط* في تشكيل واشتغال التنظيمات الأولى، والثانية، الرسمية وغير الرسمية ثم الخاصة والعامية.

كانت خلال التطور الإنساني ومراحله الأولية تدخلات (إن أج] ووساطات (إن ت]) مرتبطة، حتى تم وصف هذا المسار بشكل مفصل في الجزء الثالث من هذا الكتاب؛ لذا وصلت اللحظة التي يتم فيها تأسيس سلطة المجموعات الاجتماعية من خلال وساطة التواصل، وسلطته عن طريق تدخل التنظيمات؛ لهذا تم إدراج في الإحالة¹⁸² إشارة مقتضبة إلى أنواع السلطات المؤسساتية.

كانت المصادر النظرية لتحليلات الوصلات والتأثيرات في *الوسيط الاجتماعي*، حيث تم القيام بدراسة نسقية لهذه المسارات في *الإنتاج الاجتماعي للتواصل*. فمن خلال هاذين الكتابين يوجد العديد من التطبيقات المنهجية والإمبريقية التي نشرتها في أعمال أخرى التي تم ذكرها في البيبليوغرافيا.

المحتمل تكون مشكلة من النظام التواصل العام، في احتفالات منظمة لأداء وظائف سحرية (مثلا، إزالة الضرر، الانجذاب، التهيؤ إلى مناطق الصيد، وإلى الأسلاف، وإلى الأعداء المينون، ... إلخ)، واقتصادية (مثلا، التبادلات مثل البوتلاش)، وطبيعيا في التفاعلات الحربية والزوجية" انتهت الإحالة. المصدر: مانويل مارتن سيرانو، الإنتاج الاجتماعي للتواصل، الطبعة 3، ص 88.

¹⁸¹ تبدأ المقولة "يحفظ التواصل الاجتماعي القائم على القرابة بنفس الزيادة الاجتماعية للزمن والمواد التي تهدف إلى إعادة توزيع الموارد المادية والجينية. ويتطلب التواصل العام زيادة اجتماعية جديدة، وجزء من نظام إعادة التوزيع الهادفة إلى توفير المعدات التكنولوجية والإنسانية الخاصة بها.

يحدد التواصل القائم على القرابة الوظائف بين المتواصلين بمنطق الاختلافات الاجتماعية التي تساعده على تقسيم الأجناس، والأعمار والمكانة العائلية. إن التواصل العام يدرج هذه المعايير لتقسيم آخر بوظائف تواصلية على وجه التحديد، بواسطة تلك التي تضمن تنسيق معين مستقر للمعدات، ومستعملي واستعمالات التواصل.

ينظم التواصل القائم على القرابة التفاعلات بين المتواصلين على أساس المعايير التي يمكن شرحها من خلال قوانين الإقامة والتلاقح. ورغم أن التواصل العام يسمح بالتعرف على أن معاييره تأتي من هذه القوانين، يساهم في إعادة الإنتاج الاجتماعي، مستمدا قوانينه من معايير أخرى أكثر شساعة. ينفصل المحيط الخاص عن المحيط العام ويرسم بشكل معقد كثيرا فضاء لمرجع مجموعة محددة بمجموعة أخرى. انتهت المقولة. المصدر: مانويل مارتن سيرانو، "الإنتاج الاجتماعي للتواصل"، الطبعة الثالثة، ص. 88.

¹⁸² تبدأ الإحالة "عن طريق تدخل النظام الاجتماعي على النظام التواصلية يُفهم أن أي ممارسة شخصية أو مؤسسية التي تؤثر على أحد مكونات نظام التواصل أو النظام في شموليته ... قد تكون مرتبطة بأنواع مختلفة من الممارسات التي تؤثر على النظام التواصلية؛ وهي الآتية:

(أ) التدخلات التي تؤثر على فاعلي التواصل. هي تلك الممارسات التي تحدد تصرف أو عدم تصرف بعض الفاعلين في مسار التواصل، من بينها الإكراه والإقناع.

(ب) التدخلات التي تؤثر على وسائل التواصل. هي تلك الممارسات التي تحدد عمل أو عدم عمل بعض الوسائل الإعلام، من بينها اعتماد وسائل الإعلام من قبل الأشخاص أو الكيانات العامة، الحكومية الخاصة.

(ت) التدخلات التي تؤثر في تعابير التواصل. هي تلك الممارسات التي تحدد عمل أو عدم عمل بعض أو تعابير، من بينها الصمت والرقابة.

(ث) التدخلات التي تؤثر في تمثيلات التواصل. هي تلك الممارسات التي تحدد عمل أو عدم عمل بعض نماذج التمثيل، من بينها التشويه الإيديولوجي للواقع، والمعالجة والتحرير" انتهت الإحالة. (المصدر، مانويل مارتن سيرانو في: "نظرية التواصل: الإيبستيمولوجيا وتحليل المرجع" الفصل، 9.

ج) نظم التواصل في بنية العالم

يعني الانفتاح بين النظم أن العلاقات التي تُنشأ، كما أُشرت إليه، هي التي تحددها؛ لذا فإن النظم الوحيدة تعتبر ضمن كل تلك التي ترتبط بنظام التواصل، والتي تتم بمطلب هذا التحديد، نظاما للمواضيع المرجعية [ن م] ونظاما اجتماعيا [ن اج]، لذلك جاءت فكرة العرض منذ ظهور "نظرية التواصل؛ الإبيستيمولوجية وتحليل المرجع"؛ وأما التحليلات التي تطلبها إخراج هذا الكتاب، فقد تأكدت لي في نفس الفكرة؛ لهذا أعتقد أن هذه الملاحظة لها قيمة القانون الذي يتشكل من الطريقة الآتية:

إن إدماج نظم التواصل بتنظيم العالم، يرتبط بالبنية المرجعية للعالم.

فالقانون لديه ثلاثة نتائج:

1. تتفتح كل نظم التواصل [ن ت] على العالم عبر العلاقات بالنظم المرجعية [ن م] التي تتوفر عليها.
2. تكون كذلك نظم التواصل المنتهية منفتحة على النظام الاجتماعي [ن اج].
3. لا يوجد أي نظام آخر قد تتفتح عليه نظم التواصل.

يتوفر هذا القانون على أهمية نظرية، لأنه يعرف مكانة التواصل داخل تشكيل العالم، ولأنه يحدد النظم الأخرى التي ينبغي أن تولي اهتمام تفضيلي عندما يتم شرح التنظيم والوظيفة التواصليتين؛ لذا تحدد المنهجية النسقية ما يلي:

(أ) أن العلاقة بين [ن ت] و [ن م] فهي ضرورية بالنسبة إلى كل نظم التواصل؛ وأن مكونات هذه العلاقة فهي غير قابلة للاستبدال بأخرى بديلة.

(ب) أن العلاقة بين [ن ت] و [ن اج] أيضا لها هذه الخصائص، لكن فقط في نظم التواصل المنتهية بسبب تدخل التنظيمات الإنسانية.

تظهر النماذج التي اشتُقت من هذا القانون في الخطاطة 3.24، وأن نشر هذا الكتاب جعل تحليل الانفتاح المرجعي للتواصل (أ) يمتد إلى نظم التواصل غير المنتهية، كما أن دراسة العلاقات بين [ن ت] و [ن م] لها مظاهر منهجية يتم شرحها في العنوان المقبل.

أما بخصوص النموذج الذي وصف الانفتاح بين [ن ت]، و [ن م] ثم [ن اج] تم استعماله من قبل العديد من الباحثين والباحثات من أجل تصميم دراستهم؛ فقد كان أيضا موضوعا للعديد من الصياغات المتكررة التي نشرت من قبل كتاب آخرين الذين يمارسون حقهم في التفسير، وفي العمل عندما يريدون، ذلك من خلال نظرية التواصل التي طورتها؛ ومن أجل هذا تم نشرها وتدريسها. لهذا يمكن للقراء في كل النصوص تقريبا أن يكون واضحا لهم الذي يتناسب مع المُفسّر والمفسّر، لكن ليس دائما في الحالة التي ذكرتُ باستمرار أن الغموض يمكن أن يُشتق من صفات خاطئة.

تعتبر "المعلومة التقنية" منشورا موجودا في الانترنت ولها انتشار واسع في العالم الأكاديمي، بحيث يتم عرض فيها نموذج "الوسيط الجدلي للتواصل الاجتماعي" (النموذج و ج ت اج) حسب ما يقرأ أنه "تم تشكيله لأول مرة من قبل مارتين سيرانو"¹⁸³.

إن الاستطلاعات على النسخ الأصلية تشرف التلميذ، رغم ظهورها في المنشورات كما هي، حيث تعتمد الإشارة إلى علم الأنساب المعتمد، من أجل مهنة أكاديمية، وحيث تصبح الإشارة إلى العمل الأصلي حتمية، لأن القراء الذين يعرفونه كثر؛ لذا قد يزيد التلميذ من هذا الشرف، عندما يدرج كذلك أي إشارة إلى النسخ الأصلية التي استعملها في عروض عمله الأخرى التي وصلت إلى قراء أقل إدراكا؛ ففي كل الأحوال، أشركتني "المعلومة التقنية" ونصوص أخرى موازية بشكل ضمني في أصول نموذج (و ج ت اج)، وجعلتها بطريقة ليست دائما صحيحة لا على مستوى المضمون ولا على مستوى الشكل؛ هذا ما يفعل كل مرة يشركني فيها (أو لا) التلميذ الذي يشارك بنفسه في ابتكار مفاهيم ومنهجيات التي أخذها من منشوراتي الخاصة. لذا فاستغلال عمل الآخر ليس له علاقة بالاعتراف، وليس جزءا من الارتباط العلمي الذي نحتفظ جميعا بإنتاج أساتذتنا؛ والذي يمكن أن يكون نقدا لكن دائما خالصا، لهذا السبب سأتوقف للإشارة إلى كاتب هذا النموذج مثل "التلميذ".

يتم هذا الشخص قد قدم كأبي واحد "التطور الإبيتسيمولوجي" و "الاقتراح الأولي" و "الصيغة الأولية من قبل مانويل مارتين سيرانو"¹⁸⁴. وما تتوفر عليه هذه الصورة الذاتية المبالغ فيها ليس هو الموضوع الذي من خلاله تم تسميته هنا. لكن يتضح الآن أن لا أساس لهذا الإعلان الذاتي، عندما أعود لعرض الطريقة التي بنيت بها تحليلات الوسيط، والمنهجيات النسقية والجدلية لإنتاج نظرية التواصل. ولا حتى هنا يتم

¹⁸³ (انظر) Piñuel. J. L (s,d) Disponible en Enero 2007, en: <http://www.ucm.es/Info/mdcs/presentaciónMdcs.pdf>

¹⁸⁴ انظر : Piñuel at Alt. Rv. TELOS, N°. 33, Marzo-Mayo 1993, Pags. 65-79.

إعطاء اهتمام للمناسبات حيث يتكون الافتراض التطوري الإبيستيمولوجي من تعميم "لمقترحي الأول" ولتلك التي واصلت نشرها. وأما النسخ الأصلية القائمة على هذه "التطورات" توجد في المنشورات المعروفة التي يمكن الوصول إليها من أجل أي مقارنة تصبح ضرورية. ومع ذلك يمكن لهذا الإصرار أن يؤدي إلى ربط مساهماتي الخاصة بالأفعال التي يمكن أن تنسب فقط إلى كاتبها، والتي تعتبر في اعتقادي خاطئة. وكما يمكن تفسير أنني بقيت صامتا، فيكون ذلك بسبب العطاء، لذا أجد نفسي مضطرا لتقديم التوضيحات الآتية.

لم أشكل أي نموذج من الوسيط الجدلي للتواصل الاجتماعي؛ ففي الواقع قد أنتجت الوسيط والنماذج الجدلية التي يتم التعرف عليها، وتتم دراستها ثم تطبيقها في حقل التواصل، لكن لا هذه النماذج ولا أي نموذج آخر يُستخدم لدراسة "الوسيط الجدلي للتواصل" لأن هذا الموضوع غير موجود؛ لذا لا يعتبر الوسيط التواصلية أبدا جدليا، لهذا سأعود لتوضيح هذه الملاحظة في العنوان 4 أ من نفس هذا الفصل.

على أي حال فمبدع (و ج ت اج) يستخلص من هذه النماذج مواد معينة، ويصنفها باعتبارها "سوابق" (لنموذج الخاص)؛ كُتبت في (انظر. في الإحالة 14) أن السوابق تحدد موضوع "التواصل" وهي أساس نظريته، لكنها تدخل في المشهد كما لو كانت شخصيات المسرحي برانديلو (Pirandello)، وفي البحث عن الكاتب الذي ابتكر هذا الإبداع الإبيستيمولوجي؛ فبناء على هذا الخطاب يعني أن هناك ضمنا "نحن" ذات هوية فعلية لا يتم الكشف عنها؛ إذ يمكن للذين يقرؤونه تفسير أن "أنا" (في الجمع وبحروف صغيرة) تشير إلى العضو المثقف الذي شكل جزءا من المخاطب، أو بالأحرى، فهم أن "أنا" (في المفرد وبحروف كبيرة) تحدد للمخاطب نفسه، كيف يفعل في كتابات الباباوات وخصوصا عند استعمال طريقة "نحن"؛ مثلا، في الإحالة الآتية من الفقرة الموالية. يمكن، على أي حال، افتراض القراء، وكاتب "الخطاب" الذي يشير (على الرغم من عدم توضيحه) إلى بعض المساهمات هي أيضا له. وعندما يثير العرض ظهور مثل هذه الالتباسات، يتوقع من اللذين يستعملون في منشوراتهم المادية الأخرى، أن يطبقوا قواعد الإشارة الشفافة، فيتم في هذه الحالة الاستقرار ضمنا على أن مبدع (و ج ت اج) لم يشارك في إنتاج هذه المساهمات الملموسة، ولا حتى أخرى إضافية التي تم تحديدها. والحقيقة أن هذه المقترحات التي عممت، قد تم أخذها من العرض النسقي للنظرية التي أصبحت في منشورات معينة. وأخير تعتبر المقترحات عملا لكاتب وليس لمجموعة، بما في ذلك تلك السوابق رغم تقديمها في كتاب يحتوي على

فصول مؤلفين آخرين (كما هو الحال في "نظرية التواصل"؛ و"ابستمولوجية التحليل المرجع")؛ لذا تستمر مادة المعلومة التقنية في توليد أخطاء على الطريقة التالية:

(تبدأ الإحالة)¹⁸⁵ "إن المفهوم المؤلف للوسيط الاجتماعي" في عملنا النظري (sic)، قد يضعنا على الطريق الصحيح للذهاب خطوة أبعد من ذلك ... وأن المقترح المقدم في العمل الابستمولوجي المذكور ... (توضيحي: كانت الإشارة إلى "نظرية التواصل؛ وابستمولوجية تحليل المرجع") يطرح التواصل باعتباره ... نظاما مفتوحا على التأثيرات المتبادلة مع نسقين آخرين وهما: النظام الاجتماعي ونظام المواضيع أو المراجع (تسمى بالنظام الإيكولوجي في كتيبي الأخيرة) (O.C) تم تأكيدها في النص الأصلي).

لقد كان المقترح ولازال جزءا من تحليل نظم التواصل ومنهجياتها "معروضا" من قبل خادم في تسعة فصول من هذا الكتاب، فهي مكتوبة على وجه الخصوص في فصل الخامس؛ لهذا يعتبر نموذج كاتب (و ج ت اج) الذي عدله في كتبه الأخيرة، هو نفسه الذي تم إعادة إنتاجه في الخطاطة 3.24 (2)، والتعديل الذي تم في هذا النموذج فعلا هو تطوير لنسخته الأصلية؛ فلهذه الأسباب اقترحت في (أ) وفي بعض العناوين الأخرى الآتية، استبدال نظام المواضيع المرجعية (ن م) بنظام إيكولوجي لا يتناسب "مع المقترح المعروف في العمل الابستمولوجي المذكور"، ولا مع أي من المقترحات الأخرى المعروضة في منشوراتي الأخرى التي قررت استغلال وأخذ بشكل معمم من نفس النمط. التوضيح الذي أتاح استمرار في العرض المنهجي.

3. نظم التواصل، والنظم الإيكولوجية ثم النظم المرجعية

يحدد "النظام الإيكولوجي" أي فضاء حيث تتواجد الأشياء، والكائنات الحية ومنتجاتها، الفضاء الذي يظهر متأثرا بأحداث العوامل التي تحتله؛ إذن فهو المصطلح الإيكولوجي الذي يستعمل في بعض الأحيان كمصطلح موازي للوسط" في نظرية التطور؛ لذا قد أشرت إلى هذه الاستعمالات في العنوان I من الفصل 8.

¹⁸⁵ (تبدأ الإحالة) "تم في "ابستمولوجية التواصل وتحليل المرجع" العثور على تعريف الموضوع الذي يمكن تسميته "التواصل ... فالاقترح هو التمييز الاصطلاحي لإجراءين من التفاعل الممكن تحقيقه من قبل الكائنات الحية: التفاعل التنفيذي، والتفاعل التواصل" ... ("التمييز الاصطلاحي" "الذي يسمح") "باتباع تحاليل التجارب والمعارف حول التواصل" ... "وإثبات المكانة الابستمولوجية للمعارف للمعارف حول التواصل" ... الذي "يسهل اكتشافين مهمين:

1. الأول، إخبار بالوظيفة التطورية التي يقوم بها التواصل في سلوك الكائنات الحية، والتي تسمح بتشكيل برنامج للبحث أصلي إلى حد ما...
2. الثاني، تسليط الضوء على أدائه الحيوي العالي أمام أداء التفاعل التنفيذي" (انتهت الإحالة). في المعلومات العلمية، دون، رقم الصفحة (O.C).

عندما يتم تحليل التطور باعتباره نظاما، من المهم الأخذ بعين الاعتبار النظام الإيكولوجي وفهمه بوصفه "وسطا"، لأن النظم الإيكولوجية بمعية الطفرات الجينية تنشط التغيرات التطورية؛ ويكون "النظام الإيكولوجي" في التحليل النسقي في مستوى "التطور" وليس "التواصل"؛ لذا تعتمد تغيرات التواصل على التطور، وليس على النظم الإيكولوجية؛ إذن التواصل هو إمكانية من بين إمكانيات التكيفات التي تكون نتيجة لهذه الديناميكية التطورية (انظر. في العنوان 1 ب من هذا الفصل؛ والفصل 8). ومن ثم يرتكب النموذج الذي ينشئ علاقات مباشرة بين النظام الإيكولوجي والنظام التواصلي، تجاوزا للمستوى¹⁸⁶.

من الممكن داخل النظام التطوري ومن أجل وصفه، ربط [التواصل والتكيفات الأخرى في الوقت نفسه]، مع [النظام الإيكولوجي والطفرات في الوقت نفسه]، فعندما يربط النموذج التواصل فقط مع النظم الإيكولوجية، يرتكب خطأ منهجيا آخر وهو الاختزال¹⁸⁷.

لا يمكن استبدال نظام المراجع في نظرية التواصل بالنظام الإيكولوجي، بالرغم من أن كل العناصر التي يمكن أن تشير إلى النظام الإيكولوجي، يتم إدراجها في نظام المواضيع المرجعية والعكس غير صحيح؛ إذن فنظام المواضيع المرجعية يشمل أيضا كل المراجع التي لا تشغل أي مكان في النظام الإيكولوجي ولا تؤثر عليه، لأنها مستحيلة وغير موجودة، مثل القارة التي لا تتسجم مع ما تحويه وليس جزءا من محتوياتها، ولا يمكن للنظام الإيكولوجي أن يشغل مكان نظام مواضيع المرجع، فهذا الاستبدال يعتبر تعميما تعسفيا.

تتعامل نظرية التواصل والإيكولوجية بمعية تخصصات أخرى أكثر مع نفس المواضيع المادية، لكن بمعايير مختلفة؛ لذا فإن طرق معالجة الإيكولوجية لها علاقة مع تنظيم هذه العناصر كلما شغلت فضاء مادي، تؤثر فيه ولا تتأثر به، وبالتالي فهذه العلاقات ليست تواصلية.

¹⁸⁶ تطورت نظم التواصل منذ نشأتها حتى التواصل الإنساني داخل التغيرات التطورية. وكما هو معلوم أن وظيفة التطور تحيل ليس فقط إلى تغيرات النظم الإيكولوجية ذات قيمة انتقائية، بينما كذلك إلى الطفرات الجينية وقيمتها التكيفية. (انظر الفصل 8 العنوان 1). وإذا ما ارتفعت المستويات المتعددة في تحليل التواصل لنظام التواصل يتم العثور عليه كشكل من التكيف للنظام التطوري (انظر جدول 24.1)، ولا يتم فتح هذا النظام ولا أي من مكوناته.

¹⁸⁷ لا تكون الإشارة إلى الطفرات الجينية وتغيرات الوسط منفصلة، لأنها مكونات متضمنة (عمل بطريقة غير منفصلة) في التكيفات التطورية. كما تؤثر بدون استثناء وحسب نفس القوانين، على كل الآليات التكيفية. والإشارة إلى التواصل باعتباره آلية تكيفية يجب كذلك تضيي الأشكال الأخرى للتكيف غير التواصلي، لأنها عبارة عن اختيارات بديلة أو تكميلية. لذا يمكن تنفيذ التكيفات مع تحولات الأجهزة العضوية (مثلا، تكيفات جسدية كالنقل، وأكياس الحيوانات الجرابية)؛ أو من خلال الابتكارات السلوكية، سواء التفاعلية أو لا، لها مكونات تواصلية أو لا (أمثلة التكيفات غير التواصلية: سبات شتوي، التداخل).

وأما طرق عمل نظرية التواصل لها علاقة بتنظيم العناصر **كلما كانت قابلة للتعين**، إذن فهي علاقات تواصلية؛ لقد تم تحليل التمييز بين العلاقات المرجعية والعلاقات الأخرى غير التواصلية في العنوان 2 أ من الفصل 20.

يعتبر نظام المواضيع المرجعية نظاما، لأنه يشكل كل العناصر المؤهلة في التواصل، ومن ثم يمكنه تطبيق التحليل النسقي¹⁸⁸؛ لذلك لا تعتبر المجموعة التي تحتوي على مكونات إيكولوجية وغير الإيكولوجية، نظاما إيكولوجيا، لكنها مجموعة، كما يعتبر تمثيل المجموعة بنموذج نسقي بناء اعتباريا.

إن الطريقة التي يتم بها تشكيل العناصر في نظام المواضيع المرجعية، تتناسب مع الطريقة التي تكون فيها العناصر مؤهلة؛ ومع الطريقة التي يتم بها تحديدها. (انظر الإحالة 18)¹⁸⁹ في المقابل إن أي طريقة يتم تكوينها من أجل تنظيم هذه المكونات في النظام الإيكولوجي، تقتقر إلى الفهم (لا تشمل كل العناصر)، وإلى العلاقة (ليس لها علاقة مع التعيين) ثم إلى التطبيق (لا يتم استعمالها لربط التواصل وعالم المواضيع المرجعية). لا يستخدم المعيار الإيكولوجي لتشكيل العناصر مرجعيا، لأنه لا توجد طريقة لتنظيم متى يتم تعيينه باعتباره نظاما. ونتيجة لذلك لا يوجد أيضا أي نموذج نسقي يطبق هذا المعيار ويكون صالحا؛ وأما العمل بمعيار اعتباري لا يعتبر صالحا في أعمال أكاديمية لأنه ينتج السفسطة والخطابة. انظر الإحالة 19¹⁹⁰.

4. الجدلية، والتواصل ثم الوسيط

عدت في هذا الكتاب لاستعمال التحليلات الجدلية ونماذجها من أجل معالجة أصول وخصائص التواصل الإنساني¹⁹¹، فأساتذة وباحثين آخرين قد استعملوا ونشروا بنجاح هذا الجزء من مؤلفي؛ لذلك أتاحت لي

¹⁸⁸ يمكن دمج كل الكيانات بوظيفة أن كل هذا حقيقي أو غير حقيقي (معيار أنتولوجي)؛ أن يكون كل شيء قابل للتفكير (المعيار المعرفي)؛ أن يكون كل شيء مشار إليه (معيار تواصلية). تعتبر مجموعة الأشياء الموجودة، والقابلة للتفكير، والقابلة للذكر، والمشار إليها، نظم ويمكن تحليلها بحد ذاتها. أما مجموعة الأشياء التي تتكون من العناصر التي لها بعد إيكولوجي ومن أخرى لا تتوفر على البعد الإيكولوجي ولا يمكن أن تتوفر عليه، لا تكون، من حيث التعريف، مكونة إيكولوجيا، فهي مضافة ويجب تحليلها بحد ذاتها.

¹⁸⁹ يوجد الشكل الذي ينظم المصطلحات مع تلك الذي يعين العناصر، فهذا الشكل تعبير يربط بالشكل المرجعي الذي وضع التعيينات المناسبة؛ وأن كلا الشكلين مرتبطين بشكل العمل العقلي، والعلامات المعرفية التي تم إنشائها لتمييز بعض العناصر عن بعضها. مثلا، يوجد شكل تعبير حيث تتميز "قمة / رجل"، التي تتوفر على علاقة مع الشكل المرجعي الذي يسمح بمعرفة جزء من الجبل وعدم خلطه مع الذكر من الصنف البشري. والاختلاف التعبيري بين "نظارات/ المالك الحزين" وعلاقته المرجعية "نظارات/ المالك الحزين"، يتم ربطها بالمضمون الذي يتوفر عليه التمييز العقلي بين (الوسيلة لتحسين الرؤية) و(الطيور المحددة). أما التمييز المعرفي بين (المعرفة الإنسانية) و(النفخ) يسمح بلاعثر على المصطلحات من أجل التواصل دون الالتباس حول بناء نظري واضطراب عضوي، ... إلخ.

¹⁹⁰ يمكن استخلاص نفس مكونات الإحالة السابقة من دورها المرجعي من أجل نسب لها الدور الإيكولوجي الذي يمكنه أن يرتبط في شيء مع نظم التواصل. ومن بين العلاقات الأخرى الممكنة: يمكن وضع في القمم ملصقات ومواضيع تواصلية أخرى، ونعب المالك الحزين، والنظارات فهي مفيدة للقراءة، وبعض الرجال هم المواضيع التي تتواصل. قد فكر فوكو أن نظرية التواصل هي إبستمولوجية؛ والانتقادات تُصنّف التواصل الشفوي... إلخ. إن هذه المكونات وغيرها التي تكون غير منتظمة تخلق نماذج اعتبارية.

¹⁹¹ قد أدرجت التحاليل الجدلية ونماذجها في حقل التواصل منذ منشوراتي الأولى. فقد طبقها للقيام بنظرية التواصل وبحثت بواسطتها عن الإنتاج الاجتماعي للتواصل في كتاب بنفس العنوان. إن دراسة العلاقة بين النماذج الجدلية والوساطة قد كشفت عنها منذ عام 1977 في كتاب "الوساطة الاجتماعية"، وفي نفس السنة نشرت تحليلا حول كيفية تطبيق المنهج الجدلي في المقال "الاببيستيمولوجية الجدلية الاجتماعية". وفي

صياغة هذا الفصل الفرصة للعودة في ترتيبه إلى المفاهيم التي تميز النموذج الجدلي، والتطبيقات الممكنة لدراسة التواصل.

يتوفر العنوان "الجدلي" على استعمالات غير علمية منذ حوالي أكثر من قرن ونصف، وعندما كتبت هذه السطور كان مازال يتوفر عليها؛ لذا يتشكل المصطلح الجدلي بين الاستعمالات الخطابية المفضلة في الأكاديمية، ربما بسبب ظهورها الغامض الذي يتم بها إخفاء فراغ الأفكار، وربما بسبب التضمينات ذات الحقيقة التعويضية التي كانت لها ذات مرة؛ كما أن هناك تحولات تعلن بأن الجدل كما لو كان قاعدة لأي تنظيم ديني؛ فينبغي في هذا السياق المزيف تدقيق على أن الجدل هو النموذج الذي يتناسب مع نموذج معين لا أكثر ولا أقل.

يعد الجدل تقنية منطقية من التفكير الذي تم تأريخه؛ بمعنى، الذي تم ربطه بتصرفات المجتمعات الإنسانية على امتداد الأزمنة، ويستخدم لتحليل المسارات حيث تعارض النظم التي توجد ضمناً بينها ومع ذلك تخضع إلى القوانين المختلفة.

يساعد هذا التعريف على توضيح أي سوء فهم وفتح الطريق للعرض الموالي.

لذلك تنتمي النظم المشاركة في العلاقات الجدلية إلى حقول مختلفة، حيث ينبغي إعدادها في مختلف التخصصات من أجل التطبيق الجدلي، ومنح حياة العالم لعدد قليل من البحوث الجدلية، فالنظم التي تعمل بطريقة جدلية يتم القيام بها في مستويات أكثر عمومية؛ لذلك لا يساهم أي شخص في معرفة استعمال الجدل، وحتى هيجل لم يستعملها لشرح الكل؛ أخيراً فالمسارات الجدلية لا من اليمين ولا من اليسار. وبالتالي، إذا كان شخص ما أسس الكثير من العلاقات الجدلية عن الآخر، ويستعمل الجدلية

1978 قدمت لأول مرة النماذج الجدلية في النظرية وبحث التواصل، بواسطة مقال "إعمال حول مناهج أخرى للبحث في العلوم الاجتماعية" وحللت تصاميمها الممكنة وتطبيقاتها. فهذا الاقتراح تم تطويره سنة 1981 في كتاب "نظرية التواصل. الإيبستيمولوجية وتحليل المرجع". هناك منشورات أخرى دراسية طورت نقط خاصة لتطبيق الجدل في التواصل: "جدلية الفعل-التواصل" (1981)، "دراسة تاريخية للتأثيرات الناتجة عن نقل تقنيات التواصل" (1985)، "الاقتصاد السياسي والتواصل العام" (1985)، "وساطة وسائل التواصل" (1985). في الوقت نفسه تحققت العديد من البحوث للحقل من أجل اختبار النظرية والمنهجية؛ والأكثر أهمية: "مقارنة بين مضامين المعلومة السياسية في فترة فرانكو وفي الملكية البرلمانية" (1979-1982). وفي النسخ المتتالية لهذا يوجد التطبيق الأكثر طموحاً والنتائج الأكثر أهمية التي وصلت إليها بواسطة اللجوء إلى المناهج الجدلية.

منذ سنة 1983 حتى الآن، كان تأليف هذا الكتاب فرصة دائمة لتقييم الجوانب المناسبة لاستخدام الجدلية في نظرية التواصل. فهذه المراجعات توجد في: "الأساطير واحتياجات نظرية التواصل" سنة (1989)؛ "إيبستيمولوجية التواصل في أربعين سنة من نشأته" سنة (1990)؛ التغييرات التي تفعل في وظائف التواصل وقيمة المعلومة" سنة (1992)؛ "التحولات الاجتماعية المرتبطة بالحقبة السبعية البصرية" سنة (1995). ولإتمام هذا الوصف ذكرت حقل ثالث وأخير الذي أتاح لي الفرصة لاستعمال المنهجية الجدلية. فمنذ سنة 1986 تحققت من التغييرات السوسيو-تاريخية في المواقع الاجتماعية التي لها علاقة بالأعمار (صغار، شباب وكبار) وبالأنجاس. ووضعتها في علاقة مع التغييرات المناسبة للعقلية (الصور الشخصية والغيرية) وفي التمثلات الجماعية (حكايات، مضامين وسائل الإعلام المكتوبة والسبعية البصرية). وأما الكتب الرئيسية التي قدمت لي هذه النتائج فهي مجموعة في لائحة المراجع.

كلغة، فيذهب بها عن طريق العام ويجلس إلى يسار ماركس الأب، سيكون على الأرجح جاهل آخر انتهازى؛ بينما حاليا يتم التعرف عليها كما كان يفعل دائما، أي، يكتب اسمها تحت عنوان "الجدلية" في كل التسميات والصاقها بفشل الأخطاء التي امتلأت بإنتاج الآخر.

ومع ذلك فإن النموذج الجدلي يكون في نقيض الغموض المعروض والتفاهة، والسفسطائية والخداع الثقافي، وأتمنى أن أكون قادرا على توضيحه في العرض الموالي.

أ) النموذج الجدلي وتطبيقاته

1. ولدت الجدلية في اليونان مع الفلسفة لاستمرار حركة الأفكار المرتبطة بتغيرات العالم¹⁹²

لقد حول هيجل وجهة نظر الجدلية من نشأة الكون إلى نموذج تارة منطقي وتارة أخرى تاريخي، أما ماركس استعمل الجدلية لشرح كيف تم إجراء، واختفاء إعادة إجراء نظرات العالم في حين أن المجتمع الإنساني يخبر بها العالم وب نفسه؛ فثمة هناك في الصفحات المقبلة تفسيرا وتطبيقا للمنهجية التي ابتكرها هذان المؤلفان.

أما حركة الأفكار قد بدأت عندما تضمنت الإنسانية التناقضات بين تطور الطبيعة وتغيرات التاريخ؛ وبعبارة أخرى فالسبرينيتيك التي استخدمت في العديد من الكتب، بدأ فيها هذا التضمين عندما أكملوا أسلافنا بعض المسارات الطبيعية؛ فحسب هذا وحتى ظهور أشباه الإنسان لا تعتبر التغيرات جدليات.

غالبا ما تؤثر القوانين المتعارضة، في الطبيعة غير المكتملة، على نفس الظاهرة، لكن هذا التعارض لا يؤدي لأي برنامج؛ ويمكن حله دائما بالطريقة التي تم استخلاصها من هذه القوانين؛ مثلا، إن نمو عدد السكان على مدى تجديد الموارد، يمكن أن يتعارض مع ارتفاع هذا العدد من السكان، لأن عدد السكان والموارد تنظمهما خصوصا القوانين غير متناقضة في الطبيعة، لاسيما وأننا نعرف في هذه الحالات أن الأصناف تتكيف أو تختفي وأن هذه القوانين ستعمل بطريقة متوقعة¹⁹³.

¹⁹² توجد العديد من الكتب، والمطبوعات وعلى الأنترنت حيث يمكن الاطلاع على الجدلية وكتابتها. يعرض مانويل مارتن سيرانو في: "المناهج الحالية للعلوم الاجتماعية"، دراسة سوسيو تاريخية للجدليات وتطبيقاتها، فالنصوص الرئيسية لهيجل ذات الصلة بهذا العنوان هي: "فينومينولوجية العقل"؛ و"علم المنطق"؛ و"محاضرات في فلسفة التاريخ". أما نصوص ماركس الحالية والأكثر أهمية هي: "مخططات النقد الاقتصادي"؛ أما إنجيلز: "نقد جدلية هيجل والفلسفة العامة"؛ و"الإيديولوجية الألمانية". وهناك ترجمات هذه الأعمال، ليست دائما كاملة، التي تم الإشارة إليها في البيبليوغرافية.

¹⁹³ عندما ينهي الفعل الإنساني وظيفة القوانين الطبيعية، يمكن للسكان الإنسانية أن تنمو بشكل كبير؛ في حين أن الموارد تنمو هندسيا. وفي نهاية المطاف تطبق الطبيعة قوانينها العتيدة و"الباقى من السكان" (حسب ت. ر. مالتوس R.T. Malthus) يتم الحد منهم. كما هو معروف أن "قانون الحديد" قد شكله هذا الكاتب في مقال "مبدأ السكان وتأثيره على تحسين المجتمع في المستقبل"، نشر في 1789.

■ يمكن للتحليلات الجدلية أن تطبق على التواصل منذ اللحظة التي كان فيها منتهيا، فمثل هذا الفعل يفعل مع التطور الإنساني، وحتى هذه اللحظة تخضع التغيرات التي حولت التواصل إلى قوانين تطويرية.

2. تعتبر التغيرات الجدلية نتيجة القدرة الإنسانية على إخضاع الظواهر الطبيعية وخضوعها إلى ما يمليه "العقل"¹⁹⁴.

تظهر من خلال تطبيق العقل المحيطات المتحولة لغرض ما؛ والتنظيمات الإنسانية المنظمة التي نطلق عليها اسم "المجتمعات"، لا يعني أن تقديم الغايات وتطبيق الأوساط التي تستجيب لـ "العقل"، هي بالضرورة برامج أو تصرفات عقلية (بمعنى الفكرية؛ السليمة؛ الصحيحة والمختارة)؛ بينما تدل فقط على أنها طبيعة "منطقية"¹⁹⁵، أي، التصرفات الإنسانية التي تكون ناتجة عن التفكير حول العالم وليس وظيفته.

لذلك يعمل العقل بالمعلومة التي تتجاوز تفكير الفرد؛ وأما التواصل يتيح إمكانية وجود "المنطق" وتحويله، فهذا هو النشاط الذي يضع المعلومة المشتركة في حركة؛ فمن ثم يشارك التواصل الإنساني في الفعل المنطقي بمستويين:

■ يتم في التواصل بناء وإعادة بناء تفسيرات العالم والمجتمعات التي تصلح لإكمالها؛ فهي عبارة عن تمثيلات لكيف تكون وكيف تعمل، ثم كيف ولماذا تحتفظ به وتحوله.

■ في حين أن التواصل عن طريق الأفعال الجماعية يكمل الطبيعة والمجتمع¹⁹⁶.

3. عندما تكون حالة ووظيفة العالم متناقضة يتم إنتاج التعارض.

إن بعض التصرفات الإنسانية التي تستجيب لمنطق العقل، توجه تحولات الحقيقة والمجتمع بطريقة مختلفة عن التوجيه الذي تسجله القوانين الطبيعية؛ لذا قد تم توضيح أن التناقض الأول ظهر عندما تُرجع

¹⁹⁴ كتب الجدليون الهيجليون "العقل" بحروف كبيرة، لتسليط الضوء على طابعه الميتافيزيقي، ومع ذلك يقوم بتحويل الواقع، والمنطق، وفي نفس الوقت يتجسد في حالات الأشياء.

¹⁹⁵ يعتبر "المنطق" في علم مصطلحات الجدل، نشاطا فكريا يشكل التمثيلات مع تلك التي تدرك العالم وتحول. وانطلاقا من مدرسة فرانكفوت (م. هورخيمار M. Horkheimer) تمييز بين العقل النظري ومنطقه، والعقل الأساسي ومنطقه، لذا تم وصف هذا التمييز بشكل مفصل عند مانويل مارتين سيرانو في: "الوساطة الاجتماعية".

¹⁹⁶ إن الدور الذي يلعبه التواصل في دخول العقل لإنهاء المجتمع الإنساني والطبيعة تم عرضه في الجزء الثالث من هذا الكتاب. فالوساطة باعتبارها نشاط اجتماعي والدور الذي يناسبها في التواصل، تم تطويرهما في "الوساطة الاجتماعية". أما العلاقات بين التواصل، والفعل الاجتماعي، والتنظيمات الاجتماعية؛ والوساطات والتدخلات التي تراقق تطبيق العقل (نظري أو الأساسي) في التغيرات التاريخية، تم شرحها في "الإنتاج الاجتماعي للتواصل".

بعض الأصناف التواصل أمام اختيار الطبيعية، فعلا يشير إلى "بنغ بانغ" أصل الإنسان (انظر. العنوان 2 من الفصل 22).

يصب أحيانا الانتهاء في حالات متناقضة؛ وعلى العموم تنتهي حالة التناقض بتدمير المجموعات الإنسانية ومحيطاتها؛ وفي بعض الأحيان ينبثق، من خلال تدبير هذه التناقضات، مجتمع آخر في حالة أخرى للعالم؛ فلم يكن المجتمع الجديد ولا حتى الحقيقة الجديدة التي تدرج فيه، على مستوى تلك التي سبقتها، بينما قد تجاوزتها، مما لا يعني أن تكون بالضرورة أحسن؛ لذا يقصد "التجاوز" بالطريقة التي تتشكل وتعمل بها في الوقت نفسه، هي المظهر الأكثر أصالة وكمالا من سابقتها ("المنجزة")، والتدمير لأشكال الاشتغال والتشكل ("المهملة").

■ توضع أحيانا التغييرات في تشكل واشتغال التواصل على مستوى آخر، فعندما "يتجاوز" التصنيف الجديد للتواصل التصنيف السابق، تكون هذه التغييرات جدلية.

غالبا ما يتم توليد حالات متناقضة بين حالة ووظيفة النظم الاجتماعية والتواصلية¹⁹⁷، في المقابل إن "تجاوز" هذه التناقضات بالتحويل الجدلي للتواصل (أو للمجتمعات) يشكل ظاهرة استثنائية؛ فمن الخطأ طبعا أن كل تناقض يتبعه تغييرا جدليا، وفي الواقع فإن كل خلاقات (التواصل >> المجتمع) تقريبا التي لم تنته باختفاء المجتمعات، قد يتم حلها بالتغييرات الوظيفية (للمجتمع و/أو التواصل)؛ لذا ستكون النظم التواصلية والاجتماعية الناتجة عن التغييرات الوظيفية، أكثر فاعلية أو غير فعالة؛ وأكثر تعقيدا أو أقل تنظيما، لكن تبقى من نفس نوع سابقتها.

يتم تكييف وتطبيق المنهجية الجدلية من أجل تحديد أنواع نظم التواصل التي تجاوزت مستوى التي سبقتها في "الإنتاج الاجتماعي للتواصل"، وقد يمكن لمثل هذه التحولات النادرة جدا، أن تحدد كل التصنيفات للنظم التواصلية التي وجدت منذ أن تم مأسسة التواصل؛ وعندما توفرت المعطيات التاريخية، فقد كان لزاما توضيح في أي نظم اجتماعية تم تطبيقها وبأي طريقة.

¹⁹⁷ تُنتج التناقضات بين النظم الاجتماعية والتواصلية لأن كلاهما يتحولان مع الوقت، أما تغييرات الأول أو الآخر أو كلاهما فهي متعارضة. تعرض الجدلية منهج للتحديد هذه التغييرات والتناقضات عبر مستويات: في تطور الموارد والتقنيات (البنيات التحتية)؛ وفي إعادة تنظيم المؤسسات والتنظيمات وأنشطتها (البنيات)؛ وفي تجديد المعرفة، والمعتقدات والأهداف (البنيات الفوقية). يوجد شرح المنهج وتطبيقه في تحليل التناقضات بين النظام الاجتماعي والتوصلي، عند مانويل مارتين سيرانو في: "الإنتاج الاجتماعي للتواصل".

لهذا تتيح نفس المنهجية إكمال قائمة أنواع النظم التواصلية السابقة والعودة إلى أشباه الإنسان؛ فلقد قمت بتطبيقها أيضا في هذا الكتاب؛ إذن فأشكال التواصل التي لم يتم مأسستها والتي تجاوزت سابقتها هي مرتبطة بالإحالة¹⁹⁸؛ ومن ثم فإن المعلومة المتاحة لمعرفة دورها في التاريخ مازالت غير كافية.

تتطور الدراسة النظرية والتطبيقية للتواصل عندما يتم التعرف على هذه التغيرات الجدلية، لكن لا يمكن التقليل منها؛ لهذا يستغرق كل تصنيف لنظم التواصل قرونا أو بالأحرى آلاف السنين؛ فخلال هذه الفترة الطويلة يتضمن النظام التواصل الحالى الابتكارات، والوظائف التي تتيح فهم الحاجيات التواصلية للتنظيمات الاجتماعية المختلفة؛ فبناء على هذا تم البحث وشرح هذه التغيرات والتطبيقات بمناهج وظيفية؛ وبالتالي تعتبر المنهجيات التي تستعمل في البحث ونظرية التواصل جدلية بالنسبة إلى نطاق، ووظيفية بالنسبة إلى نطاق آخر. فمن الخطأ اعتقاد أن الجدلية هي المنهج الذي بواسطته يتم شرح كل التغيرات التاريخية لنظم التواصل وعلاقتها مع تغيرات نظم أخرى.

4. تدمج الأفعال الإنسانية العقل في العالم عندما يتم ابتكار المحيطات والمجتمعات التي تكون

منظمة وتعمل حسب المنطق الذي يُشتق من هذا العقل، مما يتطلب مسارات تاريخية طويلة.

بقدر ما يتم تجسيد العقل في حالة العالم، يتم "بلورته"، وأن تمثلاته ("الأفكار" التي تحكم في كل حقبة من التاريخ) تتناسب بشكل موضوعي مع الحقيقة، ولكن في الوقت نفسه، سنتوقف هذه التمثلات الجماعية عن كونها صالحة لتدبير وتفسير التغيرات التاريخية التي سوف تعيد بناء هذه الحقيقة¹⁹⁹.

أما بالنسبة إلى التواصل يتم استعماله في كل اللحظات والحالات من أجل جدلية العقل بتغيير العالم وتحول المجتمعات، فيشارك في إنتاج ونشر التمثلات العمومية التي تفسر حقيقة الحاضر، والماضي أو المستقبل وما يفعل له.

■ يتم اللجوء إلى التواصل من أجل العمل بنماذج الوساطة التي تحتفظ بالانسجام بين تغيير العالم وتحويل الأفكار.

¹⁹⁸ كان ينبغي اللجوء إلى الأجساد باعتبارها لوسيلة التعبيرية والاستقبالية الوحيدة، أن تكون الأولى لكل أنواع التواصل، بالرغم من أنه حاليا تنتقص معطيات لمعرفة كيف يرافق تطور أشباه الإنسان. إن دمج التكنولوجيات والوسائل بالنسبة إلى التواصل يمثل تجاوز الأشكال الطبيعية للتواصل. واختراع ذاكرات خارجية. (الفصل 14) فمنذ أن تأسست التواصل قد نجحوا أربعة آلاف سنة على الأقل، وحتى هذه اللحظة تم تمييز أربعة أنواع من النظم التي تأتي من تجاوز السابقة: التواصل بواسطة المرسلون؛ اجتماعية بواسطة الشبكات؛ وبواسطة إنتاج وتوزيع الجماعي للمواد التواصلية. مانويل مارتين سيرانو: "الإنتاج الاجتماعي للتواصل".
¹⁹⁹ من منظور هيجل (1846): عندما يتحقق العقل يولد أفكارا جديدة التي يتجاوزها بنفسه؛ أما عند ماركس وإنجلز (1837): فالمفهوم الساري للعالم وصل إلى التناقض مع التغيرات التاريخية، ولا يستعمل لتحويل العالم.

تتميز الوساطة التواصلية عن غيرها من الوساطات والتدخلات غير التواصلية، لأنها تعمل بنماذج الوساطة، بحيث إن هذه الأخيرة تحاول إدخال الانسجام على مستوى التمثلات الجماعية، وبين ما يفعل، وما يتم ابتكاره والقيام به؛ فتستعمل في المناسبات حيث تكون المبادئ المشتركة من قبل الجماعات منسجمة مع الحالة التي يتم فيها الكشف عن المجتمعات الإنسانية، كما في الحالات التي تكون فيها متناقضة؛ لذا يحدد التمثيل الوسيط ويوضح، في بعض الأحيان، أسباب التناقضات الموضوعية (رغم أن الأرجح هو أنها تجهله، وتتكبر ثم تخفيه)، وأحيانا سيقوم وسيط معين (بنجاح أو فشل) بتفسير جدلي لهذه النزاعات²⁰⁰؛ فمن غير الممكن للنماذج التي تُستعمل في التواصل من أجل التوسط أن تكون جدلية.

لا تعتبر أية قصة وسيط في التواصل بواسطة الثورة التي كانت، جدلية، فإذا كان الأمر كذلك فالنتيجة لا توصف (على مستوى تعبيرى) ولا تفهم (على مستوى معرفى).

إن تواصل الوسيط يحول التناقض (الموضوعى) إلى فوارق (تعبيرية، وسردية ثم مرجعية).

تعمل نماذج الوسيط للتواصل تعبيريا بنطق مزدوج وليس بالتناقض (لا تعمل بنفي مزدوج)، إذن تُنتج هذه النماذج الوسيطة بنيات سردية للقول أو للفعل؛ لذا ليس في هذه البنيات ولا في أي بنية سردية أخرى (ماعدا في الأشكال المنطقية) تعتبر العمليات مع الزمان والمكان ثم الفعل، جدلية، إذن فالوسيط الجدلي موجود، لكن يعتبر من خلال التعريف نمطا من العمل، وليس من التواصل؛ وأما النماذج التي تمثل الوساطات الجدلية، فهي منطقية - رسمية، وليس نماذج تواصلية²⁰¹؛ لهذا قد تم عرض في "الوسيط الاجتماعى" التطور النظري والمنهجي الذي أدرج دراسة العلاقات بين التواصل، والوسيط ثم الجدل.

5. ساهمت الجدلية في المنطق البديهي للتفسيرات التي هي صحيحة على مستوى، وصالحة على

مستوى آخر؛ لقد مر هذا المبدأ على جميع المنهجيات البحث العلمى.

يعتبر المطلب "الملائمة الاستنتاجات التي توصل إليها نطاق الدراسة"²⁰²؛ لذلك يشرح التناقض بين مصالح الرأسمال والعمل حسب ماركس، علاقات العمال والرأسماليين باعتبارهما فئات في المجتمعات

²⁰⁰ كما هو معروف، يؤكد ماركس رفقة انجيلز في العديد من المنشورات، من بينها المظهر، أن التفسيرات الجدلية للتغيرات التاريخية التي تطور المجتمعات، تساهم في أن الجماعات تكتيب "الوعي الموضوعى لوضعه في العالم"، لأنها نتيج إدراك ما تتطلبه من أجل تجاوز التناقضات الاجتماعية التي تستمد وضعها من التعاسة والقهر.

²⁰¹ تعتبر النماذج المنطقية الرسمية تمثلات العمليات التركيبية، ولا تستعمل لتمثيل الأبعاد الدلالية. وإن صح التعبير أن موضوع النموذج الرسمى هو من يقوم بالعمليات وليست الصفات ولا حتى وظيفة النظم التي يتم استعمالها في هذه العمليات.

²⁰² يمكن لمطلب "توافق استنتاجات مع درجة تحليل الدراسة أن تتشكل على هذه الطريقة: يبين ترتيب درجة كبيرة تشكل معين وسلوك النظم التي لا تشرح سلوك نفس النظام عندما يحلل درجة صغيرة.

الرأسمالية، لكن لا يشرح الإطار الاجتماعي الكلي لمصالح وسلوكيات الأفراد داخل كل شركة (وليس العكس بالعكس)، إذا تم دراسة العلاقات باعتبارها أعضاء في مجموعة العمل، والمستوى التحليلي الذي ينتمي إلى ديناميكية المجموعات؛ لذلك إذا تم البحث في الأفراد حسب هيئاتهم، فالمستوى يناسب تحليل الحوافز²⁰³.

■ عندما يقع نطاق دراسة التواصل على مستوى نشأة الإنسان، فالتحولات هي جدلية وعبرة عن استنتاجات، بحيث إن هذه الأخيرة ليست قابلة للتحويل إلى نطاق التنظيمات الملموسة.

تتطور الملاحظات الجدلية التي تم الحصول عليها على نطاق واسع، من أجل دافع نظري، كما تعمل بالنظم الكلية، وتتأمل في التغيرات التي تفعل ثورة بنية ووظيفة التواصل في أفق سوسيو تاريخي؛ ولا تعتبر ملاحظات قابلة للتطبيق على نطاق الاتصالات الرسمية وغير الرسمية داخل الشركات والمنظمات الأخرى؛ لذا فالنماذج التي تنطبق على هذا المستوى تتناسب مع الدوافع الأساسية، مثل تحسين الوظيفة، والصورة العامة أو مردودية المنظمة، وتركز على التغيرات الوظيفية والمدى القصير للحيلولة دون تحول هذه المنظمة إلى أخرى ستتجاوزها.

ب) تطبيقان مناسبان من المنهجية الجدلية لدراسة التواصل

لقد تم استعمال الجدلية في هذا الجزء الثالث من الكتاب، لأنها المنهج الذي يوضح أفضل تحول للتواصل الحيواني إلى الإنساني؛ ففي النص يتوفر القارئ والقارئة على إمكانية التحقق من الكيفية التي تم تطبيقها. لهذا يعتبر المنهج الجدلي أيضا مناسباً من أجل فهم التغيرات السوسيو تاريخية للإنتاج الاجتماعي للتواصل؛ إذ يتم، في هذه الحالة، تطبيقه على النحو التالي: تستمر التحولات الاجتماعية غير القابلة للقلب منذ العصر الحجري حتى الآن؛ ويتم البحث في نظم التواصل المختلفة نوعياً التي ظهرت واختفت طيلة هذه الفترة، من تواصلات التجمعات إلى التواصلات الحالية المعتمدة على الشبكات، كما يتم التحقق من الوساطات (التقنية، والسياسية، والثقافية وغيرها) التي تدخلت تاريخياً لتدبير التناقضات بين تغيرات المجتمع وتحولات التواصل ثم محاولة فهم الأسباب (أو بدون أسباب) التي توجه هذه الوساطات؛ وكذا تمثيلات العالم والمجتمع التي يعملان بها، ومتى وكيف كانت وفقدت صلاحيتها؛ لذا يتضح متى يتم حل التناقضات بتعديلات وظيفية، ومتى تمنح المجال لتصنيفات جديدة لنظم التواصل.

²⁰³ يمكن توسيع هذا التحليل عند مانويل مارتين سيرانو: "المهنيين في المجتمع الرأسمالي".

لذا تتوفر الظواهر الوجودية التي يعمل بها الكائن مع مرور الوقت، على فترة شاملة، كما تضم الرغبة إذا ما كانت تسيير حتى الوصول إلى التوازن الفيزيولوجي، والمعرفة حيث تعرض القدرة الحسية إمكانياتها الكبيرة ثم التواصل الذي جاء من التناقض الموجود وغير الموجود للاستجابات والمحفزات؛ لذلك تتشكل الظواهر التواصلية بين تلك التي لها آفاق قريبة جدا، وأيا منها ليس غريبا عن المعرفة:

- يعتبر التواصل معرفة متعلقة بالتفاعلات حيث يتم تبادل المعلومة للإشارة إلى شيء ما لأكثر.
- ويعتبر النظرية التي تسأل عن الأصول، والتحولات ثم الاستعمالات، وعن ما، وكيف ولماذا التواصل.
- يعتبر شكلا من أشكال السلوك، حيث يتم تسليط الضوء على اشتغال المكونات المختلفة للطبيعة.
- وأنه آلية تطويرية للسيطرة والتكيف بالوسط الذي يعمل على بقاء الأفراد على قيد الحياة، وتكاثر الأصناف.
- يعتبر كذلك في الصنف الإنساني آلية أنثروبوجينية، بحيث يتدخل في أصل الإنسان باعتباره المعيار الذي يوجه التغيرات التطورية، ثم في الأنسنة، حيث يجعل التطبيقات (التقنية، والعلائقية، والثقافية، والمؤسسية ثم القيمية) التي تكمل الطبيعة والمجتمع، ممكنة.
- ويعتبر طريقة للإشارة إلى العالم (إلى المواضيع المرجعية)، فمن وجهة نظر هذه، يظهر التواصل بوصفه شكلا من الارتباط من خلال ما يوجد وما يفعل في العالم عن طريق المعرفة المتبادلة.
- ويعتبر إجراء تثقيفيا، و يعمل بالمعرفة حيث يمكن أن يكون ناقلا ويتم تطويره ليصبح ناقلا؛ فنحن الإنسان وصلنا إلى أن هذا النقل المعرفي ينتقل من جيل إلى جيل.
- وأنه إنتاجا اجتماعيا، إذ من خلال خدمة التواصل يتم تحريك الموارد المادية، والحيوية، والعمل، والتكنولوجيا ثم المؤسسات.
- يعتبر تطبيقا اجتماعيا تديره مجموعات ومؤسسات المجتمعات حيث يتم تنفيذه.
- فهو مجموعة من المهن حيث يوجد تقسيم العمل بين متخصصين في العديد من المهام التواصلية (التخصص النادر جدا على مستوى حديقة الحيوانات).

كل هذا العدد الكثير من الأبعاد يوسع حقل التواصل لكن ليس بحاجة إلى الخلط بين من يرغب في الدخول إليه، لأن كيفية كانت المقاربة التي تهمة توجد في نفس الموضوع؛ لهذا ينبغي تركيب هذه المجموعة من وجهات النظر التي اخترت لها التعريف الآتي:

تدرس نظرية التواصل لماذا، وكيف للأصناف الإنسانية، وقبل ذلك العديد من الأصناف الحيوانية، تعيد إنتاج سكانها وتوزيع أفرادها باستخدام المعلومة المتبادلة.

إن التواصل هو انتشار للتطور، والتزام للثقافة اللذان يتناقضان مع الأنثروبيا التي يتسوي إليها الكل، ومع المعلومة التي تحتفظ بالاختلافات وتطوير التنوع.

لقد ظهر المسار الوجودي للتواصل منذ مئات الملايين السنين، في الطبيعة من أجل تلبية الحاجيات البيولوجية، واكتسب حالته المستحيل بأداة المعرفة، والثقافة ثم الوظيفة الأنثروبوجينية التي استمرت منفتحة، والتي ستستمر في إعادة ابتكار الإنسانية حتى انقراضها.

لائحة مصادر ومراجع كتاب الأصل

1. SELECCIÓN DE LAS PUBLICACIONES DEL AUTOR RELACIONADAS CON CONTENIDOS DE ESTE LIBRO

1974

Artículo: “Nuevos métodos para la investigación de la estructura y la dinámica de la Enculturización”. Revista Española de Opinión Pública n°: 37. Págs: 23/83 Código UNESCO: 6302/04. Palabras clave: Métodos; enculturización; modelos lógicos, es tructurales, sistémicos; cognitivos; representaciones individuales y colectivas.

1975

Artículo: “Aplicación de la teoría y el método sistemático en ciencias sociales”. Revista Española de Opinión Publica n° 42, págs: 81/1 02. España, Código UNESCO: 9303/05. Palabras clave: Metodología de sistemas, modelos sistemáticos; nuevos diseños y aplicaciones.

1976

Libro: Comte, el padre negado: orígenes de la deshumanización en las ciencias sociales 104 p. Tres Cantos: Ediciones Akal, S.A. ISBN: 84-7339-208-6. Código UNESCO: 6303/OS. Palabras clave: Comte; orígenes Ciencias Sociales; Orígenes Publicística; control social por comunicación.

Artículo: “Le Conflit entre Innovation Téchnologique este Changement Cultural”. Internationales Zeitschrift fur kommunikation Forschung. Págs: 25/39. Alemania, Código UNESCO: 6307/07 Palabras clave: Innovación; cultura; educación cambio; conflicto; mediación. comunicación.

Artículo: “Epistemología del Realismo Sociológico” Revista Española de Opinión Pública, nº 46. Págs: 19/31, España. Código UNESCO: 6303/OS. Palabras clave: Epistemología; teoría social; Durkheim; funcionalismo.

Libro: L’Ordre du Monde a través la T V Estructure du discours électronique. Presses Universitaires, Lille (Francia). Publisher; Lille: Atelier de reproduction des thèses de l’université de Lille III, 1979. OCLC: 31365749. Código UNESCO: 6308. Palabras clave: Comunicación; medios de masas; dialéctica; mediación social; mediación comunicativa modelos del mundo.

Términos: Mediación, Publicidad; Sentido, Significación, y Signo. Diccionario de Ciencias Sociales (Instituto de Estudios Políticos). Volumen 1 y 2, España. ISBN: 84-259-0434-X. Patrocinado por la UNESCO (reeditado en 4 volúmenes por Planeta Agostini, 1987-1988). ISBN:9508850051. Código UNESCO: 6308. Palabras clave: Mediación; publicidad; significación; signo; semiología; sentido; comunicación.

Prólogo y Estudio: “Marco epistemológico de la obra de A. MOLES”. En Cultura y Mensaje Javier del Rey. Págs: 1/10. Editorial: Pablo del Río España. ISBN 84-7430-005-3. Código UNESCO: 6301. Palabras clave: Moles; cultura; mensaje; comunicación.

1977

Artículo: “Epistemología de la dialéctica social”. Revista Española de Opinión Pública, nº47. Págs: 57/76. España. Código UNESCO: 6303/OS. Palabras clave: Epistemología; teoría social; dialéctica; marxismo; conflicto; contradicción.

Libro: La mediación social. 2 ed. 1978 Tres Cantos: Ediciones Akal, S.A. ISBN: 84-7339-250-7. Reediciones: 1981-1983-1986. Código UNESCO:

6308/99. Palabras clave: Teoría para la mediación; Mediaciones; modelos mediadores; representaciones del mundo; valores; comunicación.

1978

Artículo: “Un método lógico para analizar los significados: aplicación al estudio del lenguaje de la TV”. En: Reis: Revista española de investigaciones sociológicas, ISSN

0210-5233, N° 2, 1978, Págs: 21-52. España. Código UNESCO: 6308/99. Palabras clave: Significados; análisis de contenido; métodos lógicos, modelos.

Número monográfico: “Trabajos a propósito de otros métodos de investigación en Ciencias Sociales”. Manuel Martín Serrano, (director). En: Reis: Revista española de investigaciones sociológicas. ISSN 0210-5233, N°3, 1978 págs: 225. España.

“Introducción: perspectivas que ofrecen los nuevos métodos de investigación para las Ciencias Sociales. En: Reis: Revista española de investigaciones sociológicas, N° 3, 1978, págs. 7-16 (OC). Código UNESCO: 6303/03. Palabras clave: Modelos sistémicas; semiológicos; metodologías dialéctica, sistemática, estructurales semiológicos; informacionales; Desarrollos, aplicaciones.

Artículo: “Bases para una epistemología general de las Ciencias Sociales”. En: Reis: Revista española de investigaciones sociológicas, N° 3, 1978, págs. 17-56 (OC). Código UNESCO: 7205/OS. Palabras clave: Epistemología; Teoría de la Comunicación; Teoría de las Ciencias; producción de conocimiento; praxeología y dialéctica; mediación e intervención social.

Libro: Métodos de análisis de contenido. Manuel Martín Serrano, director. Editorial: Departamento de Comunicación. Facultad de CC. de la información,

págs: 1/97. Código UNESCO: 6308/99. Palabras clave: Análisis de contenido, modelos de análisis, aplicaciones.

Capítulo: “El referente de la comunicación”. En Métodos de análisis de contenido. Págs: 7/82 (OC). Código UNESCO: 6308/99. Palabras clave: Análisis de referencia desarrollos de modelos lógicos, sistémicos y estructurales.

Libro: Métodos actuales de la Investigación Social. Tres Cantos Editorial Akal. Págs: 36 ISBN 84-7339-406-2. Reedición, 1981. Código UNESCO: 6303/03. Palabras clave: Métodos; teorías sociales; técnicas de investigación, Historia de las ideas Sistemas teóricos en CC. SS. y CC. de la comunicación.

Lección (mim.): La participación de los instrumentos de la comunicación en la evolución de las especies y de las sociedades. Departamento de Comunicación. Facultad de Ciencias de la Información. Madrid. Reeditado hasta 1986.

1979

Capítulo: “Cultura en periodismo escrito y su relación con los demás medios”. Págs: 5/17. En Cultura en periodismo. Madrid: Fundación Juan March. Colección Universitaria. ISBN: 84-7075-113-1. Código UNESCO: 5910/03. Palabras clave: Prensa; cultura de masas; Mediaciones cognitiva y estructural.

1980

Artículo “Los contenidos de la comunicación y los medios de difusión” en: La comunicación problema social (Asociación de cultura hispano-norteamericana) Págs: 67/81. Editorial ACHNA. España. ISBN 84-300-1114-1979. Código UNESCO: 5910/02. Palabras clave: Medios de masas; televisión; control social; comunicación.

1981

Libro: Teoría de la Comunicación (Epistemología de la comunicación y análisis de referencia). Contiene además, tres Capítulos escritos por José Luis Piñuel, Jesús Gracia, M Antonia Arias. Págs.: 1 94 Editorial: Cuadernos de Comunicación. España ISBN 84 7053 229-4. Reimpr: 1983, 1985, 1988, 1989, 1993, 1995, 1997, 1999, 2002, (Reimpresiones en América: México, Perú, Cuba. Código UNESCO: 6308/99. Palabras clave: Teoría de la Comunicación; Epistemología; Sistema de comunicación y sus componentes; Procesos de comunicación; referentes, modelo dialéctico, Mediaciones comunicativas; intervenciones sociales.

Libro: Teoría de la Comunicación Manuel Martín Serrano (Coordin.) Introducción y estudio previo. A. Moles, J. Mayor, L. Birskey, F. Cordón, H. Pross, A. Wilden, Y. Barel, M. Martín Serrano. Editorial: Universidad Menendez Pelayo. Págs: 244. ISBN 84-600-2570-5 Código UNESCO: 6308. España. Palabras clave: Teoría de la comunicación; acción; evolución; sistema social; teoría social; influencia social.

Capítulo: “Dialéctica acción comunicación”. En Teoría de la Comunicación. Manuel Martín Serrano (director) (OC). Págs: 1/19; 223/240. Editorial: Universidad Menéndez Pelayo. España. Código UNESCO: 6308/99. Palabras clave: Teoría de la comunicación; acción y comunicación; expresión; representaciones.

Capítulo: “La imagen comunicativa de la televisión en relación con la de otros medios de comunicación”. Radio Televisión Española y la Constitución. Págs:1 51/1 66. Editorial: Universidad Menéndez Pelayo. Código UNESCO: 591

0/02. Palabras clave: Televisión; contenidos; audiencias Medios de comunicación.

Artículo: “La comunicación su importancia Ecológica”. Boletín informativo del medioambiente nº 17. Págs: 54/60. España. ISSN 0210-0347. Código UNESCO: 6311/02. Palabras clave: Comunicación; ecología; territorio; planificación territorial.

Artículo: “Un modelo lógico para investigar los efectos socioculturales de los media”. Análisis nº 3. Págs: 1 5/3 1. Código UNESCO: 6308/99. Palabras clave: Comunicación; efectos; medios; investigación en comunicación, Modelos logicos.

Artículo: “La influencia social de la televisión: Niveles de influencia”. En: Reis: Revista española de investigaciones sociológicas, ISSN 0210-5233, Nº 16, 1981. Págs: 39-56. Código UNESCO: 5910/02. Palabras clave: Comunicación de masas; control social; mediación

1982

Libro: “Los usos de la comunicación social por los españoles”. Madrid: Centro de Investigaciones Sociológicas 383 p. col. Monografías, 5.3 ISBN 84-7476-057-7. Código UNESCO: 6308. Palabras clave: Comunicación; medios de comunicación; audiencias. Efectos de los M. C. M. Usos de la comunicación.

Artículo: “La influencia social de la televisión: Fuentes y métodos de estudio”. En: Reis: Revista española de investigaciones sociológicas, ISSN 0210-5233, Nº 17, 1982, págs. 65-82. Código UNESCO: 5910/02. Palabras clave: Comunicación de masas; control social; mediación; investigación de medios; modelos de estudio de la mediación.

Artículo: “La creatividad publicitaria”. Nueva Publicidad, n° 11 Págs: 56/66. Código UNESCO: 6114/18. Palabras clave: creatividad; publicidad valor de uso.

Libro: Los profesionales en la sociedad capitalista. 2 Edición (Corregida). Madrid, Taurus. Págs: 160 ISBN 84-306-1214-9. 1ª Edición: Pablo del Río 1977. Código UNESCO: 6307/07. Palabras clave: Sociedad capitalista; desarrollo científico y técnico; sociedad monopolista; teoría marxista del cambio social; Dialéctica; ideología.

1983

Artículo: “Aplicación d& método fenomenológico al análisis de la televisión”. Comunicación y Sociedad. Págs: 607/620. Editorial: Universidad Complutense. Código UNESCO: 910/02. Palabras clave: Comunicación de masas; mediación; televisión, método fenomenológico.

1984

Capítulo: “Kommunidation uns Ihre Okologische Bedeutung”. Publizistik Zwesehen Distanz und Engagement Hano Beth. (Comp). Págs: 204/21 2. Editorial: Ahrens Berlín (Alemania). Código UNESCO: 6307/07. Palabras clave: Innovación; comunicación; tecnología; conflicto; ecología.

Capitulo: “Innovación tecnológica, cambio social y control social”. Nuevas tecnologías en la vida cultural española. E. Rispa (direct). Págs: 203/21 3. España. ISBN 84-86094-08-9. Reproducido en: Cuadernos de la Comunicación N° 94. Pãgs: 79/90. México 1 986. Código UNESCO: 6308. Palabras clave: Cambio social; comunicación social; modelos de mediacion.

Autobiografía intelectual: “Del tiempo del silencio al tiempo de la esperanza”. En “Ciencias de la información”. Monográfico dedicado a la obra de Manuel Martín Serrano. ISBN: 84-85887-54-9. Rubí: Anthropos, Editorial del Hombre 10/1984- 96 p. Colección: Boletín de información y documentación, 41-42.

1985

Libro: La enseñanza de la comunicación en los países del área iberoamericana. Manuel Martín Serrano, comp, Editoriales Cultura Hispánica págs: 5/93. España. Código UNESCO: 6308. Palabras clave: Comunicación; Latinoamérica

Capítulo: “La mediación de los medios de comunicación”. En sociología de la Comunicación de masas Editorial: M. Moragas. Tomo I Teorías y Autores. Págs: 163. España ISBN: 968-887-240-7. Código UNESCO: 6308. Palabras clave: Teoría de la comunicación; modelos mediadores; mediación comunicativa.

Libro: La producción de comunicación social: Planteamiento metodológico. Recoge capítulos metodológicos de “La producción social de comunicación”. Editorial CONEICC. Págs: 101. México. Código UNESCO: 6308. Palabras clave: Metodología de la Comunicación.

Artículo: “Estructuralismo antropológico y el mito de la postmodernidad”. Cuadernos del Norte. N° 29. Págs: 4/11. España. Código UNESCO: 6306/99. Palabras clave: Estructuralismo; representaciones sociales; ideología y comunicación.

Monografía: “La reproducción del poder a través de la comunicación”. Cuadernos Cicosul, N° 3. Págs: 4/11. Perú. Código UNESCO: 6308. Palabras clave: Control social; transculturación; colonialismo cultural.

Prólogo del libro: Economía de la comunicación de masas. De J. Torres López Grupo Cultura Cero. España. ISBN: 84-3 1 7-0576-0. Código UNESCO: 6308. Palabras clave: Comunicación social; reproducción social; dialectica.

1986

Capítulo: “Étude historique des effets produits par la transformation des techniques de communication”. L’Autonomie Sociale aujourd’hui. Págs: 387/407. Editorial: Presses universitaires Grenoble (Francia). Código UNESCO: 6308. Palabras clave: Comunicación social; cambio social, transformación de la comunicación; sistemas de comunicación; mediaciones.

Libro: La Producción social de Comunicación (Primera edición). Alianza Editorial. Colección Alianza Universidad.– págs: 560 Código UNESCO: 6308 Palabras clave: Teoría social) de la comunicación. Sistemas comunicativos, producción, reproducción; formas de mediación. Metodología sociohistóricas de investigación.

Artículo: “Presentación de la teoría social de comunicación”. En: Reis: Revista española de investigaciones sociológicas, ISSN 0210-5233, N° 33, 1986. Págs: 7-14. Código UNESCO: 6308/99. Palabras clave: Teoría de la comunicación; epistemología de la comunicación.

Capítulo: “Lo utópico en la Postmodernidad”. Utopía y Postmodernidad. Págs: 1 9/45 Editorial: Universidad de Salamanca Salamanca (España) ISBN 84-

7299-1 62-8. Código UNESCO: 6303/03. Palabras clave: Postmodernidad; teoría y sistemas; utopía; comunicación y control.

Artículo: “El conocimiento del cambio del entorno social, a través de los MCM”. Revista Internacional de Sociología N° 44. Págs: 11/2 1. Código UNESCO: 63 08/99. Palabras clave: Mediación; visión de mundo; influencia social de la comunicación “El paradigma marxista: ámbito de la dialéctica”. En: Cien años después de Marx: ciencia y marxismo: [actas del Coloquio Internacional en conmemoración del Centenario de la muerte de Carlos Marx / coord. por Román Reyes, 1 986. ISBN 84-7600-05 1-0. Págs. 500-51 8. Marxismo. Modelos dialécticos, aplicaciones de la dialéctica.

1987

Capítulo: “La investigación prospectiva de la moda” En: “Diseño”. Págs: 1 95/20S. Valencia (España). ISBN 84-505-6991 -5. Código UNESCO: 6302/04. Palabras clave: Métodos lógicos; ciclos socioculturales; moda.

Artículo: “La participación de los medios audiovisuales en la construcción de la visión del mundo de los niños. En Tecnología y comunicación educativa. Abril. Págs:33/45. México. Código UNESCO: 6308/5910. Reeditado en 1990. Palabras clave: Medios de comunicación; masas; enculturización; socialización, representaciones; mediaciones e imágenes. Reedic.: Revista de Estudios “Infancia y Sociedad”. código UNESCO: 6308/591 0, n° 3. Págs: 5/1 9.

1988

Términos: “Modelo” y “Sistema”. Terminología Científico–social Aproximación crítica. Dtor: R. Reyes, Edit. Anthropos. ISBN 84–76S8–067–3. Código UNESCO: 6303. I3arce–bna (España). Sistemas: epistemología, análisis, modelos, aokicaciones.

Artículo: “Política de integración de los sistemas educativos con los sistemas comunicativos”. Revista Internacional de Sociología Año 2°. n°1 y 2. Agosto. Págs:1 71/187. Código UNESCO: 6307. Palabras clave; Sistema educativo; enculturización; comunicación pública.

1989

Artículo: “Visión del mundo y uso de la información en los jóvenes”. Revista de Estudios de la Juventud n° 33. Marzo. Págs: 9/23. España. Código UNESCO: 6307. Palabras clave: Comunicación; mediación; comunicación personal; juventud.

Artículo: “Comunicación social: “Mitos y Carencias”. En “El estado de la Comunicación” Págs: 204/2 1 5. FUNDESCO. España. Código UNESCO: 6308. Palabras clave: Valor de cambio de información; nuevas tecnologías.

Artículo: “Diseños para investigar la producción social en comunicación”. En: Reis: Revista española de investigaciones sociológicas, ISSN 0210–5233, N°48, 1989. Págs. 79–90. Código UNESCO: 6308. Palabras clave: Metodología de investigación de la comunicación; modelos de mediación.

Prólogo y estudio introductorio a: “El hombre y la materia”. A. Leroi–Gourhan.– pág s: I/XX Editorial: TAURUS ISBN: 84–306–6007–O Código UNESCO: 6307 España. Palabras clave: Ontogenia; praxeologia; técnicas, lenguaje.

1990

Artículo: “La epistemología de la comunicación, a los cuarenta años de su nacimiento. En: “Telos” junio/agosto. Págs: 65/76. Código UNESCO: 6308
Palabras clave: Epistemología, Crisis social, Teoría de la Comunicación.

Capítulo: “Las relaciones macrosociológicas entre acción y comunicación”. En Escrit: de Teoría Sociológica, homenaje a Luis Rodríguez Zúñiga, CIS. Págs: 671 /682 Códic UNESCO: 6308, España. Palabras clave: Dialéctica, acción, comunicación. Reedició de 1 990 en: “Cultura, sociología y problemas sociales” JA. Younis, comp. Lib ref..Nogal ISBN 84-88250-061 Gran Canaria (España).

1991

Tomo: Comunicación y lenguaje. Coord. M. Siguan y Manuel Martín Serrano. Tomo 6. E Tratado de psicología gene rai. J. Mayor, J. L, Pinillos editores. ISBN 84 205 1 950- Editorial Alhambra-Longman. Madrid. Palabras clave: Comunicación, Lenguajes, Conocimiento y comunicación.

Capítulo: “El lugar de la teoría de la comunicación entre las ciencias del comportamiento”. En ‘Comunicación y Lenguaje’ (O.C.). Págs. 239-264. Palabras clave: Teoría de la comunicación. Epistemología de la comunicación.

Libro: Los valores actuales de la Juventud en España. Págs: 88. Instituto de la Juventud. ISBN 84-8S96166-8 Madrid. Código UNESCO: 6307. Madrid España. Palabras clave: visiones del mundo; representaciones sociales; control social; identidades y mediación.

1992

Libro: 1ª edición facsímil mexicana de Teoría de la Comunicación. Editorial: UNAM. México. Número monográfico: “El cambio social y la transformación de la comunicación”. Manuel Martín Serrano, coor. Reis: Revista española de investigaciones sociológicas n° 57. Enero/marzo 1992. ISSN 0210-5233. Palabras clave: Cambio; comunicación; mediaciones; intervenciones.

Artículo: “Los cambios en las funciones de la comunicación y en el valor de la información”. En: “El cambio social y la transformación de la comunicación” (OC). Palabras clave: Información; teoría de la información; nuevas tecnologías.

Artículo: “El cambio de los valores de los jóvenes españoles”. Revista Renglones n° 24. Diciembre. Págs.: 64/7). Código UNESCO: 6307. Guadalajara (México). Reedición en 1993 Palabras clave: Teoría Social de la comunicación; sistemas comunicativos. mediaciones; modelos de análisis. Palabras clave: Juventud; Visiones del mundo; representaciones sociales; control social

Capítulo: “La comunicación pública y la supervivencia”. Reedición en 1992 en: Diálogos de la comunicación”. Páginas 5/12. N° 39. Código UNESCO: 6311. Lima (Pes En Comunicación Social Tendencias. FUNDESCO págs: 119/128 ISBN.84-86094- Código UNESCO: 6311/07. Madrid. Palabras clave: Control; supervivencia; comunicación pública.

1993

Artículo: El estudio de la comunicación animal'. TELOS, no 33. Págs: 57/65. Código UNESCO: 6308/99. Madrid (España). Palabras clave: Comunicación animal; evolución; modelos sistemáticos, origen de la comunicación.

Libro: Teoría de la Comunicación. Epistemología y análisis de la referencia. 2ª edición facsímil mexicana. Editorial: UNAM. México.

1994

Libro: La producción social de comunicación. Segunda edición española reformada y rescrita y 1ª edición mexicana. En España: Alianza Editorial. En México: Alianza-Patria 336 páginas. ISBN: 84-206-8102-4. Colección: Alianza universidad textos, 102.

Libro: Historia de los cambios de mentalidades de los jóvenes. Instituto de la Juventud. Madrid ISBN 84-85961 -88-9. Palabras clave: identidades y mediación; generaciones y cambios históricos; visiones del mundo y acción social; representaciones colectivas.

Artículo; "La comunicación humana". En MAP (O.C.) Volumen I; Manuel Martín Serrano, coord. Pág: 1/23. Código UNESCO: 6308. Palabras clave: Comunicación; teoría de la comunicación humana.

1995

Libro: Las mujeres y la publicidad: Nosotras y vosotros, según nos ve la televisión. Con Esperanza Martín Serrano y Vicente Baca Lagos. 31 6 Págs. Instituto de la Mujer. Ministerio de Asuntos Sociales. Madrid ISBN 84-7799-115-4. Código UNESCO: 6308 , Palabras clave: Representaciones; géneros; imágenes públicas; mediación; identidades y mediación.

Capítulo: “Jugendgewalt in Spanien and die Reaaktion der Ooffenlichkeit en “Youth and violence”. Jugend und Gewalt.” Forum International youth politics. International conferende Institut für Sozialarbeit und Sozialpädagogik. (ISS) Frankfurt am Main. Palabras clave: Socialización y comunicación; comunicación y violencia, representaciones publicas y juventud.

Libro: Historia de los cambios de las mentalidades de los jóvenes entre 1960 y 1990. Manuel Martín Serrano, Dtor. Estudio, Síntexis y capítulo metodológico. Instituto de la juventud Ministerio de Asuntos Sociales Madrid (España). ISBN 84-65961-88-9. Palabras clave: Cambios de visiones del mundo. Modelos cognitivos y mediación.

Artículo: “Refuerzo y ruptura de estereotipos en los M. C. M.”. En “Informar para la tolerancia”. Dirección General de Migraciones. Madrid. Palabras clave: Identidades y mediación.

1997

Libro: Informe de la juventud en España, 1996. Con Olivia Velarde Hermida. 430 páginas. ISBN:84-89582-19-X. Editado por: el INJUVE. Madrid. Palabras clave: juventud; cambio social; socialización; intervenciones y mediaciones.

Capítulo: “La imagen de la juventud y sus efectos sobre la solidaridad”. En jornadas de responsables políticos en juventud Pp 1-22 Edita: Federación de casas de juventud de la Comunidad Valenciana. IVAJ Valencia. Palabras clave: participación política, integración social, visión del mundo.

1998

Libro: juventud y Consumo. 1 20 páginas ISI3N:84-868 1 6-73-4. Código UNESCO: 6307. Editado por: Instituto Nacional de Consumo Madrid. Palabras clave: Juventud; consumo; tiempo libre; anomia; identidades mediadas.

Ponencia: “El poder simbólico: información, comunicación y educación. VI Congreso de Sociología. A Coruña. Palabras clave: comunicación y democracia; autorrepresión, mediación y enculturización.

Artículo: “Factores antropológicos: significado que tiene la vinculación que se ha establecido entre juventud y violencia”. En Número monográfico “Violencia y juventud”. Coordinación María José Díaz Aguado y Manuel Martín Serrano. Revista Estudios y juventud nº 42. Pág: 94. ISSN 0211 -4364. Palabras clave: Juventud; violencia; identidades y comunicación.

Artículo: “Educación, comunicación, interacción. El cambio de los sistemas de socialización”. En Curso de la UPM “Influencia de la televisión en el medio educativo”. Manuel Martín Serrano, (Dtor.). Santander. Palabras clave: sistemas de comunicación y sistemas sociales; Mediaciones; Intervenciones; Políticas comunicativas.

Capítulo: “La gesta y la parábola en los relatos de la comunicación pública”. En La lengua española y los medios de comunicación: [Primer Congreso Internacional de la Lengua Española, día de emisión, 7-VI-97, Zacatecas] / coord. por Carlos García Tort, Luis Cortés Bargalló, Carlos Mapes, Vol. 1, 1 998, ISBN 968-23-211 0-7, pags. 357-375. Zacatecas. México Vol II. Secretaría de Educación Pública e instituto Cervantes Editorial Siglo XXI – España-México. Palabras clave: Comunicación Pública; Estructura de modelos mediadores; estructura; Contenido.

1999

Libro: Las violencias cotidianas cuando las víctimas son las mujeres con Esperanza Martín Serrano. 322 páginas. ISBN:84-7799-955-4. Instituto de la Mujer, Ministerio de Trabajo y Asuntos Sociales. Palabras clave: género, violencia familiar, violencia urbana, acoso sexual, identidades de género.

Capítulo: “Balance retrospectivo de la denominada era audiovisual. En ‘La era de la comunicación audiovisual’. Universidad de verano. Adeje. Palabras clave: mediación icónica. Mediación abstracta. Modelos de representación. Educación y mediación.

Capítulo: “La publicidad y otros factores externos; su influencia en el niño”. En: jornadas de Educación vial infantil. Dirección General de Tráfico NIPO: 1 28-99-062-7-T.II Págs. 1 99-205. Editado: Ministerio del Interior Madrid. Palabras clave: Publicidad, Autoimágenes, heteroimágenes infantiles.

2000

Libro: La Tercera edad y el Consumo. Págs. 166. ISBN:84-86816-80-7. Ministerio de Sanidad y Consumo. Palabras clave: Consumo, envejecimiento de población, representaciones tercera edad.

Libro: Informe Juventud en España 2000. Con Olivia Velarcie Hermida. ISBN: 84-89582-84-X. Edición papel, 698 Pág. y CD; e Internet: http://www.mtas.es/injuve/biblio/estudio_injuve/estucronologico/informe2000.htm. Editado por el Instituto de la Juventud. Ministerio de Asuntos Sociales. Palabras clave: juventud; cambio social; socialización; identidades.

Capítulo: “La televisión y su influjo en niños y adolescentes”. En: “La sociedad educadora”. Págs: 247–268. Editor: J.L. García Garrido. Fundación Independiente. Palabras clave: socialización; mediación.

2001

Capítulo: “El lugar de los jóvenes en un mundo globalizado”. En “Revista de Juventud”. Monográfico dirigido por Andreu López Blasco y editado por el Instituto de la Juventud. Ministerio de Asuntos Sociales. Palabras clave: Juventud; tiempo libre; anomia, identidades.

Capítulo: “La prolongación de la etapa juvenil de la vida y sus efectos en la socialización”. En “Nuevas estrategias para la familia”. Universidad Pública de Navarra. Pamplona, en “La familia ante el cambio social. Actitudes, prospectiva y nuevos retos”. Reproducido en. En “jóvenes y transiciones a la vida adulta en Europa”. Andreu López Blasco, coord. Revista de estudios de Juventud. Págs. 102–119. Madrid. ISSN. 0211–4364. Palabras clave: Juventud, integración social; Autoimágenes; heteroimágenes juveniles.

Capítulo: “Cambios en las instancias de socialización: Familia, grupos de iguales, escuela, medios de comunicación”. En “La familia ante el cambio social. Actitudes, prospectiva y nuevos retos” de Jesús Hernández Aristu y Andreu López Blasco. Págs: 77–89. ISBN:84–7642–653–4. Editado: Nau Llibres. Valencia. Palabras clave: Juventud, instituciones socializadoras; control e identidades.

2002

Capítulo: “Lecturas y lectores desde la juventud española”. Conferencia de Dresde (Alemania) Mayo de 2002. [http://www. Berstelsmann-I-%2Cdresden%2Cleectores](http://www.Berstelsmann-I-%2Cdresden%2Cleectores).

Capítulo: “Las transiciones juveniles y las contradicciones de la socialización”. Conferencia europea sobre jóvenes y Políticas de Transición en Europa. Madrid, junio 2002. http://www6.gencat.net/joventud/catala/sgj/observatori/dOCS/EGRIS_SerrafIO.Pdf.

2004

Libro: La producción social de comunicación. Tercera edición española reformada y rescrita. Madrid: Alianza Editorial, S.A. Colección El libro universitario, manuales, 91 ISBN: 84-206-41 92-8 256 p. Palabras clave: Comunicación; cambio social; teoría de la comunicación; metodología de comunicación, globalización, nuevas tecnologías.

Artículo: “Orígenes históricos de los usos actuales de la comunicación pública”. Diálogos de la Comunicación. Págs. 98-108, N°69. Revista de la federación latinoamericana de facultades de comunicación social. Lima. Palabras clave: Comunicación pública, comunicación social, colonialismo cultural, aculturación. Guerras de diseño. Reimpreso en “la comunicación social’ contemporánea. Págs. 42-51. Ubaldo cuesta (edit). Universidad Complutense. ISBN 84-95903-41-5.

2005

Artículo: “Neocolonialismo y mediación”. Revista Interacción Números 36 a 40: Edición especial 10 Años Bogotá. Pp. 7-9. http://127.0.0.1:4664/cache?event_id=75786&schema_id=6&q=celda1&s=SifZQIY58BycXGEI7EJW1Zmh4-E.

Capítulo: “Los cambios históricos y las transformaciones generacionales”. Págs. 413-439. Tendencias en exclusión social y políticas de solidaridad. José Félix Tezanos, edit. Editorial Sistema. Madrid. ISBN 84-86497-65-5. Palabras clave: Identidades generacionales. Mediación, exclusión.

Artículo: “¿Para qué sirve estudiar teoría de la comunicación?”. Rev. Contratexto (Edic. Digital e impresa. N° 4 mayo 2006). Palabras clave: enseñanza de comunicación; contenidos; funciones; libertades públicas; práctica profesional.

Curso de Teoría de la Comunicación de Manuel Martín Serrano. Grabación digital. Veintiuna conferencias, del Curso de Teoría de la Comunicación impartido a sus alumnos en el año académico 2004/OS. Edición para su empleo docente en universidades. Dirección, Prof. Dr, Francisco Bernete y Prof. Dr. Vicente Vaca. Edición: ilnv. Maestra. María Cadilla.

2. OBRAS DE OTROS AUTORES CITADOS EN ESTE LIBRO

ADORNO, T. W.; HORKHEIMER, M. (1944): Dialektik der Aufklärung. Philosophische Fragmente. Versión en castellano (1997): Dialéctica de la Ilustración. Fragmentos Filosóficos. Madrid, Taurus.

ARMSTRONG, D. E; STOKEE, W.; WILKOX, S. (1995): Gesture and the Nature of Language. Cambridge, Mass., Cambridge Univ. Press.

ARNOLD, K.; ZUBERBÜHLER, K. (2006): Semantic combinations in primate calls. Nature, (18 mayo 2006): http://www.nature.com/news/2006/060515/fu_kk/060515-11.html.

ARSUAGA, J. L.; BERMÚDEZ DE CASTRO, J. M.; CARBONELL, R.; CERVERA, J. (2000); Ata puerca. Un millón de años de historia. Madrid, Plot y Edit. Complutense.

ARSUAGA, J. L. (2000): El collar del Neandertal: en busca de los primeros pensadores. Barcelona, Círculo de Lectores, S. A.

BAREL, Y. (1983): La pensée hiérarchique et l'évolution. Paris, Aubier. Montaigne.

BAREL, Y. (1971): Prospective et Analyse de Systèmes. Paris, La Documentation Française.

BARTHES, R. (1972): Le degré zéro de l'écriture. Paris, Editions du Seuil.

BASTIAN, J.; SEBEOK, T. A. (1986): Comunicación animal. En Enciclopedia Internacional Ciencias Sociales. P. 566)

BERMÚDEZ DE CASTRO, J. M^a. (2004): Hijos de un tiempo perdido. La búsqueda de nuestros orígenes. Barcelona, Crítica.

BERTALANEFY, L. VON. (1968): General system theory: foundations, development, applications. New York. G. Braziller. Versión en castellano

(1976): Teoría General de los Sistemas. México (D.F.), Fondo de Cultura Económica.

BICKERTON, D. [1990]. Language and Species. Chicago, University of Chicago. Versión en castellano: [1994]. Lenguaje y especies. Madrid, Alianza.

BRANHAM, M. A., AND J. W. WENZEL. (2003): The origin of photic behavior and the evolution of sexual communication in fireflies (Coleoptera: Lampyridae). Cladistics, 19:1-22.

BRENTANO, F. (2002): El origen del conocimiento moral. Madrid, Tecnos.

BYRNE, R. W. (1995): The Thinking Ape: The Evolutionary Origins of Intelligence. New York, Oxford University Press.

CARBONELL, E. (2000): Sapiens: elf/arg cam! deis hominids cap a la intelligència. Barcelona Edicions 62.

CASEY, B. J.; GIEDD, J. N.; THOMAS, K. M. (2000): Structural and functional brain development and its relation to cognitive development. Bio. Psychiatr. 2000; (Nº54:241 - 257).

CASSIRER, E. (1928): Zur Metaphysik der symbolischen Formen. En Nachgelassene Manuskripte und Texte Band 1. Editado en 1995 por KROIS, J.M.; Hamburgo, Felix Meiner

Verlag. Versión en castellano de un texto previo: (1968) La filosofía de las formas simbólicas. México (D. F) Fondo de cultura económica.

CONROY, G. (1990): Primate Evolution. New York, W.W. Norton & Company.

CORBALLIS, M.: From Hand to Mouth: The Gestual Origins of Language. En M. H. Christiansen y Simon Kirby (ed.) Language Evolution (p. 201–218). New York: Oxford University Press.

CORDÓN, F. (1981): Cocinar hizo al hombre. Barcelona, Tusquet.

CORDÓN, F.; PROSS, H. WILDEN, A. BAREL, I; MARTIN SERRANO, M.; (1981), En Teoría de la Comunicación. Manuel Martín Serrano (edit.) Madrid. Universidad Menéndez Pelayo.

DAMON, W. (1998): Handbook of Child Psychology. Cognition, Perception and Language. (5ª ed). New York, Wiley.

DARWIN, CH. R. (1859): On the origin of species by means of natural selection, or the preservation of favoured races in the struggle for life. Londres, John Murria. Versiones en castellano: El origen de las especies: (1965) Madrid, Edaf; (1982) Barcelona, Bruguera.

DARWIN, CH. R. (1871): The descent of man, and selection in relation to sex. (Vol. 1) Londres, John Murray.

DARWIN, CH. R. (1872): The expression of the emotions in man and animals. Londres, John Murray. Versión en castellano (1967): La expresión de las emociones en hombres y animales. Buenos Aires, Edic. Mundiales.

DE WAAL, F. B. M. (2005): A century of getting to know the chimpanzee. Nature, (vol. 437, N° 7055: p. 56–59).

DEACON, T. W. (1997): The Symbolic Species: The Co-evolution of Language and the Brain. Nueva York y Londres, W. W. Norton & Company.

DURKHEIM, É. (1912) Les formes élémentaires de la vie religieuse. Paris. Presses Universitaires –Versión en castellano: (1968) Las formas elementales de la vida religiosa. Buenos Aires, Schapire.

ENGELS, E (1875–76): Introducción a La Dialéctica de la Naturaleza. Primera edición en

alemán y ruso: (1925). Archivo de Marx y Engels, II. –Versión en castellano: (1974). C.

Marx y F. Engels, Obras escogidas en tres tomos. (Tomo 3). Moscú, Edit. Progreso.

FLEAGLE, J. C. (1999): Primate Adaptation and Evolution. San Diego, Academic Press.

FREUD, S. (1948): El Yo y el Ello; y Las pulsaciones y sus destinos. En: Obras Completas.

Madrid, Biblioteca Nueva.

FRISCH, K. VON. (1967): The dance language and orientation of bees. Cambridge, Mass., Harvard University Press. –Versión en castellano (1982): Vida y costumbres de las abejas. Barcelona, Fontanella.

GALLUP, G. G. JR.; POVINELLI, D.; SUAREZ, S.; ANDERSON, J.; LETHMATE, J.; Y MEZEL, E. (1995): Further Reflections on Self–Recognition in Primates. Animal Behaviour, (Nº 50.p. 1525–1532).

GIBSON, KATHLEEN R.; T. INGOLD, EDS. (1993): Tools, Language and Cognition in Human Evolution. Cambridge, Mass., Cambridge University Press.

GILL, F. B. (1990): Ornithology. W.H. Freeman and Company.

GOLLUSCIO, L. COMP. (2002): Etnografía del habla: textos fundacionales. Buenos Aires, Edit. Universitaria de Buenos Aires.

GOODAL, J. (1990): Through a Window: My Thirty Years with the Chimpanzees of Combe.

New York. Houghton Mifflin Company. Versión en castellano (1994): A través de la ventana: treinta años estudiando los chimpancés. Barcelona, Ed. Salvat-Ciencia.

HEGEL, G. W. F. (1807): Phänomenologie des Geistes. Versión en castellano (1973): Fenomenología del Espíritu. México (D.F.), Fondo de Cultura Económica.

HEGEL, G. W. F. (1837): Vorlesungen Über die Philosophie der Geschichte. Versión en castellano (1986): Lecciones sobre la filosofía de la historia universal. Madrid, Alianza.

HEGEL, G. W. F. (1841): Wissenschaft der Logik (1812/16. Berlin, Duncker & Humboldt. Versión al castellano (1969): Filosofía de la lógica y de la naturaleza. México (D.F.), Fondo de Cultura Económica.

HEIDEGGER, M. (1957): Identidad und Differenz. Neske, Pfullingen. Versión en castellano (1988): Identidad y diferencia Barcelona,

HORKHEIMER, M. (1970): Crítica de la razón instrumental. Barcelona, Edhasa; (1976) B. A., Sur.

HUSSERL, E. (1950–1952): Ideen zu einer reinen Phänomenologie und phänomenologischen Philosophie. (Tres vol.). La Haya. Versión en castellano (1986, 1962): Ideas relativas a una fenomenología pura y una filosofía fenomenológica. México (D.F.), Fondo de Cultura Económica.

JOHANSON, D.; BLAKE, E. (1996, revisado en 2006): From Lucy to Language. New York: Siemens & Schuster.

KOEHLER, W. (1917): Iritelligenzprüfungen an Menschenaffen, Berlin, Springer Edic. Versions Inglesas (1925): The mentality of apes. Londres; K. Paul, Trench, Trubner; New York: Harcourt, Brace.

LERDI–COURHAN, A. A. (1943) Tomo 1: L’Homme et la Matière; Tomo 2: Milieu et Techniques. Paris, Albin Michel–Versión en castellano (1984): El hombre y a materia. Prólogo de Manuel Martín Serrano. Madrid, Taurus,

LEROI–GOURHAN, A. A. (1965): Le geste et la parole. Tomo I: Technique et Langage. Tomo 2: La Mémoire et les Rythmes. Paris, Albin Michel.

LEROI–GOURHAN, A. A. (1995): Les religions de la Préhistoire. Paris, Presses Universitaires.

LORENZ, K. (1961): Evolution and Modification of Behavior. Cambridge, Mass., Harvard University Press.

LORENZ, K. (1970–1971): Studies in Animal and Human Behavior. Cambridge, Mass... Harvard University Press. Versión en castellano (1974): El comportamiento animal y humano”. Barcelona, Plaza yjanés.

MALTHUS, T. R. (1798): Essay on the Principle of Population as it affects the Future Improvement of Society. Versión en castellano (2000): Primer ensayo sobre la población. Madrid, Alianza Eclt.

MARX, K. (1894): Historia crítica de la teoría de la plusvalía y Crítica de la Economía Política. El Capital Torno [V y V (O.C.).

MARX, K. Das Kapital. Kritik der politischen Ökonomie primer tomo (1867); segundo tercer tomo, (1 885 y 1 894). Versiones en castellano: (1956) El Capital. Crítica de la economía política. Buenos Aires, Cartago.; (1980), Madrid, Siglo XXI.

MARX, K.; ENGELS, F. (1848): Das Kommunistische Manifest. Versión en castellano: Manifiesto del Partido Comunista. En: Obras escogidas en tres tomos, tomo I. Moscú. Edit. Progreso.

MARX, K.; ENGELS, F. (escrito en 1846); Die Deutsche Ideologie. a edic. Alemana (1932 Moscú, instituto Marx–Engels–Lenin –Versiones en castellano: La ideología alemana. (1 956) México (D.F.),Grijajbo; (1 958) Montevideo, Edic. Pueblos Unidos.

MARX, K.; ENGELS, F.: Crítica de la dialéctica de Hegel y la filosofía en general. En: (1968) Manuscritos Económicos y Filosóficos (tercer manuscrito). Madrid, Alianza Edit. Original (escrito en 1844). Ökonomische–philosophische Manuskripte; (1932). la edic Alemana: Moscú, instituto Marx–Engels–Lenin.

MIT. (1999): The MIT Encyclopedie of the Cognitive Sciences. Mass. Cambridge, The M Press.

MITCHEN, S. (2003): After the Ice. A Global Human History. Londres, Weidenfeld & Nicolson.

MITCHEN, S.; HAGER, L. D. (EDIT) (1997): Women in Human Evolution. Oxford, Routledge.

MOLES, A. (1964); Méthodologie vers une science de l'action. Paris, Gauthier.

MOLES, A. (1967): Sociodinamique de la culture, París, Mouton.

MOLES, A. (1972): Théorie de l'information et perception esthétique. París, Renall.

MORGAN, C. L. (1903): Introduction to comparative psychology. Londres: Walter Scott

edición, revisada. (la edición, 1894).

NOBLE, W.; DAVIDSON, L (1997): Human Evolution, Language and Mind. Cambridge Mass., University Press.

NJOTTEROHN, F. (1975) Vocal Behavior in Birds. Avian Biology, vol.5. (pp287-332).

Academic Press.

OLLER, D. K. (2000): The Emergence of the Speech Capacity. Mahwah, New Jersey. Lawrence Erlbaum Associates, Inc., Publishers.

Lawrence Erlbaum Associates, Inc., Publishers.

PERRET-CLERMONT, A. (1984). La construcción de la inteligencia en la interacción social:

Madrid, Visor.

PERRINS, C. M.; BIRKHEAD, T. R. (1983): Avian Ecology. Blackie, Tertiary Level 3:

Series. Glasgow y Londres, Chapman y Hall.

PIAGET, J. (1929): The Child's Conception of the World. New York: Harcourt, Brace &

Versión en castellano: (1984). La representación del mundo en el niño. Madrid, McGraw-Hill.

PIAGET, J. (1950): introduction à l'épistémologie génétique 3 vol., Paris, PUF.

Vol. 1: Les structures de la pensée. Versión en castellano: (1975). Introducción a la epistemología genética. Buenos Aires, Paidós.

PIAGET, J. (1961): La formación del símbolo en el niño. México (D.F.), Fondo de Cultura

Económica.

PIAGET, J. (1967): Biologie et connaissance. Paris, Gallimard.

PIAGET, J. (1978): La equilibración de las estructuras cognitivas. Madrid, Siglo XXI.

PICKFORD, M.; SENUT, B.; GOMMERCY, D.; TREIL, J. (2002): Bipedalism in Orrorin

tugenensis revealed by its femora. Comptes Rendus: Palevol, vol. 1 (N° 1, p. 1-13).

POPPER, K. R. (1974): Conocimiento objetivo. Madrid, Tecnos.

ROUSSEAU, J. J. (1762): Du contrat social ou Principes du droit politique. Version en castellano: Contrato Social (1982). Madrid, Aguilar.

ROUSSEAU, j. j. (1755): Discours sur l'origine de l'inégalité parmi les hommes. Versión en castellano: (1970). Discurso sobre el origen y los fundamentos de la desigualdad entre los hombres. Barcelona, Península.

RUSSON, A. E.; BARD, K.A.; PARKER, S.I. (1996): Reaching into Thought: The Mind of the

CreatApes. Cambridge, Mass., Cambridge Univ. Press.

SCHELER. M. (1954). Der Formalismus in der Ethik und die materiale Wertethik in Gesam

melte Werke, edición de María Scheler. Berna, Francke. Versión en castellano: (1941).

Etica. Nuevo ensayo de fundamentación de un personalismo ético. II. Madrid, Revista

de Occidente.

SCHIEFELBUSCH, R. L; PICKAR, J., EDS. (1984): The Acquisition of Communicative Com

petence. Baltimore, University Park Press.

SEBEOK, T. A. (2000): Semiotics and the biological sciences: initial conditions. En T. A.

Sebeok, Semiotics as Bridge Between Humanities and Sciences. (pp. 76–100); En

Semiotics and Information Sciences. Editores: Paul Perron, Leonard G. Sbrocchi, Paul

Colillly Marcel Danesi. Ottawa, Legas Press.

SHANNON, C. E. (1949): The Mathematical Theory of Communication. Urbana, Illinois,

University Press. Versión en castellano (1981) Teoría matemática de la comunicación.

Madrid, Forja.

STRINGER, A. C. (2003): Human Evolution: Out of Ethiopia. Rev. Nature (N° 423, pag.

692– 695).

STRINGER, C. & ANDREWS, R (2005): The Complete World of Human Evolution. Londres,

Thames & Hudson.

SUZLJKI,R; RUCK, J. R.; TYACK, P. L. L (2006): Information en Entropy of humpback whale songs. The Journal of the Acoustical Society o America — (marzo 2006, Vol. 11 9– N°3;pp.1 849–1 866)

TANSLEY, G. (1 935): The use and abuse of vegetational concepts and terms. (Ecology N°

16; pp.284–307).

TATTERSALL, I. (2003): L'Emergence de i'Homme. Paris, Edit. Gallimard.

TATTERSALL, I.; SCHWARTZ, J. (2001): Ext/nc Humans. Westview Press.

TERRENCE, W. DEACON (1 997): The Simbolic Species: The Co–evolution of Language and the Brain. Nueva York, Londres, W. W. Norton & Co.

THAL, D.; TO BIAS, S. (1 992): Communicative gestures ivi children with delayed onset of oral expressive vocabulary. Journal of speech and hearing Research, (N° 35, p.1281–1289).

TINBERGEN, N. (1951): The Stuciyof Instincto Oxford, Clarendon Press.

TINBERGEN. N. (1972–1973): The Animal in its World. Londres, Allen & Unwin; Harvard

Universlty Press.

TOMASELLO M.; CALL J. (1997): Primate cognition. New York, Oxford University Press.

UEXKÜLLJ. VON. (1928): Theoretische Biologie. Berlin, Julius Springer.

VICO, G. (1725): Principi di una Scienza Nuova intorno alla natura delle nazioni, per la

quail si i-truovano i principi di altro sistema del diritto naturale delle genii.

Versión en castellano (1956): Principios de una ciencia nueva sobre la naturaleza de los naciones. Buenos Aires, Aguilar.

VIVIANI,VR. (2006): Luciferasas: las encimas de la luz. Revista Ciencia hoy en línea.

(Vol. 15 N°90, diciembre. 2005) Disponible en enero 2006, en: www.ciencia-hoy.retina.ar/hoy90/luciferasas.htm+celenterados&HL=es.

WALLON, H. (1970): De l'acte a la pensée. Paris Flammarion. Versión en castellano

(1974): Del acto al pensamiento. Madrid, Psique.

WATZLAWICK, P.et alt. (1964): An Anthology of Human Communication. Palo Alto, Science

Behavior Books.

WIENER, N. (1948): Cybernetics or Control and Communication in the Animal and the

Machine. Cambridge, Mass., MIT Press. Versión en castellano (1961): Cibernética.

Madrid, Guadiana.

WIENER, N. (1949): The human use of human beings. Cambridge, Mass., The University

Press.

WIENER, N. (1968): Cibernética. En: Carnap, R., Morgenstern, D., Wiener, N. y Otros. Ma

temáticas en las Ciencias del Comportamiento. Madrid, Alianza Edit.

WILSON, E. O. (1971): The Insect's Societies. Cambridge, Mass., Harvard University Press.

WIND, J.; JONKER, A; ALLOTT R.; ROLFEM, L. (1994): Studies in Language Origins. Am

sterdam John Benjamins.

WITTGENSTEIN, L. (1921): Tractatus logico-philosophicus. En alemán "Annalen der Natur-philosophie" (Vol. XIV, 3-4, pp. 185-262) -Versión en castellano: (1995). Madrid, Alianza Edit.

WUNDT, W. (1874): Grundzüge der physiologischen psychologie. Leipzig, von wilhelm

engelmanri verlag.

XIAO, S. B.; SHEN, C.; ZHOU, G.; XIE.; X. YUAN (2005): Ediacaran fossil with direct evidence for a quilted bodyplan. EE.UU, National Academy of Sciences, (102: 10227-10232).